



الشَّاب

بين العقل والعاطفة

تأليف الشيخ
محمد تقي فلسفي

تعريب

السيد نور الدين ميرزادة

مؤسّسة الأعمى للطبوعات



الشاب
بين العقل والعاطفة

الشَّابُّ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْعَاطِفَةِ

تأليف
الشيخ محمد تقي فلسفي

تعريب
السيد نور الدين ميرزاده

المجلد الأول

منشورات
مؤسسة الأعلی للطبوعات
بيروت - لبنان
ص. ب. : ٧١٢٠

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

هذه هي مجموعة من المحاضرات التي ألقاها
فضيلة العلامة الخطيب البارع الشيخ محمد تقي الفلسفي
في بعض المجالس العامة بطهران

المحاضرة الاولى

حول قيمة الشباب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (١) .

تمهيد : مراحل الحياة :

إن حياة الإنسان وما يتخللها من تقلبات ومنعطفات ، تتلخص في ثلاث مراحل ، هي : الطفولة والشباب والشيخوخة .

وتعتبر مرحلة الشباب بمثابة مركز القوة والنشاط في حياة الإنسان ، وهذا المركز يحيط به ضعف أيام الطفولة من جهة وعجز أيام الشيخوخة من جهة أخرى .

والإنسان وهو يطوي مراحل الحياة بكل تضاريسها أشبه ما يكون بمتسلق الجبال الذي يقضي يوماً كاملاً صعوداً إلى قمة الجبل ، ويقضي يوماً آخر نزولاً

(١) سورة الروم ؛ الآية : ٥٤ .

إلى سفح الجبل . فكلما خطا خطوة صعوداً كلما بدأت رؤيته تتسع ، والأماكن الجميلة تنضح أمامه . وعندما يبلغ قمة الجبل يصبح مشرفاً إشرافاً كاملاً على كل من حوله وما حوله ، وتصيح أعلى المناظر وأبعدها في مدى نظريه .

على عكس وقت النزول ، كلما خطا خطوة نزولاً كلما أخذت رؤيته تنحسر وتضيق ، والأماكن الجميلة تغير تدريجياً حتى تختفي كلياً عن نظريه .

أيام الشباب :

إن أيام الشباب تعني بلوغ أعلى القمم وشروع أجمل مراحل العمر . والشاب في هذه المرحلة يرى الأشياء جميلة والأفق واسعاً مليئاً بكل ما يستهويه ويرتضيه ، ويصبح غارقاً بالأمال والأمنيات ، وقلبه طافحاً بالحب والأمل . وقبل مرحلة الشباب يبدأ الطفل بشق طريقه باتجاه القوة والنشاط ، وكلما مضى عليه عام ازداد قوة حتى يبلغ قمة الشباب ويصبح في أوج قوته ونشاطه . على عكس مرحلة ما بعد الشباب ، حيث يبدأ الإنسان مسيرته نحو العجز والعدم ، وكلما مضى عليه عام دات أضعف من ذي قبل ، ويتتابع ضعفه حتى يبلغ الشيخوخة ويصل إلى أعلى درجات العجز : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾^(١) .

إن مراحل الطفولة والشباب والشيخوخة في برنامج الحياة الطبيعية للإنسان ، تدخل في إطار قانون التكوين وسنة الله تبارك وتعالى في نظام الخلق . ويبيّن القرآن الكريم هذه المراحل الثلاث في آية شريفة واحدة ، يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْضٍ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْضٍ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾^(٢) .

(١) سورة يس : الآية : ٦٨ .

(٢) سورة الروم : الآية : ٥٤ .

نور الحياة :

تشكل أيام الشباب مشعلاً وضاءً وسراجاً منيراً في عمر الإنسان ، إنها عهد السرور والفرح ، عهد القوة والعنفوان ، عهد النشاط والأمل ، عهد الجد والعمل و عهد الحركة الدؤوبة والحماس .

القوى الشابة :

إن القوى البشرية لكل بلد من بلدان العالم تعتبر جزءاً مهماً من الثروة القومية لذلك البلد ، ويشكل جيل الشباب أساس القوى البشرية لكل بلد ، فالقوى الشابة هي التي بمقدورها أن تتجاوز مشاكل الحياة وصعابها وأن تتجاز أصعب الطرق والمساك بسهولة . فالمزارع والحقول الخضراء لم تزدهر إلاً بسعي ومثابرة القوى الشابة ، وعجلة الصناعات الثقيلة لم يدرها غير القوى الشابة ، والثروات المعدنية لم تستخرج من أعماق مناجمها دون جهود القوى الشابة ، القصور الفخمة وناطحات السحاب العظيمة في العالم تعكس إرادة القوى الشابة التي لا تعرف الكلل ولا الملل ، حركة العمران والازدهار لم تكن لتستمر دون جهود القوى الشابة ومثابرتها ، دوران العجلة الاقتصادية في العالم يعتمد أساساً على القوى الشابة ، الذود عن حدود الأوطان والحفاظ على أمنها واستقلالها مسؤولية تقع على عاتق القوى الشابة ، وخلاصة القول : إن آثار جهود القوى الشابة ومثابرتها تتجلى بوضوح في جميع مرافق الحياة ، وهذه القوى وما تناز به من نشاط وحيوية تشكل أملاً حقيقياً لشعوب العالم بمستقبل زاهر .

بدأ الحياة الاجتماعية :

مع بداية عهد الشباب تطوى صفحة الطفولة والتطفل ، ويدخل الإنسان مرحلة يتحسس فيها شيئاً من المسؤولية ويتحمل أعباء بعضها . إن البلوغ والشباب وهما شرارة بدء الحياة الاجتماعية لدى الإنسان كانا وما زالوا يستأثران باهتمام خاص من لدن الأسر على اختلاف قومياتها وجنسياتها ، فهي تعتبر

البلوغ تطوراً مهماً وثورة عظيمة في حياة الإنسان ، حتى ان بعض الشعوب السالفة كان يقيم مراسم وطقوساً خاصة معلناً البلوغ .

العادات الوحشية :

«إن بداية الحياة الاجتماعية شكلت مسألة مهمة حُملت محمل الجد على مرّ العصور وكانت غالباً ما ترافقها مراسم وطقوس . فالشعوب البدوية مثلاً كانت تقيم احتفالات دينية معلنة بدء مرحلة المسؤولية عند الإنسان بدليل أن الشاب، بالإضافة إلى كونه بات يستطيع المشاركة في عملية التكاثر ، فإنه قادر على تخطي حدود الأسرة ليكون عنصراً فاعلاً داخل قبيلته» .

«الأعمال الشاذة والعادات الوحشية - التي نقلها (لوي بروهيل) إلى الفرنسيين في دراسات وتحليلات أجراها بهذا الشأن - كانت تجرى - كما يقول - بهدف ترسيخ العادات والمعتقدات العشائرية في ذهن الشاب ، وكذلك تدريب الشاب وإعداده لتحمل أعباء الحرب مثلاً ، كان عليه أن يتحمل قلع ضرس أو ضرب وشم - دقّ خال - دون أن ترسم على وجهه علامات الألم . أما الفتاة الشابة فكانت تُرغم على القيام بواجباتها الاجتماعية الجنسية ، وعلى سبيل المثال كان عليها أن تمضي أياماً معدودة صامته منزوية أو صائمة في الحمامات لتفكر بواجباتها المستقبلية كأم وزوجة» .

«وفي العهود الغابرة كانت هناك مراسم خاصة بكل عهد تواكب مرحلة البلوغ . ففي أثينا كانت مثل هذه المراسم تجرى في سن الـ ١٨ ، أما في روما فكانت تجرى عندما كان الفرد يخلع عنه ثوب الطفولة ليرتدي ثوب الكبار ، وكذلك الأمر بالنسبة للعهود الملكية ، حيث كان يتوجب على أولاد النبلاء الذين كانوا في خدمة الأمراء حمل الدروع والخروج إلى الحرب إلى جانب

أسيادهم من سن الـ ١٤»^(١) .

بالرغم من أن كل الشعوب كانت في الماضي تهتم بمسألة الشباب ، وتدرك قيمة الشباب ومزنته إلى حد ما ، وتلحظ باهتمام التطورات الهامة التي كانت تطرأ على الشباب لدى بلوغهم ، وتعتبر القوى الشاببة ثروة إنسانية عظيمة ، بالرغم من كل ذلك جاء التقدم والازدهار في مجالات علم البيئة وعلم النفس وعلم الفلك ، وكذلك التطورات المتسارعة التي شهدتها القرن الأخير بسبب مكننة الحياة وتطور العلوم الطبيعية داخل الحياة الاجتماعية للبشر ، ليضعف من أهمية جيل الشباب أكثر من أي وقت مضى ويدفع بالعلماء والمفكرين إلى إجراء مزيد من الدراسات حول هذا الموضوع .

وفي عالمنا اليوم ، يستأثر الشباب باهتمام خاص وكبير ، وها هم اليوم يشاركون مشاركة فعالة في شتى المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والصناعية والأخلاقية ويؤدون أدواراً مهمة في كل من هذه المجالات .

«إن الحركات التي قادها الشباب مع مطلع القرن العشرين وأدت إلى تشكيل مخيمات للشباب في المانيا ومخيمات كشفية في إنجلترا ، قد لفتت أنظار الرأي العام إلى الحياة الاجتماعية للشباب ، وأبرزت وسائل التربية والتعليم التي كان لها الفضل في قيام هذه الحركات . ورواد هذه الحركات الذين لم يدرسوا أفكار الشباب دراسة جذرية اعتمدوا على تكهناتهم بشأن الشباب ، وجاءت هذه التكهنات المقرونة بالوقائع مؤثرة جداً في تقدم الاكتشافات المتعلقة بعالم البلوغ» .

«بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ التي قلبت الأوضاع رأساً على عقب في بلدان عديدة مثل المانيا وإيطاليا وروسيا ،

(١) چه ميدانم ؟ بلوغ ، صفحة ٧٤ .

بذل جيل الشباب جهوداً حثيثة لإقامة أنظمة جديدة وإحراز ما كانت قد وصلت إليه بلدانهم قبل الحرب من تطور ، وأخذ قادة تلك الأنظمة يعتمدون على أفكار الشباب وأخلاقياتهم لتحقيق هذا الهدف»^(١) .

«رغم أن مسألة الشباب هي مسألة دائمة ومرتبطة بكل الأزمنة والعهود، إلا أنها اليوم مع ما آلت إليه الأوضاع في العالم من أخطار، تشكّل موضوع الساعة . لقد بقيت جزئيات مرحلة البلوغ مجهولة لدى الجميع مُدداً طويلة ، على عكس يومنا هذا ، فكما أن اكتشاف قارة جديدة يستأثر باهتمام عدد كبير من الناس كذلك مسألة البلوغ فإنها تحظى باهتمام كبير» .

«الناسة يعتمدون على الشباب ، والرواة والقصصيون يختارون شخصياتهم من بين الشباب ، والصحفيون يشيدون بالشباب حتى التملق ، وخلاصة القول : كل ذلك ساهم بإيجاد هالة من الغموض حول الشباب»^(٢) .

الاسلام وجيل الشباب :

إن الدين الإسلامي الحنيف قد اهتم وعلى مدى أربعة عشر قرناً من الزمان بجيل الشباب ، وراعى جميع جوانبهم المادية والمعنوية ، النفسية والتربوية ، الأخلاقية والاجتماعية الدنيوية والأخروية وغيرها من الجوانب .

النعمة المجهولة :

لقد وصف أنبياء الله وأوليائه عليهم السلام الشباب بأنه من جزيل نعم الله سبحانه وتعالى ، وأنه ثروة عظيمة في حياة الإنسان وسعادته ، وقد أوضح

(١) چه ميدانم ؟ بلوغ ، صفحة ١٨ .

(٢) چه ميدانم ؟ بلوغ ، صفحة ٢٠ .

الإسلام للمسلمين أهمية الشباب في الكثير من الأحاديث والروايات : «قال علي عليه السلام : شَيْئَانِ لَا يَعْرِفُ فَضْلَهُمَا إِلَّا مَنْ فَقَدَهُمَا : الشَّبَابُ وَالْعَاقِبَةُ» (١) .
 في هذا الحديث يصف الإمام علي عليه السلام الشباب بأنه من أكبر النعم الإلهية ، وعبر عن هذه النعمة بالصحة والعافية ، واعتبرها نعمة مجهولة حيث يقول : لا يعرف فضلها إلا من فقدهما . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ الْعَبْدَ لَا تَزُولُ قَدَمَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ» (٢) .

وُستشف من هذا الحديث الشريف مدى اهتمام الإسلام بالشباب وقيمة هذه المرحلة بالنسبة للإنسان ، فالباري سبحانه وتعالى يولي لهذه الثروة أهمية بالغة حيث يسأل صاحبها يوم القيامة كيف أفناها وفيما أبلاها . ومع أن عهد الشباب يُعتبر جزءاً من مجموع عمر الإنسان إلا أنه الأكثر أهمية والأعظم قيمة ، لذلك ترى كل إنسان مسؤولاً عن شبابه .

الوصايا الأربع :

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام : كَانَ فِيمَا وَعَظَ بِهِ لُقْمَانَ ابْنَهُ : يَا بُنَيَّ وَاعْلَمْ أَنَّكَ سَتَسْأَلُ غَدًا إِذَا وَقَفْتَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ أَرْبَعٍ : شَبَابِكَ فِيمَا أَبْلَيْتَهُ وَعُمْرِكَ فِيمَا أَفْنَيْتَهُ وَمَالِكَ مِمَّا اكْتَسَبْتَهُ وَفِيَا أَنْفَقْتَهُ (٣) .

الشباب والعصر الحالي :

إن مسألة الشباب باتت في عصرنا الحالي حديث الساعة لدى كافة شعوب العالم لما لها من أهمية بالغة ، وأخذ الحديث عن جيل الشباب يطغى على كل حديث ، حيث أجرى كبار العلماء والمفكرين دراسات وبحوثاً مسهبة حول هذه المسألة المهمة من جميع جوانبها العلمية ، كما أن كبار المؤلفين والخطباء

(١) غرر الحكم ، صفحة ٤٤٩ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ، صفحة ٥٩ .

(٣) الكافي ج ٢ ، الصفحة ١٣٥ .

خطوا كتباً وألقوا كلمات بهذا الخصوص ، وخلاصة القول: إن هذه المسألة المهمة باتت تحظى باهتمام العالم ، وهذا الاهتمام آخذ بالازدياد يوماً بعد يوم .

وفي هذه الأثناء هناك من يُفرض في تقييمه للشباب ويعطيهم حجماً أكبر من الحجم الطبيعي الذي يستحقونه ، وهناك في المقابل من يحطّ من قيمتهم ومكانتهم لعدم نضجهم وقلة تجاربهم العلمية والعملية ، وهناك أيضاً من يتوسط هذين الجانبين ، أي أنه معتدل في تقييمه للشباب .

محاسن ومساوئ الشباب :

«يقول موريس دبس : قبل الحرب العالمية الثانية كنت أَدافع عن المبدأ القائل بأن الشباب ثروة عظيمة للإنسان ، ونحن علينا أن نستغل هذه المرحلة لكسب ما هو مفيد وهادف ، وجاءت الأحداث فيما بعد لتزيدني إيماناً بهذا المبدأ وتمسكاً به ، ولكن يجب الالتفات إلى أن الشباب ليس في تقييمه على أنه ثروة عظيمة فحسب ، فهناك اليوم من يذهب في ثائمه على حماس الشباب واندفاعهم إلى حدّ المغالاة ، وهو يتصور أن الشباب قد بلغوا بهذا الحماس والاندفاع الكمال ، بينما الكمال المطلوب هو في أننا نستطيع أن ندير هذه القوة ونستفيد منها استفادة كاملة» .

«إن هذا المبدأ هو بحدّ ذاته انحراف طبيعي وخطير ، طبيعي لأن كل من يطالع شؤون الشباب يتوصل إلى نتيجة واحدة وهي أن مرحلة الشباب وما تتسم به من عنفوان هي من أفضل مراحل الحياة وأن الخصال التي يمتاز بها الشاب في هذه المرحلة هي قريبة من الكمال أو هي الكمال بعينه ، وخطير إذا ما نظرنا إلى محاسن هذه المرحلة وتغافلنا عن مساوئها ، لأن رغبة الشاب واتجاهه نحو الشؤون المطلقة ليسا بالشأن المطلق بحدّ ذاتهما ، وناهيك عن ذلك إذا أردنا أن نفرط في تقييمنا لأعمال الشباب ونصفها

بالمعجزة نكون قد ساهمنا في خلق روح التكبر والغرور والوقاحة في نفوسهم ، لذا ينبغي علينا أن لا نخلط بين القدرة على العمل وبين العمل نفسه» .

«ولا ننسى أن الشباب هو قيمة من قيم الحياة، ويجب أن تكون هذه القيمة كغيرها من القيم يُراعى فيها سلم المراتب وتكون مطيعة وتابعة لغيرها من القيم الأعلى منها شأنًا. إن الشجاعة لا تعتبر تقوى إلا في حالة الدفاع عن قيمة أعلى منها شأنًا كالدفاع ضد خطر يهدد الحياة ، وإلا فإن الشجاعة تفقد معناها الحقيقي . لذا فإن البلوغ ليس سوى بلوغ علم الحياة وبلوغ علم النفس ، وهذا يُشكّل حلقة صغيرة في سلسلة حلقات الحياة ليس إلا ، فالقيمة لا تحصل إلا بتخطي هذه المرحلة» .

«صحيح أن الشباب يمضي بسرعة والعيون التي كانت تحرص على النظر إلى ما هو جميل يزعجها ويؤلمها النظر إلى الورود وهي تذبل ، والسبب هو أنهم يتجاهلون الحكمة من خلق الورود» .

«إن نسيان أو إنكار قيمة البلوغ يؤدي إلى الزوال ، كما أن التأسف والتحسّر على هذه المرحلة دليل ضعف ، وعبادتها وتعظيمها خطأ كبير . فما يجب عمله هو الاستفادة من هذه المرحلة كقوة دافعة ومثال حي وبرنامج عملي على أحسن وجه»^(١) .

معرفة القيمة الحقيقية :

إن القيمة الحقيقية للشباب والاهتمام بمحاسنه ومساوئه ، هما شرطان أساسيان لسعادة الشبان ، والطريق السليم لاستغلال قدرتهم الفاعلة . إن على المرّبين في المجتمعات أن يعملوا بحكمة على الاهتمام بكمال الشباب

(١) چه ميدانم ؟ البلوغ ، الصفحة ١٢٨ .

واستغلال طاقاتهم على أحسن وجه بما فيه منفعة للشعوب والبلدان ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية عليهم أن يصبوا اهتمامهم على رفع النقص الطبيعي الذي يواكب عهد الشباب وأن يأخذوا بيد الشباب نحو الرقي والكمال عبر إرشاداتهم السليمة وطرح برامج حكيمة ترمي إلى كبح عواطفهم وميولهم والقضاء على روح التمرد والطغيان في نفوسهم .

إن موضوع احترام جيل الشباب واستغلال طاقاتهم العظيمة يحظى باهتمام كبير في البلدان المتقدمة ، وذلك بهدف تسريع عجلات البلاد في شتى المجالات تحقيقاً لرقيتها وتقدمها ، فالجزء الأعظم من المسؤوليات والمناصب الحساسة والمهمة توكل إلى الشباب الأكفاء استغلالاً لطاقاتهم الجبارة في خدمة شعوبهم وأوطانهم . ولكي لا نقع في خطأ ونحن نُشخص المكانة الحقيقية للشباب ، ولكي نكون بعيدين كل البعد عن الإفراط والتفريط في إصدار أي حكم بشأن الشباب ، وحتى نحكم بتدبر وتعقل على القيمة الحقيقية للشباب ولا ننحرف عن الطريق السوي ، ولكي لا نكون عاملاً في تضليل الشباب بأنفسهم من جهة وتضليل الناس حول مسألة الشباب من جهة أخرى ، من أجل كل ذلك علينا أن نتخذ من التعاليم والأوامر الإلهية معياراً لأحكامنا وأن نستلهم من الإرشادات الحكيمة لكبار قادة الإسلام .

الاستفادة من قوة الشباب :

إن موضوع الاستفادة من قوة الشباب الأكفاء يندرج ضمن أهم الأعمال التي يحتاجها كل بلد ، والذي أخذ اليوم يستأثر باهتمام البلدان المتقدمة هو موضوع أكدت التعاليم الإلهية السامية أهميته .

دعم وتأييد الرسول الاكرم (ص) للشباب :

كان الرسول الأكرم ﷺ يولي قبل أربعة عشر قرناً هذه المسألة الاجتماعية المهمة اهتماماً خاصاً وكان يعتمد في أكثر الأعمال حساسية في دولته الصغيرة الفتية على عنصر الشباب .

وقد أناط صبِ صبِ العديده من المسؤوليات المهمة في تلك الحقبة بشبان أكفاء وكان يعلن صراحة عن تأييده ودعمه لهم قولاً وعملاً ، ومثل هذه الخطوة لم يكن من السهل تحقيقها بسبب نفسي الجهل والتعصب في نفوس الناس آنذاك ، إذ لم يكن الطاعنون في السن مستعدين لإطاعة أوامر الشباب وتسليم أمورهم لمن هو أصغر منهم سناً . ولهذا عندما كان الرسول الأكرم صبِ يختار شاباً ويوكل إليه منصباً ما كان الشيوخ والكهول يتألمون وينزعجون ويعتبون على النبي الأكرم صبِ الذي كان يزداد تمسكاً بسياسته ومقاومة لكل الأفكار غير السليمة والتعصب الأعمى ، وذلك بهدف تركيز دعائم هذه السياسة ، وكان صبِ بكلماته وخطبه وإرشاداته الحكيمة يقنع أولئك أو على الأقل يرغمهم على السكوت . إن النبي الأكرم صبِ عندما كان يعتلي المنبر كان يدافع علانية عن الأكفاء من الشباب الذين كان يوكل إليهم مناصب ومسؤوليات مهمة . ولكي نتعرف أكثر على موقف الرسول الأكرم صبِ من الشباب نذكر على سبيل المثال ثلاث قصص :

الأولى - كان مصعب بن عمير أحد أصحاب النبي الأكرم صبِ من الشباب قبل الهجرة ، وكان مصعب جميلاً ونبيلاً وهماً وسخيّاً ، وكان عزيزاً عند أبويه ، وكان أهل مكة يكتون له الاحترام والتقدير ، كان يرتدي من الثياب أجملها وكان يعيش في نعيم وورغد ، كان يعشق خطب الرسول الأكرم صبِ وكلماته وينشد إليها بكل حواسه ، وقد أدت لقاءاته المتكررة بالنبي الأكرم صبِ وسماعه لآيات من القرآن الكريم إلى اعتناقه الإسلام . وكانت مسألة الاقتداء بالرسول الأكرم صبِ واعتناق الإسلام في تلك الأوضاع الخطيرة التي كانت تسود مكة وبين قوم يعبدون الأصنام ويغرقون في جهلهم - وضلالهم - تعتبر ذنباً كبيراً يعاقب عليه . وكان من يؤمن بالنبي الأكرم صبِ ورسالته ودعوته لا يجرؤ على الجهر بإيمانه حتى أمام أهله وأقاربه . ومن هذا المنطلق لم يفش مصعب أمر اعتناقه الإسلام لأحد وكان يؤدي فرائضه الدينية في الخفاء .

وذاث يوم وبينما كان مصعب يصلي رآه عثمان بن طلحة فأيقن بإسلامه، ونقل الخبر إلى أم مصعب، ولم يمض وقت طويل حتى انتشر الخبر بين الناس، وأخذ الجميع يتحدثون عن اعتناق مصعب الإسلام، وقد أثار هذا الأمر غضب أم مصعب وأقاربه مما دفعهم إلى حبسه في المنزل عسى أن يعدل عن رأيه ويهجر الإسلام ويترك صحبة محمد ﷺ. لكن هذا العقاب لم يترك أدنى أثر في نفس مصعب ولم يستطع أن يثنيه عن مواصلة الدرب الذي اختاره لنفسه، لأن مصعباً الشاب قد اختار الإسلام على أساس من العقل والمنطق واعتنقه وهو في كامل وعيه، فكيف يمكن أن يغير عقيدته ويخسر سعادة بلغها بسبب أيام معدودة قضاها مسجوناً؟ .

لقد بقي مصعب متمسكاً بإسلامه مقتدياً بالرسول الأكرم ﷺ وبنهجه حتى آخر عمره. «وَشَهِدَ مُصْعَبٌ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَشَهِدَ أُحُدًا وَمَعَهُ لِيَوْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقُتِلَ بِأُحُدٍ شَهِيدًا»^(١).

لقد ثابر النبي الأكرم ﷺ على نشر دعوته في الخفاء مدة من الزمن، وبعد أن اعتنق عدد كبير من الناس الإسلام ولتوا دعوة الرسول ﷺ، أشهر دعوته إلى الإسلام بأمر من الله سبحانه وتعالى، ومن حينها بدأ بتلاوة القرآن بين أوساط الناس في مكة وأخذ ينشر دعوته بينهم. وكان المسافرون الوافدون على مدار السنة إلى مكة من الخارج للعبادة والزيارة يشارك غالبيتهم في المجالس العامة التي كان يقيمها الرسول الأكرم ﷺ ويستمعون إلى خطبه ومواعظه، وبعد عودتهم إلى ديارهم كان كل منهم يروي لأهله وأقاربه ما شاهدته من رسول الله ﷺ وسمعه منه، وأخذت دعوة الرسول الأكرم ﷺ تنتشر تدريجياً في كافة مناطق الجزيرة العربية لا سيما في المدينة المنورة، وبدأ الناس يتعرفون على الإسلام وعلى منهجية هذا الدين السماوي المقدس.

(١) أسد الغابة ج ٤، ص ٣٦٩.

وكانت النتيجة أن أزداد عدد المؤيدين للإسلام حتى ان بعضهم قد انشد إلى دعوة الرسول الأكرم ﷺ قبل أن يراه .

وذات يوم قدم إلى مكة رجلا من أشرف المدينة من قبيلة الخزرج هما أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس ودخلا على الرسول الأكرم ﷺ في ظروف صعبة للغاية ، وبعد استماعهما لحديث الرسول ﷺ أعلنوا إسلامهما صراحة «ثُمَّ قَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا يُعَلِّمُنَا الْقُرْآنَ وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى أَمْرِكَ» .

وكانت المدينة يومها من أهم مدن جزيرة العرب ، وكانت تقطنها قبيلتان معروفتان هما الأوس والخزرج ، وكانت هاتان القبيلتان وللأسف تكتان العداء لبعضهما البعض وتخوضان معارك ضد بعضهما البعض استمرت سنين طويلة .

وقد كان هذا الطلب فرصة مناسبة ومهمة للرسول الأكرم ﷺ والمسلمين الذين كانوا يعيشون ظروفاً صعبة ، وكان الرسول الأكرم ﷺ وأنصاره وموالوه يدركون جيداً أنهم إذا استغلوا هذه الفرصة بشكل جيد ، وإذا استطاع مبعوث الرسول ﷺ تعريف الإسلام إلى أهل المدينة بطريقة صحيحة وحكيمة وجعلهم يعتنقونه ويؤمنون بما جاء به القرآن الكريم ، فإن نجاحاً عظيماً ومكسباً مهماً سيكون من نصيب المسلمين الذين ستكون المدينة بالنسبة إليهم قاعدة مهمة ينطلقون منها لنشر دعوتهم وجهادهم ضد المشركين الذين كانوا يحكمون مكة بالظلم والاستبداد والكبت والضغط ، وسيكون بإمكان المسلمين التعاون مع أهل المدينة في نشر المعارف الإسلامية وزلزلة كيان الشرك والظلم في مكة .

وكانت المرة الأولى التي يطلب فيها أهل مدينة كبيرة يسودهم الخلاف من النبي الأكرم ﷺ إرسال مبعوث لهم ، وكانت المرة الأولى التي يقرر فيها رسول الله ﷺ إرسال مبعوث خارج مكة . ومما لا شك فيه أن الذي يتم اختياره لهذه المهمة الخطيرة ينبغي أن يكون كفوؤاً من جميع الجهات وأهلاً

لهذه المهمة حتى يستطيع تسوية الخلافات المزمنة بين قبيلتي الأوس والخزرج ونشر جوّ من المحبة والأخوة بين أفرادها من جهة ، ويعمل من جهة ثانية على نشر الإسلام والتبليغ له بشكل صحيح يترك أثره في القلوب ويشدّ إليه الألباب .

وقد اختار النبي الأكرم ﷺ الشاب مصعب بن عمير من بين كافة المسلمين شيوخاً وشباناً ومن بين جميع أصحابه وأنصاره ، مبعوثاً له إلى المدينة لأداء هذا الأمر المهم . «فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ وَكَانَ قَتِيٌّ حَدَثًا... وَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ بِالْخُرُوجِ مَعَ أَسْعَدٍ، وَقَدْ كَانَ تَعَلَّمَ مِنَ الْقُرْآنِ كَثِيرًا»^(١) .

وقد دخل مصعب المدينة وهو في عنفوان شبابه وقلبه مفعم بالإيمان وبدأ مهامه بشوق وخلوص نية . وكان لبراعته في الخطابة وحرارة تلاوته القرآن وحسن أخلاقه في معايشرة الناس وتدبره العقلاني في حلّ المشاكل وإزالة الخلافات ، الأثر البالغ في نفوس الناس الذين أنشدوا إليه وإلى ملكاته الحسنة من حيث لا يشعرون . ولم يمض وقت طويل حتى توجه إليه الناس نساءً ورجالاً ، شيوخاً وشباناً ، رؤساء عشائر وأفراد عاديين ليعلموا اعتناقهم الإسلام ويتعلّموا القرآن مطهرين قلوبهم من الأحقاد والأضغان ، متألّفين متآخين ، وأقاموا صلاة الجماعة في صفوف مترابطة .

لقد نفذ مصعب بن عمير الشاب مهمته في المدينة على أفضل وجه ونال فخراً عظيماً . «إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ جَمَعَ الْجُمُعَةَ بِالْمَدِينَةِ وَأَسْلَمَ عَلَى يَدِهِ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَسَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ وَكَفَى بِذَلِكَ فَخْرًا وَأَثْرًا فِي الْإِسْلَامِ»^(٢) .

الشبان الأكفاء :

لقد كان الرسول الأكرم ﷺ يعلم جيداً أن هناك في المدينة رجالاً مسنين وشخصيات لها مكانتها من الصعب جداً أن يمثلوا لأوامر شاب بعمر

(١) بحار الأنوار ج ٦ ، ص ٤٠٥ .

(٢) أسد الغابة ج ٤ ، ص ٣٦٩ .

مصعب ، وكان بمقدور النبي الأكرم ﷺ أن يختار من بين أصحابه أكبرهم سناً ليكون مبعوثاً له إلى المدينة ، أو أن يختار عدداً من الرجال ليشكّلوا بعثة تتولّى هذه المسؤولية ، ولكن الرسول الأكرم ﷺ لم يختار سوى مصعب بن عمير الشاب لتحمله هذه المسؤولية وإيفاده إلى المدينة التي كان الرسول الأكرم ﷺ وقتها يعتبرها بلداً غريباً ، ليثبت لأنصاره ومواليه أن الشرط الأساسي الذي يخوّل المرء لتسلّم أهم المناصب والمسؤوليات في الإسلام هو اللياقة والكفاءة وليس سنوات العمر ، فإذا وجد بين جيل الشباب لبلد ما من هم أكفاء يجب الاعتماد عليهم وتسليمهم زمام الأمور لإدارة البلاد .

الثانية : كانت مدينة مكة المكرمة مركز جزيرة العرب وكانت تستأثر باحترام واهتمام كافة القبائل والعشائر العربية ، وكانت لمكة منزلة خاصة عند الرسول الأكرم ﷺ الذي ولد فيها وبلغ النبوة فيها ، ولكن ضغوط المشركين وتصرفاتهم جعلت العيش في مكة بالنسبة للنبي الأكرم ﷺ وأصحابه غير قابل للتحمل ، مما اضطرّه إلى مغادرة أرض عشقها مهاجراً إلى المدينة .

وكان مصعب بن عمير قد مهّد الأرضية من قبل لدخول النبي الأكرم ﷺ إلى المدينة التي كان أهلها على استعداد تام لاستقبال نبي الله ﷺ وأنصاره .

ووصل رسول الله ﷺ المدينة ، ولحقت به جموع من المسلمين في مكة ، وبدأ الإسلام يتنامى ويقوى تدريجياً في المدينة ، وشكّل المسلمون في مكة والمدينة مجموعتين سمّيتا بالمهاجرين والأنصار ، وواصلت هاتان المجموعتان العمل تحت لواء رسول الله ﷺ لبسط الإسلام ونصرة المسلمين في جوار تسوده الألفة والأخوة والمحبة .

فتح مكة :

لقد كانت قلوب المسلمين يومذاك تهفو لتحقيق أمل كبير ، ألا وهو فتح مكة وتخليص الكعبة الشريفة من يد المشركين وتطهيرها من دنس الأصنام ، إذ

انهم كانوا يعلمون أن فتح مكة وهي مركز جزيرة العرب (الحجاز) هو السبيل لاتساع رقعة انتشار الإسلام وتطبيق الأحكام الإلهية التي حملها رسول الله ﷺ إلى البشر .

وفعلاً تحقق هذا الأمل الكبير بمشيئة الله ، حيث باغت رسول الله ﷺ ومن كان معه ، المشركين ، ودخلوا مكة بإيمانهم دون الحاجة لسفك دماء ، وحطّموا الأصنام وأزالوا وصمة العار وطهروا بيت الله الحرام من الشرك والمشركين ورفعوا من فوق الكعبة نداء : الله أكبر لِيُدَوِّيَ في شتى أرجاء المدينة . ولم يمض وقت طويل على فتح مكة حين اندلعت معركة حُنين ، وكان لا بد للرسول الأكرم ﷺ ورجاله أن يتركوا مكة قاصدين جبهة القتال ، ولم يكن من الممكن أن تترك مكة دون والٍ كفوء ومتدبر يتكفل بتنظيم أمر هذه المدينة التي تحررت تَوَّأً من المشركين ، ويعتني بشؤون الرعية ويتربص بالمرصاد لكل مؤامرة قديدتها العدو .

قائد شاب :

لقد احتار الرسول الأكرم ﷺ من بين المسلمين شاباً في الحادية والعشرين من العمر يدعى عتاب بن أسيد ليشغل هذا المنصب الهام ويكون والياً على مكة - «وَوَلَّى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عِتَابَ بْنَ أُسَيْدٍ وَعُمَرَهُ إِحْدَى وَعِشْرُونَ سَنَةً أَمْرَ مَكَّةَ ، وَأَمْرَهُ ﷺ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ وَهُوَ أَوْلُ أَمِيرٍ صَلَّى بِمَكَّةَ بَعْدَ الْفَتْحِ جَمَاعَةً» (١) .

«وَقَالَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : يَا عِتَابُ تَدْرِي عَلَيَّ مِنْ أَسْتَعْمَلْتُكَ ؟ أَسْتَعْمَلْتُكَ عَلَيَّ أَهْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلَوْ أَعْلَمْتُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْكَ أَسْتَعْمَلْتُهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ عُمَرُهُ لَمَّا أَسْتَعْمَلْتُهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَيْفًا وَعِشْرِينَ سَنَةً» (٢) .

وقد واجه اختيار عتاب بن اسيد لإشغال هذا المنصب الهام موجة احتجاج عارمة من قبل كبار رجال العرب ونبلاء مكة الذين أخذوا يشيعون في أوساطهم

(١) السيرة العمليية ج ٣ ، ص ١٢٠

(٢) أسد الغابة ج ٣ ، ص ٣٥٨

أن رسول الله ﷺ لا يحب أن يجعل لهم قيمة ومنزلة ولهذا عين شاباً لم يكتمل نضوجه والياً على رؤساء القبائل ونبلاء مكة وقائداً لهم .

ميزان الفضيلة :

وقد طرق ما أشاعه هؤلاء مسامح رسول الله ﷺ ، وكتب النبي الأكرم ﷺ يخاطب أهل مكة مبيّناً كفاءة ولياقة عتاب بن اسيد ، ومؤكداً على الجميع وجوب الامتثال لأوامره ، وختم ﷺ رسالته بجملة قصيرة ردّاً على احتجاج الناس فقال : «وَلَا يَحْتَجُّ مُحْتَجٌّ مِنْكُمْ فِي مُخَالَفَتِهِ بِصَغَرِ سِنِّهِ فَلَيْسَ الْأَكْبَرُ هُوَ الْأَفْضَلُ ، بَلِ الْأَفْضَلُ هُوَ الْأَكْبَرُ» (١) .

وكان الرسول الأكرم ﷺ يدافع دائماً عن عتاب بن اسيد الذي ظل والياً على مكة حتى آخر عمر رسول الله ﷺ ، وقد قدّم طيلة فترة ولايته خدمات جليلة في جميع المجالات . إن إصرار النبي الأكرم ﷺ على إبقاء عتاب بن اسيد والياً على مكة رغم احتجاج كهولها ونبلائها ، ورسالته الجوابية على هذا الاحتجاج يبيّن النهج الإسلامي في حماية الشبان الأكفاء . وقد جاء أسلوب النبي الأكرم ﷺ ودعمه الصريح لعتاب بن اسيد لبيّن لمواليه وأنصاره وجوب مكافحة الجهل والتعصب الأعمى الذي لا يقوم على أساس قولاً وعملاً ، وبضرورة الاعتماد على الأكفاء من الشباب لإدارة شؤون البلاد مهما كانت أهليتها ، وتسخير طاقات جيل الشباب في خدمة البلاد والعباد .

الثالثة : إن الرسول الأكرم ﷺ في أواخر عمره الشريف أقدم على تعبئة طاقات المسلمين لمحاربة بلاد الروم ، وشكّل جيشاً عظيماً ضم كبار قادة الجيش وأمرائه وكبار وجهاء المهاجرين والأنصار وكافة رؤساء القبائل العربية .

ويوم خرج الرسول الأكرم ﷺ من المدينة ليستعرض جيشه ، لاحظ وجود كبار وجهاء المسلمين في صفوف الجيش . «قَلِمَ يَبْنِي مِنْ وَجْهِهِ

(١) ناسخ التواريخ ، أحوال الرسول ﷺ ، ص ٣٨٧ .

المُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ إِلَّا أَنْتَدَبَ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ وَسَعْدُ بْنُ زَيْدٍ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَقَتَادَةُ النُّعْمَانِ» (١) .

قيادة الجيش :

مما لا شك فيه أن قيادة جيش عظيم كالذي شكَّله الرسول الأكرم ﷺ لمحاربة الروم ، مسألة دقيقة وحساسة للغاية ، إذ كان على النبي الأكرم ﷺ أن يختار حتماً الأنسب والأكثر كفاءة ولياقة لتعيينه قائداً للجيش . فكان أن دعا رسول الله ﷺ أسامةَ بْنَ زَيْدٍ ونصبه قائداً للفرقة وشدَّ له الراية بيديه الشريفتين . «وَأَسْتَعْمَلُهُ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِي عَشَرَ سَنَةً» (٢) .

ومثل هذا الاختيار إن لم نقل إن التاريخ العسكري في العالم لم يشهد نظيراً له لا بد من القول : إنه يندر حصوله .

وبالرغم من أن عالمنا المعاصر يولي اهتماماً بالغاً لجيل الشباب ويوفّر له الدعم الكامل ، وبالرغم من أن البلدان المتطورة تسعى جاهدة إلى تكليف شبابها بمسؤوليات جسام ، إلا أننا لا يمكننا حتى أن نتصور أن تُقدّم أي من البلدان الأوروبية والأميركية على تعيين شاب في الثامنة عشرة من العمر قائداً لجيشها لمحاربة بلد آخر له جيش مقتدر عدّة وعدداً .

إطاعة أوامر القائد الشاب :

إن النبي الأكرم ﷺ قد أقدم قبل أربعة عشر قرناً على خطوة عسكرية مهمة دعماً منه للشبان الأكفاء ، حيث ولى شاباً في الثامنة عشرة من العمر قائداً لجيش إسلامي عظيم لمحاربة امبراطورية الروم ، ألا وهو أسامة بن زيد .

وكان على كبار القادة الذين خاضوا أصعب المعارك وأشدّها أواراً ، ورفعوا راية الإسلام خفاقة فوق أعظم قلاع العدو استحكاماً ، وكذلك كان على

(١) بحار الأنوار ج ٦ ، ص ٦٧٠ .

(٢) أسد الغابة ج ١ ، ص ٦٤ .

أشجع الفرسان وأكثرهم بسالة ممن خبروا شؤون الحرب ، وعلى وجهاء العرب والشخصيات الإسلامية البارزة الذين جسّدوا في أحلك الظروف لياقتهم وكفاءتهم ، كان عليهم جميعاً أن يمثلوا لأوامر رسول الله ﷺ ويشاركوا في هذا الحشد العسكري مطيعين وأوامر قائد شاب ، وهذا ما كان يصعب عليهم تصديقه وتحمله .

فمثل هذا الاختيار قد أثار الدهشة والحيرة لدى كبار القادة والأمراء الذين تلقوا النبأ بكثير من التعجب والقلق وأخذوا يتبادلون نظرات الحيرة ، وأفصح بعضهم عما يختلج في نفسه وما يضمرة قلبه «فَتَكَلَّمْ قَوْمٌ وَقَالُوا: يُسْتَعْمَلُ هَذَا الْغُلَامُ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ الْأَوْلِينَ؟ ! ، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَضَباً شَدِيداً ، فَخَرَجَ فَصَعَدَ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ فَمَا مَقَالَهُ بَلَّغْتَنِي عَنْ بَعْضِكُمْ فِي تَأْمِيرِي أَسَامَةَ ؟ وَلَيْتُنْ طَعَنْتُمْ فِي تَأْمِيرِي أَسَامَةَ فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي تَأْمِيرِي أَبَاهُ قَبْلَهُ ، وَأَيْمُ اللَّهِ إِنَّهُ كَانَ لِإِمَارَةِ خَلِيقًا وَإِنَّ أَبْنَهُ بَعْدَهُ لَخَلِيقٌ لِإِمَارَةٍ»^(١) .

إن إصرار النبي الأكرم على حماية الشباب الأكفاء ودعم مواقعهم كان له الأثر البالغ في أذهان عامة المسلمين ، وجعل الذين كانوا يخطئون في تقييمهم لجيل الشباب يلتفتون إلى جهلهم ويراجعون حساباتهم .

كان أبو أيوب واحداً من كبار شخصيات الأنصار وصحابة رسول الله ﷺ ، وكان وفياً مخلصاً للإسلام مدافعاً عن لوائه وحرимه ، شارك طيلة حياته في عدة حروب وغزوات جنباً إلى جنب مع جنود الإسلام ، «وَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنِ الْجِهَادِ إِلَّا عَاماً وَاحِداً فَإِنَّهُ اسْتَعْمِلَ عَلَى الْجَيْشِ رَجُلٌ شَابٌ فَقَعَدَ ذَلِكَ الْعَامَ فَجَعَلَ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْهَثُ وَيَقُولُ: وَمَا عَلِيٌّ مَنِ اسْتَعْمِلَ عَلَيٌّ»^(٢) .

(١) البحار ج ٦ ، ص ٦٧٠ .

(٢) أسد الغابة ج ٢ ، «خالد» ص ٨١ .

الشباب والمناصب المهمة :

ومن هذه القصص التاريخية الثلاث يتبين لنا بوضوح اهتمام الدين الإسلامي بجيل الشباب ، وإذا ما شرعت بعض بلدان العالم اليوم بالتفكير في الاعتماد على الطاقات الشابة في إدارة بعض الأعمال المهمة وإشغال بعض المناصب الهامة ، فإن هذه البلدان لم تخطئ في قرارها ومنهجيتها وسلوكها ، لأن النبي الأكرم ﷺ المعصوم عن الخطأ بفضل رعاية الله سبحانه وتعالى له ومباركته جلّ وعلا لمنهجيته قد أقدم على هذه الخطوة الأساسية قبل أربعة عشر قرناً وأناط بعض المناصب المهمة عسكرياً وغير عسكري إن على صعيد الداخل أو الخارج في دولة الإسلام الفتية بالشباب .

والجدير بالذكر أن الشرط الأساس لاختيار الشباب هو كفاءتهم ولياقتهم ، فالشبان الذين انتخبهم الرسول الأكرم ﷺ وعينهم في مناصب مهمة كانوا أكفاء من حيث العقل والفكر والذكاء والإيمان والعلم والأخلاق والتدبير وما إلى ذلك من الخصال الحميدة ، ولهذا لم يكن احتجاج الكهول ورؤساء القبائل على النبي الكريم ﷺ إلا بسبب سنّ الشباب المنتخبين ، إذ لم يقل أحد منهم إن من اختار الرسول الأكرم ﷺ ليس بكفوء أو ينقصه العقل أو التدبر أو الإيمان أو الأخلاق أو ما شابه ذلك .

المحاضرة الثانية

حول جمال الشباب

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾^(١) .

تمهيد : حلاوة أيام الشباب :

إن الجمال الطبيعي وحلاوة أيام الشباب يعتبران ثروة لها قيمتها لدى جيل الشباب . والمرء عندما يبلغ هذه المرحلة يكتسب جسمه القوة والنشاط وتتفتح عواطفه ومشاعره ، ويصبح جمال وعظمة الشباب بمثابة جوهرة ثمينة تضيء على صاحبها روعة وجمالاً ، وتحببه وتودده في قلوب الناس . إن حلاوة عهد الشباب هي من المظاهر المهمة للجمال الطبيعي الذي يمتاز به جيل الشباب .

إن الانسان إذا هرم فقد القدرة التي كان يتمتع بها في شبابه ، وزال عنه جمال الشباب الزائف ، وفقد وجهه بريقه ونعومته ، وبدأ ظهره بالانحناء ، وأخذت التجاعيد من بشرته الناعمة مأخذها ، وحلّ الكسل والخمول والكآبة محل الفرح والنشاط اللذين كان يعيشهما في أيام شبابه .

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٣٢ .

الشباب والجانب الشعري :

إن العالم اليوم لا ينظر إلى الشباب من جانب القدرة البدنية والعمل الدؤوب والنشاط ، ولا يحصر قيمة الشباب في مشاركتهم في المجالات الصناعية والاقتصادية والزراعية وغيرها من المجالات المهمة فحسب بل ينظر إلى الشباب من منظار شاعري لما يتمتع به هذا العهد من حلاوة العيش وجماله .

«وإلى جانب الرغبة في الاعتماد على الشباب والاستفادة من قدراتهم والتي تختلف قوتها حسب اختلاف المجتمعات ، هناك فكرة جديدة أخذت تتبلور معالمها وهي أن للشباب قيمة خاصة ، وأن الشباب هو مرحلة من الحياة لها عظمتها وجمالها ، ولها الأثر البالغ في تكامل حياة الإنسان ومستقبله . وقيمة الشباب بحد ذاتها يمكنها أن تغير نظرتنا تجاه الحياة تغييراً جذرياً» .

إن الاكتشاف الأخير بشأن البلوغ ربما كان أكثر الاكتشافات أهمية ، فهذا الاكتشاف يتطرق إلى ظاهرة مهمة لم تحظ باهتمام كاف عند المجتمعات ، ولا يمكن حتى الآن التكهّن بنتائجه الكاملة ، وقد بدأت مقدمات هذا الاكتشاف منذ عهد الحركة الرومنطيقية ، وجاءت ظرافة هذه الحركة وبداعتها كونها حددت علم الجمال وفلسفة الشباب» .

وجاء هذا الاكتشاف ليشكل انتصاراً لمسلك الغزليات والنفسانيات والدراسات الشاعرية ، وهذا الانتصار هو في الحقيقة انتصار قيمة الشباب على قيم عهد الكمال وانتصار الإحساسات على المنطق وانتصار الكمال على العقل ، وهو بداية حركة في مواجهة الخمود والسكون . وكل ما حققته الرومنطيقية في مجال الفن أي الشعر والرسم ، سيثبته الزمان في مجال السياسة والاجتماع»^(١) .

(١) جه ميدانم ؟ بلوغ ، ص ١٢٤ .

صفات جميلتان :

خلال دورة بلوغ الإنسان هناك صفتان جميلتان تبرزان بشكل طبيعي لدى الشباب ، إحداهما تفتح الغريزة الجنسية والأخرى الشعور بحلاوة وجمال أيام الشاب . ومع أن الرغبة الجنسية تشكل بحد ذاتها عاملاً مهماً يركز عليه كل جنس لجذب الجنس الآخر حفاظاً على النسل البشري ، إلا أن الله سبحانه وتعالى قد جعل هذه الرغبة العنيفة تتوقف على جمال الجنسين البشريين من الذكور والإناث وزاد فيهم رغبة التواصل والتلاقي .

جمال الحيوانات :

إن حلاوة وجمال دورة البلوغ ليست حكراً على البشر ، فالله سبحانه وتعالى قد خصّ في نظامه التكويني الكثير من الحيوانات بهذه الميزة وربط بين غرائزها وبين حسن وجمال قوامها مما زاد من تجاذبها الجنسي حفاظاً على وجودها من الانقراض .

«ومما لا يمكن إنكاره أن غالبية أنواع الحيوانات تشهد في نهاية دورات بلوغها نوعاً من التبدل والتغير الجسماني ، يتمثل في الطيور مثلاً في شدوها واختلاف لون ريشها وأجنحتها»^(١)

إن ميول الإنسان إلى الحسن والجمال تدخل في إطار الرغبات الفطرية للإنسان ، وما الشعور باللذة لدى مشاهدة المناظر الجميلة إلا ويتمشى مع طبيعة الإنسان . ومن الطبيعي جداً أن ترى كافة الشعوب بما فيها الشعوب والأمم الوحشية وعلى اختلاف طبقاتها تمتلك نفس الشعور ، وترى الحسن والجمال حتى في بعض الصفات والخصال السيئة .

(١) چه ميدانم ؟ بلوغ ، ص ١١٤ .

الجمال من وجهة نظر الامم الوحدية :

« في أفريقيا الوسطى يُقاس جمال المرأة بضخامة جسمها ، وهناك أماكن تتولى مسألة تضخيم وتسمين الفتيات ، فعندما تبلغ الفتاة تعزل عن بيت أبيها فترة من الزمن تواظب فيها على الإكثار من أكل الدهون والحلوى وتعرض جسمها لتدليك ومساج زيتي ، ولن تخرج من هذا المرعى إلا وهي سمينة لتتزوج من رجل يسعده منظرها ويتباهى به » .

« قبائل البوكا تعتبر آثار الجروح على الوجه أو الجسم بأنها دليل على الحسن والجمال ، وعندما ترى امرأة بهذه الصفة تصفها بالجميلة لأن جسمها يحمل آثار جروح . وروي أن خادم ملك «كشن شين» كان يتحدث بنفور عن زوجة سفير إنجلترا ، لأنها بتصوره تملك أنياباً بيضاء كأنياب الكلاب ، ولها لون كلون زهرة البطاطا يميل إلى الاحمرار»^(١) .

«مواطن استرالي أشبه ما يكون في تصرفه بالجميلات الباريسيات ، إذ إنه يحمل معه دائماً مساحيق حمراء وبيضاء وصفراء يستعملها لتجميل نفسه بين الحين والآخر ، وكلما أوشكت مساحيقه على النفاد قام برحلات طويلة وبعيدة وبعضها خطيرة يبحث فيها عن مساحيق جديدة يتزود بها ، وكان هذا المواطن الاسترالي يكتفي في الأيام العادية بمسح وجتيه وكتفيه وصدرة ببعض من هذه المساحيق ، لكنه في الاحتفالات والمناسبات كان يصرّ على استعمال مزيد من المساحيق وإلاّ تملكه شعور أشبه ما يكون بالشعور الذي يملكه الواحد منا عندما يمشي حافي القدمين بين الناس»^(٢) .

(١) روان شناسى اجتماعى ، ص ١٣٧ .

(٢) تاريخ التمدين ، ديل ديورانت ج ١ ، ص ١٣٠ .

تنمية حس الجمال :

من الواضح أن الشعور الفطري بالجمال لا يكفي وحده لتذوق وإدراك كل أنواع الجمال الطبيعي والفني ، بل ينبغي تنمية هذا الشعور الفطري ليكون في ظل التربية الصحيحة أبعد أفاقاً وأدق تحديداً لجمال الموجودات .

إن طاقة إدراك الجمال كالطاقة الفكرية والسجايا الأخلاقية وقوة البيان والبلاغة وحسن الخط وغيرها من الطاقات كامنة في الإنسان ، والتربية الصحيحة هي السبيل إلى تفجير هذه الطاقات وخروجها إلى العلن ، إن طاقة إدراك الجمال إذا أهملت وبقيت دون رعاية وتربية وتنمية صحيحة فإنها ستبقى في ذات صاحبها ولن ترى النور أبداً .

تكامل الاحساس :

إن إدراك الجمال مرتبط كل الارتباط بتكامل الإحساس وتنمية المشاعر لدى الناس ، وكلما ارتفع مستوى العلم والمعرفة والثقافة في بلد ما كلما تفتح شعب ذلك البلد وتفجرت طاقاته ومشاعره ، وأصبح يفرق بين الجمال الطبيعي والجمال الزائف ويسمو فيه الشعور بلطافة الكائنات الجميلة وظرافتها .

«إن الشعور بالجمال لا يولد بالصدفة رغم وجوده في ذاتنا ، ففي بعض العصور الغابرة وفي ظل ظروف معينة كان هذا الشعور يبقى حبيس النفس دفيناً ، حتى انه لدى بعض الشعوب التي كانت قديماً تعرف هذا الشعور وتحسّ به ، يضمحل ويموت»^(١) .

إن الجمال ربما وجد في الطبيعة أو برز في آثار فنية صنعها الإنسان ، ولكن حتى يصبح بمقدور الإنسان أن يعشق الجمال ويدرك الجمال الطبيعي وطبيعة الجمال ينبغي عليه أن يهتم بتنمية

(١) إنسان ناشأخته (الإنسان المجهول) ، ص ١٢٧ .

هذه الطاقة في نفسه . فمعرفة العالم الخارجي هي عبارة عن معرفة الذات ، ولهذا قيل : إن وجه كل شيء يختلف عند الأشخاص ، كل حسب مستواه الثقافي»^(١) .

إن مسألة الجمال في عالمنا اليوم وبين سائر الشعوب والأمم المتقدمة تحظى باهتمام كبير ، بحيث إن الشعوب على مختلف طبقاتها وفئاتها كثيراً ما تبدي علاقتها بالجمال وحبها له ، وحب الجمال هذا والشعور به هو في تصاعد مستمر .

حب الجمال في عالم اليوم :

إن الناس يرغبون في أن يكون كل شيء حولهم جميلاً ، يعيشون في منازل جميلة ومرتبّة ويرتدون أجمل الملابس ويزيّنون الوجه ويسرّحون الشعر ويقتنون أجمل الأثاث ويركبون أجمل المراكب ويغرقون منازلهم بأجمل الزهور والورود ويقتنون من الطاولات وحتى صيديات المنازل أجملها ، فالأموال التي تصرف اليوم في البلدان المتطورة على الجماليات والكماليات إن لم تكن أكثر مما يصرف على ضروريات العيش فإنها دون شك لا تقل عنها .

ازدهار الثقافة وإدراك الجمال :

مما لا شك فيه أن ازدهار الثقافة وارتفاع مستوى التعليم في أي مجتمع كانا يشكّلان عاملاً مؤثراً في تنمية الحس الجمالي ورفع درجة حب الجمال لدى ذلك المجتمع ، ولكن يجب أن لا ننسى الدور الهام الذي أدّاه ويؤديه مشاهير الكتّاب والشعراء بفضل حسن أقلامهم وتفتح قريحتهم في تنمية حب الجمال لدى الناس ، فهؤلاء قد أدركوا جمال الطبيعة من مختلف جوانبها بنظرات ثاقبة وذوق رفيع ، واستوقفتهم مشاعرهم وأحاسيسهم عند كل ما لم تدركه عامة الناس ، وهم يقومون بدورهم بتجسيد رؤاهم في قالب شعري

(١) شناخت زیبایی (معرفة الجمال) ، ص ٨ .

وعبارات وجمل غاية في الجمال والإبداع ، ونقلوها إلى المجتمعات مصوّرة في لوحات فنيّة رائعة ساهمت في تفتح حسّ الجمال لديها .

جمال الطبيعة :

«وطبعاً هناك أناس بدائيون وأطفال وأشخاص غير مثقفين ممن ينشدون إلى أنكر الأصوات وأفقع الألوان لا يترك فيهم جمال الغابات والأشجار وجمال غروب الشمس أدنى أثر» .

إن حب الطبيعة والاستمتاع بجمالها أخذ يشقّ طريقه نحو التكامل بفضل مؤلفات مشاهير الكتّاب وأشعار عظماء الشعراء ولوحات كبار الفنانين والرّسّامين . إن كثيراً من الناس كانوا قبل «جان جاك» يجهلون جمال الجبال ، وكانوا قبل «ريستال» لا يعرفون لجمال قطع الغيوم الليلية التي تسبقها نسيمات منعشة معنى . إذن كان لهؤلاء الادباء والفنانين الأثر البالغ في تفتح ذوق الإنسان وإحساسه ، وجعله يدرك جمال العالمين الخارجي والداخلي الذي لم يكن قبل ذلك يدركه أو يعرفه»^(١) .

الاسلام وتنمية حسّ الجمال :

إن الدين الإسلامي الحنيف الذي جاء ببرنامج متكامل لسعادة الإنسان يولي قسطاً وافراً من الأهمية لمسألة الحسن والجمال ، فالإسلام إضافة إلى تنمية كل الرغبات والميول الفطرية عند الإنسان ، اهتم بتنمية عاطفة حب الجمال لديه ، وأوصى معتنقيه بضرورة الاستفادة من الجمال الطبيعي والاستمتاع به . إن الإسلام باهتمامه بالحسن والجمال ساهم في إرضاء وإشباع إحدى رغبات الانسان الطبيعية ، إضافة إلى أنه أحيأ في أمته عاطفة حب الجمال التي هي دليل واضح على تكامل مشاعر الإنسان ونمو عواطفه ، وهذا

(١) شناخت زيبائي (معرفة الجمال) ، ص ٩ .

إلى الطريق الصحيح الخالي من الشوائب والأخطار .

جمال السماء :

لقد تحدّث الإسلام عن جمال السماء والنجوم والكواكب وعن جمال الموجودات على الأرض وتحدث كذلك عن الجمال الطبيعي والمصطنع للبشر ، وقد وردت آيات قرآنية وروايات وأحاديث شريفة كثيرة تتحدث عن الجمال والتجمل ، نشير إلى بعض منها على سبيل المثال : قال تعالى في كتابه الحكيم : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾^(١) .

وقال عزّ من قائل في محكم كتابه : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ﴾^(٢) .

سطوع النجوم :

وقال جلّ جلاله في كتابه العزيز :

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾^(٣) .

إن القرآن الكريم يشير في هذه الآيات إلى مظهر النجوم والكواكب وجمالها وسطوعها ، ويذكر جاذبية وجمال السماء ، هذه الآيات وآيات أخرى مماثلة جاءت لتثير عاطفة حب الجمال في وجدان المسلمين وتنمي فيهم حسّ تشخيص الجمال .

جمال الارض :

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾^(٤) .

(١) سورة الحجر ؛ الآية : ١٦ .

(٢) سورة الملّك ، الآية : ٥ .

(٣) سورة ق ؛ الآية : ٦ .

(٤) سورة الكهف ؛ الآية : ٧ .

ومعنى هذه الآية الشريفة أن الله سبحانه وتعالى قد زَيَّن الأرض وزاد من روعة جمالها بأشجار خضراء باسقة وورود ملونة جميلة ومعطرة وبحار متلاطمة أمواجها وطيور مغرّدة، وخلاصة القول: كل الكائنات على الأرض التي يبرز كل منها جماله وروعته .

لقد بعث الرسول الأكرم ﷺ إلى أناس يفتقدون العلم ويغوصون في الجهل، محدودة أفكارهم، لكنهم كسائر الأمم المتخلفة كانوا يدركون إلى حدّ ما جمال الموجودات ، إلاّ أنهم لم يكونوا قادرين على الاستمتاع بجمال الوجود كما تستمتع به الأمم الواعية المثقفة، وذلك بسبب عدم تفتح أحاسيسهم ومشاعرهم وعدم نموّ عواطفهم .

إن العرب قبل الإسلام لم يلتفتوا إلى جمال الكواكب الصغيرة والكبيرة وهي تزَيِّن صدر السماء كاللؤلؤ المنشور ، أو إلى الأشجار الباسقة والورود الملونة التي تزَيِّن الأرض ، وذلك بسبب عواطفهم وأحاسيسهم التي ظلت خامدة إلى أن جاء القرآن الكريم بكل ما يحمله من دروس وعبر ليقوّض مشاعرهم وينمّي في وجدانهم عاطفة حب الجمال .

الجمال الطبيعي للإنسان :

إن موضوع الجمال الطبيعي للإنسان هو من المواضيع التي تناولتها الروايات والأحاديث الشريفة واهتمت بها ، وقد أورد أنبياء الله وأوليائوه روايات كثيرة بهذا الخصوص ، قال رسول الله ﷺ : «عَلَيْكُمْ بِالْوُجُوهِ الْمَلِاحِ وَالْحَدَقِ السُّودِ»^(١) .

وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : «حُسْنُ وَجْهِهِ الْمُؤْمِنِ حُسْنُ عِنَايَةِ اللَّهِ بِهِ»^(٢) .

(١) سفينة «ملح» ، ص ٥٤٦ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٣٧٩ .

النساء الجميلات :

قال رسول الله ﷺ : «أَطْلُبُوا الْخَيْرَ عِنْدَ حِسَانِ الْوُجُوهِ» (١) .
وعنه ﷺ : «أَفْضَلُ نِسَاءِ أُمَّتِي أَصْبَحُهُنَّ وَجْهًا وَأَقْلَهُنَّ مَهْرًا» (٢) .

محبوبة الجمال :

إن جمال الوجه يعتبر عاملاً مهماً يزيد من رصيد محبوبة الفرد لدى المجتمع ويساعده على التقرب إلى الآخرين ، فأصحاب الوجوه الملاح يكونون بقوة جاذبية جمالهم محبوبين وأعزاء لدى عامة الناس ، وهذا ما ينطبق على نبي الله الصديق يوسف عليه السلام ، الذي كان نبياً محبوباً لحسنه وجماله ، كما أن النبي الأكرم ﷺ كان يتمتع بوجه حسن وملاحة جذابة تطرق قلوب الناس وتشدهم ، قال رسول الله ﷺ : «كَانَ يُوسُفُ أَحْسَنَ وَلَكِنِّي أَمْلَحُ» (٣) .

أما علي عليه السلام فقد كان يوم بعث الرسول الأكرم ﷺ في العاشرة من العمر ، ويوم قضى النبي ﷺ كان أمير المؤمنين عليه السلام في الثالثة والثلاثين من العمر ، حيث أمضى أيام شبابه إلى جانب الرسول الأكرم ﷺ لإعلاء كلمة الحق ونصرة الحقيقة .

وكان رسول الله ﷺ يتغزل بجميع صفات أمير المؤمنين عليه السلام الباطنية والظاهرية ، وروي عنه ﷺ أنه قال في جمال وجه أمير المؤمنين عليه السلام وحسن ملامحه : «أَشْرَفَ يَوْمًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَا ظَنَنْتُ إِلَّا أَنَّهُ أَشْرَفَ عَلَيَّ الْقَمَرُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» (٤) .

(١) بحار الأنوار ج ١٥ ، القسم ٢ ، ص ٢٦ .

(٢) الكافي ج ٥ ، ص ٣٢٤ .

(٣) سفينة البحار «ملح» ، ص ٥٤٦ .

(٤) بحار الأنوار ج ٩ ، ص ٤٥٠ .

الزينة والتزيين :

كذلك تطرّق القرآن الكريم والروايات والأحاديث الشريفة إلى الجمال المصطنع والتجمل والتزيّن مثل الجمال الطبيعي ، وقد أوصى أولياء الله ﷺ العباد بالاستفادة من هذا النوع من الجمال والتجمل . وأصبح بعض أنواع التجمل كارتداء ملابس جديدة وسواك الأسنان وتسريح وتزييت الشعر والتعطر أثناء أداء العبادات وخلال معاشرّة الناس وفي المسجد وبين أفراد الأسرة ، كل ذلك أصبح من المستحبات اليومية لدى المسلمين .

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾^(١) .

وقال عزّ من قائل : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(٢) .

أي أنكم أيها المسلمون عندما تتوجهون إلى المساجد فاحرصوا على أن ترتدوا أجمل الثياب وتسرحوا شعركم وتنظفوا وتزيناوا .

«كَانَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ سَيِّدًا إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ لَبَسَ أَجْوَدَ ثِيَابِهِ ، فَقِيلَ لَهُ يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ تَلْبَسُ أَجْوَدَ ثِيَابِكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُجِبُّ الْجَمَالَ فَاتَّجَمَلُ لِرَبِّي وَهُوَ يَقُولُ: خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ»^(٣) .

وقال الإمام الصادق عليه السلام : «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَالتَّجَمُّلَ»^(٤) .

ويروي الإمام الصادق عليه السلام فيقول : جاء رجل إلى بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم طالباً لقاءه ، وعندما همّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالخروج من حُجْرَتِهِ وقف عند وعاء فيه ماء داخل الحجرة ، فنظر فيه ومشط شعره ولحيته المباركة فدهشت عائشة لما

(١) سورة الأعراف؛ الآية : ٣٢ .

(٢) سورة الأعراف؛ الآية : ٣١ .

(٣) تفسير البرهان ، ص ٣٥١ .

(٤) الكافي ج ٦ ، ص ٤٤٠ .

رأت ، وبعد عودة النبي الأكرم ﷺ سألته قائلة : يا رسول الله لماذا وقفت عند وعاء الماء ومشطت شعرك ولحيتك قبل خروجك للرجل ؟ ، فقال ﷺ : «يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا خَرَجَ عَبْدُهُ الْمُؤْمِنُ إِلَى أَخِيهِ أَنْ يَتَهَيَّأَ لَهُ وَأَنْ يَتَجَمَّلَ» (١) .

ويستنتج المرء من خلال هذه الآيات والروايات أن أولياء الله ورسله ﷺ كانوا يهتمون بمسألة تنمية حسن الجمال وإثارة عاطفة حب الجمال لدى الناس ، كما يتبين أن التزيين والتجمل في نظر الإسلام ليس عملاً اجتماعياً محبباً فحسب بل هو عمل محبب عند الله سبحانه وتعالى وله قيمة العبادة وأجرها . إن المسلمين إذا ما أرادوا أن يفرحوا الله سبحانه وتعالى ويكسبوا مرضاته عليهم أن يعملوا بهذه السنن والوصايا .

جمال الشباب :

إن جمال وروعة عهد الشباب يعتبران من الجمال الطبيعي للإنسان ، وهذا الجمال لا يتمتع به سوى جيل الشباب ، فالحماس والعنفوان والحب والأمل والجد والنشاط والظرافة واللطافة وتناسق الجسم وتفتح الوجه وجمال الشعر وغير ذلك من الصفات تعتبر من جمال عهد الشباب .

إن كافة شعوب العالم سواء كانت متطورة أم متخلفة تدرك قوة وعنفوان الشباب ، وتعلم جيداً أن للشباب قوة تفوق قوة ومقدرة الكهول ، ولكن جمال الشباب لا يمكن أن يدركه جميع الناس ، لأن السبيل الوحيد لتشخيص جمال هذه المرحلة ورقعتها يكمن في تنمية المشاعر وتفتح العواطف لدى الإنسان .

مصدر إدراك الجمال :

إن الشعوب التي تفتقر إلى العلم والمعرفة والأمم التي لم تتمتع بتربية سليمة ولم تفتح في وجدانها عواطف حب الجمال تعجز عن إدراك روعة

(١) مكارم الأخلاق ، ص ٥١ .

الطبيعة ، كما أنها لا تستطيع إدراك جمال الشباب كما هو عليه ، وليس بمقدورها أن تشخص جمال ورقة أيام الشباب . وإذا ما كان العالم المتحضر اليوم ينظر إلى جمال مرحلة الشباب من منظار شاعري ، وإذا ما كان الأدباء يتحدثون في خطاباتهم ومؤلفاتهم عن جمال الشباب ، وإذا ما كان الكتاب من أصحاب الذوق الرفيع يكتبون فيما يكتبون عن جمال وروعة الشباب ، وخلاصة القول : إذا ما كان العالم المتحضر اليوم ينظر بعواطفه وأحاسيسه المحبة للجمال إلى جيل الشباب ، فذلك لأن الحضارة الجديدة قد أوجدت تحولاً عظيماً في ذوق الإنسان وعواطفه ، كما أن تقدم العلم وزيادة المعرفة أحدثا ثورة عظيمة في وجدان الإنسان ساهمت في تفتح عواطف حب الجمال لديه وإدراكه للجمال .

رغبة الشباب في إبراز جمالهم :

مما لا يخفى على أحد أن رغبة التجميل والتزيين تولد بشكل طبيعي لدى الشباب مع انتقالهم من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب وفور بروز جمال الشباب مما يجعلهم يعشقون التجميل وإبراز الجمال . وبعبارة أوضح : إنَّ الجمال الطبيعي يختلط ويتناسق مع الجمال المصطنع والتجميل والتزيين خلال عهد الشباب ، فمن جهة تساهم عوامل البلوغ في إعطاء الشباب جمالاً طبيعياً ، ومن جهة أخرى يولد في باطنهم حب التجميل وإبراز النفس وهذا ما يمنحهم مزيداً من الجمال .

علاقة التجميل بالغيرية الجنسية :

«إن ما يمكن أن يطلق على الشباب أنهم رؤاد الجمال وأن القيم المتعلقة بحب الجمال تنصدر اهتماماتهم . إن حب الجمال لدى بعض الفتيات الشابات يجعلهن أكثر تمسكاً بالتجميل ويؤدي بهن إلى نوع من المبالغة أشبه ما تكون بعبادة الأصنام» .

«مما لا شك فيه أن التعلق بكل ما هو جميل له ارتباط مباشر

بتحول الجسم من مرحلة إلى مرحلة وانبثاق الغريزة الجنسية لدى الإنسان . إن حب المجوهرات والحلي والتزيّن بكل ما من شأنه أن يجلب نظر واهتمام الآخرين للإنسان ، هو في الحقيقة حلقة في سلسلة من الجمال الطبيعي الذي يطغى على الإنسان في أواخر دورة البلوغ مثل لون الشعر وطريقة النظر ومعالم الأنوثة لدى الفتيات الشابات وغيرها من مسببات الجمال التي لا يمكن مقارنتها بالوضع السابق ، كما هي في الوقت ذاته قصيرة الأمد وزائلة .

الشعور بلذّة الجمال :

«إن الخوض في الجمال والنظر إلى ما هو جميل يصبّ في اهتمامات الشباب الثابتة ، فالجمال يثير في الشباب نوعاً من اللذة ، وكلما كانت طريقة الاستلذاذ بالجمال تعتمد على صفة من صفات الإنسان كلما زاد إدراكه لتلك اللذة»^(١) .

«إن الشبان والفتيات الشابات يحبّون العطور القوية والشديدة التي يمكن أن تلعب فيما بعد دوراً مهماً في عملية التجميل والتجمل ، إنهم يبدون حساسية كبيرة إزاء العطر والشعر وبشرة الوجه ، ويتأثرون خاصة بالعطور . كما أن تناسق الألوان وجمال الأشكال وظرافة الأصوات تولّد فيهم حالة من السعادة والفرح»^(٢) .

إشباع رغبات الجمال :

إنّ رغبة التجميل والتزيّن في جيل الشباب هي من الرغبات التي لا بد أن تخضع لمراقبة شديدة ، ويجب إشباع هذه الرغبة ضمن الحدّ المعقول وبعيداً عن الإفراط والتفريط . لقد عمد الإسلام من خلال توصيته بطهارة البدن وسواك

(١ و ٢) چه ميدانم ؟ بلوغ ، ص ١١٤ و ٤٥ .

الأسنان والتطيب وصيغ الشعر ودهنه وارتداء أجمل الملابس والثياب وغيرها من الأمور التي تساعد في عملية التجميل ، عمد إلى إرشاد حب التجميل لدى الشباب إلى الطريق الصحيح الآمن من الأخطار .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : اِخْتَضِبُوا فَإِنَّهُ يَزِيدُ فِي شَبَابِكُمْ وَجَمَالِكُمْ (١) .

وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال : «إِذَا أَصَبَتِ الدُّهْنَ فِي يَدِكَ فَقُلْ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الزَّيْنَ وَالزَّيْنَةَ» (٢) .

ميول الشاب إلى الجمال :

وعن الباقر عليه السلام أنه قال : «إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أتى الْبَرَازِينَ فَقَالَ لِرَجُلٍ : بِعْنِي ثَوْبَيْنِ فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدِي حَاجَتُكَ ، فَلَمَّا عَرَفَهُ مَضَى عَنْهُ فَوَقَّفَ عَلَى غُلَامٍ فَأَخَذَ ثَوْبَيْنِ أَحَدُهُمَا بِثَلَاثَةِ دَرَاهِمٍ وَالْآخَرَ بِدَرَاهِمَيْنِ فَقَالَ : يَا قَنْبِرُ خُذِ الَّذِي بِثَلَاثَةِ ، فَقَالَ : أَنْتَ أَوْلَى بِهِ ، تَصْعَدُ الْمَنْبِرَ وَتَخْطُبُ النَّاسَ ، فَقَالَ وَأَنْتَ شَابٌّ وَلَكَ شَرُّ الشَّبَابِ وَأَنَا أَسْتَحْيِي مِنْ رَبِّي أَنْ أَتَفَضَّلَ عَلَيْكَ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : الْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ وَأَطْعُمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ» (٣) .

هناك ثلاث نقاط في هذا الحديث تستوقفنا :

الأولى : هي أن على كل صاحب منصب ومقام أن لا يستغل منصبه أو مقامه في المعاملات العادية ، فأمر المؤمنين عليه السلام حاول أن يفهم الغلام الكاسب أن المشتري رجل عادي يدعى علي بن أبي طالب وليس أمير المؤمنين ذا المنصب والمقام ، وقد امتنع أمير المؤمنين عن الشراء من ذلك الكاسب لأنه عرفه وناداه بلقبه .

(١) مكارم الأخلاق ، ص ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦ .

(٣) المستدرک ج ١ ، ص ٢١٠ .

الثانية : هي أن الدين الإسلامي يوصي بحماية الغلمان ومداراتهم ، وهذا ما جاء واضحاً في حديث الرسول الأكرم ﷺ حيث قال : أَلْبَسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ وَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ .

مقياس التجمّل :

الثالثة : هي أن أولياء الله ﷺ يدافعون عن رغبة التزيّن وحبّ التجمّل لدى الشباب في حدود المصلحة ، ولهذا منح أمير المؤمنين عليّ ﷺ قنبراً الشاب الثوب الأجل والأفضل ليسرّ قلبه ويرضي رغبته في التجمّل . ومما لا شك فيه ولا ريب أن إرضاء رغبة التجمّل لدى الشباب وهي من الرغبات الفطرية يساهم في تكامل أذواقهم وفتح أحاسيسهم ومشاعرهم ويسوقهم نحو التسامي المعنوي والعاطفي . ومن هذا المنطلق جاءت نظرة الإسلام الإيجابية إلى هذه المسألة ، ولكن ينبغي مراقبة الشبان لكي لا يتمادوا في هذا المجال إلى حدّ الإفراط وتجاوز الحدود .

الإفراط في التجمّل :

إن الإفراط في التجمّل والتزيّن له نتائج وعواقب سلبية وربما ساق الفتیان والفتيات إلى طرق تؤدي بهم إلى التعاسة والضياع . كما أن الاهتمام الزائد بمسألة التجمّل يمكن أن يكون مصدراً لإصابة الفرد بمرض الوسوسة ويؤدي به تدريجياً إلى الإصابة باختلالات نفسية . كذلك فإن الاهتمام الفائض بالتجمّل بهدف جلب أنظار الناس قد يؤدي إلى تنامي روح الرّياء والغرور في نفس الإنسان ويجعله فرداً منبوذاً في المجتمع ، ويمكنه أيضاً أن يحدّ من عمل الإنسان ونشاطه ويجعله يهدر عمره في أمور غير مفيدة تافهة وأحياناً مضرّة .

الجمال المعنوي والأخلاقي :

هناك مسألة مهمة يجب الالتفات إليها وخاصة من قبل الشباب وهي أن جمال الإنسان من وجهة نظر أولياء الله ﷺ لا ينحصر بتاتاً بالجمال الطبيعي والمصطنع أي التجمّل بل يتعداه إلى الجمال المعنوي والأخلاقي الذي يعتبر

من الأركان المهمة والأساسية لجمال الإنسان ، وبعبارة أوضح إنَّ الجمال المتكامل للإنسان يشمل الجمال الظاهري والجمال الباطني وكلاهما يسميان بالجمال .

إنَّ الجمال الطبيعي والمصطنع والمقصود منه التجمُّل يجمِّلان ظاهر الإنسان ، إنما جمال العلم والروح والأخلاق وهو أسمى درجات الجمال ، يزيد المرء الجميل جمالاً روحياً ومعنوياً .

جمال العلم والاخلاق :

ومع أن الجمال والتجمُّل الظاهري يجعلان المرء محبباً إلى قلوب الناس معززاً ، إلا أن الجمال الذي يليق بمقام الإنسان ويوصله إلى الكمال الحقيقي والعزة الواقعية هو جمال العلم والأخلاق وجمال الصفات الحميدة والسجايا الإنسانية المحمودة .

قال عليٌّ عليه السلام : مِيزَةُ الرَّجُلِ عَقْلُهُ وَجَمَالُهُ مِرْوَتُهُ^(١) .

وَعَنْهُ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ : الْعِلْمُ جَمَالٌ لَا يُخْفَى وَنَسَبٌ لَا يُجْفَى^(٢) .

وقال أبو محمد العسكري عليه السلام في الجمال : حُسْنُ الصُّورَةِ جَمَالٌ ظَاهِرٌ وَحُسْنُ الْعَقْلِ جَمَالٌ بَاطِنٌ^(٣) .

إنَّ كلمة جمال وردت بحق الله سبحانه وتعالى في كثير من الروايات والأدعية المباركة ، وكان أولياء الله عليهم السلام يعطون صفة الجمال لله تباركت أسماؤه .

عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، وَيُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ النِّعْمَةِ عَلَى عَبْدِهِ^(٤) .

(١) (٢) غرر الحكم ، ص ٧٥٩ و ٥٤ .

(٣) البحار ج ١ ، ص ٣٢ .

(٤) الكافي ج ٦ ، ص ٤٣٨ .

الجمال الالهي :

ليس هناك مجال للشك في أن المقصود بالجمال الإلهي ليس الجمال الطبيعي أو الجمال المصطنع ، بل المراد منه هو جمال الصفات والكمال المعنوي لله سبحانه وتعالى ، فهو خير مطلق وكمال مطلق وجمال مطلق ، وليس في ذاته المنزّه من كل عيب ونقص سوى الكمال والجمال ، «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ جَمَالِكَ بِأَجْمَلِهِ وَكُلُّ جَمَالِكَ جَمِيلٌ . اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِجَمَالِكَ كُلَّهُ» . إن الله سبحانه وتعالى قد اختار لنفسه صفات جميلة مثل العلم والمقدرة والرحمة والحلم والجود والاستجابة للدعوة وستر العيوب وقبول الاستغفار والعفو عن المذنبين التائبين والعدل وغيرها من الصفات الحميدة الجميلة التي تشكل أساس الجمال المعنوي . إن الله تبارك وتعالى يحب أن يتّصف عباده بهذه الصفات ويتزيّنوا بالجمال المعنوي .

فلسفة ما وراء الطبيعة والجمال :

«إن معرفة الجمال عبر الـ«ميتافيزيك» تعتبر من أعقد النظريات الموجودة في هذا الخصوص ، والـ«ميتافيزيك» أو فلسفة ما وراء الطبيعة (النظام الغيبي) تعني اكتشاف وجود المطلق ووجوده في النفس . إن هدف الحقيقة العلمية هو تخطّي ظواهر الأشياء التي تدركها الحواس والضمير بحثاً عن الحقيقة ، إن فلسفة ما وراء الطبيعة تتجاوز كل الظواهر التي تتناقض مع بعضها البعض أو لا تتماشى مع فكر الإنسان ، بحثاً عن المطلق الذي لا يتغيّر ، فالأشياء تكون جميلة عندما يحقق المرء نصيباً منها ، الجيد المطلق والخير الأكمل هو الجمال بعينه»^(١) .

إن من يزيّن نفسه بالعلم والأخلاق ويزيّن ضميره ووجدانه بالصفات

(١) شناخت زيبائي (معرفة الجمال) ، ص ٤ .

الجمالية والسجايا الإنسانية يكون مالكا للجمال المعنوي وجمال الروح وحلاوتها ، فهو بهذه الصفات استطاع أن يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ويحبب نفسه إلى عباده .

إن الله سبحانه وتعالى يحب ظاهر الإنسان كما يحب باطنه ، فالله تباركت أسماؤه يحب أن يرى النعم التي أنعمها على عبده والجمال الذي منحه إياه بادياً عليه ، أي إن الله سبحانه وتعالى لا يحب أن يرى الإنسان ذا الوجه الجميل والقدر المليح يهمل جماله ، أو ذلك الذي يتمتع بصحة وعافية ويشكو مرضاً أو عجزاً أمام الآخرين ، أو ذلك الذي يملك ثروة كبيرة ويرتدي ملابس رثة بالية غير مبال بالذل الذي يلحقه بنفسه . إن الله سبحانه وتعالى يحب أن يكون ظاهر الإنسان كباطنه جميلاً ، وأن تتزین روح الإنسان بالصفات الجميلة وتتزين ظاهره بما أنعم الله به عليه .

ميول الشباب إلى جمال الروح :

تولد الميول إلى جمال الروح والسجايا الأخلاقية تلقائياً في باطن الشباب منذ بدء عهد الشباب ، وتفتح في وجدانهم الرغبة في الجمال المعنوي بالضبط كرهبتهم في التجميل والتزين ، والشباب بطبيعة حالهم يميلون إلى الفتوة والسخاء والكرم ويبدون علاقة شديدة بالفضائل الأخلاقية والصفات الإنسانية الحسنة ، إنهم بفطرتهم يعشقون الصدق والأمانة والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وعزة النفس وخدمة الناس وغيرها من الصفات الجميلة ، وينفرون من الكذب والخيانة ونقض العهد وغير ذلك من الصفات السيئة ، ويغضبون لدى مشاهدة أو سماع كل تصرف غير سليم يصدر عن الآخرين .

تنمية السجايا الاخلاقية :

ينبغي على المرين الأكفاء أن يعملوا على تنمية الميول الفطرية للسجايا الأخلاقية في ضمير الشاب مستفيدين من هذه الثروة الطبيعية ، وعلى المرين

أن يدعموا ميول الشباب للأخلاق الإنسانية الفاضلة والتي هي أساس الجمال الروحي والمعنوي لدى الإنسان ، ويجعلوا منهم رجالاً أكفأ .

«هناك علاقة وثيقة بين الكمال الأخلاقي وكمال حب الجمال لدى الشباب ، وكل معلّم ومُربٍّ يتغافل عن العمل في سبيل هذه القيم الأخلاقية يعتبر مذنباً ومقصرًا» .

«إن القيم الأخلاقية للشباب تختلف عن القيم التي تسود المراحل التي تلي مرحلة الشباب ، فالتعاون يعتبرونه تضحية والإحسان رأفة وشفقة ، حتّى الصبر الذي يعتبر من الصفات التي يصعب التحلّي بها في عهد الشباب ، تجده بصورة واضحة لدى الشباب» .

الشاب وصفاء الذات :

«وهناك قيم أخرى يفضلها جيل الشباب مثل : الشرف والكفاءة واللياقة والصداقة والمحبة والشجاعة إلى حدّ التضحية في سبيل الهدف الذي يرنو إليه الإنسان ، وكل هذه القيم والصفات تهىء إمكانات الشباب وطاقاته الفردية للتفتح»^(١) .

لقد كان أولياء الله ﷺ يؤكدون في بياناتهم على أهمية روح الشباب الطاهرة وميولهم الفطرية إلى المبادئ الأخلاقية والإنسانية ، ويوصون المربين بالاستفادة من هذه الثروة العظيمة وهذه الميزة الفطرية في تربية جيل الشباب تربية صالحة وسليمة .

ودخل رجل يدعى «أبا جعفر الأحول» وهو من أصحاب الإمام الصادق ﷺ وعمل فترة مبلّغاً للمذهب الشيعي لنشر تعاليم أهل بيت النبوة ﷺ ، دخل يوماً على الإمام الصادق ﷺ ، فسأله الإمام ﷺ :

(١) چه ميدانم ؟ بلوغ ، ص ١١٧ .

كَيْفَ رَأَيْتَ مُسَارَعَةَ النَّاسِ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ وَدُخُولَهُمْ فِيهِ ، قَالَ : وَاللَّهِ إِنَّهُمْ لَقَلِيلٌ .
فَقَالَ ﷺ عَلَيْكَ بِالْأَحْدَاثِ فَإِنَّهُمْ أَسْرَعُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ^(١) .

الشباب وحب الفضيلة :

لقد أشار الإمام الصادق ﷺ في هذا الحديث إلى صفاء ذات الشاب وحبّه للفضيلة ، وأكد إلى أبي جعفر الأحوّل الذي كان يشتغل في التبليغ للناس وتربيتهم ، أن الشاب هو أسرع إلى إدراك المحاسن وأسرع إلى التحلي بالصفات الإنسانية ، وهذه إشارة صريحة إلى أن الميول لجمال الذات والروح والفضائل الأخلاقية تولد مع دخول الإنسان مرحلة الشباب .

وتحكي لنا الروايات الإسلامية ، ويشرح لنا القرآن الكريم قصة النبي يوسف ﷺ وما عاناه من إخوته من أبناء يعقوب ﷺ الذين باعوه عبداً إلى قافلة كانت متوجهة إلى مصر ، ولمّا توالى السنون وتسلم يوسف ﷺ السلطة في مصر ، علم إخوته الذين كانوا يكبرونه سنّاً بالأمر فندموا على ظلمهم ليوسف ﷺ ، وقدموا على يعقوب ويوسف ﷺ نادمين مستغفرين ، ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾^(٢) .

وقالوا ليوسف ﷺ : ﴿ تَا اللَّهُ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(٣) .

الشباب والقلب الرؤوف :

سأل إسماعيل بن فضل الهاشمي الإمام الصادق ﷺ : لماذا أجل يعقوب ﷺ الصفح عن أبنائه بينما يوسف ﷺ بادر فوراً إلى الصفح عنهم وطلب الغفران لهم ؟ ، فردّ عليه الإمام الصادق ﷺ قائلاً : «لأنَّ قَلْبَ

(١) روضة الكافي ، ص ٩٣ .

(٢) سورة يوسف ؛ الآية : ٩٧ .

(٣) سورة يوسف ؛ الآية : ٩١ .

الشَّابُّ أَرْقُ مِنْ قَلْبِ الشَّيْخِ ، وكانت جِنَايَةُ وُلْدِ يَعْقُوبَ عَلَى يُوسُفَ وَجِنَايَتَهُمْ عَلَى يَعْقُوبَ إِنَّمَا كَانَتْ بِجِنَايَتِهِمْ عَلَى يُوسُفَ ، فَبَادَرَ يُوسُفَ إِلَى العَفْوِ عَن حَقِّهِ وَأَخَّرَ يَعْقُوبَ العَفْوَ ، لِأَنَّ عَفْوَهُ إِنَّمَا كَانَ عَن حَقِّ غَيْرِهِ فَأَخَّرَهُمْ إِلَى السَّحْرِ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ» (١) .

وفي الحديث الأنف الذكر يتحدث الإمام الصادق عليه السلام عن القلب الرؤوف والرفيق للشباب ، ويشير إلى أنهم الأكثر استعداداً للصفح والمغفرة والعطف .

ميول الشاب إلى العواطف الانسانية :

إن من واجب المرّبين أن يجهدوا في سبيل الإبقاء على الميول الفطرية الأخلاقية حيّة في وجدان الشبان وتعزيز وتقوية حب الجمال المعنوي في باطن الشاب ، وأن يحولوا دون سقوط قيم الطهارة والفضيلة من ضمير الشبان ممّا يؤدي بهم إلى الانحراف عن طريق الأخلاق والسجايا الإنسانية .

إن الميول الفطرية الأخلاقية لدى الشاب تمثل استعدادهم للانشداد نحو الطهارة والعفة والإحسان ، لكنهم إذا ما عاشوا في بيئة فاسدة منحطة وتربوا تربية خاطئة ، فإنهم سينحرفون لا محالة عن الطريق السوي نحو الرذيلة والفساد .

«إن المناداة بالقيم الأخلاقية لا تعني إطلاقاً أن يكون تصرف الشاب نابعاً من التقوى والفضيلة ، بل المقصود منها هو أن الشاب أكثر حساسية للانجذاب نحو الطهارة والإحسان . والشاب في الوقت الذي سيكون فيه فيما بعد مستعداً لإقامة حياة أخلاقية ، يكون أيضاً قابلاً للانعطاف نحو الفساد والرذيلة» (٢) .

(١) السفينة «القلب» ، ص ٤٤٢ .

(٢) چه ميدانم ؟ بلوغ ، ص ١١٦ .

ونستنتج من بحثنا هذا أن طراوة وعذوبة عهد الشباب هي من المظاهر العظيمة للجمال الطبيعي ، فحلاوة هذه المرحلة من العمر تزيد من جمال الشباب وتعزّز مكانتهم في قلوب الناس . وعندما يعمد الشبان إلى تزيين أنفسهم بتصفيف الشعر والتّطّيب وارتداء أجمل الثياب ويخلطون بين هذا الجمال المصطنع وجمالهم الطبيعي ، فإن محبتهم في قلوب الناس ستتضاعف وتزيد .

إن الجمال لا يكون متكاملًا إلاّ عندما يكون الشبان متحلّين بجمال الروح والصفات الأخلاقية إلى جانب جمالهم الطبيعي والمصطنع ، ومثل هؤلاء يكونون محبوبين لدى الناس ومعزّزين مكرّمين في كل مكان .

قيمة جمال الروح :

إن الجمال الباطني والمقصود هنا جمال الروح هو أعظم منزلة عند الناس من الجمال الطبيعي والظاهري . ومن هذا المنطلق فإن شاباً جميلاً يملك مظهراً يتّسم بالجمال الطبيعي والمصطنع ، إذا كان يفتقد للجمال المعنوي ، وإذا كان خائناً أو مجرماً ، فإن الناس سوف لا يبنهون بجماله الظاهري ، وينظرون إليه نظرة نفور وكراهية ، ويبعدونه عنهم بسبب خيائته ورذالته .

لقد جاء أولياء الله والإسلام بهدف عظيم في مجال تربية جيل الشباب ، وهذا الهدف يقضي بجعل الشباب يتمتعون بجمال معنوي إلى جانب جمالهم الظاهري ، ويتحلّون بالصفات الأخلاقية والإنسانية ، وذلك تديماً لأسس سعادة الإنسان في كل مراحل حياته . ولكي يدرك الشباب قيمة الجمال المعنوي والجمال الروحي ، ويعرفوا موجبات سعادتهم في الدنيا ويتزوّنوا بالفضائل والسجايا الأخلاقية ، لا بد من ذكر مثل بسيط يسهل إدراكه على جميع طبقات الناس :

إن الأزهار على مختلف أنواعها تستقطب بعطرها ولونها اهتمام الناس وخاصة عشاق الجمال . ويقوم باعة الأزهار بترتيبها في مجموعات وربطها

بأشرطة ملوّنة ظريفة تزيد من جمالها ، ثم يضعون هذه المجموعات من الأزهار في مزهريات جميلة أيضاً ، ويأتي عشاق الجمال ليشتروها بأسعار لا بأس بها ويزيّنون بها منازلهم ومكاتبهم وموائدهم ، ليمتّعوا أنظارهم بالجمال الطبيعي للأزهار وكذلك ما أدخل عليها من جمال مصطنع .

إن الزهرة التي لها رائحة زكية وتلك التي تفتقد لمثل هذه الرائحة لهما جمال واحد يلفت أنظار الناس ويجعلهم يقتنونها ويزيّنون بها منازلهم ليمتّعوا بالنظر إليها . أما الزهرة التي لها رائحة زكية إلى جانب جمالها الطبيعي فإن لها شعبية أكبر ، والناس يظهرون تعلقاً أكثر بها ، لأنها تمتّع بجمالها ناظرهم من جهة ، وتركي رائحتها مشامهم من جهة أخرى . ولكن إذا كانت الزهرة تملك رائحة كريهة وغير مرغوب فيها تؤدي بمن يتشقها إلى الإصابة بألم في الرأس وحالة الغثيان ، فإنها لن تكون عزيزة أبداً لدى الناس الذين ينفرون من مثل هذه الأزهار ويغضون الطرف عن جمالها الظاهري ، ولا أحد يرضى بتزيين منزله أو مكتبه أو مائدة طعامه بمثل هذه الزهور ذات الرائحة الكريهة .

والشباب في حديقة الحياة أشبه ما يكونون بالزهور الجميلة في أوائل تفتحها ، ولهذا فهم يستأثرون بسبب جمالهم الطبيعي باهتمام وحب الناس . إن التجمّل والتزيّن لدى الإنسان من تصفيف للشعر إلى ارتداء أجمل الملابس وكل ما يدخل في إطار التجمّل الظاهري يعتبر كالأشرطة الملوّنة والجميلة التي تزيّن بها الأزهار ، وهو ما يزيد من جمال الشبان ويعزّز من مكائبتهم في قلوب الناس ، أما الصفات الحسنة والسيئة والأخلاق الحميدة والذميمة لدى الشباب فهي بمثابة الرائحة الزكية والكريهة لدى الزهور .

الشباب الفاضل :

إن الشاب الذي يتمتع بصفات أخلاقية وإنسانية من طهارة وإيمان وصدق وأمانة وتضحية وإيثار وغيرها من الملكات الحميدة يكون محبوباً وسط المجتمع ، فهو يتمتع بالجمالين الظاهري والباطني أو المعنوي ، ولذلك يكنّ

له الناس كل حب واحترام . ومثل هذا الشاب هو كتلك الزهرة الجميلة ذات الرائحة الزكية التي تفتن الناس وتجعلهم يتناولونها من يد إلى يد تعلقاً شديداً بها ويسعون إلى المحافظة عليها .

هناك بعض الشباب من الذين يفتقرون إلى الصفات الحميدة والسجايا الأخلاقية ، لم يتأثروا بعد بالصفات الدنيئة والمساوء الأخلاقية ، هؤلاء إذا لم يخدموا الناس فإنهم لا يخونونهم أيضاً ، وإن لم يصل خيرهم للناس فإن شرهم أيضاً لن يطال الناس ، وإن لم يحاولوا الإصلاح بين متخاصمين فإنهم لن يزيدوا من نار الفتنة بينهما ، وإن لم يعملوا لنصرة المظلوم فإنهم لا يساعدون الظالم ، وإن لم يحسنوا إلى المحتاجين فإنهم لن يسيئوا إليهم أيضاً ، وخلاصة القول : إنهم إن كانوا محرومين من الفضائل الإنسانية فهم بعيدون عن الرذائل الأخلاقية .

مثل هؤلاء الشباب يكونون محبوبين نوعاً ما لدى المجتمع ، لأنهم لن يضرّوا الناس ، ويبقى المجتمع في مأمن من شرورهم ، هؤلاء كالأزهار الجميلة التي إن افتقرت لرائحة زكية فإنها تفتقر أيضاً للرائحة الكريهة التي يشمّز منها الناس .

الشباب المتهور :

إن الشاب المتهور الذي يتصف بصفات الرذيلة والانحطاط الأخلاقي والذي يسيء إلى الناس بكلماته وتصرفاته ، يبقى منبوذاً من قبل الناس مهما بلغ جماله واهتمامه بجماله وثيابه ومحاسنه ، فجمال الشباب والتجمل والتزيّن لا يسدّ معايبه المعنوية ، وحسن الظاهر لا يمكنه أن يغطّي قبح الباطن ويجعل من الإنسان المنبوذ اجتماعياً إنساناً محبوباً .

مثل هذا الشاب كمثل الزهرة ذات الرائحة الكريهة التي ينفر منها الناس ، فالزهرة ذات الرائحة الكريهة لن تصبح محبوبة لدى الناس مهما بلغ جمالها ، ولا أحد مستعد لحملها والمحافظة عليها في منزله .

قبح الخيانة :

إذا ما ارتكب شاب حسن الشكل جميل الثياب عملاً وحشياً وأقدم على قتل طفل بريء والتمثيل به ، فإنه سيثير سخط وغضب المجتمع عليه ، فالناس عندما سينظرون إليه أو سيشاهدون صورته في الصحف ، سوف لا يبهرهم حسن شكله وجمال ثيابه بل سيفضون سخطاً وغضباً عليه ، وإذا ما وصلوا إليه قضاوا عليه ، لأن قبح الجريمة والفساد الأخلاقي بلغ به حدّاً طغى على جماله الطبيعي والظاهري .

الشباب ومعرفة الذات :

ينبغي على الشباب أن يعرفوا أنفسهم وذاتهم ، وأن يعلموا أن عهد الطفولة قد ولّى ، وقد أصبح لهم استقلالهم ومسئولياتهم ، وعليهم أن يعلموا أن الجزء الأكبر من سعادتهم وشقايمهم بات اليوم في أيديهم .

إن الشباب وحدهم القادرون على مراقبة أنفسهم علمياً وعملياً والسعي والمثابرة من أجل اكتساب السجايا الأخلاقية مما يضمن لهم حياة سعيدة هانئة ، وهم وحدهم القادرون على التحلي بالصفات الحميدة التي تضيء على جمالهم جمالاً معنوياً يعزز مكانتهم في قلوب الناس .

والشباب وحدهم القادرون على المشاركة في مجالس تكثر فيها الذنوب مما يعرّك عليهم صفو حياتهم ويسبب لهم الشقاء ويؤدي بهم إلى الانغماس في الفساد والرذيلة ، وهذا ما يجعلهم منبوذين اجتماعياً .

الشباب وسرعة التأثر :

إن من واجب الوالدين والمربين أن يراعوا خصلة التأثر السريع لدى الشبان ، ويتصرفوا معهم على أساس من التقدير والاحترام . عليهم أن يلتفتوا إلى نقطة مهمة وهي أن عدم احترام الشاب وتحقير شخصيته يولد في نفسه روح القسوة والانتقام . إن الوالدين اللذين لم يهتمّا بعواطف ومشاعر أبنائهما

ويتصرفان معهم بقسوة ويقذفانهم بكلمات جارحة ، يتسببان من حيث لا يشعران في عذاب أبنائهما ، وينبغي أن يعلما أنهما يسوقان فلذات أكبادهما نحو الصفات السيئة والأخلاق المذمومة ، ويولدان في أنفسهم روح الانتقام ، وينميان في أفكارهم حبّ الإجرام .

قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : يَا عَلِيُّ : لَعَنَ اللَّهُ وَالِدَيْنِ حَمَلَا وَلَدَهُمَا عَلَى عُقُوبِهِمَا^(١)

إن السعادة لن تكون إلا للشباب الذين أتصفوا بالصفات الحميدة وتحلّوا بالسجايا الأخلاقية والإنسانية بفضل مراقبة والديهم وتربيتهم تربية صحيحة ونتيجة مجاهداتهم ومساعدتهم الشخصية ، هؤلاء بلغوا الجمال المعنوي إلى جانب جمالهم الطبيعي والظاهري ، وهم دائماً يحظون باحترام وتقدير الناس ورضى ومجبة الله سبحانه وتعالى .

(١) وسائل الشيعة ج ٥ ، ص ١١٥ .

المحاضرة الثالثة

حول فرصة الشباب

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله سبحانه وتعالى في مُحكم كتابه : ﴿أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾^(١) .

تمهيد : الاستعدادات الخفية :

إن عهد الشباب يعتبر فرصة ثمينة تأتي الإنسان مرة واحدة طيلة حياته ، ومرحلة الشباب هي مركز القوة والنشاط ومظهر الحسن والجمال ، وفي هذه المرحلة يطفح الإنسان بالجدّ والنشاط والحب والأمل .

إن الاستعدادات والطاقات الكامنة في جسم وروح كل منا والأرضية المناسبة للرقّيّ والسموّ والتكامل الموجودة في طبيعة الإنسان ، إذا ما استغلّت بشكل مناسب ، فإن بإمكانها أن تكون أساس سعادة جيل الشباب لبقية مراحل العمر .

وانطلاقاً من هذا المبدأ ينبغي على الآباء والأمهات الذين يفكرون في إسعاد أبنائهم ، وكذلك ينبغي على الشباب الذين يطمحون إلى السعادة والموفقية والنجاح أن يغتنموا هذه الفرصة الثمينة من جميع جوانبها وأن

(١) سورة فاطر ، الآية : ٣٧ .

يستفيدوا من الظروف المؤاتية أقصى استفادة .

استغلال الفرص :

لقد أكد أولياء الله تبارك وتعالى ورسله سلام الله عليهم أجمعين في كثير من الأحاديث والروايات على أهمية جيل الشباب، ودعوا الشباب إلى اغتنام هذه الفرصة الثمينة التي لا تعوض لتأمين سعادتهم .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : يَا أَبَا ذَرٍّ اغْتَنِمِ خَمْسًا قَبْلَ الْخَمْسِ ، شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سُقْمِكَ وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْدِكَ وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ (١) .

وَقَالَ عَلِيُّ ﷺ : بَادِرْ شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سُقْمِكَ (٢) .

وروي عن جعفر بن محمد عن أبيه ﷺ في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْرِ نَفْسِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ . قال : لا تَسْرِ صِحَّتَكَ وَقُوَّتَكَ وَفَرَاغَكَ وَشَبَابَكَ وَنَشَاطَكَ وَغِنَاكَ وَأَنْ تَطْلُبَ بِهِ الْآخِرَةَ (٣) .

قيمة الفرص :

لقد أكدت الأحاديث الثلاثة الأنفة الذكر على أهمية الاستفادة من الفرصة الثمينة التي تنق باب الإنسان في مرحلة شبابه ، وقارنت بين هذه المرحلة ومرحلة الشيخوخة والكهولة ، معتبرة إياها كالسلامة والعافية مقابل السقم والمرض ، إن الفرصة تعني استعداد الأرضية وتوفير الظروف لنيل الهدف ، واستغلال الفرصة يعني السعي والمثابرة من أجل الاستفادة من الظروف المؤاتية استفادة صحيحة . ليس هناك أي مخلوق على وجه الأرض خلق دون حساب ،

(١) بحار الأنوار ج ١٧ ، ص ٢٣ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٣٤٠ .

(٣) كتاب جعفریات ، ص ١٧٦ .

ولن يصل أي مخلوق إلى نتيجة دون القيام بمساع من أجل استغلال الفرص المؤاتية .

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (١) .

الشعور بالمسؤولية :

قال أبو عبد الله عليه السلام : إْحْمِ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَمْ يَحْمِلْكَ غَيْرُكَ (٢) .

إن المزارع الذي يريد الحصول على أفضل محصول وأوفره عليه أن يستغل فرصة وجود الماء والهواء والأرض ، ويسعى لحرث الأرض ونثر البذور ويكتف من مراقبته، وخلاصة القول: عليه أن يقوم بعمله على أفضل وجه . والأمر كذلك بالنسبة للطالب الذي يطمح إلى بلوغ أرفع درجات العلم حيث يتوجب عليه أن يستغل وجود الكتاب والمعلم والمدرسة والمحيط الهادئ والسلامة البدنية ، ويجتد ويجهد في علومه ودراسته . المريض أيضاً عليه أن يستغل فرصة وجود الطبيب والممرضة والمستشفى والدواء ويسعى إلى مراقبة نفسه والخلود إلى الراحة والامتناع عن كل ما يضره وذلك في سبيل التخلص من المرض الذي ألمَّ به . كما أن المذنبين عليهم أن يستغلوا الفرصة ويحكموا عقولهم ويلتزموا بالأحكام الإلهية وتوجيهات أنبياء الله تبارك وتعالى وأوليائه عليهم أفضل الصلاة والسلام ويلتحقوا بركب الأطهار والأخيار وذلك تحقيقاً للسعادة الأبدية .

أساس النجاح :

إن استغلال الفرص المناسبة والظروف الملائمة هو أساس موفقية الإنسان ونجاحه في جميع شؤون حياته المادية والمعنوية ، والإنسان العاقل هو ذلك

(١) سورة النجم ؛ الآية : ٣٩ .

(٢) الكافي ج ٢ ، ص ٤٥٤ .

الذي يستفيد من الفرص المؤاتية ولا يدع فرصة تذهب سدى .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنْ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا^(١) .

لحظات زائلة :

من المؤسف أن جميع الفرص التي يواجهها الإنسان في شؤونه الحياتية المادية والمعنوية هي فرص غير ثابتة وسريعة الزوال ، وربما فقد الإنسان أعظم فرصة تطرق بابه ، بسبب إهمال بسيط ولا مبالاة منه ، حينها لن يبقى للإنسان سوى الخسران والندامة .

الفرص الضائعة :

ولهذا كان اهتمام الأنبياء والأولياء عليهم السلام ضمن برامجهم التربوية منصباً على هذه المسألة ، وكثيراً ما حذروا من خطر إضاعة الفرص .

روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : مَنْ فُتِحَ لَهُ بَابٌ خَيْرٍ فَلْيَسْتَهْزِهِ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَتَى يُعْلَقُ عَنْهُ^(٢) .

وقال علي عليه السلام : الْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، فَأَنْتَهِزُوا فُرْصَ الْخَيْرِ^(٣) .

وعنه عليه السلام أنه قال : الْفُرْصَةُ سَرِيعَةُ الْفَوْتِ وَبَطِيئَةُ الْعُودِ^(٤) .

وروي أن أحدهم سأل الإمام الهادي عليه السلام عن الحزم فقال له : هُوَ أَنْ تَنْتَهَرَ فُرْصَتَكَ وَتُعَاجِلَ مَا أَمَكَّنَكَ^(٥) .

(١) المحجة البيضاء ج ٥ ، ص ١٥

(٢) المستدرک ج ٢ ، ص ٣٥٠ .

(٣) نهج البلاغة فيض ، ص ١٠٨٦ .

(٤) غرر الحكم ، ص ٨٩ .

(٥) المستدرک ج ٢ ، ص ٣٥٠ .

ثروة الشباب :

إن عهد الشباب يشكل أفضل فرصة يستطيع الإنسان من خلالها تحقيق طموحاته وبلوغ أمانيه ، ومما لا شك فيه أن جسم الإنسان وروحه يكتنفان ثروات عديدة يمكن أن تشكل إذا ما استغلت بشكل جيد أساس سعادة الإنسان مدى حياته .

إن قوة البدن ونموه وتركيبه العظام والعضلات وشبكة الأعصاب الحديدية وغيرها من القوى الجسمية لدى جيل الشباب ، تشكل بمجموعها أفضل وسيلة يستخرها الإنسان في الجد والعمل والنشاط ، فالشباب بمقدورهم خوض أصعب المغامرات والتغلب على كل المشاكل والصعاب .

وتشكل قوة البدن وصلابته من وجهة نظر الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم رمز السعادة لدى الإنسان ، وهذا الإنسان يتمتع بكل هذه النعم في مرحلة الشباب .

قال رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : طُوبَى لِمَنْ أَسْلَمَ وَكَانَ عَيْشُهُ كِفَافاً وَقَوَاهُ شِدَاداً^(١) .

ومن القوى المعنوية التي تبرز جلياً على الإنسان في مرحلة الشباب ، الحب والأمل والحماس والعنفوان ، فإلى جانب نمو الجسم ، تولد في داخل الإنسان الشاب عواطف وأحاسيس جياشة تشكل دافعاً مهماً في اندفاع الشباب نحو العمل والنشاط دون مللٍ أو كلل ، وهذا ما يشكل ثروة أخرى تمنح إلى الإنسان في عهد شبابه .

الحساسية المفرطة :

«عندما نسمع بكلمة بلوغ نتصور فوراً سرعة نمو جسم الإنسان

(١) بحار الأنوار ج ١٥ ، الجزء ٢ ، ص ٢٣٦ .

والتغيرات التي تطرأ على النظام الداخلي للجسم والتي تمنحه مزيداً من القوة والنشاط، وما يلفت انتباهنا للوهلة الأولى النمو السريع للجسم، وهذا ما يشكل انطلاقة على طريق دراسة مسألة البلوغ، ولكن سرعان ما تبرز مسألة جديدة تشدّ إليها الاهتمام، وهي أن الشاب يصبح أكثر حساسية مع ولادة عاطفة الحب والشوق والأمل والحماس والاندفاع في باطنه، وهذه الحساسية المفرطة تشاهد حتى لدى الأشخاص المتسمين بالجد والوقار، إذن هناك نموّ قلبي يبدأ مع نموّ الجسم .

«إن تقارب هاتين الظاهرتين ليس من قبيل الصدفة بل يشكل دليلاً على علاقة الحياة الباطنية بالحياة الظاهرية أو الخارجية والتي تبرز مظاهرها في كل مرحلة من مراحل الحياة»^(١).

إذا ما أدرك الشباب وضعهم الطبيعي وما منّ عليهم الله سبحانه وتعالى من نعم عظيمة، وإذا استطاعوا أن يستغلّوا في عملهم ومسعاهم الثروات العظيمة الكامنة في نفوسهم وأجسامهم وأن يسخّروا هذه الثروات في سبيل تأمين سعادتهم المادية والمعنوية، يكونون قد نجحوا في الاستفادة من فرصة الشباب التي لا مثيل لها خير استفادة .

قال رسول الله ﷺ: **فَلْيَأْخُذِ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَمِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ، وَفِي الشَّبَابِ قَبْلَ الْكِبَرِ وَفِي الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَمَاتِ**^(٢).

وروي عنه ﷺ أنه قال: **إِنَّ لِلَّهِ مَلَكًا يَنْزِلُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ فَيُنَادِي يَا أَبْنَاءَ الْعِشْرِينَ جِدُّوا وَاجْتَهِدُوا**^(٣).

(١) چه ميدانم؟ بلوغ، ص ٢٢ .

(٢) وسائل الشيعة ج ٤، ص ٣٠ .

(٣) المستدرک ج ٢، ص ٣٥٣ .

الشباب ومسؤوليته الشخصية :

إن الإنسان عندما يبلغ مرحلة الشباب يجد أن هناك مسؤوليات يجب عليه الالتزام بها وقد يؤاخذ عليها أحياناً ، فالشباب هو سنّ الرشد العقلي والصحة وهو عهد العمل والنشاط ، وكل من لم يفكر في شبابه بسعادته المادية والمعنوية ، وكل شاب يهدر أفضل أيام حياته بسبب تقاعسه وإهماله دون أن يقدر قيمة الفرصة الثمينة التي نزلت عليه ، يستحق التوبيخ والعقاب .

روي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : ﴿أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ أنه قال : هُوَ تَوْبِيخٌ لِابْنِ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً^(١) .

الشبان اليانسون :

ومما يؤسف له أن غالبية الشبان في كافة الدول المتطورة والنامية تراهم ينحرفون عن الصراط المستقيم ضاربين المبادئ الأخلاقية والإنسانية بعرض الحائط بسبب عدم تلقّيهم تربية صحيحة من قبل آبائهم وأمهاتهم ومعلميهم ، مثل هؤلاء الشباب لديهم نظرة متشائمة إلى كل ما حولهم ، فهم لا يفكرون سوى بالتمرد والعصيان ، ومَرَدُّ ذلك أنهم بدل أن يعيشوا الأمل في أفضل أيام حياتهم عاشوا اليأس ، وهامم لا بيدون أية رغبة بتحصيل العلوم ، وليس لديهم أدنى أمل بسعادة الغد ، فمعظمهم غرق في العادات السيئة الضارة ، وخسر بجهله وعنجهيته فرصة الشباب الثمينة .

واستناداً للإحصائيات الرسمية والمقالات الصحفية التي تناولت مسألة الشباب التائه والضال في البلدان الكبيرة ، فإن مثل هؤلاء الشباب باتوا يشكّلون معضلة معقدة لحكوماتهم ، إنهم لم يتعسوا أنفسهم فقط بل كانوا سبباً في تعاسة الآخرين . إن علماء التربية والنفس يبذلون قصارى جهدهم لإنقاذ هذا النوع من الشباب ، وعسى أن يستطيعوا عبر طرق علمية وعملية يعرفونها ، معالجة هؤلاء المرضى التعساء ، وإيجاد سبل لتسوية مشاكلهم .

(١) تفسير البرهان ، ص ٨٨٢ .

حب الانزواء والوحدة :

«إن الغرائب الأخلاقية لشباب اليوم قد بلغت ذروتها ، فالآلام التي يعانيها الشباب كبيرة وحقيقية ، كيف يجب أن نواجه هذه المصيبة ؟ ، وكيف يمكننا ان نخرج الشباب وننقذهم من انزوائهم ووحدهم القاتلة ونعيدهم إلى الحياة؟. إن مؤسسة الدراسات والأبحاث الاجتماعية والشبابية وجّهت منذ مدة مذكرة إلى الحكومة الفرنسية اتّصفت بالخوف والقلق قالت فيها: إن ما لا يقل عن ٦٠٪ من الشباب قد فقدوا أي معنى للحياة بسبب طيش وجهالة مربّي المدارس والمجتمع ، وهم - أي الشباب - يدفعهم اليأس إلى ارتكاب أعمال يخشى على المجتمع من هول عواقبها» .

«إن معظم الشباب لا يحترمون من هم أكبر منهم سناً ، وهم ويحاولون دائماً التمرد على العادات والسنن القديمة . واستناداً إلى إحصائيات رسمية فإن عدد المدمنين على المخدرات والمشروبات الكحولية والتدخين في صفوف الشباب هو في تزايد مستمر يثير القلق ، كما أن الأشخاص الذين ينتهكون حرمة المبادئ والقيم الأخلاقية يتضاعفون باستمرار . وأفادت دراسة أجريت في أمريكا أن ٤٥٪ من الشبان لا يقبلون بعادات الأسلاف وتقاليدهم ، وأن ٥٥٪ اقتنعوا بالعادات الجديدة السائدة ، وفي ألمانيا أفادت إحصائيات دقيقة جرت في هذا المجال بأن الشبان العُصاة المتمردين ينفرون من الكبار المسنين»^(١) .

وتجدر الإشارة إلى أن استغلال فرصة الشباب بصورة صحيحة أو هدرها لهما آثارهما على كافة مراحل عمر الإنسان ، وتتلور نتائجهما الحسنة والسيئة طيلة العمر ، لأن أساس سعادة الإنسان وتعاسته يقوم ويتماسك في فترة شبابه .

(١) مجلة حقوق امروز (حقوق اليوم) العدد ٦ ، العام الأول ، ص ٨١ نقلًا عن صحيفة علمية فرنسية تصدر كل شهر .

أهمية مرحلة البلوغ :

«إن لمرحلة البلوغ أهميتها الأساسية على مراحل حياة الإنسان ، لذا فإن دراسة مسألة البلوغ وفق قواعد علمية بيثوية ونفسية واجتماعية تثبت أن هذه الفترة غنيّة من حيث تنوع الإمكانيات ، ويمكن حتى ضمان مقدمات عهد الكمال في هذه الفترة بالجد والعمل والنشاط على عكس كل التصورات»^(١) .

«إن القواعد التي تُوضع أيام الشباب يمكنها أن تجعل ما تبقى من سني الحياة مثمرة بشكل واسع أو غير مثمرة»^(٢) .

إن كل ما يدّخره الشباب من معلومات في مختلف المجالات العلمية والفنية يبقى ثروة يستفيد منها الشباب طوال حياتهم . فالصفات الحسنة والسيئة والأخلاق المحمودة والمذمومة التي يكسبها الإنسان أيام شبابه تشكل فيما بعد برنامجاً يستند عليه خلال معاشرته ومخالطته للناس . إن كل إنسان استغل فرصة شبابه وتزوّد بالعلم والمعرفة واكتسب الأخلاق الفاضلة ، يكون سعيداً ومحترماً ومقدّراً من قبل الناس طيلة حياته . على عكس ذلك الذي أهدر فرصة شبابه وكان كسولاً وخموداً وجاهلاً وغير كفوء ومتّصفاً بسيئات الخلق ومذنباً ، فإنه يكون مفضوحاً أمام الناس خجولاً منهم ويشعر دائماً بالحقارة والدّناءة .

الشباب الضائع :

«تتوفر خلال مرحلة الشباب إمكانيات وامتيازات كثيرة لمواصلة الحياة ، في حين أن هذه الإمكانيات تكون مفقودة في سن الشيخوخة والكهولة ، ولهذا ترى الكثير من الأشخاص يعربون عن ندمهم بسبب عدم استغلال الفرصة التي فاتتهم والتي لا يمكن أن تعود ثانية ، وهذا الندم والحسرة دفعا «ديسراييلي» إلى القول : إن الشباب هفوة والشيخوخة صراع والكهولة حسرة»^(٣) .

(١) چه ميدانم ؟ بلوغ ، ص ١٢٣ .

(٢) ما وفرزندان ما (نحن وأبناؤنا) ، ص ٧٩ .

(٣) ما وفرزندان ما (نحن وأبناؤنا) ، ص ٧٨ .

فرصة قصيرة :

إن ما يبعث على الأسف هو أن فرصة الشباب الثمينة هي كسائر فرص الحياة الغالية قصيرة وتمرّ بسرعة ، إذ لا تمضي سوى فترة قصيرة حتى يتبين الشاب أن الأيام الحلوة قد انطوت وراح عنه النشاط وبدأ هو مسيرته نحو الخمود والذبول . إن الإنسان السعيد هو ذلك الشاب الذي استغل هذه الفرصة واستفاد الكثير في هذه المرحلة القصيرة ، أما الإنسان التعيس فهو ذلك الشاب الذي غاص بجهله وغفلته وجعل الفرصة تفلت من يده دون أن يحقق أدنى استفادة وجلس يجرّ عليها الحشرات والندم .

«إن مرحلة الشباب هي مرحلة يتحدّد فيها مسار الحياة بالنسبة للإنسان . لكن هذه المرحلة المثيرة والمخادعة في نفس الوقت والتي ينتظرها الولد بفارغ الصبر وتمنّى الفتيان والفتيات أن تطول لسنوات أخرى ، هي سريعة الزوال . فمرحلة الشباب ليست سوى بضع سنوات ، وهذا ما يوجب على الإنسان أن يستغلها على أفضل وجه»^(١) .

أشخاص لا يقدرّون :

لقد تحدّث أمير المؤمنين علي عليه السلام في إحدى خطبه عن هيكلية جسم الإنسان والأعضاء التي منحها الله سبحانه وتعالى إياه والنعم التي أنعم بها عليه والفرص التي أتاحتها وبيحتها للبشر ، وقال عليه السلام عن الأشخاص المتهوّرين الذين لا يقدرّون ما هم عليه والذين جهلوا قيمة مرحلة الشباب وما يتمتع خلالها الإنسان من سلامة وقوّة ولم يستغلوا نعم الله خير استغلال ، قال : لَمْ يُمَهّدُوا فِي سَلَامَةِ الأَبْدَانِ ، وَلَمْ يَعتَبِرُوا فِي أنْفِ الأَوَانِ ، فَهَلْ يَنْتَظِرُ أهْلُ بَضَاصَةِ الشَّبَابِ إلَّا حَوَانِي الهَرَمِ^(٢) .

(١) ما وفرزندان ما (نحن وأبناؤنا) ، ص ٧٨ .

(٢) نهج البلاغة الفيض ، ص ١٨٠ .

وروي عنه **سنة** أنه قال : ما أقرب الدنيا من الذهب والشئب من الشئب^(١) .

الوصايا الأربع :

إن الشباب الذين ينشدون السعادة في حياتهم ويرغبون في الاستفادة من فرصة الشباب استفادة صحيحة ، ينبغي عليهم أن يكتبوا الوصايا التالية على ورقة ويحفظوها أمام أعينهم ليتذكروها دائماً .

١ - إن عهد الشباب هو أفضل العهود وأكثرها فرصاً طيلة حياة الإنسان .

٢ - إن استغلال فرصة الشباب والسعي والمثابرة في الطريق السليم يعتبر شرطاً أساسياً للموفقية والنجاح .

٣ - إن سعادة وشقاء كل إنسان يتلوران في أيام شبابه ، فالشاب الذي يستغل فرصة شبابه استغلالاً جيداً يكون قد كفل سعادته مدى الحياة .

٤ - إن عمر الشباب قصير وفرسته سريعة الزوال ، لذا فإن يوماً واحداً من الغفلة واللامبالاة قد ينجم عنه عمر كامل من الحسرة والندامة والخسران .

ومما لا شك فيه أن هناك عقبات تعترض الإنسان خلال حياته قد تمنعه من استغلال الفرص الثمينة التي تطرق بابه ، والاستفادة من الظروف الملائمة التي يواجهها ، وعلى هذا فإن الإنسان كثيراً ما يخسر هذه الفرص ويصبح إنساناً فاشلاً ومحروماً .

كما أن فرصة الشباب كغيرها من الفرص يتخللها كثير من العقبات والموانع التي يمكن تخطيها بمحاسبات نفسية ومراقبة علمية ، ولكي يطلع الشباب على هذه العقبات إلى حد ما وسبل إزالتها ، لا بد من الإشارة إلى بعض منها :

(١) غرر الحكم ، ص ٧٥٤ .

الندم والقلق :

إن الاضطراب والقلق من المستقبل والتحسر والندم على الماضي هي من العقبات التي إن فكّر الإنسان بها فإنها ستحطّ من عزيمته وإرادته وستجعل منه إنساناً يائساً ، إن القلق على المستقبل والندم على الماضي يشكّلان سدّاً أمام سعادة الإنسان ، وهذان المانعان لن يدعا الإنسان يستغلّ الفرصة المؤاتية ويعتمد على قوته ونشاطه كما يجب ، كما يحولان بينه وبين الموفّية والنجاح .

إن الندم والقلق هما كالذّودة التي تنخر جذور الأمل لدى الإنسان وتدمّر إرادته وتحوّله إلى إنسان متردّد بائس ويائس يكره كل سعي ومثابرة وأحياناً يتهرّب من المسؤوليات التي على عاتقه .

التعذيب النفسي :

ومن المؤسف أن غالبية الناس من نساء ورجال وشيوخ وشبان مصابون بهذا الداء النفسي في جميع شؤونهم الفردية والاجتماعية ، وهم يعانون من تعذيب الندم والقلق النفسي ، وهذا ما يجعلهم يخسرون الكثير من الفرص الثمينة ويحترقون في نار الحسرة والندامة . فمثلاً عندما يفشل طالب شاب في الامتحانات بسبب إهماله ويرسب في درس أو درسين ، ويُعطى فرصة للمشاركة في دورة ثانية تجري بعد شهرين أو ثلاثة ليعوّض عن فشله ، فذلك يمكن اعتباره فرصة ثمينة إن استغلها بشكل جيد وسخر كل قواه ونشاطه من أجل الدراسة والمطالعة ، فإنه سينجح لا محالة وسيلحق بالناجحين في الدورة الأولى للارتقاء إلى صفّ جديد . وللإستفادة من هذه الفرصة يجب أن تكون نفسية الطالب الشاب هادئة ومتحرّرة من كل قيد أو مشكلة لكي يتمكن من حفظ دروسه والمشاركة في الامتحانات براحة بال وطمأنينة .

اضطراب الفكر :

ومن المؤسف أن كثيراً من الشباب في مثل هذه الظروف يعانون من

اضطراب فكري بسبب ندمهم على الماضي أو قلقهم على المستقبل ، يفكر الطالب أحياناً لماذا لم يدرس جيداً العام الماضي ؟ ، ولماذا استسلم للكسل وهدر سنة كاملة من عمره في اللهو واللعب ؟ ، وأحياناً أخرى تراه يفكر بمستقبله الغامض المجهول ، فيخسر نفسه ويضطرب ويقلق ، ويردّد في نفسه هذا السؤال ، إذا لم أنجح في امتحانات الدورة الثانية ، وإذا لم أستطع الإجابة على الأسئلة ماذا سيحصل ؟ ، ثمّ يجيب نفسه : سنفضح ويصغر شأننا وربما طردنا من المدرسة وربما حرّمنا من مواصلة الدراسة إلى الأبد .

الضغوط النفسية :

إن هذه الأفكار الخطيرة تولّد ضغوطاً كبيرة على نفسية الشبان وتضيق عليهم الخناق وتشلّ نشاطهم الدراسي وتسلب منهم أفكارهم ، فيفتح الشابّ منهم الكتاب وأفكاره متشتتة لدرجة أنه لا يفهم ما يقرأ ، وبينما هو يتأرجح بين الندم على الماضي والقلق على المستقبل فإذا بالفرصة تزول ويخسر فرصة مشاركته في امتحانات الدورة الثانية الثمينة ، ويرى نفسه مضطراً لإعادة نفس الصفّ سنة ثانية . ويلاحظ أن نفسية الطالب الشاب لم تعد بعد انتهاء العام الدراسي وزوال الفرصة إلى هدوئها وسكينتها ، ولم يتحرّر من الضغوط النفسية ، وربما كان حاله في العام الدراسي الجديد كحاله في ذلك العام ، نادماً على ما مضى خائفاً من المستقبل ، وربما ازداد اضطرابه النفسي وتضاعفت مشاكله .

معالجة الندم والقلق :

لا يمكن معالجة هذين المرضين النفسيين إلاّ وفق حسابات دقيقة وسليمة ترافقها عملية تسكين النفس . وينبغي على المبتلين بهذا النوع من المرض أن يحاولوا طرد التفكير بالماضي والمستقبل من أذهانهم إلى الأبد .

فبالنسبة لما مضى عليهم أن يُقنعوا أنفسهم بأن الماضي مهما كان فقد مضى ولا يمكن أن يعود ، والحسرة والندامة على الماضي لا تحمل إلينا سوى

الخسارة والخذلان ، حيث انها تتسبب في هدر جزء كبير من الفرصة التي بين أيدينا ، وتشوش علينا أفكارنا وتشلنا عن الحركة التي هي أساس النصر والنجاح .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : لا تُشعر قلبك ألهمَّ على ما فات فيشغلك عن الاستعداد بما هو آتٍ ^(١) .

أما بالنسبة للمستقبل فعليهم أن يغيروا نهجهم ويطردوا عنهم القلق والاضطراب ، ويعلموا جيداً أن مستقبل كل شخص منا منوط بعمله اليوم . فإذا ما أدينا ما علينا من واجبات ومسؤوليات بصورة صحيحة واستفدنا من الفرصة التي بين أيدينا بشكل جيد ، فإن مستقبلنا سيكون مشرقاً وضّاءً . أما إذا ضيّعنا الفرصة وأمضيّا وقتنا بالتفكير والقلق والخوف ، فإن المستقبل الذي ينتظرنا سيكون مظلماً ومجهولاً وسنكون من التعساء .

قال علي عليه السلام : لا تحمِلْ همَّ يَوْمِكَ الَّذِي لَمْ يَأْتِكَ عَلَى يَوْمِكَ الَّذِي قَدْ أَتَاكَ ^(٢) .

المستقبل الغامض :

من المؤسف أن كثيراً من الشباب والشيوخ لا يهتمون بالوضع الذي هم عليه أدنى اهتمام ، ويهدرون الفرصة التي هي أساس سعادتهم في الحياة بالتفكير في المستقبل المجهول ، ورسم صورة موحشة للمستقبل في ضميرهم تسلب منهم راحتهم وسكينتهم واستقرارهم أحياناً ، ويجعلون من حياتهم الهائلة الهادئة حياة مرّة لا تُطاق .

الماضي الفاني :

وأحياناً يرجعون بأفكارهم إلى الوراء بسبب جهلهم ، فيستعيدون ذكريات

(١) غرر الحكم ، ص ٢٨٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٢٠ .

الماضي ويتحسرون ويندمون عليها ، وهذه الحسرة تنزل عليهم كبرد الشتاء القارص فتميت آمالهم وتبسط من عزيمتهم ونشاطهم وتخمد نور الأمل في وجدانهم ، فيصبحون يائسين بائسين لا حول لهم ولا قوة ، يهدرون الفرص الثمينة الواحدة تلو الأخرى .

إن اغتنام الفرصة يعني اهتمام الإنسان بالظروف السائدة حوله والاستفادة الصحيحة منها لصالح سعادته المادية والمعنوية ، كما أن الاستفادة من الفرصة معناها سعي الإنسان لتنفيذ كل الواجبات المترتبة عليه اليوم ، ويعتبر الندم على ما فات والقلق على المستقبل عقبة نفسية كبيرة تمنع الإنسان من الاستفادة من الفرص .

الفرصة المتاحة :

إن الشخص الذي يريد الاستفادة من الفرص واستثمار الثروات التي يمتلكها على أفضل وجه ، عليه أن ينسى الماضي ويعتق قلبه من الحسرات والآهات ، كما عليه أن يتجاهل المستقبل الذي لم يولد بعد ويخلص نفسه من دوامة القلق والخوف ، وعليه أن يسخر كل طاقاته وإمكانياته لحاضره بما يتلاءم والظروف التي تحيط به ، كذلك عليه أن يسأل نفسه قبل كل عمل يقدم عليه ، ماذا عليه أن يفعل الآن ؟ ، ويجيب بنفسه على سؤاله بتعقل ، ويقدم على عمله بما يمليه عليه الواجب .

روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : الأيّامُ ثلاثة ، فيومٌ مضى لا يدركُ ويومٌ الناسُ فيه فينبغي أن يعتنموه ، وعَدٌّ إنما في أيديهم أمله^(١) .

ثروة العمر :

وعنه عليه السلام أنه قال : اصبروا على الدنيا فإنما هي ساعةٌ فما مضى منه

(١) تحف العقول ، ص ٣٢٤ .

فَلَا تَجِدُ لَهُ الْمَأْمُورَ وَلَا السُّرُورَ ، وَمَا لَمْ يَجِءْ فَلَا تَدْرِي مَا هُوَ وَإِنَّمَا هِيَ سَاعَتُكَ
الَّتِي أَنْتَ فِيهَا فَاصْبِرْ فِيهَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَأَصْبِرْ فِيهَا عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ (١) .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعًا (٢) .

وعنه عليه السلام أنه قال : فلا تحيل همّ سنيتك على همّ يومك ، كفاك
كلّ يومٍ ما فيه (٣) .

إن ما حدثنا عليه أئمتنا قبل أربعة عشر قرناً من خلال خطبهم البليغة
وبياناتهم الفصيحة حول مكافحة الندم على الماضي والقلق على المستقبل ،
أصبح علماء هذا العصر يدرسونه لطلابهم وتلامذتهم :

«يقول ديل كارنغي : عليك في جميع مراحل عمرك أن توصلد على
الماضي الذي ولّى وإلى غير رجعة بباب من حديد وتسدل على
المستقبل الذي لم يولد بعد بستار من حديد لتعيش يومك براحة
بال واطمئنان» .

«اتركوا الماضي مدفوناً تحت تراب النسيان واطردوا التفكير به من
مخيلتكم ، فهو دليل كل أبله نحو الموت والفناء ليس إلا ، لأن
مشاكل المستقبل لو اجتمعت مع محن الماضي ومعاناة الحاضر
لانهار أقوى الناس وأعتاهم» .

«اطردوا عنكم المستقبل كما فعلتم مع الماضي ، فالمستقبل هو
اليوم الذي تعيشونه، ولا وجود للغد ، ويوم الحرية والخلاص ليس
سوى اليوم ، والأشخاص الذين يتخبّطون تفكيراً بالمستقبل ، لا
يضرّون غير أنفسهم ، فهم يجلبون لأنفسهم متاعب فكرية

(١) الكافي ج ٢ ، ص ٤٥٤ .

(٢ و ٣) نهج البلاغة ، فيض ، ص ٨٦٤ - ١٢٦٥ .

ونفسية ، إذن لا بد من تحرير النفس من الماضي والمستقبل ،
وفصل اليوم عن أمس والغد^(١) .

الرغبات الوهمية :

بالرغم من أن الكثير من الناس من النساء والرجال ، الشبان والشيوخ هم مبتلون بمرض الندم على الماضي والقلق من المستقبل الوهمي ، وهذا ما يجعلهم يفقدون أتمن الفرص الواحدة تلو الأخرى ، إلا أن الشباب وبسبب فطرتهم يقعون في دوامة واحدة وهي دوامة الرغبات الوهمية وحب الخرافات غير الواقعية . وبعبارة أخرى فإن الأشخاص الطاعنين في السن الذين أمضوا حياة طويلة وتجارب كثيرة ، إذا ما أرادوا التفكير بمستقبلهم ، فإن تفكيرهم سيكون ضمن حدود التصورات القريبة من الواقع والسهولة الحصول ، لكن الشبان الذين يغرق غالبيتهم في بداية عهد شبابهم في الأوهام ويعيش تصورات يستحيل تحققها ، فإنهم يتخلفون عن الواقعية ويصنعون لأنفسهم مستقبلاً وهمياً عجبياً وبعيداً عن الواقع وذلك نتيجة الخوف والقلق والحب والأمل الذي يعيشونه .

الامنيات الحلوة :

أحياناً يفكر الشبان بالنجاح الذي سيحققونه في المستقبل ، وبينون من أحلامهم وأمنياتهم الحلوة قصوراً فخمة وحياة خرافية ويوعدون أنفسهم بجنات وهمية ، وكل هذه الأمنيات الحلوة تولد في ذاتهم مشاعر الفرح والسرور .

الافكار الموحشة :

وأحياناً أخرى يفكر الشباب بفشلهم وتخلفهم ، ويغرقون في دنيا الوهم والخيال ، ويتصورون لأنفسهم حياة مليئة بالتعاسة والشقاء ، ويؤججون في

(١) كتاب آيثن زندگي (سنة الحياة) ، ص ٨ .

وجدانهم ناراً محرقة ، وهذا ما يجعلهم يفقدون كل فرصة قد تطرق بابهم وكل سعادة يمكنهم بلوغها .

«بعد بلوغ الإنسان ، يصبح حب التدقيق والتفحص لديه فكرياً وهذا ما يجعله يبدع في التفكير . إن اعتماد الإنسان في مرحلة ما بعد البلوغ ينصبّ على بعض الخواطر والذكريات وما يستحصله من المطالعة والدراسة ، وبمساعدة ذلك يصبح جميل الفكر واسع الخيال» .

«في حين أن الطفل لا يفكر إلا في حاضره ، نرى الفتى الشاب ينقسم مفهومه المعنوي للزمن إلى قسمين : ماضٍ ومستقبل ، ونشاطه الفكري الذي ينصبّ غالباً على الماضي والمستقبل ، يضع الاهتمام بالحاضر في المرتبة الثانية ، ولهذا السبب نرى من الصعب على الشاب مواجهة الحقيقة ، أضف إلى ذلك أن قدرة التصوّر الفكري للفرد تبلغ درجة ترتفع معها إلى حدّ ما الحدود بين الحقيقة والمجاز وخاصة عند الفتيات اللواتي باستطاعتهن مواصلة الأحلام والأوهام في اليقظة خلال حياتهن اليومية . وأحياناً تبرز على الشاب علامات مرض (ميتوماني) حب الكذب إلى حد الخرافة . والحقيقة من وجهة نظر الشباب تخضع لتغييرات كثيرة ، فهم ينظرون إلى الحقيقة من خلف أمواج من الأوهام والأحلام ، لذا ينبغي أخذ الحيطة والحذر إزاء وجهات نظرهم والحكم عليها» .

مرحلة الاوهام :

«إن الشباب هو من أهم مراحل الحياة ، ينطلق الشاب في هذه المرحلة بأوهامه وأحلامه ، وتبرز الأفكار الحلوة والباطلة وخاصة لدى الفتيات ، ويصبح من الصعب عليهم تصديق واقع الحياة ،

وربما حصلت اختلالات في أفكار بعض الأشخاص من أصحاب العقول الظريفة والحساسة»^(١) .

ولا يخفى على أحد أن ميول الشباب الطبيعية نحو الأوهام والخرافات لها آثار مفيدة في توسيع أذهانهم وتفتح قوّة إبداعهم شرط أن لا تتجاوز هذه الميول الحد الطبيعي بحيث تحبس الشباب عن الاستفادة من الفرص .

حسن الإبداع والمبادرة :

وبعبارة أخرى يمكن القول: إن الميول إلى التصورات البعيدة عن الواقع والتي يكون تحقيقها مستحيلاً هي ميزة طبيعية يتّسم بها عهد الشباب ، ووجدت في طبائع الشباب بأمر من الله سبحانه وتعالى ، وهذه الحالة النفسية توسّع من قوّة الخيال لدى الشباب وتدفعهم نحو مزيد من الإبداع ، وهذه الحالة النفسية تثير حسّ الإبداع والمبادرة في ضمير الشباب وتؤهلهم لإعادة بناء الشخصية نحو مزيد من الكمال ، لكن هذه الرغبة وهذه الميول يجب أن تخضع لمراقبة صحيحة لكي لا يتّجه الشاب نحو الإفراط والتفريط ، وينبغي على الشباب والمربين أن ينتبهوا إلى مسألة مهمة وهي أن لا تؤثر أوهامهم وتصوّراتهم سلباً على سائر ملكاتهم ، وأن لا تطفئ تصوّراتهم الموهومة لمستقبلهم على واقع حاضرهم .

ولحسن الحظ أن فترة بروز التصوّرات والتخيّلات والأوهام عند الشباب قصيرة ، فهي تظهر بشكل قوي عند الشباب في السنين الأولى من البلوغ ، وكلما تقدّم الشاب في العمر وزادت تجاربه الحياتية كلما انعتق من الأوهام والخيالات وعاد فكره إلى وضعه الطبيعي تدريجياً .

«إذا ما أراد الإنسان أن يتفحص شخصات فكر الشاب فيأنه سيتأكد من أن القوّة الفكرية لديه لم تفتح بشكل متزن وسليم ،

(١) چه ميدانم ؟ بلوغ ، ص ٤٨ .

فالإفراط في عواطف الحب وقوة التّجسّم والذوق والاستدلالات غير المدروسة وانعدام التجربة ، كل ذلك يعطيه نوعاً خاصاً من التفكير ويُربك عوامل الفكر ويجعل العاطفة تتغلب على فكره»^(١) .

«وعندما يبدأ الشاب بالاقتراب من النضوج والكمال تبدأ شخصيته أيضاً بالنمو في مسيرها الصحيح ، ويصبح من الممكن للشاب أن يتأقلم مع البيئة التي يعيش فيها ، وتزول عنه جميع الآلام النفسية والجسدية التي كان يعاني منها ، بعد أن كان ممكناً أن يؤدي عدم تأقلمه مع بيئته إلى وضع خطير لا يحمد عقباه» .

«وإذا ما أردنا أن نقارن بين الفتى في أول طلوعته والفتى في سنّ العشرين فإننا سنلاحظ تغييرات كثيرة رافقت تقدّم هذا الفتى في عمره ، فبعد أن برزت مصالحه الجديدة وتبلورت بدأ أولى تجاربه الشخصية بشكل حقيقي ، ، وأخذت صورة الشاب تتبلور لتصبح أكثر وضوحاً من ذي قبل»^(٢) .

الشباب المجهول :

إن عهد الشباب من الناحية العلمية هو عبارة عن دورة مليئة بالأسرار في حياة الإنسان . إن علماء اليوم وبفضل التقدّم الذي حققوه في مجال تحليل نفسية الشاب يعترفون بأن هناك الكثير من الحقائق المجهولة في علم النفس الخاص بالشباب ، حيث لم يستطع علماء اليوم كشف جميع هذه الحقائق بشكل كامل ، والتوصل إلى الأركان المظلمة والمجهولة في نفس الشاب ، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن رجال العلم والمعرفة قد توصلوا بمساعيهم

(١) چه ميدانم ؟ بلوغ ، ص ١٠٩ .

(٢) چه ميدانم ؟ بلوغ ، ص ٨٨ .

الحيثية إلى اكتشاف الكثير من هذه الحقائق ، ومعرفة الكثير من الصفات المجهولة في نفسية الشباب .

«يقول موريس دبس : كما أن الناظر إلى خريطة إفريقيا في أواسط القرن الماضي كان يشاهد بقعاً بيضاء متعددة ولم تكن جميع الخرائط متطابقة ومتشابهة ، كذلك الأمر بالنسبة لعملية اكتشاف نفسية الشباب ، فإلى جانب البقع والحفر المجهولة هناك نقاط مكشوفة عديدة ، وربما أدت الاكتشافات الجديدة إلى تغييرات جذرية في هذه النقاط ، إلا أنه ما تزال هناك أسراب متعددة وجبال وأنهار غامضة كغموض نهر النيجر بالنسبة لعلماء الجغرافيا في القرن الثامن عشر ، ومع ذلك فإن هذه الاكتشافات وعلى الأقل فيما حققته قد أعطتنا نظرة دقيقة نسبياً حول وضع سني الشباب من عمر الإنسان»^(١) .

«إن تقدّم علم البلوغ هو أبسطاً ممّا هو متوقع ، حتى انه هناك معلومات بشأن الأطفال وتحليل نفسياتهم أفضل وأكثر ممّا هو موجود بشأن فترة البلوغ» .

«إن فترة البلوغ تعتبر فترة مليئة بالأسرار لا يمكن طرح أسئلة حولها تجد إجابات صحيحة وموثوقة عنها ، أضف إلى ذلك التقلّبات الحاصلة في نفسية الإنسان في هذه الفترة والتي قد تغالط كل التوقّعات والتحليلات بشأن الإنسان البالغ وتدفع بأصحابها إلى التخيلات الواهية»^(٢) .

الاضطرابات النفسية :

إن العوامل الفاعلة للبلوغ تولّد تحولات عظيمة في جسم الإنسان ونفسه

(١) چه ميدانم ؟ بلوغ ، ص ١٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦ .

وتفرض عليه ظروفًا استثنائية ومعقدة ، فمن جهة يحصل الإنسان مع بداية مرحلة الشباب وتفتح قواه الجسمية والنفسية على أفضل مسببات التطور والتكامل ، وسعادته تكمن في استغلال هذه المسببات بصورة صحيحة ، ومن جهة ثانية يُصاب الشاب باضطرابات نفسية وآلام عصبية قد تؤدي به إذا ما تغافل عنها إلى الانهيار والضياع .

وهذه الرغبات والمويل التي يناقض بعضها البعض الآخر دفعت بعلماء اليوم إلى وصف مرحلة الشباب بأنها أكثر مراحل عمر الإنسان تعقيداً وغموضاً ، وجعل مشاكل الشباب في صدارة المشاكل الاجتماعية . ولكي يستطيع الشباب تجاوز مرحلة الشباب العاصفة والخطيرة بأمن وسلام وإنقاذ أنفسهم من السقوط في هاوية الحياة ومطبّاتها والاهتمام بما منّ عليهم الله سبحانه وتعالى من ثروة عظيمة والاستفادة من هذه الثروة أقصى استفادة ، ينبغي عليهم أن يلتفتوا إلى نقطتين مهمتين :

ضعف العقل وحدة الأحاسيس :

النقطة الأولى : معرفة طبيعة أوضاعهم والاضطرابات التي ترافقهم في مرحلة الشباب ، وعليهم أن يعلموا أن الشباب يعني ضعف العقل وحدة الأحاسيس ، وكل ما يتخذونه من قرارات نابع من أحاسيسهم ، وهم قلما يحكمون عقولهم ، وهذا خطر كبير جداً يهدد سعادتهم ، وربما أودى قرار غير سليم يتخذه شاب إلى التعاسة والضياع .

«إن الفتیان ما زال أمامهم عمر طويل ، لذا فإن معرفة الذات معرفة جيدة ستفيدهم كثيراً ، لأنها ستجعلهم قادرين على ضبط أنفسهم وتحريرها من أي ردة فعل أو تصرف غير لائق إزاء ما يستجد عليهم من أوضاع ، كما أنهم سيكونون قادرين على مواجهة نجاحات الحياة وفشلها ، لأن غرور النجاح وبأس الفشل يشكّلان عاملين خطرين على الإنسان» .

«وينبغي أن يعلموا أن تخطي مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ والشباب ليس سهلاً كما يتصور البعض، إنها مرحلة صعبة تستغرق أحياناً سنين طويلة لتجاوزها بنجاح، ولكن لو علم الشباب ماذا يحصل في باطنهم من تغييرات في هذه الفترة لتمكنوا من تخطي المرحلة بسهولة»^(١).

النقطة الثانية : ينبغي على الإنسان أن يغتنم فرصة شبابه ويطرد من فكره الماضي الفاتت والمستقبل الموهوم ويهتم بحاضره ، وأن يسعى للاستفادة من طاقاته في طلب العلم والأخلاق ، ويصنع من نفسه إنساناً لائقاً وكفوءاً ويجهز نفسه للعيش حياة شريفة وكريمة .

(١) كتاب رشد وزندگي (النمو والحياة) ، ص ١٥٧ .

المحاضرة الرابعة

حول البلوغ والنمو

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ (١) .

تمهيد : محيطان مستقلان :

إن أيام الطفولة وما يرافقها من ضعف وعجز وأيام الشباب وما يرافقها من قوة ونشاط تشكّل محيطين مستقلين وزمنين مختلفين ومنفصلين .

إن جسم الطفل هزيل وتصرفه طفولي وعضلاته وعظامه ضعيفة وحركاته وسكناته وأخلاقه وأفكاره بريئة ، إنه يرغب في الاختلاط بالأطفال واللهو معهم ، ويختار ألعاباً تناسب سنّه .

أما الشاب فجسمه قوي وصوته ضخم رجولي وعضلاته وعظامه قوية وحركاته وسكناته وأخلاقه وأفكاره تتناسب وعمره ، إنه يرغب في معايشرة الشباب والرجال ويحب ألعاباً وتسالي تتناسب وعمره .

(١) سورة غافر ؛ الآية : ٦٧ .

همزة الوصل :

تعتبر مرحلتا الطفولة والشباب بمثابة دولتين مستقلتين ومنفصلتين ومنطقتين تختلف فيهما غدوبة الماء والهواء ، كل منهما لها مناخ خاص بها .

ويعتبر البلوغ همزة الوصل بين هاتين المرحلتين اللتين ينتقل الطفل من اولاهما إلى الثانية عبر همزة الوصل ، أي من مرحلة الضعف والعجز إلى مرحلة القوة والششاط . وإذا ما استطاع الفتيان والفتيات الذين أمضوا مرحلة الطفولة بسلام أن يجتازوا فترة البلوغ المليئة بالأعاصير والبراكين أيضاً بسلام فإنهم سيُقبلون على مرحلة جميلة ، ألا وهي مرحلة الشباب وسيلتحقون بصنفوف رجال المجتمع ونسائه .

تطورات البلوغ :

إن الفترة من بداية ظهور عوامل البلوغ على الفتيان والفتيات حتى اكتمال هذه العوامل ودخول الطفل مرحلة الشباب ومايصاحبه من تغييرات جسمية وروحية تستغرق سنين عديدة . وفي هذه المدة تبرز تطورات عظيمة على صعيد جسم الإنسان ونفسه ، فطوله يزداد وأعضاء بدنه يتضاعف نموها ، وتفتح في باطنه أحاسيس ورغبات جديدة ، وتختل صفاته المعنوية والأخلاقية ، وتضعف عادات الطفولة وتضمحل رويداً رويداً وتحل محلها عادات جديدة ، وتندثر العلاقة بالألعاب الطفولة ويزول الاهتمام بها ، ويبدأ التفكير بالألعاب وتسالي جديدة .

الاخلاق المختلة :

إن فترة البلوغ في نظر الناس هي فترة أزمة وثورة ، حيث يتعرض جسم الطفل ونفسه خلال هذه الفترة لأكبر تحوّل وتغيير يشهده الإنسان في حياته ، إن أخلاق الفتيان وتصرفاتهم تصبح خلال فترة البلوغ مختلة وغير موزونة مما دفع بعلماء النفس إلى وصف هذه الفترة بأنها فترة توتر وعصيان .

«إن فترة التحوّل هذه والتي يصفها (پ . ماندوس) بأنها متوترة و يصفها (ش . بوهلر) بأنها سلبية ، هي في الحقيقة عبارة عن دورة تعود انطلاقتها إلى ما قبل البلوغ ، والبلوغ بحدّ ذاته هو عبارة عن اكتساب الإنسان القدرة على الإنجاب» .

الام البلوغ :

«إن فترة البلوغ تنحصر بين سنّ الـ ١٢ و سنّ الـ ١٥ وأحياناً تمتد إلى سنّ الـ ١٦ ، وهي فترة يغلب عليها طابع الأزمة والتوتر ، والبعض يصفها بأنها فترة الاختلال والفوضى ، وهذه الفترة تكون دائماً مصحوبة بالآلام ، فالجسم يصاب بانحطاط وخمول ، والأخلاق تشهد تغييراً ملحوظاً ، ويبدو الفتى والفتاة في مثل هذه الفترة وكأنهما يسيران بعيون مغمضة نحو مستقبل مجهول» .

«ومن بعد ذلك تبدأ أعضاء جسم الإنسان باكتساب القوة ، وتزيد علاقة الإنسان بالعمل الذي عليه أن يختاره مستقبلاً ، وفي الغالب يعمل الإنسان في هذه الفترة أجيّراً أو صانعاً في المهنة المحبّبة إلى نفسه ، ويصبح مهتماً بالقضايا السياسية والاقتصادية ومولعاً بطلب العلم ، ويولد في باطنه شوق للحياة ، وتتفتح في نفسه أحاسيس وعواطف كتفتح زهور الأشجار في شهر نيسان ، ويصبح الفتى الشاب رجلاً شاباً والفتاة الشابة امرأة شابة يتطلعان إلى المستقبل بشوق ولهفة ويتصوّران نفسيهما يطيران بجناح الأمل والطموح . وهذه الفترة تنحصر بين سنّ الـ ١٦ والـ ٢٠ سنة ، وهي فترة تتسم بعنفوان الشباب ، وقد أسماها أفلاطون بـ «سكرة الروح»^(١) .

(١) چه ميدانم ؟ بلوغ ، ص ٩ .

مرحلة البرزخ :

إن أيام البلوغ المليئة بالتوترات والأزمات هي بالنسبة للفتيان والفتيات كمرحلة برزخ بين الطفولة والشباب ، وهي جزء خاص من حياة الإنسان . فلا يمكن احتسابها من أيام الطفولة ولا يمكن احتسابها من أيام الشباب .

البلوغ الكامل :

يطلق على الطفل الذي نمت فيه عوامل البلوغ اسم «المراهق» ، والمراهق ليس طفلاً ولا يعتبر شاباً ، ليس طفلاً لأن عوامل البلوغ قد تركت آثارها في نفسه وعلى جسمه وسلبت منه بعض صفات الطفولة وعاداتها ، وخرجت أفكاره وحركاته وأخلاقه من طور الطفولة واتخذت طوراً آخر، ولا يعتبر شاباً لأن عوامل البلوغ لم تكتمل فيه بعد ، وبعد اكتمالها يتحول الإنسان من فتى مراهق إلى شاب كامل البلوغ وتبرز فيه جميع صفات الشباب .

«هناك نقاش قائم منذ مدة حول ما إذا كان البلوغ يعتبر ضمن مرحلة الطفولة أم ضمن مرحلة الرشد والكمال ، وحتى يومنا هذا هناك غالبية من الناس تعتقد بأن الإنسان تستمر طفولته حتى سنّ الـ ١٤ أو الـ ١٥ سنة ، ثم يمرّ بمرحلة برزخ وهي مرحلة البلوغ قبل أن يصبح إنساناً ناضجاً فكرياً وجسدياً . وهذا اعتقاد خاطيء ، لأن الإنسان ما بين سنّ الـ ١٢ و الـ ١٨ يمرّ بمرحلة معينة من الحياة مستقلة تماماً عن مرحلة الطفولة ومرحلة الكمال ، لها مميزاتها وقوانينها وتلعب دوراً مهماً في حياة الإنسان » .

تغييرات جسمية وفكرية :

«في الدراسات والأبحاث المتعلقة بنمو جسم الإنسان يجب تخصيص مكان أساسي مناسب للبلوغ ، فمفهوم كلمة بلوغ يجسد هذه الأهمية ، وهي أهمية الفترة التي ينمو فيها جسم الإنسان وعقله ، إذن فالبلوغ له أهميته الأساسية في دراسة تكامل

الإنسان ، ومن المستحيل وصف دورة البلوغ وصفاً دقيقاً دون الأخذ بعين الاعتبار التغييرات التي تطرأ باستمرار على جسم الإنسان وعقله خلال هذه الدورة»^(١) .

لقد جاء الإسلام بتعاليم وأحكام خاصة للفتيان والفتيات الذين لم يكملوا مرحلة البلوغ ، فالولد في سن الـ ١٢ عاماً لا يمكن محاسبته كالفرد البالغ ، ولا يمكن تركه وإهماله كطفل صغير ، ينبغي عليه أن يصلي ويصوم ، ومن واجب والديه مراقبته وحثه على ذلك ، وفي المقابل مُنح بعض التسهيلات لأنه لم يكمل مرحلة البلوغ بعد ، فإذا ما رفض الإنصياع لبعض الأوامر وتنصل من أداء بعض المسؤوليات فإنه لن يتعرض لمجازاة وعقاب كفرد بالغ .

جرم غير البالغ :

حتى إذا ما اقترف ذنباً وارتكب جرماً فإن له وضعاً خاصاً ، لذا فإن من واجب الولد في الـ ١٢ من العمر أن يتجنب ارتكاب الجرائم والذنوب حفاظاً على سمعته وبراءته ، أما إذا ارتكب جريمة بالصدفة فإن المحكمة لا يمكنها أن تحكم عليه بالمجازاة أو بالحدّ الشرعي ، لأنه لم يبلغ بعد ، ومثل هذه الأحكام لا تشمل إلاّ البالغين ، ومن جهة ثانية لا يستطيع قاضي الشرع تجاهل جريمته وذنبه كلياً ولا يمكنه أن يعفيه من العقاب كطفل صغير ، وفي مثل هذه الحالة يُعزّرُ الولد ويقام فيه حكم تأديبي .

روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : في الغلامِ يَفْجُرُ بِالْمَرَأَةِ قَالَ : يُعَذَّرُ وَيُقَامُ عَلَى الْمَرَأَةِ الْحَدُّ^(٢) .

العقاب التأديبي :

وروي عنه عليه السلام أنه قال : لا حَدَّ عَلَى الْأَطْفَالِ وَلَكِنْ يُؤَدَّبُونَ أَدْباً بَلِيغاً^(٣) .

(١) چه میدانم ؟ بلوغ ، ص ١٥ .

(٢) و (٣) مستدرک ج ٣ ، ص ٢٢٣ .

النمو السريع والشامل :

يعتبر البلوغ بمثابة ولادة جديدة يخرج فيها الطفل من محيط الطفولة المحدود إلى دُنيا الشباب الواسعة . ورغم أن الأطفال منذ ولادتهم هم في حال نمو دائم ، لكن النمو السريع والشامل للإنسان لا يكون إلا في ولادته الثانية أي فترة البلوغ ، والبلوغ يساهم في إبراز ما خفي من ملكات الإنسان واستعداداته . إن مجموع التحوّلات الطبيعية للولادة الثانية يمكن حصره في ثلاثة فصول هي : البلوغ والنمو والشباب .

بالرغم من أن مسألة البلوغ وما يتبعها من تحوّلات تعتبر إحدى مسائل علم الحياة ، والخوض في هذه المسألة بحثاً وتحليلاً هو من شأن علماء علم الحياة ، إلا أن هذه المسألة وما لها من أهمية في تفتح مشاعر وعواطف الإنسان ، وأهميتها على الجانب الأخلاقي والنفسي للفتى البالغ ، تحظى أيضاً باهتمام كبير من قبل علماء النفس والتربية ، فعلماء الطبيعة يبحثون مسألة البلوغ من ناحية علم الحياة ، أما علماء النفس والأخلاق فيبحثونها من الناحية النفسية والتربوية .

مختلف أوجه البلوغ :

«إن لعالم البلوغ أوجهاً مختلفة ، منها أن فترة البلوغ التي تعتبر جزءاً من حياتنا لها وجه متكامل ومعقد ، فهي عالم بحدّ ذاته ، ليس منغلّقاً على نفسه ، يصل ما بين عهد الطفولة الذي يسبقه وعهد الكمال الذي يليه ، ومع هذا فإن له تشكيلات وانفعالات خاصة به . ومن الممكن دراسة كل ما يتعلق بمسألة البلوغ من مختلف أوجهها من قبيل علم الحياة الخاص بالبلوغ وعلم النفس والتربية والتعليم وحتى علم الأخلاق . ومن أجل تكوين صورة صحيحة واضحة عن هذه الفترة من حياة الإنسان ، لا بدّ من دراسة مختلف أوجه هذه الحقيقة»^(١) .

(١) چه ميدانم ؟ بلوغ ، ص ١١ .

معرفة أسباب الحوادث :

إن معنى التقدّم والتطوّر العلمي في عالمنا المعاصر هو معرفة الأسباب الخفية للحوادث ، ومعرفة عوامل الظواهر الطبيعية . فكلما ازدادت الدول قدرة على اكتشاف الحقائق الخفية والمجهولة وإدراك أسرار الخلقة ، كلما ازدادت هذه الدول علماً ومعرفة إلى جانب قدراتها ، وبلغت شعوبها حدّاً من الرقي والتكامل .

إن العالم بأسره يرى الحوادث على ظاهرها ، لكن معرفة الأسباب التي تقف وراء هذه الحوادث ليست بالأمر اليسير ، فمن الحوادث الطبيعية التي تراها كل الأمم المتحضرة والمتخلّفة نذكر على سبيل المثال كسوف الشمس وخسوف القمر وزلزلة الأرض وهبوب الأعاصير واخضرار الأشجار وحمل الحيوان والإنسان والإنجاب وغير ذلك من ماث الحوادث الطبيعية التي تشهدها كرتنا الأرضية ، لكن المسألة الأهم هو أن يعرف الإنسان لماذا تكسف الشمس وتهتز الأرض ؟ ، وكيف تتفتح الأشجار وتخضر ؟ ، وكيف تحمل وتنجب النساء ؟ ، وكيف تنتقل الصفات من الآباء والأمهات إلى الأطفال ؟ .

في الأمس البعيد كان الإنسان يرى كيف يُصاب أخوه الإنسان بمرض الملاريا الذي كان يسلبه قوته ويطرحة في الفراش ويُودي بحياته تدريجياً ، لكن لا أحد كان يعرف أسباب هذا المرض . والكل كان يرى كيف أن مرض السل كان يجتاح جسم الإنسان ويصيبه بالضعف والعجز ويقضي عليه في نهاية المطاف ، لكن لا أحد كان يعرف السبب الحقيقي لهذا المرض . وعندما توصل العلم الحديث وبفضل تجهيزات غاية في الدقة إلى اكتشاف عالم الميكروبات والجراثيم والفيروسات ، ووقف مذهولاً ومتحيراً أمام موجودات لا يمكن أن تراها العين المجردة ، تعرّف على السبب الرئيسي للأمراض العفوية السارية ، وبذلك كشف النقاب عن أكثر أسرار الخلقة تعقيداً ، حيث تبين أن سبب هذه الأمراض هو قيام الملايين من الجراثيم المجهرية الموجودة في جسم

الإنسان باجتياح جسم المريض واحتلاله والتكاثر من أجل البقاء ، وقيامها بتعزيز وجودها وإضعاف جسم المريض الذي ما يلبث أن يفارق الحياة .

العلامات البارزة للبلوغ :

إن البلوغ وما يرافقه من تطورات تطراً على جسم الطفل ونفسه يعتبر حقيقة كامنة في حياة الإنسان لا يمكن إنكارها . إن معلومات عالم الأوس حول البلوغ كانت تقتصر على مشاهدة التغييرات التي كانت تطراً على أجسام الفتيان وأخلاقهم ، والكل كان يرى أن جسم الفتى في حال نمو سريع نتيجة البلوغ ، لكنهم كانوا يجهلون حقيقة البلوغ والعوامل التي يقوم عليها .

العامل الاساس للبلوغ :

إن علماء عصرنا الحالي استطاعوا عبر وسائل علمية متطورة ومختبرات دقيقة ومجهزة اكتشاف حقيقة هذا السرّ إلى حدّ ما ، ومعرفة العامل الحقيقي للبلوغ . ويستشف من الكتب العلمية أن دراسات العلماء وتحقيقاتهم قد توصلت إلى أن الغدد الداخلية في تركيب جسم الإنسان هي بمثابة مصانع كيميائية غاية في الدقة والتنظيم تنتج كل منها مادة أو عدة مواد خاصة تسمى علمياً بـ «الهورمونات» وتقذف بها مباشرة نحو الدّم .

«نحن نستطيع أن نشبه جسم الإنسان بمجتمع مثالي متكامل ، تشكّل العظام القاعدة والأساس القوي الذي تقوم عليه سائر أعضاء الجسم ، وبين هذه الشبكة من العظام تعيش أسر أو فرق مختلفة تتعاون فيما بينها من أجل هدف واحد يجمعها» .

ويمكن تقسيم هذه الفرق التي تعيش في كنف العظام إلى ست فرق هي :

١ - الجهاز الهضمي ، ٢ - الجهاز التنفسي ، ٣ - جهاز جريان

الدم ، ٤ - جهاز الأعصاب ، ٥ - جهاز الغدد ، ٦ - الجهاز التناسلي»^(١) .

الغدد الداخلية :

«إن الغدد الباطنية الإفراز هي عبارة عن أجسام تشكلت من خلايا معروفة ومتميزة ، ويأتي هذا الوصف للخلايا كونها تعمل على الحؤول دون تمازج الإفرازات ، وهذه الإفرازات التي تدعى بـ «الهرمونات» تدخل مجاري الدم بشكل مباشر لتصل إلى جميع خلايا الجسم . ويطلق علماء وخبراء التشريح على هذه الغدد اسم الغدد اللاقنوية»^(٢) .

دور الهرمونات :

إن عمل هذه الغدد وما تنتجه من إفرازات يعتبر أساس التحولات التي يشهدها جسم الإنسان ، كما أن عمل هذه الغدد بصورة منتظمة وتوازن الإفرازات الهرمونية يؤديان دوراً مهماً جداً في توازن الجسم والأعصاب وسلامة الإنسان جسمياً وخلقياً ، أما إذا حصل أي خلل في عمل هذه الغدد وأربك عملها وإفرازاتها ، فإن ذلك سينعكس سلباً على جسم الإنسان وسلامته وأعصابه وخلقياته ويستطيع أن يساهم في بروز أمراض تهدد الإنسان .

وبالرغم من أن العلماء المعنيين بهذه المسألة قد نفذوا خلال النصف الأخير من القرن الحالي إلى هذا العالم المظلم ونقصد هنا عالم الغدد الداخلية ، ووقفوا مذهولين أمام آثار الهرمونات ، وحققوا نجاحات عظيمة في هذا المجال نتيجة كثرة تجاربهم وكثافة تحقيقاتهم ، إلا أن مسألة الغدد اللاقنوية وإفرازاتها الكيميائية بقيت معقدة وغامضة مما دفع بأصحاب

(١) كتاب رشد وزندگي (النمو والحياة) ، ص ٦٥ .

(٢) كتاب بدن إنسان (جسم الإنسان) ، ص ١٢٤ .

الاختصاص إلى الاعتراف صراحة بعجز العلم في هذا المجال .

عدم كفاءة العلم الحديث :

«يقول الدكتور «إديت سبرول» : إننا ما زلنا حتى يومنا هذا نجهل كامل التفاصيل عن الغدد الباطنية الإفراز ، فنحن ما زلنا في بدايات تحقيقاتنا وأبحاثنا بهذا الشأن ، ولم نصل سوى إلى كيفية تركيب الهرمونات الخاصة بالغدد الباطنية الإفراز وتأثيرها على جسم الإنسان ، لكننا نجهل أيضاً كيف تتأثر هذه الآثار»^(١) .

«ويقول الدكتور «اوستاس جسر» : إن من بين أعضاء جسم الإنسان التي ما زلنا نجهل الكثير من أسرارها هي الغدد الداخلية ، إننا نستطيع فقط تحديد عمل هذه الغدد ، لأن التجربة أثبتت لنا بأن الغدة الفلانية إذا لم تعمل جيداً فإن الإنسان يُصاب بالمرض الفلاني ، ولكننا دائماً لا نعلم لماذا وكيف تؤدي هذه الغدد وظائفها الخاصة»^(٢) .

ظاهرة البلوغ :

إن من نتائج عمل الغدد الداخلية ظاهرة البلوغ والتحويلات التي تطرأ على مزاجية الأطفال . ويعتقد علماء علم الحياة بأن المنشأ الطبيعي للبلوغ هو ترشح الهرمونات الجنسية وعمل بعض الغدد الداخلية بشكل منظم .

«إن الغدد الجنسية تكون منذ ولادة الإنسان حتى بلوغه في سبات عميق ، ولا تقوم هذه الغدد بأي نشاط في الفترة المذكورة . وفي سن البلوغ تقوم الغدة النخامية (Hypophysis) بإفراز هورمونات جنسية محرّكة ، تساهم في إيقاظ سائر الغدد الجنسية لتباشر

(١) نفس المصدر ، ص ١٢٥ .

(٢) رشد وزندكي (النمو والحياة) ص ١١٤ .

وظائفها»^(١) .

«إن الخصيتين عند الرجل عبارة عن غدد تفرز مادتين ، الأولى تدخل الدم مباشرة ، ولهذا تعتبر من الغدد الداخلية ، والثانية مادة (Sperm) وهو ما يُطلق على السائل المنوي» .

«ولدى المرأة أيضاً غدتان تسميان بالمبيض ، عملهما كعمل الخصيتين عند الرجل ، ولكن المبيضين عند المرأة يقعان داخل جسمها وهما ليسا متقاربين ، فهما يقعان على طرفي الرحم في الجزء الأسفل من البطن»^(٢) .

بداية بلوغ الطفل :

إن بداية بلوغ الطفل تكون عندما تستيقظ الغدد الجنسية من سباتها وتبدأ عملها، بالخفاء بالتعاون مع سائر الغدد الداخلية ، حيث تصب هورمونات جنسية في دم الطفل تحرك مزاجيته وتشعل ثورته .

مرحلة البلوغ :

إن العوامل الرئيسية التي أدت إلى بلوغ الإنسان تبقى طيلة سني البلوغ نشطة وفعالة ليكمل الإنسان نموه ويصلب عوده وتزداد قوته ويكتسب كل ما يمتاز به الرجل أو المرأة الكاملان .

«الخصية عند الرجل تقوم بوظيفتين مختلفتين ، الأولى : صنع هورمون ذكري (Testosterone) والثانية : صنع النطفة . وتضم الغدة النخامية هورمونات منشطة خاصة لكل من هاتين الوظيفتين ، ويعتبر التستوسترون أقوى بكثير من الهورمونات الذكورية للغدة فوق الكلوية ، فهو يساهم في تبلور العوامل الجنسية الثانوية

(١) الهورمونات ، ص ٢٣ .

(٢) رشد وزندكي (النمو والحياة) ، ص ١٢١ .

وولادة الرغبة الجنسية»^(١) .

«وتقوم هورمونات المبيض بوظيفتين مهمتين» :

«الأولى : بلورة العوامل الجنسية الثانوية ونمو الجهاز التناسلي ،
والثانية : تنظيم الدورة الشهرية للأعضاء التناسلية» .^(٢) .

«مع دخول التستوستيرون إلى مجرى الدم ، تبدأ التغييرات التي
تجعل من الولد رجلاً بالتفاعل . إن تأثير التستوستيرون لا يساهم
فقط في نمو الأعضاء التناسلية وأكياس الحيوانات المنوية ونمو
الشعر وظهوره في جسم الإنسان بل إنه يؤدي أيضاً إلى اكتمال نمو
سائر أعضاء الجسم والقوى العقلية بما في ذلك العضلات
والعظام»^(٣) .

نمو الجسم :

«إن الإفرازات الخاصة التي تدخل مجرى الدم تساعد في ظهور
علامات الرجولة مثل ظهور الشعر على صدر الرجل وبطنه ووجهه
وضخامة صوته وغير ذلك من علامات الرجولة ، وهذا الأمر لن
يحصل دفعة واحدة بل بصورة تدريجية . إن الفترة ما بين عهد
الطفولة وعهد الرجولة تسمى بفترة البلوغ ، وفي هذه الفترة يشهد
جسم الإنسان الكثير من التغييرات الناجمة في الغالب عن عمل
الخصيتين أو المبيضين وسائر الغدد الداخلية في الجسم»^(٤) .

إن من أهمل التحولات والتغييرات التي تطرأ على جسم الإنسان خلال

(١) الهورمونات ، ص ٢٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٣ .

(٣) بدن إنسان (جسم الإنسان) ، ص ١٤٠ .

(٤) رشد وزندگي (النمو والحياة) ، ص ١٢٣ .

فترة البلوغ ، هو النمو السريع للعظام والعضلات وسائر الأعضاء الداخلية . وبالرغم من أن الطفل منذ أن يكون جنيناً في رحم أمه وحتى في عهد طفولته هو في حالة نموّ مستمرة ، إلا أن نموّ مرحلة البلوغ أسرع وأشد لدرجة أنه لا يمكن المقارنة بين النموّ في هاتين المرحلتين ، وهذا ما دفع بالعلماء إلى التعبير عن النمو في مرحلة البلوغ بالقفزة .

«إن الهورمونات الجنسية التي ترشح لدى المرأة من المبيض ولدى الرجل من الخصية تزيد من حساسية الخلايا تجاه هورمونات النموّ ، يعني أنها تؤدي لأن تبدي الخلايا مزيداً من ردود الفعل تجاه مقدار ثابت من هورمونات النموّ ، وتبدأ بانتاج مزيد من الخلايا ، وهذا ما يساهم في عملية تسريع نموّ الفتيان والفتيات خلال مرحلة البلوغ وحصول ما يسمى بالقفزة»^(١) .

سرعة النمو :

«خلال هذه الفترة ونتيجة لسرعة نموّ الجسم ، يزداد الإنسان طولاً بشكل سريع . أما الطفل فيشهد منذ ولادته نموّاً سريعاً ، ويصبح طوله في سنّ الخامسة ضعف ما وُلد عليه ، بعد ذلك يبدأ مستوى نموّه بالانخفاض حتى يصل في سنّ العاشرة تقريباً إلى أدنى حد ، وفي سن الثانية عشرة للفتيات تستأنف عملية النموّ من جديد ، ويزداد الإنسان طولاً خلال مرحلة البلوغ بمعدل ٢٠ إلى ٢٥ سنتيمتراً ، وهذا المعدل بالنسبة لنمو كامل الجسم ليس بكثير ولكنه يلفت الاهتمام والأنظار كونه يحصل بسرعة فائقة . وغالباً ما يحصل أن يزداد طول الإنسان عشرة سنتيمترات فقط خلال أشهر نتيجة مرض ابتلي به ، بينما هذا المعدل لم يكن في السابق ليتحقق خلال سنين طويلة»^(٢) .

(١) الهورمونات ، ص ١٢ .

(٢) چه ميدانم ؟ ، بلوغ ، ص ٢٣ .

نمو العظام :

إن عضلات جسم الإنسان تأخذ من عظامه قاعدة لها ، والإنسان مهما كان طوله طبيعياً أم غير طبيعي يكون مردّ ذلك تركيبة عظامه . فالعظام تبدأ نموّها التدريجي منذ الولادة ، ويزداد طول الطفل وينمو جسمه حسب نموّ عظامه ، لكن هذا النموّ يزداد خلال مرحلة البلوغ ليصل إلى مراحلها التكاملية .

نمو الطول النهائي :

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : وَيَسْتَكْمِلُ طَوْلَهُ فِي أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً^(١) .

«إن أولى علامات البلوغ هي النمو السريع للجسم وخاصة العظام الطويلة . إن علاقة نمو العظام بالهورمونات الجنسية هي علاقة كبيرة جداً بحيث يمكن من خلال تصوير العظام بواسطة الأشعة التكهّن بتاريخ بدء بلوغ الإنسان جنسياً»^(٢) .

«مع بداية مرحلة البلوغ تنمو الساقان بسرعة بحيث يصبح الفتيان البالغون في الغالب أشبه بالطيور ذوات السيقان الطويلة ، حتى إن هذا النموّ السريع يؤثر أحياناً على منطقة المفاصل ، حيث لا يستطيع الجلد أن يواكب هذه السرعة في النمو فيصاب بتشققات داخلية تبدو واضحة للعيان وتسمى بتشققات النموّ ، ثم يبدأ النموّ السريع ليشمل الشبكة العظمية في جسم الإنسان ، حيث تبدأ العظام بالنمو إما طولاً وإما عرضاً» .

«ومن الواضح جداً أن العظام تستكمل نموّها خلال مرحلة البلوغ ، وبعد سنّ العشرين يبدأ معدل النموّ بالانخفاض ، وعادة

(١) مستدرك ج ٢ ، ص ٦٢٥ .

(٢) الهورمونات ، ص ١٨ .

ما تتوقف العظام عن النمو عندما تتلف الغضاريف الموجودة في مناطق الاتصال من جسم الإنسان ، وهذا ما يتم بين سن العشرين والخمس والعشرين سنة»^(١) .

التباين بين نمو المرأة والرجل :

إن نموّ العظام في جسم الفتيان والفتيات يختلف باختلاف وظائفهم وواجباتهم الحياتية ، فالفتيات أمامهن وظيفة خاصة هي الإنجاب ، لذلك ينبغي أن تكون تركيبة أجسامهن تلاءم وهذه المسؤولية . وفي قانون الخلقة تمت مراعاة هذه المسألة بشكل دقيق ، حيث ان الله سبحانه وتعالى منّ على المرأة بلطفه وعطفه وجعل لها عظماً تكون معها قادرة على الحمل والإنجاب ، وهذا أحد نقاط التباين الطبيعية بين نمو المرأة والرجل .

«وخلال مرحلة النموّ السريع للعظام ، يأخذ الجسم شكله النهائي . فلدى الرجل ينمو الجزء الأعلى من القفص الصدري والكتف ، ولدى المرأة ينمو حوض الخصر ، وهذا ما يجعلها تكون ذات حوض واسع وكتف ضيق ، على عكس الرجل الذي يكون ذا حوض ضيق وكتف عريض واسع . إن نمو حوض الخصر لدى المرأة يعتبر من أهم التغييرات الجسميّة خلال مرحلة البلوغ ، لأن عدم نمو الحوض بشكل طبيعي يعسر من الولادة على المرأة»^(٢) .

«يقول الدكتور كارل : إن التباين القائم بين المرأة والرجل لا علاقة له بشكل الجسم أو بمسألة الحمل والإنجاب لدى المرأة فقط ، بل هو نتيجة سببٍ أعمق مردهُ تأثير المواد الكيميائية التي ترشح عن الغدد التناسلية وتدخل الدم» .

(١) چه ميدانم ؟ بلوغ ، ص ٢٤ .

(٢) الهورمونات ، ص ١٨ .

الفرق الاساسي بين المرأة والرجل :

«إن سبب عدم الاهتمام بهذه النقطة الرئيسية والمهمة تجعل أنصار المرأة يتصورون أن باستطاعة المرأة أن تقاسم الرجل في جميع مسؤولياته ومشاغله . والحقيقة أن هناك فرقاً بين المرأة والرجل في كثير من المجالات ، فكل خلايا جسم المرأة وأعضائها وخاصة سلسلة الأعصاب لديها تدلّ على طبيعتها كأنثى» .

«إن القوانين الفيزيولوجية هي كقوانين عالم الكواكب والنجوم ثابتة وغير قابلة للتغيير ، فلا يمكن أن تنفذ إليها الرغبات الإنسانية . وينبغي علينا أن نتقبلها كما هي ، فالمرأة عليها أن تهتم بمواهبها الطبيعية وتنظر إلى طبيعتها ولا تلجأ إلى تقليد الرجل وتسعى لأداء واجبها خدمة للبشرية ، وهذا الواجب المقدس هو أهم من واجبات الرجل ، لذا عليها أن لا تستخف بموقعها ومسؤولياتها»^(١) .

على أية حال فإن الفتيات والفتيان الذين يمتلكون غدداً داخلية سليمة ذات أحجام طبيعية وإفرازات هورمونية طبيعية ، تبدأ عظامهم بالنمو مع دخولهم مرحلة البلوغ ، ويستمر هذا النمو حتى مراحلهِ الأخيرة حيث تزول غضاريف الاتصال ، ولكن بفارق واحد جاء به نظام الخلقة وهو أن حوض الخصر لدى الفتيات ينمو أكثر مما هو عليه لدى الفتيان لما عليهن من واجبات الحمل والإنجاب .

النمو الضعيف للجمجمة :

إن الجزء العظمي الوحيد في جسم الإنسان الذي لا يتأثر بفعل التغييرات والتحوّلات السريعة التي تطرأ على نمو الإنسان في فترة البلوغ ، هو

(١) إنسان ناشأخته (الإنسان المجهول) ، ص ٨٤ .

الجمجمة . إن نمو جمجمة الرأس خلال مرحلة البلوغ ضعيفة جداً ، ولهذا نرى الشاب البالغ لا يمكنه أن يرتدي هذا العام ملابس العام الماضي لضيقها وقصرها باستثناء القبعة التي يمكنه أن يرتديها لسنتين عديدة ، إلا إذا حال حب الجمال والتجمل لديه والذي ينمو عادة أسرع من سائر أعضاء الجسم دون ذلك ، واعتبر أن ارتداء قبعة العام الماضي لا يتماشى والموديل العصري .

نمو الاعضاء الداخلية للجسم :

مع نموّ العظام المختلفة في جسم الإنسان تشهد سائر الأعضاء الداخلية مثل القلب والكبد والكلية والمعدة وكذلك العضلات نمواً سريعاً ومنتظماً بنسب متفاوتة .

«إن الأعضاء الداخلية لجسم الإنسان تنمو وتكبر بنفس الطريقة ، وتبلغ غالبيتها أقصى حدّ من الوزن في مرحلة البلوغ ، والكبد هو أفضل مثال نذكره هنا . إن زيادة وزن الجسم تكون أكثر من زيادة الطول ، وهذه الزيادة تحصل في سنّ الثانية عشرة لكلا الجنسين ، في حين أن هذه الزيادة لم تتجاوز الكيلوغرام أو الكيلوغرامين في السنة لدى الأطفال ، بينما نراها تبلغ أربعة أو خمسة كيلوغرامات في السنة لمن تنحصر أعمارهم بين الإثني عشر والستة عشر عاماً . أما القوّة العضليّة فهي تزيد ثلاثة أضعاف عند الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والثامنة عشرة سنة» .

«وفي نهاية مرحلة البلوغ يمكن القول: إن الجسم قد اتخذ شكله وحجمه الطبيعيين ، وخرج نهائياً من مرحلة الطفولة وهو في طريقه نحو النمو والكمال . ولو حظ أن كل فتى من سنّ السابعة عشرة وما فوق ينقصه من حيث الطول عُشر المعدل ومن حيث الوزن ثلث المعدل الطبيعي ليصل إلى الكمال»^(١) .

(١) چه ميدانم ؟ بلوغ ، ص ٢٦ .

تعادل النمو :

إن المسألة المهمة التي استأثرت باهتمام العلماء والباحثين وجعلتهم يطرحونها ويناقشونها في كتبهم العلمية ودراساتهم هي مسألة التعادل والتوازن في نمو جميع أعضاء جسم الإنسان ، بحيث ان كافة أعضاء جسم الإنسان تبدأ بالنمو من رحم الأم مروراً بمرحلة الطفولة وصولاً إلى مرحلة البلوغ بشكل متناسب وسليم .

إن دقة نظام الخلق في هذا المجال يشير إليها القرآن الكريم في العديد من آياته المباركة وينسب هذه الدقة لله سبحانه وتعالى .

خلق البشر وفق حسابات :

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(١) .

ويقول جلّ وعلا : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(٢) .

ويقول عزّ اسمه : ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾^(٣) .

نمو الجسم في مختلف المراحل :

قال الإمام الصادق عليه السلام رداً على سؤال للمفضل حول نمو الأبدان في رحم الأم وصولاً إلى مرحلة البلوغ والشباب :

قَالَ الْمُفْضَلُ فَقُلْتُ: صِفْ نُشُوءَ الْأَبْدَانِ وَنُمُوهَا حَالاً بَعْدَ حَالٍ حَتَّى تَبْلُغَ التَّمَامَ وَالْكَمَالَ . فَقَالَ عليه السلام : أَوَّلُ ذَلِكَ تَصَوُّرُ الْجَيْنِينَ فِي الرَّجْمِ حَيْثُ لَا تَرَاهُ عَيْنٌ وَلَا تَنَالُهُ يَدٌ وَيُدَبَّرُ حَتَّى يَخْرُجَ سَوِيًّا مُسْتَوِيًّا جَمِيعَ مَا فِيهِ قِوَامُهُ وَصَلَاحُهُ مِنْ الْأَحْشَاءِ وَالْجَوَارِحِ وَالْعَوَامِلِ إِلَى مَا فِي تَرْكِيْبِ أَعْضَائِهِ مِنَ الْعِظَامِ وَاللَّحْمِ وَالشَّحْمِ وَالْمُخِّ وَالْعَصَبِ وَالْعُرُوقِ وَالْغَضَارِيْفِ .

(١) سورة القمر ؛ الآية : ٤٩ .

(٢) سورة الرعد ؛ الآية : ٨ .

(٣) سورة الطلاق ؛ الآية : ٣ .

تناسب الهندام :

ويضيف الإمام الصادق عليه السلام : فإذا خَرَجَ إلى العالمِ تَرَاهُ كَيْفَ يَنْمُو بِجَمِيعِ أَعْضَائِهِ وَهُوَ ثَابِتٌ عَلَى شَكْلِ وَهَيْئَةٍ لَا تَتَزَايَدُ وَلَا تَنْقُصُ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، هَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ لَطِيفِ التَّدْبِيرِ وَالْحِكْمَةِ (١) .

إن النمو المتعادل والمتوازن لمختلف أعضاء جسم الإنسان ثابت على أساس نظام التكوين وقانون الخلق المنبثق من إرادة الله سبحانه وتعالى ، ويسري مفعول هذا القانون بشكل طبيعي على الجنين والرضيع والطفل والشاب .

اختلال النمو :

إن الأشخاص الذين يتمتعون بسلامة بدنية ولهم أجسام طبيعية يشهدون نمواً متعادلاً ومتوازناً ، أما المرضى الذين يعانون من اختلالات في الغدد الداخلية فيواجهون أعراضاً مختلفة ، وبعضهم يشهد اختلالاً في نمو أعضاء الجسم .

ازدياد أو نقصان هورمونات النمو :

«إن معلوماتنا حول الغدد الباطنية الإفراز هي حصيلة دراسة لحالات المرضى الذين يعانون من اختلال في واحدة أو مجموعة من الغدد الباطنية الإفراز . إن الأمراض التي تهدد الغدد الباطنية الإفراز تنقسم إلى قسمين» :

«١ - الأمراض التي تشل عمل الغدد المذكورة . ٢ - الأمراض التي تزيد من نشاط هذه الغدد . إن نتائج الدراسات والبحوث التي جرت حول هذا النوع من المرض هي قريبة جداً لنتائج الإختبارات التي جرت على الحيوانات» (٢) .

(١) بحار الأنوار ج ٢ ، ص ٢١ .

(٢) بدن إنسان (جسم الإنسان) ، ص ١٢٦ .

«إن هورمونات النمو التي تعتبر ضرورية جداً لنموً وتكامل الثدييات ، لها أثرها المباشر على كافة أعضاء الجسم . إن ازدياد نسبة هورمونات النمو عن حدّها الطبيعي يولّد مرضاً يُسمى (Acromegaly)، وأعراض هذا المرض هي عبارة عن تضخّم الأنسجة العظمية والأنسجة الطرية وخاصة في الأجزاء البارزة كاليدين والقدمين والوجه . كما أن ازدياد هورمونات النمو يحوّل الطفل إلى ما رُدّ ضخم ، لأن كامل أعضاء الجسم تنمو مع بعضها البعض ، ولكن كيف تفعل هورمونات النمو كل ذلك ؟ ، فإن الإجابة ما زالت مجهولة»^(١) .

انتهاء مرحلة الطفولة :

إن التغييرات الأساسية التي ترافق مرحلة البلوغ تأتي لتهيء عهد الطفولة وتأخذ بيد الفتى الذي تبدأ عظامه وعضلاته وسائر أعضاء جسمه بالنمو السريع لتصنع منه رجلاً مكتملاً ، ولا يمضي وقت طويل حتى تظهر عليه جميع علامات الرجل الكامل .

وإلى جانب هذه التغييرات والنمو السريع للجسم تظهر عوارض أخرى على جسم الفتى نتيجة البلوغ .

«يبدأ الأولاد بالتعرّف على أشياء جديدة ، وتبدأ حبيبات سوداوية اللون تظهر على وجههم وخاصة في أطراف الأنف وعلى الخدين والكتفين ممّا يزيد من قلقهم واضطرابهم ، وعندما تبدأ الغدد الدهنية بإفرازاتها الغزيرة وتسدّ بعض المسامات تظهر حبيبات كثيرة على الوجه وهي ما تُعرف في عالم الشباب بحبّ الشباب ، وهذه الحبيبات ليس لها أي ضرر سوى أنها تُشعر الشباب بالخجل وخيبة الأمل» .

(١) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .

نمو الاوتار الصوتية :

«إن تغير الصوت الذي يظهر عاجلاً أم آجلاً على الإنسان حسب البيئة والمناخ اللذين يترعرع فيهما هو من الآثار التي تشمل جميع الناس خلال مرحلة البلوغ . فالحنجرة تتوسع وتصبح أكثر بروزاً أثناء البلوغ ، والأوتار الصوتية يزيد طولها إلى الضعفين ، ويبدأ الصوت الذي كان رقيقاً وناعماً بالتضخم خلال أشهر معدودة ، ثم تنخفض شدة ضخامة الصوت نسبياً خلال عدّة أسابيع لتصبح بمستوى صوت البالغ ، وآخر تغيير يطرأ على صوت الإنسان يكون قبل سنّ السابعة عشرة» .

«كذلك الأمر بالنسبة لصوت المرأة ولكن بنسب غير محسوسة ، فإن صوتها الذي يصح أكثر حدة وطلاقة يبدأ بالثبات والاستقرار في سنّ الخامسة عشرة تقريباً»^(١) .

الفرق بين الصبي والصبية :

إن نمو الشعر على وجه الصبيان هو من علامات البلوغ وأقول عهد الطفولة ، أما الصبايا فلا شعر ينمو على وجوههن ، وهذا ما يعتبر فرقاً كبيراً وواضحاً بين النساء والرجال . وقد أشار إلى ذلك الإمام الصادق عليه السلام موضحاً للمفضل مظاهر جمال المرأة وطراوتها ، حيث قال عليه السلام : فَإِذَا أَدْرَكَ وَكَانَ ذَكَرًا طَلَعَ الشَّعْرُ فِي وَجْهِهِ فَكَانَ ذَلِكَ عَلَامَةَ الذَّكَرِ وَعِزُّ الرَّجُلِ الَّذِي يَخْرُجُ بِهِ مِنْ حَدِّ الصَّبِيِّ وَشَبَّهِ النِّسَاءِ وَإِنْ كَانَتْ أَنْثَى بَقِيَ وَجْهَهَا نَقِيًّا مِنَ الشَّعْرِ لِيَبْقَى لَهَا الْبَهْجَةُ وَالنِّضَارَةُ الَّتِي تُحَرِّكُ الرِّجَالَ لِمَا فِيهِ دَوَامُ النَّسْلِ وَبِقَاؤُهُ^(٢) .

فقال المفضل : يَا مَوْلَايَ فَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ بَقِيَ عَلَى حَالِيهِ وَلَا يَنْبُتُ الشَّعْرُ فِي وَجْهِهِ وَإِنْ بَلَغَ حَالَ الْكَبِيرِ فَقَالَ : ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ^(٣) .

(١) چه ميدانم ؟ بلوغ ، ص ٢٨ .

(٢) و(٣) بحار الأنوار ج ٢ ، ص ١٩ و ٢٠ .

لقد أراد الإمام الصادق عليه السلام أن يفهم المفضل أن نمو الشعر على وجه الرجل هو سنة إلهية ضمن برنامج طبيعي ، وإذا ما تعرقل مسير هذا البرنامج فلا بد أن يكون هناك مانع ، وهذا المانع إما أن يكون وراثياً وإما أن يكون ناجماً عن أعمال اقترفتها الأجيال السابقة فأنت نتاجها على الأجيال الحاضرة .

النمو والمحيط الطبيعي :

وتجدر الإشارة هنا إلى أن علماء الحياة يعتقدون بأن نمو العظام والعضلات والأضواء الداخلية لجسم الفتى البالغ لا يعتبر من عوامل البلوغ فقط بل انه يستند أيضاً إلى الظروف الفردية والأسرورية الطبيعية ، كما أن ظروف البيئة التي يعيش فيها الإنسان لها أثرها أيضاً على كيفية نموه . ونظراً إلى أن العوامل الخارجية للنمو ليست متساوية ومتشابهة لكل شخص وفي كل مكان ، فإن نمو جسم الفتيان البالغين يخضع لنظام خاص ، وهو يختلف عند الفتيان باختلاف ظروفهم وبيئاتهم .

«لقد أثبت غودن أن نمو الجسم لا يتبع أي نظام أو ترتيب . إن نمو الجسم عادة يتم بصورة تدريجية ، وسرعة هذا النمو منوطة ليس فقط بالعوامل الشخصية للفرد بل بظروفه ومحيطه الخارجي ، ونذكر هنا على سبيل المثال أن معدل النمو في فصل الصيف أكثر من فصل الشتاء»^(١) .

وخلاصة القول: إن البلوغ هو العامل الأساسي للنمو السريع للعظام والعضلات وسائر الأعضاء الداخلية لجسم الإنسان ، والبلوغ هو الذي يجعل من الطفل الضعيف رجلاً كامل النمو قوياً .

مراتب التكامل :

إن القرآن الكريم شرح لنا مراتب التكامل لأبناء البشر مرتبة مرتبة حتى

(١) چه ميدانم ؟ بلوغ ، ص ٢٣ .

اللحظة الأخيرة في رحم الأم ثم قال : ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾^(١) .

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : ﴿فَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ أنه قال : أَشُدَّهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً وَاسْتَوَى : اِلْتَحَى^(٢) .

(١) سورة غافر ؛ الآية : ٦٧ .

(٢) تفسير البرهان ، ص ٤٩٩ .

المحاضرة الخامسة

حول حدود نمو عقل الشاب

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم : ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾^(١) .

التمهيد : أثر البلوغ في الحالات النفسية :

إن عوامل البلوغ لا تترك آثارها على جسم الإنسان وتُتمِّيه بسرعة فقط بل إن لها آثارها على نفسيات الفتیان أيضاً ، فهي تترك أفكارهم وأخلاقهم وتشعل في باطنهم ثورة عميقة ، ولهذا نلاحظ أن هناك تبايناً بين أفكار الفتیان وأخلاقهم وبين الأطفال الذين لم يبلغوا بعد .

«إن عمل الغدد التناسلية لا ينحصر فقط في التكاثر وحفظ النسل بل إن له آثاراً كبيرة على حالاتنا النفسية والمعنوية ، فمن المستحيل أن يبرز بين المختشيين علماء ومفكرين وفلاسفة» .

ظهور الخلايا الجنسية :

«إن للخصيتين والمبيضين أعمالاً جمّة ، ففي البداية تقوم بإنتاج

(١) سورة النساء ؛ الآية : ٦ .

خلايا ذكورية وأنثوية ، يتكوّن الإنسان من اختلاطها ببعضها البعض ، وفي الوقت نفسه تفرز مواداً تصبّ في الدم يتشكّل منها شكل وخصوصيّات الجنين الذكر أو الأنثى ، كما أنها تقوّي من نشاطات الجسم . وتثير إفرازات الخصيتين في الرجل الجرأة والشهامة والعصبية والخشونة»^(١) .

«إن للخصيتين نفوذ أكبر من كافة الغدد الباطنية الإفراز على قوانا وحالاتنا النفسية . وتكون الرغبة الجنسية عادةً عارمة لدى الفنانين والشعراء والقادة الروحيين والعسكريين . إن استئصال الغدد الجنسية حتى من البالغين ترافقه تغييرات في الحالة النفسية للإنسان ، فبعد استئصال المبيضين من المرأة تسيطر عليها الكآبة وتفقد جزءاً من نشاطاتها الفكرية وحسّها الأخلاقي ، أما الأشخاص الذين يخضعون لعمليات جراحية لاستئصال الخصيتين فإنهم يفقدون شخصيتهم تدريجياً»^(٢) .

نموّ المشاعر :

توجد في باطن كل إنسان قوتان عظيمتان ومؤثرتان ، إحدهما قوة العقل والثانية قوة المشاعر ، واجتماع هاتين القوتين يبيّن الجانب النفسي والمعنوي للإنسان . وعندما يُقال : إن عوامل البلوغ تؤثر في الإنسان معنوياً ونفسياً يعني ذلك أن العقل والعاطفة ينموان إلى جانب سائر أعضاء الجسم مع بداية مرحلة البلوغ ، وهاتان القوتان تأخذان بالنمو والتفتح ، ولكن الفرق بينهما هو أن نمو العاطفة يتمّ بشكل سريع مثل سائر أعضاء الجسم ، أما العقل فيأخذ طريقه بصورة بطيئة ليصل إلى منزلة الكمال ، وهو بحاجة إلى سنين طويلة ليكمل نموّه .

(٢١) إنسان ناشئته (الإنسان ذلك المجهول) ص ٨٤ و١٣٦

أفكار غير موزونة :

إن اختلال نمو العقل والعاطفة يشكل مشكلة نفسية كبيرة للشبان ويدفعهم نحو الانحراف الأخلاقي . فالأفكار غير الموزونة والأعمال غير الصحيحة والشاذة وأحياناً حالة التمرد والعصيان التي تتغلب على نفسية الشاب وطباعه ، كلها ناجمة عن عدم توازن العقل والعاطفة .

طغيان المشاعر :

إن المشاعر التي تعتبر القوة المحركة والدافعة الكبرى للإنسان تكون في مرحلة الشباب في منتهى قوتها ونشاطها ، ويكون العقل وهو مركز التفكير ومرشد المشاعر في حال من الضعف والعجز . ومن هذا المنطلق تبدو بعض أعمال وأقوال الشباب متسرعة وغير معقولة عندما يكونون في وضع عادي ، أما عندما يكونون في وضع غير عادي وأعصابهم متوترة فإن أحاسيسهم تغلب عليهم ، وهذا ما يدفعهم إلى اتخاذ قرارات غير سليمة والقيام بأعمال خطيرة ومهولة ، فعقولهم الضعيفة وغير الناضجة لن تستطيع آنذاك التحكم بمشاعرهم وأحاسيسهم وأن تحدّ من فورة الغضب التي اعترتهم .

علم النفس والشاب :

إن طبيعة نفسية الشاب دفعت بالعلماء إلى القول : إن علم النفس الخاص بالشباب هو اختصاص بحدّ ذاته ، وهو يختلف في كثير من المجالات عن علم النفس العام . إن المربي الكفوء هو من يدرك مرحلة الشباب بكل محطاتها وتفصيلها ، ويدرك وضع الشباب العقلي والعاطفي ، ويأخذ بنظر الاعتبار حالاتهم النفسية في برنامجه التعليمي والتربوي .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن تربية الأطفال تختلف من جهات كثيرة عن تربية الشبان ، فالطفل لا يشعر بالسيادة على نفسه والاستقلال الشخصي بسبب ضعف جسمه وقصور عقله ، وهذا ما يجعله مطيعاً لمربيه دون اعتراض

واستفسار ، أما الشاب الذي أصبح نتيجة البلوغ يشعر بقدرته وسيادته على نفسه واستقلالية ذاته فإنه لن يكون مستعداً للاستسلام للبرامج التربوية دون قيد أو شرط أو دون طرح سؤال أو استفسار .

وإذا ما أراد المربون أن يحققوا أهدافهم ويربوا الشبان تربية صحيحة وسليمة ، عليهم أن يجدوا وسيلة تجعل الشباب يشعرون بحاجتهم إلى المربين ويؤمنون بأن إطاعة تعاليم المربين هي واجب حتمي ، وأن يتعاونوا مع المربين بان دفاع ورغبة للوصول إلى السعادة المنشودة

أفضل السبل لتربية الشبان :

إن أفضل سبيل يجعل الشاب يتقبل التربية من تلقاء نفسه هو معرفة ذاته . فإذا ما عرف الشاب ذاته وأدرك حساسية وخطورة مرحلته ، واقتنع بهذه الحقيقة المرة القائلة بأن الشاب في مرحلة البلوغ يكون ضعيف العقل قوي الأحاسيس والمشاعر ، وإذا ما عرف أن عدم التوازن بين العقل والأحاسيس خلال مرحلة الشباب سيؤدي إلى الضياع والانهايار ، وأن بعض الشبان يصبحون أسارى أحاسيس مغلوطة وغير عقلانية فيتخذون قرارات خطيرة ويقدمون على ارتكاب أعمال غير سليمة جالبين التعاسة والضياع لأنفسهم مدى الحياة ، وإذا ما اقتنعوا بأنهم ليسوا قادرين على تجاوز عقبات الحياة ومنزلقاتها بسلام دون توجيهات المربين وإرشاداتهم .

الكف عن العنجهية والاستبداد :

وخلاصة القول : إذا ما تقبل الشاب هذه الحقيقة وهي أنهم بحاجة إلى مربين أكفاء وبرامج صحيحة وسليمة ، وأن عدم الاهتمام بتعاليمهم لا يجرمهم سوى إلى الخيبة والفشل ، فإنهم سيرحبون دون شك بالبرامج التربوية الهادفة ويكفون عن عنجهيتهم واستبدادهم وينفذون تعاليم المربين بشوق ولهفة .

في هذا الفصل ستحدث باختصار عن العقل البشري عموماً وعن الشبان خصوصاً ، نستند في هذا البحث الدقيق الراسخ إلى جمع الشبان

يعرفون ذاتهم إلى مصادر ومعلومات إسلامية ونظريات وأبحاث العلماء . نأمل أن يثير هذا البحث اهتمام جيل الشباب بضرورة وجود المرّبين الإسلاميين والاستفادة منهم ، وأن يكون حافزاً لهم لتقبّل التوجيهات والإرشادات الحكيمة الصادرة عن العلماء والصّالحاء .

دراسة العقل :

إن مسألة الروح والعقل والفكر لدى الإنسان كانت وما زالت من أهم المسائل التي تدخل في نطاق الفلسفة وعلم النفس ، وهناك أسئلة كثيرة طرحت حول هذه المسألة ، منها - على سبيل المثال - هل أن النفس العاقلة للإنسان حقيقة مجردة عن المادّة أم أنها ليست سوى مادّة ؟ ، وهل أن الفكر وهو مركز رقيّ الإنسان هو وليد خلايا المخّ أم أن المخّ بمثابة آلة تتحكم بها النفس المجرّدة؟ ، وهل أن روح الإنسان تموت بموته أم أنها باقية؟ وأسئلة كثيرة مماثلة .

أنصار تجرّد النفس :

لقد كان معظم الفلاسفة والحكماء يؤمنون بتجرّد النفس ويعتبرون أن القوة الرئيسية للمعقولات مجردة عن المادّة ، وقد جاؤوا في كتبهم الفلسفية بدلائل وبراهين إثباتاً لما يؤمنون به :

يقول ابن سينا : إن الجوهر الذي هو محلّ المعقولات ، ليس بجسم ولا هو قائم بجسم^(١) .

ويقول أيضاً : ويدرك بغير جسميّته وبغير مزاج جسميّته^(٢) .

أما الحكيم صدر الدين الشيرازي فيقول : إن النفس الناطقة ليست

(١) شفا (الشفاء) ، ص ٣٤٨ .

(٢) إشارات ، ص ٧٣ .

بجسم ولا مقدار^(١) .

وفي نهاية براهينه على تجرّد النفس يقول : فهذا أحد عشر برهاناً موقِعاً لليقين بأن النفس الإنسانية مجردة عن المادة ولواحقها^(٢) .

ولهذه العقيدة أنصارها ومؤيدوها بين أبرز المفكرين والفلاسفة في عصرنا الحاضر ، الذين يصفون الفلاسفة بالروحيين ، ويعتقدون أن العقل من شؤون النفس المجردة .

أنصار الماديّات :

وفي مواجهة أنصار الروح المجردة وأنصار فلسفة ما وراء الطبيعة يقف الماديّون وأنصارهم الذين لا ينكرون فلسفة الروح المجردة فقط بل إنهم لا يؤمنون أساساً بفلسفة ما وراء الطبيعة . إنهم ينظرون إلى دُنيا الوجود على أنها مادة تتفاعل باستمرار ، كما أنهم يعتقدون بأن العقل هو عبارة عن خلايا في المخ وأن التفكير والتعقل من خصوصيات هذه الخلايا الطبيعية ، ويقولون صراحة بأن التفكير يرشح من خلايا المخ كما ترشح الصفراء من الكبد .

المركز الرئيسي للمحافظة :

وإلى جانب مسألة العقل هناك مسائل أخرى معقدة تتباين حولها وجهات نظر الروحيين والماديين وهذا ما يجعلها في صدارة أبحاث العلماء والمفكرين .

ومن جملة هذه المسائل مسألة المحافظة أو الذهن ، فالماديّون يعتقدون بأن خلايا المخ هي المركز الرئيسي للمحافظة ، بينما يعتقد الروحيون بأن الروح المجردة هي المركز الرئيسي وأن خلايا المخ ليست سوى رابط .

«إن الجانب الفلسفي للمحافظة هو أكثر الجوانب أهمية ، والمهم هو أن نعرف أين وكيف تحفظ الذكريات والخواطر ، وهذا ما

(١) و(٢) الأسفار ج ٤ ، الفصل ٦ .

يفسح المجال أمامنا لأن ننظر في كل مسألة دقيقة عابرة إلى فلسفتها المادية وحكمتها المعنوية» .

«إن مسألة الحافظة هي في الحقيقة واحدة من المسائل الغامضة في العلاقة بين المخ والعقل . أين تحفظ الذكريات ؟ ، في المخ أم في الروح ؟ ، وما هي وسائل استعادة الذكريات ؟ ، إذا ما أردنا الإجابة على هذه الأسئلة علينا أن نكون من أنصار إحدى الفلسفتين ومعارضين للأخرى ، فمسألة الحافظة هي لدى بعض الأفراد دليل على صحة عقيدة الماديين ، أما البعض الآخر فيعتبر أن استقلال الروح هو أسطع برهان»^(١) .

إن الماديين يعتقدون بأن استيعاب القضايا وحفظها وتسجيل كافة المسائل العلمية وغير العلمية ، إضافة إلى استعادتها وتذكرها في الوقت المناسب ما هي إلا عمليات مادية مركزها الرئيسي خلايا المخ ، ولهذا ترى الإنسان الذي يُصاب بنزف أو مرض ما في المخ يفقد ذاكرته بشكل كامل أو جزئي .

إصابات المخ :

«لقد أثبت «بروكا» في عام ١٨٣٥ بأن نزف النتوء الثالث في الشطر الأيسر من المخ يُؤد نسياناً فيما يخص الحركات ، ويُشوّه المشاهد الحركية المحفوظة في الدماغ ، واستناداً إلى تحقيقات أجراها كل من «فرنريك» و«غوسماول» و«شاركو» فإن النسيان الخاص بالكتابة والناجم عن عملية جراحية يخضع لها النتوء الثاني، في الشطر الأمامي للمخ يؤدي إلى تشويه المشاهد الخطية المحفوظة في الدماغ . كما أن العمى الذهني الناجم عن عملية جراحية لأحد نتوءات المخ يبرز نتيجة تشوّه المشاهد المرئية

(١) چه ميدانم ؟ الحافظة ، ص ١١٠ .

والخطية المحفوظة في الدماغ . هؤلاء العلماء والمحققون يعزرون سبب الصمم الذهني إلى إصابات في التواء الأول في القسم الجانبي للمخ مما يؤدي إلى مسخ المشاهد والمواقف السمعية المحفوظة .

النسيان غير الطبيعي :

«هناك مراكز خاصة للمشاهد الخاصة بالنطق المحفوظة في الدماغ ، وهذه المراكز تتجمع في محل معين تحت غطاء المخ . لقد أثبت «ريبو» إضافة إلى كل ذلك أن النسيان غير الطبيعي يمكن اعتباره ناجماً عن إصابات في المخ من قبيل الأورام والسموم ورطوبة أنسجة المخ . وكذلك الأمر بالنسبة للنسيان الذي يصيب الإنسان نتيجة الشلل وضعف الذاكرة بسبب الشيخوخة والنسيان الفصلي الآتي من ارتجاجات في الدماغ»^(١) .

المخ جهاز آلي :

لقد توصل الروحانيون بعد دراسات وتحقيقات دقيقة ومكثفة ونقض نظرية الماديين عدة مرات إلى أن دماغ الإنسان هو المركز المادي للحافظة والذكريات ، إلا أن المركز الرئيسي والحقيقي للحافظة هو الروح المجردة . إن خلايا المخ هي بمثابة الرابط وعُدّة العمل بالنسبة للروح المجردة ، وإذا ما فقد الإنسان جزءاً من ذاكرته نتيجة نزف أو ورم في بعض نقاط المخ ، لن يكون السبب هو إصابة المركز الرئيسي للحافظة بل تكون الروح المجردة قد فقدت عُدّة العمل المتعلقة بتلك النقطة نتيجة إصابة جزء من خلايا المخ .

إقامة علاقات :

«يقول «جان . ث . فيلو» وهو أستاذ في الفلسفة : إن «بريجسون»

(١) چه ميدانم ؟ الحافظة ، ص ١١٤ .

يرى أن الدور الأساس لجسم الإنسان هو العمل . فالعالم الخارجي يترك آثاره على الجسم ، والجسم في المقابل يصدر ردود أفعال إلى العالم الخارجي» .

«فالدماغ ليس سوى مركز للهاتف يعمل عمله في الإرسال والاستقبال . وإذا ما تعطل هذا الجهاز الآلي فإن أنواعاً متعددة من النسيان ستظهر . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو أين وكيف تحفظ مشاهدات الماضي وذاكراته ؟ ، ورداً على هذا السؤال يستسلم «بريجسون» إلى نظرية الروحيين الذين يعتقدون بأن للقوة الروحية حقيقة مختلفة لا يمكن أن تزول أو تمشخ» .

«لقد كان «دافيسون» وهو من أنصار الفلسفة الروحية وعاش قبل «بريجسون» يعتقد ويؤمن بالروح المطلقة كونها وحدة متكاملة تقف في مواجهة كل شيء حتى نفسها وتراقب بصورة مستمرة دون تخلف» .

خطأ الماديين :

«يقول «فيلو» : إذا كان علماء الحياة يعتقدون بأن الذكريات تحفظ في المخ على شكل شرائح مادية مستندين بذلك إلى علاقة أمراض الذاكرة بجزء من المخ فإنهم مخطئون ، لأن المخ إذا ما تعرض لصدمة ما فإن عصباً سيصيب أجهزة الحركة ولا يعود المخ قادراً على أداء دوره ، ولا يمكن للذكريات المجردة أن تكتسب صبغة مادية ، ولم تعد تبرز الذكريات المفيدة ، ويصاب الإنسان بأنواع عديدة من مرض الذاكرة ، ولكن رغم ذلك تكون الحافظة أو الذاكرة المجردة بعيدة عن الإصابة» .

«إذن فإن المخ يقوم فقط بتهيئة ظروف استعادة الذكريات . وبشكل عام هناك علاقة بين الحالات النفسية والمخ ، ويذكر

«بريجسون» على سبيل المثال أن هذه العلاقة تشبه العلاقة بين اللباس والمسمار ، فإذا ما سحبت المسمار سقط اللباس ، إذن فبقاء اللباس معلقاً مرتبط ببقاء المسمار» .

تفكيك الحافظة عن العادات :

«إذا ما أردنا في عصرنا الحالي إنكار نفوذ نظريات «بريجسون» فإننا لن ننجح في ذلك . إن «بريجسون» هو أول من فكك بين الحافظة الحقيقية والعادات وأثبت أن الذكرى هي بمثابة سطر في كتاب ، محفوظة ولكن ليس في المخ ، وأوضح أن المخ جهاز يربط بين المشاهد الذهنية - الذكريات - وزمن الحال . ويقول «دولاي» : إن كل ما توصلت إليه مختبرات العلوم الحيوانية وعلم الأمراض يؤيد نظرية «بريجسون»^(١) .

إن العقل البشري يعتبر من الحقائق المعقدة في عالم الخلق ، فهذه الجوهرة الثمينة والمجهولة والتي تعتبر القاعدة الأساسية لسمو الإنسان ورقه وتقدمه هي مجهولة أكثر من قوة الذاكرة نفسها .

نظرية الروحانيين والماديين :

لقد أورد العلماء الروحانيون والماديون الكثير من الأحاديث بشأن العقل البشري وأجروا الكثير من الأبحاث والدراسات ، وما زالت هذه الأبحاث والدراسات مستمرة حتى يومنا هذا . فالروحانيون يعتقدون بأن الروح المجردة للإنسان هي المركز الرئيسي للتفكير والتعقل ، وأن الخلايا الدماغية ليست سوى أداة مادية تحت تصرف الروح المجردة . أما الماديون فيعتقدون أن لا وجود للروح المجردة لدى الإنسان وأن المركز الرئيسي والحقيقي للتفكير هو الخلايا الدماغية .

(١) چه ميدانم ؟ الحافظة ، ص ١٢١ .

الحقيقة المجهولة :

ولكن رغم كل ما قيل ويُقال ورغم كل ما توصل إليه الإنسان من تقدّم في شتى مجالات العلم ، ما زال العلماء حتّى يومنا هذا في حيرة من أمرهم فكلمًا توغّلوا في أبحاثهم وكثّفوا من دراساتهم ازدادوا اعترافاً بضعفهم وعجزهم .

المركز الاصيلي للفكر :

«يقول الدكتور «كارل» : ما هي طبيعة الفكر ، هذا العنصر العجيب الذي يواصل عمله ونشاطه دون طاقة تذكر ؟ ، وما هي علاقته بظواهر القوّة الطبيعية ؟ ، فالروح هي شيء غير مرئي في جسم حي ، ورغم ذلك تعتبر أكبر قوة فاعلة في العالم ، فهي التي غيّرت ملامح الأرض وأقامت الحضارات وأعدتها وعرفتنا على علم الفلك والنجوم . يا ترى هل يرشح الفكر من المخ كما يرشح الأنسولين^(١) من البنكرياس والصفراء من الكبد ؟ ، أي العناصر والخلايا العصبية هي التي تتحول إلى فكر ؟ ، هل يولد الفكر من عامل آخر كما يولد الغلوكوز من الغليكوجين (سكر الكبد) والفيبرين (الليفين) من الفيبرينوجين ؟ ، أم أنه نوع من الطاقة تختلف عن الطاقات الطبيعية تولّدها خلايا الطبقة القشرية للمخ ؟ ، هل هو كائن غير مادي لا يحدّه زمان ولا مكان في عالمنا الكبير هذا وشقّ طريقه إلى المخ بصورة مجهولة ؟ ، أسئلة بحث عن أجوبتها كبار العلماء والمحققين والفلاسفة على مرّ العصور دون أن يوفقوا في ذلك»^(٢) .

(١) الأنسولين : هرمون مستخلص من بنكرياس الحيوانات يستعمل في معالجة داء السكري .

(٢) إنسان ناشأخته (الإنسان المجهول) ص ١١٤ .

قياس القدرات :

مما لا شك فيه أن كل نشاط مادي بحاجة إلى قوة وطاقة . لقد استطاع العلماء في ضوء التقدم العلمي الحاصل قياس الطاقة التي يحتاجها جسم الإنسان للقيام بعمل ما من قبيل خمس ساعات قيادة سيارة وأربع ساعات نجارة وثلاث ساعات حدادة وساعتان كتابة وساعة واحدة خطابة .

إن أهم عمل يقوم به الإنسان هو التفكير ، فالفكر هو أساس نجاح العلماء وهو المنشأ الأصلي لجميع مظاهر الرقي الحضاري ، والفكر هو أساس سعادة الإنسان مادياً ومعنوياً ، وبالفكر وحده يمكن بناء أعظم الحضارات وأهمها .

إبداعات عمل الدماغ :

إن المسألة التي تستأثر بالاهتمام والتعجب هي أن الفكر بكل ما يتمتع به من اقتدار وعظمة ليس بحاجة إلى قوة مادية تذكر ، ومقدار استهلاكه لهذه القوة قليل جداً ويكاد ينعدم بحيث ان الوسائل العلمية المتطورة تعجز عن قياسه .

«والحيرة والدهشة تكمن في أن الأعمال التي تتطلب نشاطاً دماغياً ملحوظاً لن تؤدي أبداً إلى زيادة نسبة الميتابوليسم^(١) في الجسم ، ولن تتطلب طاقة كبيرة أو بالأحرى يمكن القول: إن الطاقة اللازمة لمثل هذه الأعمال قليلة جداً بحيث ان التكنولوجيا تعجز عن قياسها . عجباً وكل العجب للنسبة الضئيلة من الطاقة التي يصرفها الفكر الذي ساهم في تغيير ملامح الأرض وجاء بشعوب وأفنى شعوباً وسبح في الفضاء مكتشفاً عوالم جديدة» .

«إن نسبة الميتابوليسم في جسم الإنسان ترتفع لدى انقباض

(١) الميتابوليسم : الأيض : مجموع العمليات المتصلة ببناء البروتوبلازما ودورها .

عضلات جنديين لرفع كتاب أكثر من أي نشاط فكري مهما بلغ حجمه . فلا طموح «سيزار» ولا أفكار «نيوتن» ولا أبحاث «باستور» لو جمعناها لما ساهمت في رفع نسبة الميتابوليسم بقدر ما تسببه عدة ميكروبات أو زيادة بسيطة في عمل الغدة الدرقية»^(١) .

تجرد الروح من الماديات :

إن ما ورد بشأن الطاقة التي يتطلبها الإنسان لتشغيل فكره في أعقد المسائل والأمر إنما يدل على أن الفكر ليس عملاً مادياً بل هو عمل معنوي نابع من الروح المجردة التي لا تحتاج في نشاطاتها الروحية إلى طاقة مادية .

لقد سئل الرسول الأكرم ﷺ قبل أربعة عشر قرناً عن حقيقة الروح ، فجاء الجواب من الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢) .

إخفاق العلم في معرفة الروح :

لقد حصلت تطورات عظيمة في العالم منذ عهد الرسول الأكرم ﷺ حتى يومنا هذا ، وحقق الإنسان نجاحات كبيرة في ساحات العلم والمعرفة ، واكتشف الحقائق المجهولة الواحدة تلو الأخرى ، ونجح في كشف الكثير من الأسرار والغوامض . ولكن في مجال معرفة حقيقة روح الإنسان ، بقي إنسان اليوم متحيراً كإنسان زمن الرسول الأكرم ﷺ أمام هذه الحقيقة المجهولة ، وما زال العلماء يجهلون هذه الحقيقة رغم كل ما حققوه من نجاحات في صرح العلم ، وهذه حقيقة لطالما اعترف بها العلماء والباحثون والمحققون بكل صراحة .

(١) إنسان ناشئاخته (الإنسان المجهول) ص ٧٦ .

(٢) سورة الإسراء ؛ الآية : ٨٥ .

الشرارة المجهولة :

«يقول الدكتور «الاستاس تشسر» وهو دكتور انجليزي في علم النفس : إن البعض يتصور بأن مجموعة الأعمال الدقيقة التي يقوم بها الدماغ هي التي تشكل الذات ، في حين يعتقد البعض الآخر أنها عبارة عن دماغ إضافة إلى شرارة مجهولة تفارق جسم الإنسان عند موته . إلا أن المسألة كما يعلمها الجميع هي أن كبار الفلاسفة والعلماء قد بحثوا في مسألة الروح وطبيعتها ومكانها في جسم الإنسان وأجروا دراسات مطوّلة حول ما إذا كانت الروح زائلة أم لا ، لكن هذه المسألة المعقّدة ما زالت دون حل ، وما زال العلماء يواصلون جهودهم لكشف حقيقتها»

«على أية حال ينبغي على كل فرد منا أن يتوصل بنفسه إلى نتيجة لهذه المسألة ، فإما أن يؤمن بنظرية أحد الفلاسفة أو الأديان بشأن الروح وإما إن نسعى للتوصل إلى نتيجة مقنعة . لقد قيل فيما قيل الكثير عن مسألة الروح المترامية الأطراف من قبل مختلف الأديان ، وخلال السنوات القليلة الماضية قرّر غالبية العلماء والباحثين دراسة المسألة المذكورة من جوانب أخرى ، بمعنى أنهم ينصرفون عن مسألة الروح التي تعتبر غاية في التعقيد والغموض ، ويكتفون بدراسة ذهنية الإنسان ونفسيته التي تشكل كتلة من الاحاسيس والمشاعر والأفكار» .

«ولكن قبل كل شيء يجب علينا أن نقول: إننا ما زلنا نجهل الكثير عن جسم الإنسان ، رغم أننا نستطيع تعيين وزنه وتصويره ودراسة مختلف أعضائه وإجراء اختبارات كثيرة حولها ، لكننا لا نستطيع اتباع أي من هذه الأعمال بشأن الروح . صحيح أننا نستطيع وزن المخ وتصويره وتشريحه ، وأنا نستطيع كل ذلك بسهولة مع

الشخص الميت ويمكننا إجراء ذلك أيضاً إلى حدّما على الإنسان الحي ، ولكن هل سيساعدنا تشريح المخ في معرفة الروح ؟ ، وهل أننا نستطيع بعملية جراحية لمخ إنسان ما قراءة أفكاره ؟ ، للأسف ينبغي علينا أن نقول: إن مسألة معرفة الروح هي أكثر تعقيداً من كل ذلك»^(١) .

ونستنتج من كل ما ورد نقطتين :

النقطة الأولى : إن القرآن الكريم وهو الذي يبيّن لنا الحقائق ويدلّنا على الحق وينهانا عن الباطل ، قد أكد وجود الروح وأنها من أمر الله سبحانه وتعالى . وأوضح لنا أن الإنسان ما أوتى من العلم في هذا المجال إلا قليلاً . والدليل على ذلك اعتراف الروحيين والماديين على السواء بأنهم رغم كل النجاحات العلمية ما زالوا يجهلون حقيقة الروح وحقيقة العقل ، وأن هاتين الحقيقتين ما زالتا مجهولتين .

المركز المادي للعقل :

النقطة الثانية : إن الروحيين والماديين يعتقدون بأن دماغ الإنسان من ناحية الوظيفة العضوية هو مركز مادي للعقل والفكر ، وإذا ما تعرض للإصابة فإنه سيترك آثاراً على مسألة التعقل والتفكير ، وهذا ما تؤكد الروايات الإسلامية . روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : **مَوْضِعُ الْعَقْلِ الدَّمَاعُ**^(٢) .

وعن ابن عباس أنه قال : **إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ أَنْ يَسْأَلَ سُلَيْمَانَ عَنْ أَرْبَعَةِ عَشَرَ كَلِمَةً ، فَإِنْ أَجَابَ وَرَّثَهُ الْعِلْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، قَالَ : أَخْبِرْنِي يَا بُنَيَّ أَيُّنَ مَوْضِعِ الْعَقْلِ مِنْكَ ؟** قَالَ : **الدَّمَاعُ**^(٣) .

(١) رشد وزندگي (النمو والحياة) ص ١٣٤ .

(٢) تحف العقول ، ص ٣٧١ .

(٣) بحار الأنوار ج ١٤ ، ص ٤٨٤ .

وما دما في هذا البحث نرى من الضروري أن نشير إلى بعض المسائل مستندين في ذلك على بعض الروايات الإسلامية والدراسات والأبحاث العلمية لكبار الفلاسفة والعلماء ، لكي نعرف الشباب على حقيقة طبيعتهم وعدم نضوج عقولهم خلال فترة البلوغ .

تحليل دماغ الاوادم :

مع الأخذ بعين الإعتبار أن المركز المادي لعقل الإنسان هو دماغه ، فإن دراسة وتحليل دماغ الفتان الحديثي البلوغ هي أقصر الطرق وأفضلها لتحديد درجة الذكاء والتعقل . ومن حسن الحظ أن هناك دراسات وأبحاثاً علمية جرت في هذا المجال ووضعت في متداول الباحثين عنها .

«إن الجزء الوحيد من جسم الإنسان الذي يُستثنى من قانون تقسيم الخلايا هو الأنسجة العصبية كالدماع والأعصاب ، لأن الإنسان مذ يولد تولد معه خلايا هذه الأنسجة ، وطيلة فترة حياته لا تولد خلية دماغية أو عصبية واحدة ، ولهذا السبب فإن فقدان أي من هذه الخلايا نتيجة صدمة أو مرض ما لا يمكن تعويضه» .

النمو السريع لدماع الاطفال :

«ولكن رغم كل ذلك فإن دماغ الأطفال وأنسجتهم العصبية تشهد نموّاً سريعاً دون زيادة في الخلايا ، وهذا النمو السريع يحصل في السنوات الثلاث الأولى من عمر الإنسان بحيث ان نمو الدماغ يبلغ ٨٥٪ تقريباً لدى الأطفال الذين لا تتجاوز أعمارهم ثلاث سنوات»^(١) .

بالرغم من أن تركيبة دماغ الإنسان تختلف من حيث عدد الخلايا

(١) هورمونها (هورمونات) ، ص ١١ .

والخصوصيات باختلاف الأفراد ، إلا أن أدمغة الناس متساوية في كونها تشكل مركز الاتصال والوسيلة المادية للروح . فعندما تبلغ خلايا الدماغ نموها النهائي وتبلغ مرحلة الكمال الطبيعي ، تكون الوسيلة المادية للتعقل قد بلغت حد الكمال .

الافكار الصبانية :

وبالرغم من أن نمو الخلايا الدماغية السريع يكتمل خلال السنوات الثلاث الأولى من عمر الإنسان ، ويبلغ نموه حوالي ٨٥٪ ، إلا أننا نرى أن تفكير الأطفال يبقى تفكيراً صبيانياً ، وأنهم ليسوا بقادرين على تحليل الأمور وتحديدها ، لأن قوة التعقل والتفكر لا تفتح إلا بعد اكتمال النمو ١٠٠٪ وبلوغ الخلايا الدماغية وشبكاتها الارتباطية حد الكمال ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن العقل وحده الذكاء لا يكتمل إلا بعد أن يغطي غشاء النخاعين كل الشبكات الارتباطية للدماغ المتشكلة من الأوتار العصبية .

«ويعتقد «لانك ورثي» بأن هناك علاقة قوية بين نشاط الدماغ الذهني والنفسي وبين سرعة اكتساب الأوتار العصبية لغشاء النخاعين»^(١) .

وهنا لا بد من استعراض جانبين من نتائج تحقيقات العلماء والفلاسفة وأبحاثهم ، وذلك بهدف تعريف الفتیان بزمان نمو الدماغ نمواً كاملاً ، والسنين التي تتخللها المراحل الأخيرة لتكامل الأعصاب ، وزمان بلوغ العقل مرحلة الكمال :

١ - جدول أعده «بويد» يبين مراحل نمو الدماغ^(٢) .

(٢١) بيماربهای سلسله أعصاب درنوزادان ، دوران كودكي وبلوغ (أمراض السلسلة العصبية لدى الأطفال ، فترة الطفولة والبلوغ) ، ص ٦٨ و٦٩ .

العمر	الذكور	الإناث	
حين الولادة	٣٣٠	٢٨٣	غراماً
٦ - ٣ أشهر	٦٠٢	٥٦٠	غراماً
١٢ - ٦ شهراً	٧٧٦	٧٢٧	غراماً
٢ - ١ سنة	٩٤١	٨٤٣	غراماً
٤ - ٢ سنة	١٠٩٥	٩٩٠	غراماً
٧ - ٤ سنة	١١٣٨	١٠٣٥	غراماً
١٤ - ٧ سنة	١٣٠١	١١٥٤	غراماً
٢٠ - ١٤ سنة	١٣٧٤	١٢٤٤	غراماً

٢- إن معظم الأنسجة العصبية في الدماغ والنخاع والعروق والغضاريف يغطى بمادة تسمى «ميلين» أي غشاء النخاعين ، ويمكن القول: إن هناك علاقة مباشرة بين تفاعل نشاطات الدماغ واكتساب الأنسجة العصبية لهذا الغشاء» .

تغطية الانسجة العصبية بالكامل :

«إن معظم الأنسجة العصبية يغطى بغشاء النخاعين حتى فترة البلوغ ، أما بعض هذه الأنسجة الموجودة داخل قشرة الدماغ فإنها لا تكتسب غشاء النخاعين إلا في منتصف العمر الطبيعي للإنسان»^(١) .

نلاحظ هنا أن دماغ الإنسان يبلغ نموّه النهائي في سن العشرين ، لكن

(١) المصدر نفسه ، ص ٨ .

تغطية غشاء النخاعين للأنسجة العصبية داخل قشرة الدماغ التي ترتبط ارتباطاً مباشراً بنسبة الإدراك والفهم لا تتم قبل بلوغ الإنسان منتصف العمر . وعلى هذا الأساس فإن الفتى كلما تقدم به العمر كلما ازدادت قوة إدراكه وتعقله .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : وَيَسْتَكْمِلُ عَقْلَهُ فِي ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً (١) .

وروي عنه عليه السلام أنه قال : وَيَنْتَهِي عَقْلُهُ فِي خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ وَمَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَيَأْتِجَارِبُ (٢) .

ونستشف مما ذكر ثلاث نقاط :

- ١ - إن دماغ الإنسان هو المركز المادي للتعقل والتفكير .
- ٢ - لا يكتمل نمو وسيلة التعقل والتفكير قبل اكتساب الأنسجة العصبية لقشرة الدماغ مادة «الميلين» أو غشاء النخاعين .
- ٣ - رغم بلوغ دماغ الطفل سن الثالثة حوالي ٨٥٪ من النمو ، إلا أن النسبة المتبقية التي تعتبر نهاية نمو الدماغ وكذلك اكتساب الأنسجة العصبية لغشاء النخاعين والتي تعتبر أساس تفتح العقل وكماله ، لا يحصلان إلا بمرور الزمان وينتهيان في سن الخامسة والثلاثين .

سر نقصان عقل الشاب :

إذا ما حاول الفتيان إدراك النقاط الثلاث الآتفة الذكر إدراكاً صحيحاً فإنهم سيعرفون سر عدم اكتمال نضوج عقولهم ، وسيدركون جيداً أن قوة عقولهم وكمالها لن تبلغ حدّها النهائي قبل أن يجتاوزوا فترة البلوغ ويمضوا مرحلة الشباب .

(١) المستدرک ج ٢ ، ص ٦٢٥ .

(٢) مکارم الأخلاق ، ص ١١٥ .

قياس امتة الذكاء :

تجري منذ فترة اختبارات لتحديد قوة العقل وقياس درجة الذكاء ، ويتم اختبار هاتين القوتين اسجهولتين بواسطة أسئلة خاصة ، وقد أثبتت نتائج الاختبارات التي أجراها الخبراء والمتخصصون في هذا المجال على عقول الفتان حديثي البلوغ ، بل إنها تسجل تراجعاً ملحوظاً إلى حد ما . ربما تساءل البعض عن سبب تراجع قوة العقل وحدة الذكاء لدى الفتان ، ولهذا نقل لكم نص عبارات بعض العلماء في هذا المجال :

«إذا ما سُئلتُم فجأة هذا السؤال وهو: أيهما أذكى الفتان حديثو البلوغ أم الأطفال ؟ ، لا شك في أنكم ستجيبون بأن الفتان أذكى ، ولكن إذا ما فكرتم ملياً فإن الشك سيتابكم» .

مقياس اختبار الذكاء :

«الكل يعلم بأن الاختبارات قد نجحت في تحديد مستوى الفكر لدى الأطفال سنة بسنة ، وتشكيل ما وصفه «بينييه» بمقياس اختبار الذكاء . لكن مستوى النمو الفكري يبدأ من سنّ البلوغ بالتدني ، ويصبح من العسير ملاحظته أو لمسه من سنّ الرابعة عشرة وصاعداً^(١) .

«إن العلاقة ما بين ولادة فكر منطقي قريب من الكمال والزمن الذي يبدأ بتنمية الفكر الذي حددته الاختبارات ، تطرح دليلاً آخر على صحة هذه النظرية وهي أن النمو الفكري لا يشهد بعد عهد الطفولة نمواً حقيقياً» .

سرعة العواطف وبطء الفكر :

«وربما تبادر إلى أذهان البعض أن الذكاء سيتأثر خلال فترة البلوغ

(١) چه ميدانم ؟ ، البلوغ ، ص ٩٧ .

نتيجة تطور عواطف المحبة وولادة الغريزة الجنسية ، ويصبح مطيعاً ومنقاداً لها» .

«إن عقل فتى في الحادية عشرة من العمر يكون أكثر انسجاماً مع العالم الخارجي وأكثر فاعلية ، ويكون أقرب إلى عقول الأشخاص المتكاملين من عقل الشباب الذين تعصف بهم عواطفهم وغرائزهم وتسلب اهتمامهم التخيلات والأوهام غير آبهين بما يدور حولهم» .

«إذا أردنا أن نقول بأن الذكاء ينعدم خلال فترة البلوغ نكون قد بالغنا في ذلك ، ولكن إذا ما قلنا: إنَّ هناك تدنياً في الذكاء خلال هذه الفترة ، نكون قد بلغنا الحقيقة ، لأنَّ عنفوان الشباب لا يتفق بتاتاً مع تفتح الفكر وتطوره»^(١) .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : لا يزال العقل والحُمو يتغالبان على الرجلِ إلى ثمانِي عَشْرَةَ سَنَةً فإذا بَلَغَهَا غَلَبَ عَلَيْهِ أَكْثَرُهُمَا فِيهِ^(٢) .

جنون الشباب :

إن من الأمراض النفسية التي ذكرها جميع العلماء والمفكرين وشرحوها مفصلاً في كتبهم ومؤلفاتهم ودراساتهم هو جنون الشباب . هذا المرض يولد عادة خلال فترة البلوغ ، وهو ينقسم إلى أربعة أقسام نتيجة تباين عوارضه وردّات أفعاله عند المصابين .

ولم ينجح المتخصصون في هذا المجال حتى الآن في معرفة أسباب هذا المرض الحقيقية ، وهم ربما اعتبروه ناجماً عن تفاعل ترشحات الغدد الداخلية خلال فترة البلوغ وما تسببه من تسمّم .

(١) جه ميدانم ؟ البلوغ ، ص ٩٩ .

(٢) بحار الأنوار ج ١ ، ص ٣٣ .

«يقول الدكتور كارل : إن السبب الرئيسي لجهلنا القضايا النفسية هو تعقيدها وغموضها ، ونحن لانملك الوسائل التي تساعدنا في خوض عالم الخلايا العصبية وعالم العقل والروح المجهولين ، وعلى سبيل المثال نحن لا يمكننا أن ندرك العلاقة الدقيقة بين أعراض مرض «جنون الشباب» وتلفان خلايا المخ»^(١) .

الوهن العقلي السريع:

«يقول أنصار فلسفة «كرپلين» : إن جنون الشباب عبارة عن ضعف سريع يصيب العقل أثناء البلوغ ، وربما كان ناجماً عن تسمّم داخلي واضطراب الغدد المترشحة»^(٢) .

«ومن الأعراض الدّالة على الإصابة بهذا المرض هو أن المصاب يعيش حالة من الحيرة والبهتان ، ويفضل الانزواء عن الناس ، وينظر مبهوراً إلى نقطة ما ، ليس له هدف في الحياة ، كل الأعمال عنده متساوية ، ومن الأعراض الأخرى هو أن المصاب يقدم على أعمال غير طبيعية وغير مناسبة» .

أطوار مضحكة :

«شوهدت امرأة مصابة بهذا النوع من المرض تدخل مرحاضاً خاصاً للرجال في محطة للباصات وتخلع ملابسها وتهتم بغسلها ، وعندما سُئلت أمام الطلبة الجامعيين عن السبب ضحكت واعتبرت ما يُقال مجرد مزحة . لقد كانت تقوم بحركات وأطوار مضحكة أمام الطلبة ، ولم تستطع الإجابة على الأسئلة بشكل طبيعي ،

(١) إنسان ناشناخته (الإنسان المجهول) ، ص ١٤٩ .

(٢) روان يزسكى دكتور مير سباسى (طب النفس للدكتور ميرسباسي) ، ص ٢١٨ .

وربما لو قيل لها: إنَّ أمَّها توفَّيت لواجهت ذلك بحركات غير مناسبة
وضحكات في غير محلها»^(١).

إن هذا المرض الذي سَمِّي في علم النفس بجنون الشباب لا يُصيب كافة
الشباب على الإطلاق، بل يُصيب فئة خاصة من الشباب الذين ينبغي عليهم
كسائر المجانين أن يخضعوا لإشراف طبيب يعمل على إنقاذهم من هذا المرض
الذي قد تطول فترته أحياناً.

جنون الغرور:

تبرز خلال أيام الفتوة بعض الاضطرابات النفسية والاختلالات الفكرية،
وهي حالة عامة يعاني منها جميع الفتيان، ألا وهي جنون الغرور والأوهام
والتخيُّلات. ففي هذه الفترة يقع جميع الفتيان في أسر تصوراتهم الراهية
متجاهلين حقائق الحياة، لاهئين خلف الأوهام، ينظرون إلى الحياة من منظور
أفكارهم العابثة والبعيدة عن الواقع، تراهم يهربون من كل ما يمت إلى العقل
والمنطق بصلة، يعشقون كل ما هو سراب، يتحسَّس المرء جنون الغرور في
جميع أقوالهم وتصرفاتهم.

استدلالات تبدو منطقية:

«إن الشباب لا يهتمون بالعقل ولا يحترمونه، كما أنهم يحتقرون
كل حكم قائم على أساس من العقل والمنطق، ويعتبرون ذلك
من شيم الشيخوخ أو على الأقل يليق بهم. إن تفكيرهم يجعلهم
مثل «أمرسون» الذي كان يريد ربط عربته بإحدى النجوم»^(٢).

«إن جنون الغرور هو كالدماغ والحبيبات التي تنتشر في الوجه
يعتبر مرضاً من أمراض الشباب، فالإفراط في التصرف والتشبث

(١) أصول روان شناسی (مبادئ علم النفس)، ص ١٨٠.

(٢) چه میدانم؟ البلوغ، ص ١١٧.

بعض الاستدلالات التي تبدو منطقية الظاهر والجدل وما شابه ،
كل ذلك يزيد من بشاعة أفكار الشباب»^(١) .

إن التصورات الواهية وغير العقلانية وكذلك جنون المباحة والغرور تترك
في نفس الشاب أحياناً آثاراً قد تدفعه إلى ارتكاب جريمة أو ذنب أو القيام
بأعمال وحشية أو أعمال جنونية خطيرة .

«كتبت صحيفة فرنسية تصدر كل شهر تقول : إن الشباب بجميع
فصائله وطبقاته ينجرفون وراء تيارات العنف ، وغالبيتهم تسيطر
عليهم نفسيات أخلاقية عجيبة وغريبة» .

«وكدليل على ذلك نذكر على سبيل المثال ما قام به شابان في
«هامبورغ» ، حيث حاولا تقليد «جيمس دين» ، فربطتا نفسيهما
بحبل رفيع وقفزا من الطبقة الرابعة لإحدى المباني» .

أساليب غير عادية :

«غالباً ما شاهد أكثرنا عدداً من الشبان يقفون خلف واجهة محل
تجاري ، ينظرون إلى الزجاج وهم يسرحون شعورهم الطويلة ،
ثم فجأة يتعرضون لرجل مسنّ كان ماراً من هناك دون مبرر ، وإذا
ما سألناهم عن السبب أجابوا : إنه استهزأ بنا ففعلنا به ما فعلناه .
والطبع الآخر المنتشر بين الشباب هو حب القيام بشيء خارق أو
استثنائي ، وهذا النوع من الطباع متفشٍ في نفوس الشباب بشكل
كبير ، فهم يقومون بما هو ليس مرغوباً ، ويختارون الاستثناءات
على أنها من أساليبهم الخاصة ، فمثلاً عندما أطلق سراح «لاكي
لوجيانو» المعروف استقبله حوالي ٣٠٠ شاب وهم يهتفون له
ويحيونه» .

(١) چه ميدانم ؟ البلوغ ، ص ١٠٧

«وفي استطلاع للرأي نشر مؤخراً ، سُئِلَ عدد من الطلبة الجامعيين الشباب الذين تظاهروا ضد قوانين الجامعة ومقرراتها ، عن سبب نفورهم من الدراسة في الجامعة فأجابوا : لأنكم تفرضون علينا ما يروق لكم ، ونحن لا نعترف بأفكاركم ، ولا نود الدراسة . سُئِلوا : إذن ماذا تريدون أن تفعلوا ؟ ، أجبوا : ما لا ترغبون فيه»^(١) .

تصورات مغلوطة :

إن التخيّلات غير العقلانية والتصورات المغلوطة للشباب والتي تعتبر جزءاً من أعمالهم الجنونية ، تبعث فيهم أحياناً الفرح والسعادة فيفتقون بالضحك دون إرادة ، وأحياناً أخرى تثير فيهم الهمّ والغم فتراهم ينعزلون عن المجتمع وينطوون على أنفسهم ، وهذه الاختلالات النفسية والاضطرابات العصبية ، وصفها الرسول الأكرم ﷺ بالجنون ، وعبر عنها أمير المؤمنين عليه السلام بأنها سُكْرُ الشَّابِ .

قال رسول الله ﷺ : الشَّابُّ شُعْبَةٌ مِنَ الْجُنُونِ^(٢) .

سكره الشباب :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَحْتَرِسَ مِنْ سُكْرِ الْمَالِ وَسُكْرِ الْقُدْرَةِ وَسُكْرِ الْعِلْمِ وَسُكْرِ الْمَدْحِ وَسُكْرِ الشَّابِّ ، فَإِنَّ لِكُلِّ ذَلِكَ رِيحاً خَبِيثَةً تَسْلُبُ الْعَقْلَ وَتَسْتَخِفُّ الْوَقَارَ^(٣) .

وعنه عليه السلام : أَصْنَافُ السُّكْرِ أَرْبَعَةٌ : سُكْرُ الشَّابِّ وَسُكْرُ الْمَالِ وَسُكْرُ النَّوْمِ وَسُكْرُ الْمُلْكِ^(٤) .

(١) مجلة حقوق اليوم ، السنة الاولى ، العدد ٦ ، ص ٧٨ .

(٢) بحار الأنوار ج ١٧ ، ص ٤٩ .

(٣) غرر الحكم ، ص ٨٦٢ .

(٤) تحف العقول ، ص ١٢٦ .

وإذا ما تمعنّا في الروايات الثلاث الآتفة الذكر نجد أنها جاءت لتوضح ما

يلي :

١ - إن نمو الدماغ والسلسلة العصبية لدى الفتیان وهما أساس التعقل والتدبر والتفكر لم يبلغ كماله خلال مرحلة البلوغ .

٢ - ومن خلال الاختبارات التي أجريت على عقول الشباب وذكائهم تبين أن عقولهم لن تشهد خلال فترة البلوغ تفتحاً جديداً ، وأن ما وصلت إليه عقولهم من النباهة والذكاء اكتسبتها خلال فترة ما قبل البلوغ .

تخيلات موهومة :

٣ - تتفاوت نسبة الاختلالات النفسية وجنون الغرور لدى الشباب نتيجة ضعف العقل وهذا ما يجعلهم غافلين عن واقع الحياة ، غارقين في عالم التخيلات الموهومة كالمجانين ، يرتكبون أعمالاً غير عقلانية وجنونية .

حاجة الشاب للهداية :

إذا ما التفت الشاب إلى النقاط المذكورة جيداً ، فإنهم سيتعرفون على حالاتهم النفسية وضعف عقولهم وقصر تفكيرهم ، وسيلمسون حاجتهم للهداية من قبل من هم أكبر منهم وأعقل . كما أنهم سوف لا يتمسكون بأرائهم الارتجالية وغير المدروسة والتي قد تسبب بشقائهم وضياعهم .

إن ضعف عقول الفتیان والاضطرابات التي تشل أفكارهم خلال فترة البلوغ ليست منحصرة بدولة ما أو بمجتمع ما ، بل إنها تشمل جميع أبناء البشر في مختلف أصقاع الأرض .

عذر مقبول :

إن الشباب إذا لم يكن بمقدورهم التعامل مع قضايا الحياة بشكل صحيح واتخاذ القرارات الصحيحة والعقلانية ، فإن لذلك مبرراً ، وهو الضعف الطبيعي للعقل خلال فترة البلوغ .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : **جَهْلُ الشَّابِّ مَعْدُورٌ ، وَعِلْمُهُ مَحْضُورٌ** ^(١) .

قيل إن هناك مثلاً شائعاً في أحد البلدان الغربية يقول : «ليت الشبان كانوا يعلمون والشيخ كانوا يستطيعون» .

فالشبان قادرون على القيام بأي عمل مهما كانت صعوبته بسبب قدرتهم البدنية ، لكنهم لا يعلمون ما يفعلون بسبب ضعف عقولهم ، أما الشيخ فإنهم يتمتعون بعقول نيرة ، ويعلمون كل ما يفعلونه بسبب تجاربهم الطويلة ، لكنهم لا يقدرّون على القيام بأي عمل بسبب ضعف أبدانهم ، لكن أمير المؤمنين عليه السلام يفضل رأياً صائباً وعقلاً نيراً لشيخ على قدرة وعنجهية لشاب ، حيث يقول عليه السلام : **رَأْيُ الشَّيْخِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَلْدِ الغُلامِ** ^(٢) .

خطأ الشبان :

إن بعض الفتيان والفتيات عندما يقطعون مرحلة البلوغ وتضهر عليهم علامات الرجولة أو الأنوثة يقعون في خطأ ، حيث يتصورون أنهم أصبحوا بمساواة رجال ونساء المجتمع ، ويسألون أنفسهم ، ما الفرق بيننا وبين رجال ونساء المجتمع ؟ ، ألا يمكننا ان نكون مثلهم أو في مصافهم ؟ أليس من حقنا أن نبدي آراءنا أينما كان كما يفعلون وأن نستفيد من جميع المزايا الاجتماعية مثلهم .

فرض آراء خام :

وقد تأخذ هذه الأفكار منهم مأخذها فيصبحون متطرفين إلى درجة أنهم يستهزئون بمن يكبرهم سناً ، ويحاولون بشتى الوسائل فرض آرائهم الخام ، ويجبرون غيرهم على قبولها .

مثل هؤلاء ينظرون إلى ظاهريهم ولا يعرفون ما في باطنهم ، يرون أن

(١) غرر الحكم ، ص ٣٧٢ .

(٢) أبعج البلاغة ، النقيض ، ص ١١١٤ .

أجسامهم قد كبرت وأصبحت كأجسام آبائهم وأمهاتهم ، ويشعرون بأن الرغبات الجنسية قد ولدت فيهم وأنهم قادرون على الزواج والإنجاب ، متغافلين عن أن البلوغ الجنسي من الناحية الدينية والعلمية يختلف عن البلوغ العقلي الذي لن يصلوا إليه إلا بعد عدة سنوات من البلوغ الجنسي .

«إن البلوغ الجنسي لوحده ليس كافياً ، إذ يجب أن يصل الإنسان إلى البلوغ الفكري وتكتمل عواطفه وأحاسيسه ، وذلك لن يحصل قبل مرور عدة سنوات على البلوغ الجنسي»^(١) .

إن الفرق بين الآباء والأمهات وسائر نساء المجتمع ورجاله وبين الفتيان والفتيات هو أن عقول الآباء والأمهات قد بلغت نموّها النهائي وبلغوا بدورهم حدّ الكمال ، لكن الفتيان والفتيات الذين بلغوا جنسياً لم تبلغ عقولهم نموّها النهائي .

الفصل بين البلوغين الجنسي والعقلي :

لقد وضع التشريع الإسلامي قانوناً خاصاً حول الاستقلال الاقتصادي والتحرر المالي على أساس الفصل بين البلوغين الجنسي والعقلي .

نمو العقل :

وينص هذا القانون على منح صلاحيات مالية إلى أشخاص بلغت عتاه لهم إضافة إلى بلوغهم الجنسي ، أما الأشخاص البالغون جنسياً ولكنهم لم يبلغوا عقلياً فإنهم يُحرمون من التحرر الاقتصادي والصلاحيات المالية . قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم : ﴿وَأَبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾^(٢) .

(١) رشد زندگی (نمو الحياة) ، ص ٢٩٣ .

(٢) سورة النساء ؛ الآية : ٦ .

الاستقلال الاقتصادي :

وتشير الآية المباركة صراحة إلى أن الاستقلال الاقتصادي والتحرر المالي لا يعطيان إلى اليتامى إلا بعد بلوغهم الجنسي والعقلي ، حيث عبّر القرآن الكريم عن البلوغ الجنسي بكلمة «النكاح» وعن البلوغ العقلي بكلمة «رشدا» .

عن أبي عبد الله عليه السلام قَالَ : انْقِطَاعُ يَتِيمٍ بِالاحتِلامِ وَهُوَ أَشَدُّ وَإِنْ أَحْتَلَمَ وَلَمْ يُؤْنَسْ مِنْهُ رُشْدُهُ وَكَانَ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً فَلْيَمْسِكْ عَنْهُ وَلِيَّهُ مَالُهُ (١) .

عن ابن سنان قال : قُلْتُ لِأبي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام : مَتَى يُدْفَعُ إِلَى الغُلامِ مَالُهُ ، قَالَ إِذَا بَلَغَ وَأُوْنَسَ مِنْهُ رُشْدٌ . وَلَمْ يَكُنْ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً (٢) .

وعن أخي علي عليه السلام قَالَ : سَأَلْتُهُ عَنِ اليَتِيمِ مَتَى يَنْقَطِعُ يَتِمُّهُ ، قَالَ إِذَا أَحْتَلَمَ وَعَرَفَ الأَخْذَ والعطاء (٣) .

الصلاحيات المالية :

من خلال الآية المباركة والأحاديث الأنفة الذكر تبيّن أن الباري سبحانه وتعالى قد فصل بين البلوغين الجنسي والعقلي وخصّص منح الصلاحيات المالية للفتيان الذين بلغوا عقلياً إلى جانب بلوغهم الجنسي ، ولكن يجب الالتفات إلى أن المقصود بالبلوغ العقلي هنا والذي يخوّل صاحبة الاستفادة من الاستقلال المالي ليس النمو الكامل للعقل ، بل يكفي أن يعي الفتى معنى النفع والضرر المالي ويكون قادراً على التصرف بشروته بعقلانية ، وهذا يكفي لمنحه حق التصرف بماله من وجهة نظر القانون .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن مشكلة عدم نضوج عقل الفتى وهو موضوع بحثنا هذا لا يمكن اعتبارها محلولة لمجرد أن يصل الفتى إلى ما يخوّله لإحراز

(١) وسائل الشيعة ج ٤ ، ص ١٩٩ .

(٢) المستدرک ج ٢ ، ص ٤٩٦ .

(٣) بحار الأنوار ج ٢٣ ، ص ٣٩ .

الاستقلال المالي ، لأن معظم الشباب يتمتعون في بداية شبابهم بهذا الشرط لكنهم لا يستطيعون أن يميزوا جيداً بين الخير والشر ويدركوا القضايا الحياتية بالشكل المطلوب .

تفتح العقل :

إن العامل الوحيد الذي يمكنه أن يسوي مشكلة الشباب ويعوض لهم قصر تفكيرهم هو تفتح العقل ونموه الكامل ، وهذا لن يتحقق إلا بعد فترة طويلة .

إن أكثر الأخطار التي يواجهها جيل الشباب هي في الفترة ما بين البلوغين الجنسي والعقلي . فطوال هذه الفترة يكون الشباب عرضة للأخطار والسقوط والضياع أحياناً ، لأن عقولهم تكون ضعيفة وأحاسيسهم قوية .

وغالباً ما يحصل أن يتخذ الفتى قراراً متسرعاً وسلبياً ويقدم على أعمال لا تعود عليه سوى بالضرر ، وبالتالي يورط نفسه والآخرين بمصائب وويلات ، وذلك نتيجة تهيج غريزة الغضب أو الشهوة أو أي من الرغبات النفسية الأخرى لديه .

ضعف العقل في أزمة البلوغ :

إذا ما أدرك الفتان هذه الحقيقة وهي أن عقولهم تكون ضعيفة أيام البلوغ وما يصاحبه من أزمات ، فإنهم سيدركون أيضاً الأخطار التي تترتب على أي قرار متسرع وغير مدروس يتخذونه ، وسيعمدون إلى اتخاذ الحيطة والحذر في مسيرتهم الحياتية . كما أنهم سيشعرون بحاجتهم إلى مرّين أكفأ يرشدونهم إلى الطريق السوي .

وفي نهاية هذه المحاضرة لا بد لنا من الإشارة إلى وصيتين من وصايا الإمام الصادق عليه السلام ، وذلك لتعريف الشباب على مخاطرات القرارات والتصميمات العجولة ومنزلقات الحياة . ويبدو أن الشباب الأعزاء إذا ما عملوا بهاتين الوصيتين فإنهم سيكونون قادرين على اجتياز أزمة البلوغ بسلام ،

وسيكونون مُصانين من الأعمال السلبية الناجمة عن قصر في التفكير وضعف في العقل ، وهاتان الوصيتان هما :

عمق التفكير :

أولاً : عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إِنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي . فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ : فَهَلْ أَنْتَ مُسْتَوْصٍ إِنْ أَنَا أَوْصَيْتُكَ ؟ حَتَّى قَالَ لَهُ ذَلِكَ ثَلَاثًا وَفِي كُلِّهَا يَقُولُ الرَّجُلُ نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَإِنِّي أَوْصِيكَ إِذَا أَنْتَ هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ ، فَإِنْ يَكُ رُشْدًا فَأَمْضِهِ ، وَإِنْ يَكُ غَيًّا فَانْتِهِ عَنْهُ^(١) .

إذا ما عمل شبابنا الأجزاء بهذه الوصية القيّمة ، وفكروا للحظات بنتائج كل عمل يودون القيام به فإنهم لن يرتكبوا ذنباً ولن يقترفوا حراماً ، وإلاً كانوا كالكثير من الشباب الذين يقبعون في السجون ويعضون أصابعهم ندماً يوم لا ينفع فيه ندم على جرم ارتكبوه نتيجة تهوّر مؤقت .

إن الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم يوصينا بالتفكير بمساوىء ومحاسن كل عمل قبل القيام به حتى لا نندم على ذنب اقترفناه .

استشارة الكبار :

ثانياً : عندما يعجز الشباب عن التمييز بين محاسن أعمالهم ومساوئها نتيجة ضعف عقولهم وقصر بصيرتهم ينبغي عليهم أن يستفيضوا من أفكار الكبار ، ويستشيروا من هم أكثر منهم تجربة ، وينيروا دروب الحياة بنور عقول الكبار ، قال النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم : الشَّيْخُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ^(٢) .

لقد كان أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم هداةً أممهم ، ويجب على الشيوخ والمسنّين أن يكونوا هداةً للشباب في أسرهم .

(١) روضة الكافي ، ص ١٥٠ .

(٢) المحجة البيضاء ج ١ ، ص ١٧٠ .

المحاضرة السادسة

حول ميزان عمر الشاب وعقله

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز : ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾^(١) .

الانسان وأفضل الامتيازات :

إن أعظم ثروة وهبها الله سبحانه وتعالى للإنسان هو جوهرة العقل ، وأفضل امتياز خصصه البارئ تعالى للإنسان وجعله سيد الكرة الأرضية على سائر المخلوقات الأخرى هو العقل ، وأشرف ما خلقه رب العزة والجلالة بين سائر مخلوقات الكون هو العقل .

عن أبي جعفر عليه السلام : **ثُمَّ قَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتُ خَلْقًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ**^(٢) .

ميزان الجودة واللياقة :

يؤكد أولياء الإسلام أن ميزان الجودة واللياقة لدى الإنسان ليس في عمله السليم والصحيح فحسب بل يجب الأخذ بنظر الاعتبار حسن عقله وطريقة

(١) سورة نوح ؛ الآية : ١٤ .

(٢) الكافي ج ١ ص ١٠ .

تفكيره لتحديد حسن أخلاقه وأعماله . فالإنسان السليم هو من يتمتع بعقل سليم وتفكير واسع يساعده على اختيار الصالح من الأعمال والابتعاد عن الطالح منها .

حسن الخلق والتدبير :

قال رسول الله ﷺ : إذا بَلَغَكُمْ عَنْ رَجُلٍ حُسْنُ حَالٍ ، فَانظُرُوا فِي حُسْنِ عَقْلِهِ فَإِنَّمَا يُجَازِي بِعَقْلِهِ (١) .

وعن أبي جعفر عليه السلام : إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحَاسِبُ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ مَا آتَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ فِي دَارِ الدُّنْيَا (٢) .

إن لكل إنسان تله أمه هيكلية خاصة وتركيبية عضوية تُميّزه عن غيره ، كلون الوجه وتقاسيمه وتركيبته ولون العينين والشعر ونبرة الصوت وحتى بصمات أصابعه فإنها تختلف في كل إصبع عن سائر أصابع اليد . وهذا الاختلاف الطبيعي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ .

وكما أن تركيبية الجسم والشكل تختلف لدى كل إنسان عن سائر بني البشر ، فإن قوّة العقل وقدرة الاستيعاب لدى كل إنسان تختلفان عن غيره ، وهكذا فالعقل خلق لدى الإنسان ضمن أطر معينة وخاصّة به .

وهناك من خلقت لهم عقول خارقة ووهبوا ذكاء خارقاً وبتوا يتمتعون بنبوغ ذاتي ، ومثل هؤلاء برزوا على مرّ العصور والأزمنة ، ولكن عدد النوابغ كان دائماً قليلاً لا يتجاوز عدد أصابع اليد .

الانسان ودرجات العقل :

وهناك من خلقت لهم عقول عادية ووهبوا قوة استيعاب عادية ، وهؤلاء يشكّلون شعوب العالم العادية والتي تتزايد يوماً بعد آخر .

(١) الكافي ج ١ ص ١٢ .

(٢) بحار الأنوار ج ١ ، ص ٣٦ .

وهناك من خلقت لهم عقول ضعيفة وقوة استيعاب معدومة ، ويشكل هؤلاء طبقة دون الطبقة العادية ، وهم المتخلفون عقلياً ، وللأسف فإن عدد مثل هؤلاء كبير إلى حدّ ما في جميع بلدان العالم .

وهناك كلمات تطلق على مثل هؤلاء المساكين مثل الأحمق والأبله والسفيه والبليد وغيرها من الكلمات . هؤلاء يعيشون وسط المجتمعات كغيرهم من الأفراد ، لا يدركون نقص عقولهم ، لكنهم يتعذبون بسبب تصرفاتهم وأقوالهم الناقصة كما يتعذب الآخرون لأجلهم .

بالغون ولكن صغار العقول :

«إن العوامل التي يمكن أن تؤدي إلى صبيبة الأشخاص البالغين لا تعدّ ولا تحصى . وهذه الصبيبة ليست محصورة بالمساكين الذين يُحتفظ بهم كمجانين داخل أسوار وقلاع محكمة فحسب ، بل إن هناك الآلاف من النساء والرجال ممن يعتبرهم الآخرون بالغين وكاملين يتطبّعون بها» .

«ومن المؤسف أن ميزان الصبيبة وعدم النضوج لدى مثل هؤلاء الأشخاص الذين يُعتبرون كباراً جسمىاً لكنهم في الحقيقة صغار عقلياً ، لا يدركه الآخرون ، خاصة من هم يشاركونهم الحياة ، لأنهم في الغالب يكونون ممن لم يكتملوا عقلياً بعد . وبما أن المجتمعات لم تحدد بعد مقياساً لتحديد النضوج وعدم النضوج لدى الأشخاص ، فإن مثل هؤلاء يعيشون في أمان وسط المجتمعات» .

«ويمكن القول : إن مثل هذه الحالة ربما كانت وراء مقاطع مظلمة من التاريخ لم نجد لها مفهوماً ولا دليلاً . وهذه الحالة لم تكن فقط سبباً في وقوع أحداث مؤسفة على مر التاريخ . بل إن الكثير

من الأحداث المؤسفة التي نواجهها في حياتنا اليومية ناجمة عن
نقص العقل وعدم نضوجه»^(١) .

تجنب معاشره الاحمق :

كان الإمام الباقر عليه السلام عازماً على السفر ، فدخل عليه أبوه الإمام
السجاد عليه السلام ، وقال من جملة ما قال : يا بني ، تجنب صحبة الأحمق
ومعاشرته وأنفر منه وتجنب مكالمته .

علامات الحماقه :

وأوضح عليه السلام علامات الحمق وقصر النظر والتفكير قائلاً : **إِنْ تَكَلَّمَ
فَضَحَهُ حُمُقُهُ ، وَإِنْ سَكَتَ قَصَرَ بِهِ عَيْهُ ، وَإِنْ عَمِلَ أَفْسَدَ ، وَإِنْ اسْتُرِعِيَ
أَضَاعَ ، لَا عِلْمُهُ مِنْ نَفْسِهِ يُغْنِيهِ ، وَلَا عِلْمُ غَيْرِهِ يَنْفَعُهُ ، وَلَا يُطِيعُ نَاصِحَهُ ، وَلَا
يَسْتَرِيحُ مُقَارِنُهُ ، تَوَدُّ أُمُّهُ تَكَلُّتُهُ ، وَأَمْرَاتُهُ أَنَّهَا فَقَدَتْهُ ، وَجَارُهُ بَعْدَ دَارِهِ ، وَجَلِيسُهُ
الْوَحْدَةَ مِنْ مُجَالَسَتِهِ ، إِنْ كَانَ أَصْغَرَ مَنْ فِي الْمَجْلِسِ أَعْيَى مِنْ فَوْقَهُ ، وَإِنْ
كَانَ أَكْبَرَهُمْ أَفْسَدَ مِنْ دُونِهِ**^(٢) .

داء ليس له دواء :

من المؤسف أن داء الحمق ليس له دواء ، فالتربية العلمية والعملية في
عهد الطفولة ومرحلة الشباب مهما تكن قوية وأساسية فإنها لم تستطع إزالة ما
يعانيه عقل إنسان أحمق من نقصان .

نقص لا يمكن تعويضه :

ولا يمكنها أن تعوّض نقصه الفطري ، لأن أساس العقل الطبيعي
للإنسان يتشكل في رحم الأم ، ويستمر على وضعه مدى الحياة . لكن التربية

(١) العقل الكامل ، ص ١٣ .

(٢) بحار الأنوار ج ١٦ ، الجزء الثاني ، ص ٥٣ .

يمكنها أن تساهم في تنمية العقل الطبيعي وتفتح مواهبه واستعداداته الخفية .
أما عقل الإنسان الأحمق فهو يخلو أساساً من المواهب والاستعدادات .

التربية في مجالات الوراثة :

«إن الطفل الأبله والجبان والكسول لا يمكننا أن نجعل منه بفضل التربية رجلاً نشيطاً ومقتدراً وجسوراً ، لأن هناك بعض الصفات كالنشاط والجسارة والاعتدال ليست وليدة البيئة وربما لم تتأثر بالبيئة أدنى أثر ، فالتربية والتعليم لم تكن مؤثرة إلا في إطار الصفات الوراثية والطبيعية للإنسان»^(١) .

قال العيسوي رحمته : **عَالَجْتُ الْأَحْمَقَ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى إِصْلَاحِهِ**^(٢) .
إن المصائب بداء الكذب يمكن معالجته بالتربية الصحيحة ، كما أن المصائب بداء الثرثرة والهديان يمكن معالجته بالأسلوب نفسه أي بالتربية ، وخلاصة القول : إن جميع الأمراض الأخلاقية قابلة للعلاج ، لكن داء الحمق ليس له دواء ، والمساعي والجهود التربوية لا يمكنها أن تعوّض نقصان العقل وضعفه .

نعمة الهية :

عن الرضا رحمته : **قَالَ : الْعَقْلُ جِبَاءٌ مِنَ اللَّهِ وَالْأَدَبُ كُفْلَةٌ ، فَمَنْ تَكَلَّفَ الْأَدَبَ قَدِرَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَكَلَّفَ الْعَقْلَ لَمْ يَزِدْ بِذَلِكَ إِلَّا جَهْلًا**^(٣) .

قال علي رحمته : **الْعُقُولُ مَوَاهِبٌ وَالْأَدَابُ مَكَائِبٌ**^(٤) .

اختبار العقل والذكاء :

إن من الأمور التي استأثرت باهتمام بالغ في علم النفس الجديد ، مسألة

(١) إنسان ناشئناخته (الإنسان المجهول) ، ص ٢٤٦ .

(٢) سفينة «الحمق» ، ص ٣٤١ .

(٣) الكافي ج ١ ، ص ٢٤ .

(٤) بحار الأنوار ج ١ ، ص ٥٣ .

اختبار عقل الأطفال والشبان وذكائهم . ففي القرون الغابرة كان الناس يعرفون إلى حدّ ما أن هناك تبايناً في قوة الإدراك والاستيعاب بين الناس ، ولكنهم لم يعرفوا كيف يحدّدون نسبة هذا التباين بين إنسان وآخر ، وأية طريقة يتّبعون . أما علماء اليوم فقد توصلوا بفضل دراساتهم وأبحاثهم الدؤوبة إلى درجة متقدمة في هذا المجال ، بحيث أصبح بإمكانهم اختبار عقول الأطفال والشبان وذكائهم وذاكرتهم وسرعة البديهة لديهم ، وتحديد المقاييس بدقة .

مقياس عقول الاطفال :

«مع مطلع القرن الحالي خضعت أول تجربة لقياس عقول الأطفال للاختبار بفضل جهود العالم بينه (Binet) ، وحتى ذلك اليوم لم يكن يشهد ما توصل إليه هذا العالم في هذا المجال نظيراً له ، طبعاً كان واضحاً يومئذ أن هناك أطفالاً أكثر ذكاءً من غيرهم ، ولكن لم يحاول أحد أن يكتشف علاقة الذكاء أو الغباء بسن الطفل»^(١) .

«وكان السطلوب يومها اختراع وسائل مخبرية تساعد في تحديد الأطفال الأغبياء وفصلهم عن الأطفال العاديين . وكان العالم «بينه» يعتقد أن بالإمكان صناعة أو ابتكار مقياس لاختبار قوة الذكاء لدى الأطفال على غرار مقياس الطول الذي اخترعه «غوز» .

«وفي بادىء الأمر وضع «بينه» وزميله «سيمون» جدولاً امتحانياً لتحديد درجة الاستيعاب والذاكرة لدى الأشخاص وقدراتهم النفسية ، وباشرا بتحقيقات واسعة لمعرفة مستوى تجاوب الأطفال على اختلاف أعمارهم مع الجدول الامتحاني» .

(١) العقل الكامل ، ص ١٥ .

مراتب الاختبارات :

«وبعد تنظيم مراتب الاختبارات لأعمار محدّدة ، اكتشف «بينه» و «سيمون» مفهوماً جديداً وهو السن العقلي . فالطفل الذي يبلغ من العمر خمس سنوات كان ينجح في الاختبار الذي حدّد لمثل عمره ، لكنه كان يخفق في الاختبار الذي وُضع لعمر الـ ٦ سنوات ، إذن سن هذا الطفل العقلي خمس سنوات ، ومثل هذا الطفل يعتبر طبيعياً .

السن العادي والعقلي :

«أما إذا كان سن الطفل العادي عشر سنوات ولم يستطع اجتياز الاختبار المخصص لسن الـ ٥ سنوات ، فإنه يكون من فصيل الأطفال الأغبياء . وإذا كان سن الطفل العادي ثلاث سنوات ونجح في الاختبار المخصص لسن الـ ٥ سنوات ، فهذا معناه أنه خارق الذكاء . إذن فإن تحديد السن العقلي كفيل بإبراز حدّة ذكاء الأطفال أو غيائهم ، وهذا ما يمكن تحديده إذا ما أخذ السن العقلي والسن العادي بعين الاعتبار معاً»^(١) .

منذ أن تم اكتشاف مقياس للعقل والذكاء لدى الإنسان بأساليب علمية وعملية ، ومنذ أن شرعت البلدان المتقدمة باستخدام هذه الأساليب برزت حقائق مرّة ومفاجئة كانت تجهلها شعوب العالم .

فقد أثبتت الاختبارات التي خضع لها طلاب المدارس وعمال المصانع وجنود المعسكرات أن عدداً كبيراً من أبناء المجتمعات يعانون من ضعف العقل والغباء أي أنهم غير طبيعيين ومتخلفون من جهة النمو العقلي .

«يقول الدكتور كارل : هناك الكثيرون (في فرنسا وفي أميركا) ممن

(١) أصول روانشناسي مان (مبادئ علم نفسنا) ، ص ٥٦ .

لم يتجاوز سنهم العقلي الـ ١٠ سنوات . وقد ذكر تقرير صدر عن اللجنة الوطنية للصحة النفسية أن ٤٠٠٠٠٠٠ طفل لا يمكنهم مواصلة الدراسة بسبب غيائهم» .

«وأثبتت الاختبارات التي أجراها «هيركس» (Herkes) عام ١٩١٧ على جنود وضباط الجيش الأميركي أن السن العقلي لـ ٤٦٪ منهم لا يتجاوز سن الـ ١٣ سنة» .

«ومن المؤكد أن مثل هذه الاختبارات لو خضع لها الشعب الفرنسي وخاصة في بعض مدن ولايتي «بروتاني» و «نورماندي» ل جاءت نتيجتها مماثلة ، ولكن ليس هناك إحصاءات في هذا المجال في فرنسا» .

«ولهذا يجب أن لا نتوهم بنتائج الامتحانات الدراسية التي تحتل جزءاً كبيراً من مرحلة شبابنا ، فنحن نعلم أن نيل الشهادات وتحقيق النجاح حتى في الدراسات العليا ليس دليلاً على قدرة الاستيعاب والذكاء ، فهناك من هم أغبياء لكنهم ينجحون في مثل هذه الامتحانات» .

أشخاص شاذون :

«إن كل مجتمع يضم في تركيبته أشخاصاً شاذين . ففي أميركا الشمالية يوجد حوالي ٣٠ مليون شخص لم ولن يستطيعوا التأقلم مع الحياة المتحضرة ، وفي فرنسا هناك جزء كبير من العاطلين عن العمل هم من الجهلة والأغبياء الذين لا يمكنهم القيام بأي عمل»^(١) .

(١) راه ورسم زندگي (سبل الحياة) ، ص ١١ .

عدم اكتمال العقل :

إن الحماقة وضعف العقل من أشد المعاناة الفردية والاجتماعية في حياة الإنسان ، فالإنسان يواجه الكثير من المصائب والويلات ويجرّ الكثير من المعاناة والحرمان بسبب عدم اكتمال العقل وانعدام الذكاء .

فكما أن العقل يعتبر جوهرة ثمينة توصل صاحبها إلى منازل الكمال والراقي ، فإن الحماقة والغباء يؤديان بالإنسان إلى منازل الفشل والضياع .

عن الإمام الصادق عليه السلام قال : لا غنى أخصب من العقل ولا فقر أخط من الحمق^(١) .

ومن هنا يمكن أن نقول: إن اختبار العقل والذكاء لو تم تعميمه على جميع أنحاء العالم وخضعت له كافة الشعوب بكل فئاتها وطبقاتها ، لبرزت المصيبة الكبرى وبان العدد الهائل من بني البشر ممن يعانون من داء الحمق وضعف العقل .

مصدر صغر العقل :

«إن السن العقلي للقسم الأكبر من الناس لا يتجاوز سن الـ ١٢ أو الـ ١٣ سنة ، وأسباب سوء العاقبة هذه لا يمكن تحديدها بدقة ، ولكن يمكن بشكل عام ملاحظة صغر العقل على أبناء أولئك الذين يحتسون الخمر ، والمصابين بمرض السيفلس والفاسقين والمختلين عقلياً»^(٢) .

«إن خمود الذكاء واضمحلال قوّة العقل السليم ينجم عن تناول الخمر والإفراط في كل شيء ، ومما لا شك فيه أن هناك علاقة

(١) الكافي ج ١ ، ص ٢٩ .

(٢) راه ورسم زندگی (سبل الحياة) ، ص ٦٢ .

بين نسبة استهلاك الخمر من قبل مجتمع ما وبين ضعف عقول أبنائه»^(١) .

«ويذكر «غودار» (Goddar) أن نسل أبوين يعانيان من ضعف في عقليهما ضم ٤٧٠ طفلاً يعانون من ضعف في العقل و ٦ أطفال طبيعيين»^(٢) .

ومع الأخذ بنظر الاعتبار أن داء الحمق والغباء ليس له دواء ، وأن الخمر والمشروبات الأخرى والإدمان على كل ما هو ضار يمكن أن يشكل مصدراً لهذا الداء ، وأن غالبية الأبناء يرثون الحمق والغباء من أبويهم . . .

الحقيقة المرّة :

. . . علينا أن نتقبل هذه الحقيقة المرّة وهي أن هذا الداء الخطير ينتشر في عالمنا بشكل كبير مما سيتسبب بالمصائب والويلات على بني البشر .

إن اهتمام الدين الإسلامي الحنيف بمسألة العقل وأهميته هو من البديهيات . وفي القرآن الكريم والروايات الإسلامية لم يرد ذكر كلمة أكثر من كلمة عقل وما يتعلق به من تفكّر وتدبّر .

ومن القضايا التي أكدت عليها الروايات صراحة اختبار عقول الناس أو ما يطلق عليه علماء اليوم بـ (تست) . فقد نقلت لنا الروايات أن أولياء الله ﷺ كانوا يطرحون في أوقات خاصة أسئلة على أنصارهم ليتبين لهم من أجوبتهم ميزان عقولهم ومدى فهمهم ، كما جاؤوا في الكثير من أحاديثهم بأحكام تعلّم الإنسان كيف يختبر عقول الآخرين ، وعلى سبيل المثال نشير إلى إحدى الروايات :

(١ و ٢) راه ورسم زندگي (سبل الحياة) ص ١٢ و ٧٤ .

سبيل اختبار العقل :

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام : إذا أزدت أن تختبر عقل الرجل في مجلس واحد ، فحدته في خلال حديثك بما لا يكون ، فإن أنكره فهو عاقل ، وإن صدقه فهو أحمق^(١) .

وعلى أساس هذا الحكم يمكنك أن تختبر عقول الأطفال والشباب وتحديد ذكائهم وغبائهم عن طريق طرح أسئلة تتضمن قضايا بعيدة عن الواقع أو مستحيلة الحصول .

قال علي عليه السلام : عند بديهة المقال تختبر عقول الرجال^(٢) .

الرد السريع :

إن ميزان الاختبار في هذا الحديث هو «بديهة المقال» يعني سرعة الرد ، فأحياناً يواجه الإنسان المتكلم ظروفاً خاصة ويبدأ فوراً بالحديث ، وأحياناً أخرى يُطرح عليه سؤال فيجيب فوراً ، وفي كلتا الحالتين يكون نطقه السريع اختباراً لعقله يبين كماله أو نقصه .

إن طريقة الاختبار في هذا الحديث أشمل من تلك التي جاء بها الحديث الأول ، حيث يمكن اختبار عقول الصغار والكبار مهما اختلفت أعمارهم ، وسرعة الكلام لا تعتبر اختباراً للعقل فحسب بل للذكاء والذاكرة وغير ذلك من القضايا النفسية أيضاً .

قال علي عليه السلام : ظنُّ الإنسانِ ميزانُ عقلِهِ^(٣) .

وكلمة «ظن» تعني في اللغة اليقين والريب والشك ، وربما قصد هذا الحديث كل تلك المعاني .

(١) بحار الأنوار ج ١ ، ص ٤٣ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٤٩٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٧٤ .

الرأي السليم :

إن للناس وجهات نظر مختلفة تجاه حدث عالمي أو وطني أو عارض عائلي أو شخصي إلى غير ذلك من المسائل العلمية والاجتماعية ، بعضهم يبدي وجهة نظره بشكل حازم ، وبعضهم الآخر يتردد في إبرازها . وكلما كان عقل الإنسان كاملاً وفكره واسعاً ، كانت نظراته صائبة ورأيه سليماً وشكّه قريباً من الواقع . وفي الحديث الأنف الذكر حدّد أمير المؤمنين علي عليه السلام وجهات نظر الناس ميزاناً لعقولهم .

وعلى أساس ما ورد يمكن تنظيم المئات من الأسئلة لتشكّل اختباراً يُطبّق اليوم في علم النفس الحديث ، لمعرفة السن العقلي والموقع النفسي للصغار والكبار من الناس .

باب في علم النفس :

إن مسألة اختبار عقول الأطفال والشبان قد فتحت في الآونة الأخيرة باباً جديداً في علم النفس . ومع الفصل بين السن العادي والسن العقلي ثبت أنه من الممكن أن يكون لشاب في الـ ٢٠ من العمر عقل لا يتجاوز سنّه الـ ١٠ سنوات ، أو بالعكس يتجاوز عقل طفل في العاشرة من العمر سن الـ ٢٠ عاماً . «ليس من الضروري أن يتطابق السن العادي للإنسان مع سنّه العقلي ، فهناك مثلاً طفل لم يتجاوز عمره الـ ١٠ سنوات لكن سنّه العقلي والنفسي ما زال في الخامسة أو بالعكس قد تجاوز الـ ١٥ سنة» .

«من الواضح أن هناك مسائل جديدة في العلم قد استأثرت باهتمام الإنسان ، ووصلت به إلى معلومات حديثة عن طبيعتنا نحن البشر ، تجعله يعيد نظراته إلى الإنسان ، ولكن من المسلم به أن لدى كل واحد منا سنّان ، سن سنوي عادي وسن نفسي وعقلي» .

«ومن الممكن جداً أن يكون هناك بون شاسع بين السن العادي لإنسان ما وسنّه العقلي ، فمثلاً يكون لدى امرأة في الـ ٣٠ من العمر مشاعر فتاة في الـ ١٥ سنة ، أو يكون لولد في العاشرة من العمر عقل مرهف وشعور بالمسؤولية وكأنه في الـ ٢٠ من العمر ، صحيح أن هذا الولد يعتبر طفلاً نظراً لسنّه ولكنه يعتبر كاملاً نظراً لعقله ومشاعره» .

«وربما بانت تصرفات على شاب في الـ ٢٥ من العمر لم يقم بها طفل في الـ ٥ من العمر ، أو ربما هجر طفل في الـ ٥ من العمر جميع ألعابه وبرز فيه حب التجارة وروح العدالة والأمل بالمستقبل مما يدل على نمو سنّه العقلي»^(١) .

العقول النيرة :

لقد كان الرسول الأكرم عليه السلام والأئمة الأطهار عليهم السلام في مراتب متقدمة من الكمال العقلي والفكري ، ومنذ نعومة أظفارهم برز نبوغهم في أحاديثهم وتصرفاتهم ، وهناك الكثير من الشواهد التاريخية التي تثبت نبوغهم الفكري ، نكتفي بالإشارة إلى واحد من هذه الشواهد .

بعد مضي سنة على وفاة الإمام الرضا عليه السلام قدم الخليفة المأمون إلى بغداد ، وذات يوم اعتزم الخروج إلى الصيد ، فمرّ بأحد الأحياء المحيطة بالمدينة ، وكانت هناك مجموعة من الأولاد يلهون على الطريق ، ومحمّد عليه السلام واقف معهم ، وكان عمره يومئذٍ إحدى عشرة سنةً فما حوّلها ، فدنا المأمون منهم ، ففرّ الأولاد ولم يبق منهم سوى الإمام الجواد عليه السلام الذي لم يحرك ساكناً ، وكان الخليفة شاهداً لما حصل ، فدنا من الإمام عليه السلام وسأله عن سبب عدم فراره مع بقية الأولاد؟ ، فقال الإمام عليه السلام مسرعاً : يا أمير المؤمنين لم

(١) العقل الكامل ، ص ١٦ .

يَكُنْ بِالطَّرِيقِ ضَيْقٌ لَأَوْسَعَهُ عَلَيْكَ بِذَهَابِي ، وَلَمْ يَكُنْ لِي جَرِيمَةٌ فَأَخْشَاهَا ،
وَوَظَنِي بِكَ حَسَنٌ ، إِنَّكَ لَا تُضِرُّ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ فَوَقَفْتُ . فَأَعَجَبَهُ كَلَامُهُ وَوَجَّهَهُ
فَقَالَ لَهُ : مَا أَسْمُكَ؟ ، قَالَ مُحَمَّدٌ ، قَالَ ابْنُ مَنْ أَنْتَ؟ ، قَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
أَنَا ابْنُ عَلِيِّ الرَّضَا^(١) .

ويبدو واضحاً في هذا الحديث الاختلاف بين السن العادي والسن
العقلي ، فالسن العادي للإمام الجواد عليه السلام كان ١١ سنة ، لكن عقله
وفكره عليه السلام كان أكبر من ذلك بكثير . فالكلام الذي صدر عن الإمام
الجواد عليه السلام في حضور الخليفة المأمون كان يليق برجل مثقف واعٍ ملمٌّ
بالمسائل النفسية والقوانين الحقوقية وقادرٍ على تحليل المسائل بدقة وشجاعٍ
بالقدر الذي يمكنه من مواجهة خليفة مقتدر كالمأمون بهذه الصراحة .

أفضل العقول للأنبياء والرسل :

استناداً إلى الروايات فإن ما يمتاز به الأنبياء والرسل هو كمال العقل .
فالأنبياء والرسل الذين اختارهم الله سبحانه وتعالى لهداية الناس وكذلك الرجال
الذين اختارهم الأنبياء خلفاء لهم بأمر من الله تبارك وتعالى كانت لهم عقول نيرة
تختلف عن عقول سائر أفراد البشر .

قال رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : وَلَا بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا وَلَا نَبِيًّا حَتَّى يَسْتَكْمِلَ الْعَقْلَ
وَيَكُونَ عَقْلُهُ أَفْضَلَ عُقُولِ جَمِيعِ أُمَّتِهِ^(٢) .

كذلك فإن الذين اختارهم الله سبحانه وتعالى ليكونوا أنبياء ورسلًا كانوا
من الذين توفرت فيهم جميع الشروط المادية والمعنوية :

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(٣) .

(١) بحار الأنوار ج ١٢ ، ص ١٢٢ .

(٢) السفينة ج ٢ ، «العقل» ، ص ٢١٤ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٤ .

واستناداً لحديث الرسول الأكرم ﷺ فإن كمال العقل لدى أنبياء الله هو من الشروط التي جعلتهم يحرزون مقام النبوة والرسالة الشامخ .

مراتب العقل والذكاء :

ومن خلال قياس درجات العقل والذكاء لدى الأطفال والشبان بالمقارنة مع أعمارهم ، يمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام : عادي وفوق العادي ودون العادي . فالعادي منهم هو من يتطابق عمره الطبيعي مع سنّه العقلي تقريباً أو يزيد أو ينقص قليلاً ، فهو لا يملك عقلاً خارقاً ولا يعاني من تخلف عقلي ، وبإمكانه أن يتجاوز الاختبار المخصص لسنّه . والشخص فوق العادي أو الخارق هو من يملك عقلاً خارقاً ويتمتع بذكاء يفوق عمره ويساعده أحياناً على تجاوز اختبار مخصص لمن يبلغ ضعف عمره أو ضعفين حتى . أما الفرد دون العادي فهو من تكون درجة العقل لديه أقل من عمره ، فمثل هذا الفرد يعاني من الغباء والتخلف العقلي الذي يُعيقه أحياناً عن اجتياز اختبار مخصص لأشخاص لا يتجاوزون نصف عمره .

«إن للتخلف درجات ، وفي أدنى هذه الدرجات يمكن أن يعجز فتى في الخامسة عشرة من العمر عن الإتيان بما يمكن أن يقوم به طفل في الرابعة من العمر»^(١) .

تحليل جسم الشاب وعقله :

ونظراً لاختلاف درجات العقل والذكاء لدى الناس ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن غالبية الشباب في جميع أنحاء العالم هم من الفئتين العادية ودون العادية ، بات من الضروري دراسة وتحليل الوضع الجسمي والعقلي للشباب بعد تخطيه ثورة البلوغ .

(١) أصول روانشناسي مان (مبادئ علم نفسنا) ، ص ٤٧ .

ولكي يتعرف الشاب أكثر على ذاته ويدرك الأخطار التي قد تواجهه مرحلة الشباب ، نقدم له توضيحاً مختصراً للوضع الجسمي والعقلي الذي يمرّ به مهما كانت درجة عقله وذكائه ، فلربما دفعه ذلك إلى التبعية لتعاليم المرّيين والاستفادة من آراء المفكرين ، وأعاناه في تحقيق السعادة الأبدية في حياته .

قدرة الجسم :

عندما تتفاعل عوامل البلوغ في مزاجية الأطفال وتبدأ عظامهم وعضلاتهم وسائر أعضائهم بالنمو السريع ، تتضاعف قواهم وقدرتهم بسرعة ، وخلال فترة قصيرة تحلّ قدرة الشباب مكان ضعف الطفولة وعجزها .

وهذا التحوّل الشامل والطبيعي والنمو السريع يشمل كل الأطفال دون استثناء مهما اختلفت درجات عقولهم ، حتّى المجانين يتأثرون بعوامل البلوغ ، وتكتسب أجسامهم النحيلة الضعيفة قدرة تبدو واضحة تماماً بحيث يمكن التمييز بسهولة بين قدرة فتى في الـ ١٦ من العمر وقدرة فتى في الـ ١٢ من عمره .

العقل الناضج قبل أوانه :

إن بعض الشبان يملكون عقولاً ناضجة قبل أوانها كوّنت لديهم نبوغاً ذاتياً وابتوا في وضع عقلي خارق ، ويكون عقل وذكاء الواحد منهم في سن الـ ١٦ سنة بموازاة عقل وذكاء من هو في الـ ٢٦ من العمر ، وهذا معناه في الحقيقة أن سنّه العقلي يفوق سنّه الطبيعي بعشر سنوات .

وهذه الفئة من الشباب بإمكانها أن تنظر إلى القضايا الحياتية نظرة تحليلية وأن تميّز بين الخير والشر وأن تطبّق شؤونها مع مصالح المجتمع . وبإمكانها أيضاً أن توزن كلامها وتقيم أعمالها وتصرفاتها وتبتعد عن استغلال شبابها وقدراتها الجسمانية فيما لا يحمد عقباه .

ولكن رغم كل هذا النبوغ الذاتي والتفتح العقلي والذهني ، تبقى هذه الفئة من الشباب تعاني من نقاط ضعف كثيرة بسبب نقص التجربة ، وينبغي

عليها أن تلجأ إلى من هو أكبر منها وأكمل عقلاً لتستنير به دربها مبتعدة عن الانحراف والضلالة .

أحسن طبقات المجتمع :

وهذه الفئة من الشباب تعتبر أحسن طبقات المجتمع ، فهي التي توصلت إلى أسرار الطبيعة وكشفت بعقولها الخارقة الكثير من الحقائق الخفية ، وأحدثت تحولاً عظيماً في مجال العلم والمعرفة وبالتالي في حياة الإنسان ، ولكن عدد الشباب الذين يتمتعون بنبوغ عقلي في جميع المجتمعات أقل بكثير من الشباب العاديين ومن هم دون ذلك .

معظم الشبان :

وهناك شبان يملكون عقولاً عادية ويتمتعون بذكاء عادي ، هؤلاء تتطابق أعمارهم الطبيعية مع سنيّ عقولهم ، ويشكل هؤلاء غالبية الشباب في العالم ، ولكن رغم أنهم يتمتعون بنمو عقلي سليم وطبيعي ، إلا أن عقولهم لا تعتبر كاملة أساساً بسبب جنون الشباب ، فالشاب الذي يبلغ من العمر ١٦ سنة ليس بمقدوره أن يدرك قضايا الحياة جيداً ولا يمكنه أن يميّز بين الصالح والظالم ، ويبقى بحاجة إلى سنين طويلة وتجارب كثيرة حتى يصل إلى درجة الكمال العقلي .

اختلال الجسم والعقل :

إن أجسام الفتيان تنمو بشكل ملحوظ خلال سنيّ البلوغ وتزداد قواهم ، لكن عقولهم تبقى كما كانت عليه في مرحلة ما قبل البلوغ ، وعدم التناسق هذا بين الجسم والعقل يكون سبباً في كثير من الأخطار التي تحدث بالشباب في هذه المرحلة . لأن الشاب يكتسب مع نمو جسمه قدرة تنفيذية أكبر من ذي قبل ، لكن عقله الذي يجب أن يسير قواه الجسمية يبقى ضعيفاً كما الحال عليه في أيام الطفولة . وغالباً ما يحدث أن يتخذ الشاب قرارات غير عقلانية ويبدأ بتنفيذها لكنه ما يلبث أن يقع في الحسرة والندم .

ولكي لا يقع الشبان في مثل هذه الأعمال الصبيانية التي قد تتعس حياتهم وحياة من حولهم ، عليهم أن يراقبوا أعمالهم جيداً ويضعوا الخطر نصب أعينهم وأن يستشيروا من هم أكبر منهم وأعقل في كل مسألة ينوون القيام بها لاختيار الصالح منها وذلك لتجنب الانزلاق في مآهات الحياة .

الشبان الاغبياء :

والبعض الآخر من الشبان يعانون من الغباء والتخلف العقلي ، يعني أن سنهم العقلي أقل بكثير من أعمارهم الطبيعية . وكثيراً ما نرى فتى في الـ ١٦ من العمر لم يتجاوز سنه العقلي الـ ٦ سنوات ، أي أنه يعاني من تخلف عقلي بقدر عشر سنوات عن الأشخاص العاديين . ولشديد الأسف أن عدد المصابين باختلالات عقلية في مجتمعاتنا اليوم ليس بقليل ، وهذا ما يدعو إلى مزيد من الاهتمام .

عدم اكتمال العقل :

ومثل هؤلاء الشبان يكونون دائماً معرضين لأخطار مختلفة نتيجة عدم اكتمال عقولهم وعجزهم عن تحليل شؤون الحياة وتمييزهم بين الخير والشر ، فهم قد يتخذون في أية لحظة قرارات حمقاء ويقدمون على ما هو حرام وخطير ، ويتسببون بذلك في شقائهم وشفاء مجتمعهم .

قال علي بن الحسين عليه السلام : مَنْ لَمْ يَكُنْ عَقْلُهُ أَكْمَلَ مَا فِيهِ كَانَ هَلَاكُهُ مِنْ أَيْسَرِ مَا فِيهِ (١) .

فالولد ابن السادسة من العمر لا يمكنه بسبب ضعف عقله وعدم نضوج فكره أن يميز بين الخير والشر ، ولا يمكنه استيعاب شؤون الحياة ، فهمة الوحيد رغباته التي يسعى دائماً إلى تحقيقها ، ولحسن الحظ أن قدرته البدنية

(١) بحار الأنوار ج ١ ، ص ٣٢ .

ضعيفة ، وهذا ما يمنعه من تنفيذ كل نواياه الشريرة والتي تتناقض ومصالحته ، ويحرمه من تحقيق كل رغباته الصبيانية ، مما يجعله بعيداً عن كثير من الأخطار .

أفكار صبيانية :

أما الفتى الذي يبلغ من العمر ١٦ سنة لكن سنّه العقلي لا يتجاوز الـ ٦ سنوات ، فله وضع بالغ في الخطورة ، فهو بسبب تخلّفه العقلي يفكر كابن الـ ٦ سنوات وله رغبات وأهواء صبيانية ، لكنه قادر على تحقيقها وتنفيذها لما يتمتع به من قدرة بدنية اكتسبها بعد البلوغ .
وواضح جيداً مدى خطورة وجود مثل هذا الفتى الطفل على أسرته ، ومدى التأثير السلبي الذي يمكن أن يتركه على من حوله ، والذي قد يصل أحياناً إلى مرحلة الدمار .

رغبات شخصية :

«لو تعادلت القدرة البدنية بضعفها مع القوة العقلية لدى عامة الناس لعاشوا في أمن واستقرار ، أما الطامة الكبرى فهي أن يكون لطفل قدرة إنسان كامل ، لأن الطفل لا يعرف من الحياة غير رغباته الشخصية التي تتحكم به من كل جانب ، وبما أنه لا يمت إلى العلم والمعرفة بصلة ، فإن استغلال قدرته سيكون قائماً على الجهل ، ونتيجة ذلك معروفة لدى الجميع» .

«ومثل هذا الطفل تكون مشاعره وأحاسيسه ناقصة وغير ناضجة ، وما يشعر به لذته الشخصية فقط ، لذا فإن أي عمل يُقدم عليه يكون تنفيذاً لرغباته وتحقيقاً للذاته الشخصية» .

أعمال تخريبية :

«هكذا طفل يفتقر لمشاعر الصبر والتحمل ، ويبدى لا مبالاة تجاه أي عمل يفكر القيام به ، لذا فإن أي عمل قد يستخدم قدرته

البدنية فيه سيكون عملاً تخريبياً . وبما أنه لا يعرف للاستقامة الأخلاقية وقانون العدالة والإيمان بمفهومه الحياتي من معنى ، فإن أعماله كلها ستنتقل من مبدأ الغريزة والرغبات» .

«إننا لا نستطيع أن نقول: إن فلاناً يسير نحو الكمال ما لم يكن نموّه الفكري يتوازن مع نموّه الجسمي . فإذا ما تنامت قدرته التنفيذية وبقيت قدرته الفكرية ، وليّ حالها يكون من وجهة نظر علم النفس متخلفاً ويشكل خطراً عليّ أسرته وبالتالي مجتمعه» .

«فالقدره الجسميه لا يمكن أن تكون نافعه ومفيدة إلا إذا ما اختلطت بالعلم والمعرفه ، ويدرك الإنسان أن ما يود القيام به سيكون مفيداً له ولأسرته ومجتمعه وليس مضرّاً لهم»^(١) .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : عِظْمُ الْجَسَدِ وَطُولُهُ لَا يَنْفَعُ إِذَا كَانَ الْقَلْبُ خَائِياً^(٢) .

إن الرجل المثقف العاقل يزن كلامه قبل التّفوّه به ، ويفكر دائماً في أي رأي يُبديه خشية الوقوع في الخطأ ، ويسعى إلى استشارة الآخرين في كل ما يود القيام به .

دليل ضعف العقل :

عليّ عكس الرجل الجاهل الأحمق الذي يعتبر نفسه مصنوّناً من الخطأ ، ويعتبر أعماله الصبائية بأنها أفضل الأعمال ويفتخر بها ، ويعتبر أن من واجب الآخرين الاقتداء برأيه ، وهذا التفكير دليل على حماقته وتخلفه .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : إِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ دَلٌّ عَلَى ضَعْفِ عَقْلِهِ^(٣) .

(١) العقل الكامل ، ص ٤٣ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٤٩٩ .

(٣) الكافي ج ١ ص ٢٧ .

الغرور والاستبداد :

إن مما لا شكّ فيه أن قسماً كبيراً من مشاكل عهد الشباب التي تسبب في ضياع الأسر وتشتتها ، ناجم عن غرور الشباب واستبدادهم برأيهم .

فالبعض من الشباب يقرّر بما يتنافى والمصلحة الذاتية والعامّة ، ويُقدم على تنفيذ قراراته دون استشارة الآخرين . ومن أجل فرض أفكاره الصبيانية على أفراد أسرته لإثبات شخصيته ، يُقدم على أعمال سيئة ومدمرة ، تترك الوضع الداخلي للمنزل ، ويحاول بكلمات ركيكة وصيحات مدوية بث الرعب في نفوس من حوله ، حتى انه يسلب أحياناً أبويه وسائر أفراد أسرته الراحة والسكينة مما يعكّر عليهم رغد العيش .

انحطاط الشخصية :

هؤلاء يعتقدون أن بمقدورهم باستبدادهم وتصرفاتهم الرعناء أن يكونوا لأنفسهم منازل في المجتمع ويصبحوا في نظر الآخرين شخصيات مرموقة ، جاهلين أن مثل هذه التصرفات تحطّ من مكانتهم وقدرهم لدى الآخرين .

إن ضعف العقل لدى الشبان ليس بالأمر البعيد عن الواقع ، وليس من صنع الآخرين حتّى يمكن محاربتة بالعنف والاستبداد ، إنما هو يدخل في سياق قانون الطبيعة وسنة إلهية في نظام التكوين ، والإنسان العاقل لا يحارب قانون الطبيعة ، ولا يدخل على نظام التكوين من باب العداة والخصومة ، لأنه سيفشل لا محالة . قال رسول الله ﷺ : لا تُعادُوا الأيامَ فتُعادِكمُ^(١) .

معاداة الزمن :

قال علي عليه السلام : مَنْ كَابَرَ الزَّمَانَ عَطِبَ^(٢) .

(١) السفينة ، «اليوم» ، ص ٧٤١ .

(٢) تحف العقول ، ص ٨٥ .

عندما يقع الشباب تحت تأثير الشهوة والغضب وحب المال وغير ذلك من الأهواء والغرائز النفسية ، ويتخذون ما هو مُناف لمصلحتهم خدمة لأهوائهم ، عليهم أن يعلموا أنهم ساقطون لا محالة .

لكنهم إذا ما شعروا بالخطر قبل تنفيذ قراراتهم ، واستشاروا من هم أكبر منهم وأعقل ، فإنهم سيحسون أنفسهم من السقوط ، أما إذا ظلوا متمسكين بغرورهم واستبدادهم ونفذوا قراراتهم وأخرسوا بصيحاتهم ذويهم ، فإنهم سيتحملون عواقب ذلك ما بقي لهم من العمر .

حرية مفرطة :

مما يؤسف له أن عدم اهتمام المؤسسات التربوية بتربية أبناء المجتمع تربية إيمانية وأخلاقية سليمة ، وكذلك تحرر الشباب المفرط في الرخص وراء الشهوات والرغبات الجنسية ، ووجود مراكز الفساد الاجتماعي وغير ذلك من العوامل قد أوصلت الشباب في العالم لا سيما في أوروبا وأميركا إلى وضع مؤسف وخطير .

فإذا ما لحظنا المقالات والإحصائيات المختلفة التي تصدر في العالم الغربي كل عام ، لتبينت أمامنا حقيقة ساطعة وهي أن الشباب يسير بسرعة فائقة نحو الضياع والسقوط ، فهم لا يحترمون آراء من هم أكبر منهم سناً وأعقل فكراً ، لا بل وينفرون منهم أيضاً ويحاولون قدر الإمكان القيام بما يتعارض وآراء المجتمع .

التنفر من المجتمع :

«إن ظاهرة مرض التنفر من المجتمع قد راجت بين شباب العالم ، وهي في حال نمو سريع ، وهذا ما أكدته إحصائيات صدرت قبل عام واحد من تأليف هذا الكتاب في سدني ونيويورك ووارسو وباريس وغيرها من العواصم الأوروبية» .

المعارضة والتمرد :

«فالشباب في هذه البلدان يعانون من أمراض وآلام مجهولة ، إنهم يتمردون على كل شيء ، ولا يريدون أن يتخذوا من نصائح ذويهم معياراً لأعمالهم . والحقيقة هي أن الشباب قد سيقوا نحو المعارضة والاضطراب الفكري والتمرد» .

«يقول السيد أندريه لوغال مفتش وزارة التربية الفرنسية : إن وضع الشباب اليوم يبعث على القلق والخوف كونهم ابتعدوا عن الأجيال التي تكبرهم ، لأنهم لم يمروا مثلهم بمرحلة معينة ، بل هم في وضع خاص جديد» .

«لقد أكدت إحصائية صدرت عام ١٩٦٠ م وجود ٢٦٨٩٤ مجرماً بين صفوف الشباب الفرنسي بينهم ٢٤٠٩ فتيات سلّموا للعدالة» .

تصاعد روح الاجرام :

«إن تصاعد روح الإجرام في صفوف الشباب للدليل على أزمة خطيرة يمرّون بها ، وهناك علامات أخرى تعكس خطورة هذه الأزمة ، فقد ذكرت إحصائية صدرت قبل عام من تأليف هذا الكتاب أن مئة من الفتيان الذين تقل أعمارهم عن العشرين عاماً قد أقدموا على الانتحار في باريس» .

«وقد كتب الدكتور «دانون بوفالو» مقالة اتّسمت باندھشة والأسف ، مستنداً إلى دراسات وإحصائيات دقيقة ، كتب يقول : إن ٥٠٪ من الطلبة الجامعيين يتكون دراستهم قبل نهايتها . أما الدكتور «روسولو» فيصرح بأن طلاب الدراسات العليا يفقدون حماسهم واندفاعهم قبل دخولهم الجامعات» .

«ويلحظ المرء روح العداة في نفوس شباب المدارس والجامعات

والمعاهد العليا إزاء من هم أكبر منهم سنّاً ، على أية حال فالتمرد قائم . يقول شاب مثقف : إنني أنفر من أية مشاركة في المجتمع»^(١) .

نتيجة الطغيان :

إن نتيجة طغيان الشباب في عالم الغرب وتمردهم هي ترك الدراسة وتفشي الأمية واكتساب اللامبالاة والإدمان على المحرّمات وارتكاب الجرائم وغير ذلك من الصفات السيئة .

وإذا ما اعتبر شبابنا من انحرافات الآخرين ومآسيهم ، وانصرفوا عن الطريق الذي سلكه شباب الغرب والذي آل بهم إلى نتائج غير محمودة ، فإنهم سيصنون أنفسهم من العذاب والآلام ، وسيحققون لأنفسهم سعادة ميمونة أبدية .

(١) مجلة حقوق اليوم ، العدد ٦ ، السنة الأولى ، ص ١٧ ، نقلاً عن نشرة شهرية فرنسية .

المحاضرة السابعة

حول النمو المكتسب لعقل الشاب

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١) .

النمو الفطري والمكتسب للعقل :

إن نمو العقل لدى عامة الناس يمر بمرحلتين، الأولى: نمو طبيعي فطري ، والثانية : نمو اكتسابي . إن النمو الفطري عبارة عن نمو يقوم على أساس قانون الخلقة ونظام التكوين يخضع له العقل تدريجياً . أما النمو المكتسب فهو عبارة عن تكامل يكتسبه العقل نتيجة دراسات علمية وتجارب عملية .

قال علي عليه السلام : **العقل عقلان مطبوع ومسموع ولا ينفع المسموع ما لم يكن مطبوعاً ، كما لا ينفع نور الشمس ونور العين ممنوعاً**^(٢) .

بداية النمو الفطري والمكتسب :

إن النمو الطبيعي للعقل يبدأ تلقائياً مع النمو الطبيعي للجسم من مرحلة

(١) سورة الزمر ؛ الآية : ٩ .

(٢) عين اليقين ، الفيض ، ص ٢٤٣ .

الطفولة ، وبقى هذا النمو مستمراً حتى يبلغ العقل نموّه النهائي .

أما النمو المكتسب للعقل فهو يبدأ من مرحلة الطفولة أيضاً مع توفّر الظروف التعليمية والتربوية المناسبة ، ويمكن أن يستمر حتى سنين طويلة بعد آخر مراحل النمو الطبيعي . وبعبارة أخرى يمكن القول: إن النمو الطبيعي له سقف معيّن كالنمو الطبيعي للجسم ، وعندما يبلغ هذا النمو سقفه فإنه يتوقف كما يتوقف البدن عن النمو عندما يبلغ حدّه ، لكن الأبواب أمام النمو المكتسب مفتوحة لمواصلة النشاطات العلمية والعملية ، وتبقى الفرص كبيرة أمام العقل ليواصل نموّه ويوسّع آفاقه .

إن مما لا شكّ فيه أن النمو الطبيعي للعقل يختلف حسب اختلاف الأشخاص وطبيعة عقولهم . فالذين يملكون عقولاً عادية يكون النمو الطبيعي لعقولهم عادياً جداً ، والذين يمتازون بنبوغ ذاتي وعقول خارقة يكون النمو الطبيعي لعقولهم خارقاً ، أما الذين يعانون من ضعف في عقولهم فإن النمو الطبيعي لعقولهم يكون ضعيفاً وبطيئاً جداً ، وهذا التباين في النمو الطبيعي للعقل هو مقياس المقارنة بين عمر الأفراد العادي وسنهم العقلي .

أفضل سبل التكامل :

هناك حقيقة ينبغي الإشارة إليها وهي أن عقل الإنسان لا يمكن أن يصل إلى درجات الكمال عن طريق النمو الطبيعي ، فهو أي الإنسان يبقى عاجزاً مع هذا النمو فقط عن تفجير كل الطاقات الكامنة في ذاته ، ولهذا فلا بد من تحقيق النمو المكتسب ، والإنسان الذي يسعى لتحصيل العلم واكتساب المعرفة التي تعتبر من أفضل سبل التكامل المعنوي ، يكون قد مهد الأرضية لتفتح عقله وبلوغه الحدّ الأقصى من النمو . ولنضرب مثلاً بسيطاً ، طفلان حملتهما بطن واحدة أو بعبارة أخرى توأمان ولدا في قرية نائية بعيداً عن مظاهر العلم والتمدن ، هذان الطفلان اللذان تكوّننا من نطقة واحدة وجمعتهما بطن

واحدة يكونان متساويين من حيث الصفات الوراثية والتركيبة النفسية ودرجة العقل ونموه .

تلقي العلوم ونمو العقل :

فلو أبقينا أحدهما في القرية بعيداً عن سبل التربية والتعليم ، وتركناه بعد أن يكبر يعمل في رعي الماشية ، وأخذنا الآخر إلى المدينة التي تمتاز بوجود كافة سبل التعليم وتركناه يتعرع في ظروف تربوية سليمة وأدخلناه من سن السادسة إلى المدرسة ، فإننا سنلاحظ عندما يصبح التوأمان في سن الـ ١٨ من العمر تبايناً في قوة عقليهما ودرجة إدراكهما ، فالذي تلقى العلوم يكون مدركاً للأسباب والمسببات ومميزاً بين الخير والشر أكثر من ذاك الجاهل .

ومما لا شك فيه أن هذا التباين ليس ناجماً عن تباين في النمو الطبيعي لعقل هذين الطفلين ، لأنهما ولداً معاً وكانا منذ البداية متساويين في طبيعة العقل وسائر الصفات الوراثية ، وكان لا بد أن يكونا متساويين أيضاً في النمو الطبيعي للعقل ، إذن فالتباين الذي لاحظناه ناتج عن النمو المكتسب ، لأن الأخ الذي بقي في القرية ولم يتعلم ، لم ينم عقله طيلة هذه السنوات سوى نمو طبيعى ، أما عقل الأخ الآخر المتعلم فقد شهد نمواً اكتسابياً إلى جانب نموه الطبيعي ، وهو اليوم قادر على إدارة نفسه بشكل سليم وحمايتها في مواجهة مشاكل الحياة وصعابها .

النمو الفطري والمكتسب :

«النمو والتعلم : إن النمو الحاصل من الفطرة يختلف عن النمو الآتي من التعلم . نضرب مثلاً جسم الإنسان ، فلكل منا عضلة في ساعده ، وجدت فطرياً وتنمو فطرياً أيضاً ، لكن صغر هذه العضلة أو كبرها نتيجة التمارين الرياضية لا علاقة له بالنمو الفطري . كما أننا نعتبر أن لعقل الإنسان الناضج نمواً طبيعياً ، ولكن التغييرات التي تطرأ على العقل نتيجة ما هو مكتسب لا

علاقة لها بالنمو الفطري أو الطبيعي ، بل هي نتيجة عوامل مؤثرة دخلت على العقل»^(١) .

إن مسألة النمو المكتسب للعقل عن طريق تلقّي العلم واكتساب التجارب ، كانت مورد اهتمام أولياء الله ﷺ الذين أكدوا هذه الحقيقة في الكثير من أحاديثهم وحكمهم الشريفة .

زيادة العقل :

قال علي عليه السلام : الْعَقْلُ غَرِيْزَةٌ تَزِيدُ بِالْعِلْمِ وَالتَّجَارِبِ^(٢) .

وعنه عليه السلام : وَمُوَيْدُ الْعَقْلِ الْعِلْمُ^(٣) .

وقال الصادق عليه السلام : كَثْرَةُ النَّظْرِ فِي الْعِلْمِ يَفْتَحُ الْعَقْلَ^(٤) .

وتجدر الإشارة إلى أن النمو المكتسب للعقل يقوم على أساس النمو الطبيعي . فعقل الطفل ينبغي أن يكون قد خطا مرحلة كبيرة من النمو الطبيعي حتى يمكنه إدراك أبسط المسائل التربوية والتحرك باتجاه النمو المكتسب . لأن الطفل الذي لم ينمُ عقله طبيعياً بالشكل الكافي لا يمكن هدايته للنمو المكتسب .

الفرصة الاولى :

إن الآباء والأمهات الواعين هم أولئك الذين يهتمون بتنمية عقول أبنائهم في أول فرصة ، ويحاولون التكلّم بلسانهم ، ودفع قواهم العقلية باتجاه استيعاب الأمور وفهمها ، وبذلك يزيدون من النمو المكتسب لعقول أبنائهم إلى جانب نموها الطبيعي .

(١) اصول روانشناسي مان(مبادئ علم نفسنا) ، ص ٢٢٠

(٢) غرر الحكم ، ص ٦٧ .

(٣) المستدرک ج ٢ ، ص ٢٨٧ .

(٤) بحار الأنوار ، ص ٦٧ .

إن الجهاز الهضمي للطفل الذي يُولد حديثاً يكون ضعيفاً غير قادر على هضم الطعام ، لذا تتم تغذيته لمدة من الزمن على حليب الأم ، فيبدأ يتغذى ويقوى شيئاً فشيئاً على حليب الأم ، ويصبح قادراً على هضم المأكولات الطرية ، وبعد مدة يكتسب مزيداً من القوة ، وتبدأ أسنانه بالظهور ، ويقوى جهازه الهضمي ، ويصبح كالكبار قادراً على هضم كل أنواع الأطعمة ، إن الغذاء الرقيق والخفيف لمعارة الطفل الضعيفة له أضرار ، الأول هو الحفاظ على استمرارية حياة الطفل ، والثاني هو ترويض معدته لتكون قادرة على استقبال كافة أنواع المأكولات .

بداية تنمية العقل :

إنّ العقل الطبيعي للطفل هو بمثابة جهاز لهضم المسائل العلمية . ولكي يبدأ هذا الجهاز نشاطه في الوقت المناسب ، ينبغي على الآباء والأمهات أن يبدأوا بتشغيل هذا الجهاز لدى أبنائهم تدريجياً بالقول الحسن واليسير وبلغة الأطفال ، وذلك لتهيئتهم عقلياً للنمو المكتسب . إن مما لا شك فيه أن تفكير الطفل بأبسط الأمور الحياتية من شأنه أن ينمي عقله ويعززه لاستيعاب ما عظم من هذه الأمور في المستقبل .

التكامل التدريجي :

ليس النمو المكتسب لعقل الطفل فقط هو الذي يتحقق تدريجياً ، بمعنى أنّ كل مرحلة مقدمة لمرحلة أعظم وأهم ، فالتكامل النفسي للشبان والرجال يتحقق بذات الطريقة . فالشخص الذي يرغب في أن يحقق عقله مرحلة أهم في مجال النمو المكتسب ، عليه أن يستغل ما وصل إليه عقله ، وأن يفكر بما يلائمه من الأمور ، وذلك لتقوية عقله والنهوض به إلى مرحلة أسمى . أما الشخص الذي لا يمكنه أن يستغل ما وصل إليه عقله ، فلن يكون بمقدوره تنمية عقله وتفجير ما يكمن فيه من طاقات .

قال الإمام عليّ عليه السلام : مَنْ عَجَزَ عَنْ حَاضِرٍ لَيْبِهِ فَهُوَ عَنْ غَائِبِهِ أَعَجَزُ^(١) .

الحالة الثابتة :

«إنَّ التربية والتعليم حالة ثابتة ومستمرة وهي مرهونة بما يكتسبه الفرد من تجارب . فالإنسان كلما ازدادت تجاربه في الحياة كلما ازداد علماً ، وكلما ازداد علماً اكتسب شخصية جديدة ، ونظر إلى الأمور من منظار آخر يجعله يتوصل إلى أمور جديدة أخرى كانت خافية عليه . ومن هذا المنطلق تكون وراء كل خطوة على درب التربية والتعليم خطوة أخرى أكبر وأهم .

ومن هنا يمكننا أن نعرّف التربية والتعليم بأنهما حالة متجدّدة من التجارب تعزز تجارب الإنسان وتجعله قادراً على التحكم بالتجارب المستقبلية» .

«عندما نحاول تربية الطفل وتعليمه علينا أن نفهمه معنى تحليله للأمور والأشياء ، ومن هنا كلما وسّعنا من نطاق تربيتنا وتعليمنا للطفل كلما ازداد تفتحاً ونضوجاً . إنّ لكل طفل تصوّراً عن شعلة من النار ، لكن هذا التصوّر يكون في البداية محدوداً ، ويبدأ هذا التصوّر يكبر ويتوسع تدريجياً مع نموه العقلي والجسمي ، حتى أنّه بعد تلقيه العلم يبدأ بالاستناد في تصوّره هذا على علم الكيمياء»^(٢) .

دراسة وتحليل الأمور :

من الضروري جداً أن يلتفت الآباء والأمهات والمربّون إلى مسألة أساسية وهي أن المراد من اكتساب العلم ليس فقط تشغيل قوة الذاكرة وتسجيل البرامج

(١) غرر الحكم ، ص ٦٤١ .

(٢) مقدمة على فلسفة التربية والتعليم ، ص ٦٩ .

العلمية ، بل إن الأطفال والشبان في أي سن كانوا عليهم استيعاب الأمور العلمية والبرامج الدراسية وهضمها في عقولهم كما تهضم المعدة الغذاء .

بلوغ مراتب الكمال :

وبعارة أخرى نقول : إن حفظ المسائل العلمية ومراجعة المناهج الدراسية لا يمكنه لوحده تنمية عقول التلاميذ وتفتيح أفكارهم ، بل عليهم أن يدركوا جيداً عمق المسائل ، ويحاولوا بمساعدة المربين كشف جميع جزئياتها وتفصيلاتها ومن ثم تطبيقها . فهذه الطريقة الدراسية تساعد عقولهم على النمو بشكل ملحوظ ، وتوصلهم إلى الكمال العقلي والعلمي ، وهذا ما أكده أولياء الله ﷺ قبل ١٤ قرناً قبل أن يؤكد العلماء والمربون في عصرنا الحالي .

قال عليّ ﷺ : فَضْلُ فِكْرٍ وَفَهْمٍ أَنْجَعُ مِنْ فَضْلِ تَكَرُّرٍ وَدِرَاسَةٍ^(١) .

وقال الإمام الصادق ﷺ : حَدِيثُ تَدْرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ تَرْوِيهِ ، وَلَا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فَقِيهاً حَتَّى يَعْرِفَ مَعَارِيضَ كَلَامِنَا^(٢) .

إدراك الحقائق :

وعن عليّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : عَقَلُوا الَّذِينَ عَقَلُوا وَعَايَةً وَرِعَايَةً ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ ، فَإِنَّ رُؤَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ وَرِعَاتُهُ قَلِيلٌ^(٣) .

وعن أبي جعفر الباقر ﷺ أَنَّهُ قَالَ : وَبِالدَّرَايَاتِ لِلرُّوَايَاتِ يَعْطَلُو الْمُؤْمِنُ إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ^(٤) .

«إن التربية والتعليم يساعدان المرء على التعرف على كيفية أعماله

(١) غرر الحكم ، ص ٥١٧ .

(٢) بحار الأنوار ج ١ ، ص ١١٨ .

(٣) نهج البلاغة فيض ، ص ٨١٧ .

(٤) بحار الأنوار ج ١ ، ص ١١٨ .

وأعمال الآخرين ونتائجها ، وهذا ما يعمق من بصيرته ويجعله يتوقع نتائج أعماله قبل القيام بها ، ويُقدّم عليها وهو واعٍ تماماً ، وإذا ما اعترضته عقبات فإنه بتفكره وتدبره لن ينثني أمامها .

«إنّ التربية الصحيحة لا يمكن أن تكون لدى الفرد عادات حمقاء أو تصرفات رعاء ، لأن مثل هذه العادات والتصرفات لا تناسب والوعي والإرادة والاعتماد على النفس ، وكل ذلك وليد التربية السليمة»^(١) .

محور التربية والتعليم :

«إنّ التفكير هو محور التربية والتعليم ، وينبغي أن تكون أساليب التربية والتعليم مبنية على هذا المحور ، فكل أسلوب يدفع بالطفل إلى تشغيل فكره هو أفضل من غيره من الأساليب»^(٢) .

ولكي يستفاد من النمو الطبيعي لعقل الطفل في دفعه نحو النمو المكتسب ، يجب الانطلاق ببرامج التربية والتعليم وتشغيل فكر وذهن الطفل حالما نلمس فيه استعداداً لتقبّل الأمور ، وبذلك نكون قد أخذنا بعقله نحو النمو المكتسب .

إنّ الأطفال الذين يشهدون تفتحاً فكرياً وذهنياً بالوسائل العلمية والعملية ويسهرون نحو النمو المكتسب ، يتمتعون في سني شبابهم بعقول نيرة متفتحة تساعدهم على تخطي كافة الصعاب والوصول إلى مراكز مرموقة في المجتمع .

على عكس أولئك الذين يحرمون منذ طفولتهم من التربية والتعليم ، ولا يعرفون معنى النمو المكتسب ، فإنهم سيكونون في شبابهم من قصار العقول وسيهبطون إلى صفوف المتخلفين في المجتمع .

(١ و ٢) مقدمة على فلسفة التربية والتعليم ، ص ٧٠ و ١٢١ .

قال عليّ عليه السلام : مَنْ لَمْ يَتَعَلَّمْ فِي الصَّغَرِ لَمْ يَتَقَدَّمْ فِي الْكِبَرِ (١) .

الاستقلال الفكري :

«يجب تربية الطفل بشكل تتكون لديه عادات فكرية صحيحة .
فعادة تقبل كل شيء دون انتقاد تترك من شخصية الطفل وتجعله
خمولاً كسولاً ، في حين لو تعود الطفل على التفكير بكل شيء ،
وحاول أن يكتشف حقائق الأمور بنفسه ، سيصبح فيما بعد معتمداً
على نفسه ومستقلاً» (٢) .

قيمة عهد الطفولة :

«ولكي نجني ثمار التربية والتعليم ، ينبغي علينا أن نبدأ بهما قبل ما
هو متصور من قبل الجميع بكثير ، أي منذ الأسابيع الأولى من
عمر الطفل ، ففي البداية علينا أن نهتم بمسائله الفيزيولوجية ،
وبعد عامه الأول نهتم بمسائله النفسية . فقيمة الزمن ليست
متساوية لدى الطفل والأب والأم ، واليوم الواحد في السنة الأولى
من العمر أطول بكثير من اليوم الواحد في الثلاثين من العمر ، لذا
علينا أن لا نفوت حقن الطفولة الخصب دون أن نزرع فيه
شيئاً» (٣) .

سوء تربية الأطفال :

ينبغي الالتفات إلى أن عدم نضوج العقل لدى بعض الناس وكذلك قلة
الذكاء عندهم ليس سببه حماقتهم الفطرية أو الذاتية ، بل حرمانهم في مرحلة
الطفولة من الأسلوب الصحيح للتربية والتعليم ، وهذا ما يشكل سبباً من أسباب

(١) غرر الحكم ، ص ٦٩٧ .

(٢) العقل الكامل ، ص ٢٤١ .

(٣) راه ورسم زندگي (سبل الحياة) ، ص ١١٨ .

محدودية التفكير لدى الإنسان في مرحلة الشباب والشيخوخة .

وهناك الكثير من الأشخاص ممن يملكون عقولاً عادية جداً من حيث التركيبة الطبيعية للعقل ، لكنهم بقوا على جهلهم وجهالتهم رغم كبرهم لأنهم افتقروا خلال مرحلة الطفولة للمربي الكفوء وحُرِّموا من الأسلوب الصحيح للتربية والتعليم .

«إن إدراك الحقيقة القائلة بأن أهم دورة يكتمل فيها عقل الإنسان ویتفتح فكره هي تلك التي يتكون فيها أساس شخصيته ، يدفعنا خطوات إلى الأمام في المسيرة التكاملية للإنسان» .

«فالإنسان لا بد وأن يدرك تدريجياً بأن السبب الرئيسي لعدم نضوج العقل لدى البعض ، هو عدم اطلاع أوليائهم على أساليب تربية الأطفال خلال السنوات الأولى للنمو . إذا ما أردنا أن تتمتع أجيالنا القادمة بنضوج عقلي أكبر ، علينا أن نولي اهتماماً كبيراً بمراحل الطفولة لهذه الأجيال ، ونعمل على حلّ المشاكل النفسية الخاصة التي تبرز خلال هذه المرحلة»^(١) .

تنمية الاستعدادات :

إنّ الدراسات والمناقشات العلمية من شأنها أن تنير عقل الإنسان ، كما أنّ مجالسة ذوي العقول والمفكرين والاستماع لأحاديثهم وآرائهم الحكيمة ، من شأنهما تنمية قوة العقل لدى الإنسان وتفجير طاقاته واستعداداته الدفينة . فأولئك الذين يقضون معظم حياتهم في قرى نائية وبعيدة كل البعد عن التمدن والحضارة ، ولم يستفيدوا من نعمة العلم والمعرفة ، تكون عوامل النمو المكتسب عندهم ميتة ، والطاقات والاستعدادات في داخلهم غير قابلة للتفجّر والظهور .

(١) العقل الكامل ، ص ٢٥ .

مصدر العلم والمعرفة اليوم :

إن درجات العلم والمعرفة التي بلغها عالمنا اليوم هي نتيجة دراسات ومتاعب بذلها المئات من العلماء والمفكرين على طول القرون المتتالية . فالإنسان اليوم يستفيد وينير دربه ممّا توصل إليه علماء أمس ، وكل من يحاول اكتساب العلم وطلب المعرفة ، يسعى في الواقع إلى بلوغ ما بلغه العلماء ليكتسب قوة في العقل وقدرة في التفكير .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : **حَقُّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُضِيفَ إِلَى رَأْيِهِ رَأْيَ الْعُقَلَاءِ وَإِلَى عِلْمِهِ عُلُومَ الْعُلَمَاءِ** (١) .

واقع العالم :

لا يخفى على أحد أن المراد من العلم والمقصود من المعرفة هو إدراك واقع عالم الخلق والحقائق التي يؤيدها العقل والتي تتطابق ومحتويات كتاب الخلق ، وهذا ما يؤدي بالعقل إلى بلوغ مراتب الكمال المعنوي وتحقيق درجات النمو المكتسب .

أمور بعيدة عن الواقع :

إن كل ما هو قائم على أوهام أصحاب العقول المريضة والناقصة لا يمكن اعتباره علماً رغم أنهم يعتبرونه علماً . فمثل هذه الأمور التي لا أساس لها وهي بعيدة عن الواقع لا يمكنها أن تساهم في نمو العقل ، كما أنها تسوق الأطفال والفتيان نحو الضلال والانحراف .

(١) بحار الأنوار ج ١ ، ص ٥٣ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٣٨٤ .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: كُلُّ عِلْمٍ لَا يُؤَيِّدُهُ عَقْلٌ مَضَلَّةٌ (١).

«يترافق العلم دائماً مع نوع من الاطمئنان واليقين بعيداً عن كل التكهّنات والشكوك والتصورات . وعندما تتسلط أفكارنا وأحاسيسنا على علمنا ، فإنه أي العلم يصاب بنوع من الإرباك ، ويصبح من الصعب جداً إنقاذه من هذا الإرباك . ومن هذا المنطلق يمكن القول: إنّ الجهل أفضل من العلم المصاب بالإرباك . فالجاهل الواقف على جهله بمقدوره أن يحصل على العلم الصحيح ، والفرد الذي يشك بدرجة علمه ومعرفته بمقدوره تعديلها ، وهذا ما دفع «سقراط» إلى اعتبار الجهل مقدمة للعلم والمعرفة ، أما «ديكارت» فقد اعتبر الشك مقدمة للعلم» .

أساليب قابلة للتقييم :

«إنّ المعرفة التي تبقى مصانة من هجوم الأفكار والأحاسيس والمعتقدات البدائية يمكن اعتبارها علماً ، والعلم هو عبارة عن أساليب اخترعها الإنسان تدريجياً لبلورة أفكاره وجعلها قابلة للتقييم ، فالعلم يستلزم أن يحصل التفكير في ظروف خاصة ، يتم تقييم نتائجه بالعلم . إنّ العلم ليس وليد جسم معيّن بل هو وليد نشاطات اجتماعية قام بها الإنسان على مدى قرون من الزمن . وعلى هذا الأساس ينبغي أن يكون للعلم مقام شامخ في البرامج الدراسية والتربوية ، لأنّ الطفل إذا لم يطلع على العلوم بالشكل الصحيح ، فإنه سيحرم من التفكير السليم وسيفتقر إلى أكثر عوامل التفكير تأثيراً» (٢) .

إنّ من أسباب الجهل وعدم نضوج العقل لدى بعض الفتيان ، التربية

(١) نفس المصدر ، ص ٥٤٦ .

(٢) مقدمة عليّ فلسفة التربية والتعليم ، ص ١٣٧ .

الحاطة التي شملتهم في طفولتهم . فالأطفال الذين ينربون في أحضان والدين جاهلين مذنبين ، والأطفال الذين يتعرعون في بيئة فاسدة تحكمها أفكار مريضة وأخلاق سيئة وعادات ضارة ، يعانون لدى بلوغهم من ضعف في التفكير والذكاء . وينبغي على مثل هؤلاء الفتيان أن يجهدوا أنفسهم ويذلوا ما في وسعهم للتعويض عن التخلف الذي سيطر على عقولهم وقوة ذكائهم ، مكتسبين النمو الطبيعي لعقولهم ، للتخلص من عواقب التربية الخاطئة التي واجهوها خلال مرحلة الطفولة .

ضحايا العادات المغلوطة :

«إن من بين الأشخاص الذين تنمو قدراتهم الفكرية والذهنية لمدد مديدة من الزمن ، مَنْ لم يستطع تحقيق البلوغ النفسي ، مع أنهم كانوا قادرين على استغلال الفرص لتحسين أوضاعهم الجسمية والمعنوية . لكنهم على عكس ذلك هدرُوا أوقاتهم في شرب الخمر ولعب القمار وارتياح دور السينما والرقص وقراءة الروايات والقصص المبتذلة ، لذا فهم ضحايا تربية خاطئة وعادات حياتية مغلوطة . أليست التربية والتعليم الخاطئان هما سبب الضعف الفكري والنقص الأخلاقي اللذين أوديا بنا اليوم إلى الهاوية؟» .

«ففي بيئة يسودها الكذب وتتحكم بها الإذاعات والمجلات الرخيصة والمبتذلة ، وفي حياة تغط في سبات كالتبي نعيشها ، وفي محيط لا تحترم فيه الطهارة والنزاهة ، لا يمكن للعقل إلا أن يخفت والأحاسيس إلا أن تموت ، ولكن رغم كل ذلك فإن قانون السمو النفسي والمعنوي لا يمكن أن يفهر أمام مثل هذه الشوائب ، كما أن وجود المرض لا يمكن أن يجعل التفكير بالشفاء منه وهماً»^(١) .

(١) راه ورسم زندگی (سبل الحياة) ، ص ٦٢ .

ينبغي على الفتيان مهما اختلفت صنوفهم ومهما تباينت ظروف تربيتهم وهم أطفال ، أن يلتفتوا إلى قيمة مرحلة البلوغ والفتوة وأهميتها ، وعليهم أن يدركوا جيداً أن مرحلة الفتوة هي أعلى مرحلة في عمر الإنسان .

تربية الأخلاق :

فهذه المرحلة تعتبر الفرصة المثلى للوقوف على الحقائق العلمية وتحقيق النمو المكتسب للعقل ، والزمان الأنسب لتكوين الشخصية الأخلاقية والتحلي بالصفات الحميدة .

إن قدرة الجسم وقوته وعنفوان الشباب واستعداد العقل المتنامي للاستيعاب والرغبة في كشف المجهول والذهن القوي والفعال وغير ذلك من الصفات الحسنة ، تعتبر من الثروات التي يتمتع بها الإنسان خلال مرحلة الشباب ، وكل ثروة منها لها أثرها البالغ في اكتساب العلم والأخلاق . ولحسن الحظ أن كل ما يتعلمه الشاب خلال مرحلة الشباب يبقى عالماً في ذهنه وقلماً بطويه النسيان .

روي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال : مَنْ تَعَلَّمَ فِي شَبَابِهِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ الرَّسْمِ فِي الْحَجْرِ (١) .

المحيط الاجتماعي :

إن من العوامل القوية التي تلعب دوراً هاماً في التركيبة النفسية للإنسان هو المحيط الاجتماعي والاختلاط العام . فالزيارات والمحاورات والمحادثات والمواقف والصدقات وغيرها من الأمور الاجتماعية ، لكل منها تأثيرها على تركيبة نفس الإنسان الذي ينشأ وفق العوامل الاجتماعية المحيطة به .

(١) السفينة «شيب» ، ص ٦٨٠ .

العناصر الفاسدة :

إنَّ ذهن الفتى يكون خالياً من كل شائبة ، وهو أشبه ما يكون بورقة بيضاء خالية من أية رسمة اجتماعية حسنة كانت أم سيئة . فالفتى قد خرج لتوه من محيط الطفولة المحدود إلى محيط الاجتماع والمجتمع الواسع ، وينبغي عليه أن يحذر لكي لا تنفذ العناصر الفاسدة إلى نفسه ، لتشوّه صفحته البيضاء الناصعة الطاهرة . إنَّ بإمكان رفيق سوء واحد أو لسان غير مصان أو مجلس قمار وشراب ، أن يؤدي إلى انحراف الإنسان وضياعه ليعيش بقية عمره في شقاء وتعاسة .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : **وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدِيثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أَلْبَسَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ** (١) .

تفتح العقل :

إنَّ أول بذرة يجب زرعها في الأرض الخصبة لقلب الفتى ، بذرة العلم والمعرفة . فالعلم أساس سعادة الإنسان ، وهو يؤدي إلى تفتح عقله وتبلور الكمال الإنساني فيه ، والعلم بالتالي الأساس القوي لجميع مفاخر البشرية .

إنَّ القرآن الكريم يشير بكل صراحة إلى العلماء والمتعلمين ويفرق بينهم وبين من هم جهلة وغير متعلمين .

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلُوا
الْأَبَابِ﴾ .

الرغبة في فهم القضايا العلمية :

إنَّ الفتیان تمتلكهم رغبة طبيعية في فهم المسائل والقضايا العلمية ، وهم يرغبون في الاطلاع على أسرار العالم والوقوف على الحقائق المجهولة لنظام

(١) نهج البلاغة، الفيض ، ص ٩٠٣ .

الخلقة ومعرفة أسبابه ومسبباته لتوضيح ما يجهلونه .

وهذه الرغبة الفطرية تدفعهم إلى السعي والمثابرة والتمعن في الأمور والتحقيق فيها . وبالرغم من أن قوة الإدراك لدى الفتيان تكون في بادئ الأمر عاجزة عن تفهم واستيعاب الكثير من المسائل العلمية ، إلا أنها تنمو وتقوى نتيجة مساعيهم ومثابرتهم ، وبالتالي فإن موجبات نموهم العقلي وكمالهم المعنوي تتوفر . إن المحيط الدراسي والأساليب الدراسية العلمية الصحيحة هما الوسيلة الأنسب والأفضل لإرضاء هذه الرغبة الفطرية لدى الفتيان .

المدرسة وغنى الفكر :

«إن المدرسة كقاعدة ومركز للعلم والمعرفة تُغني الفتيان والشباب فكرياً وتساهم مساهمة مؤثرة في تشكيل شخصياتهم . فهي تحثهم على التفكير وتُطبّق أمامهم أموراً تُحرّك فيهم قدرة التصور والتفكير وتدفعهم إلى تطبيقها ، والمدرسة بشكل عام تتولّى مسؤولية هامة تساهم في إصلاح شخصية الشاب وتكميلها»^(١) .

«وباعتقاد «ماندوس» أن الفتى الذي هو أقل منطقياً من الطفل يحاول أكثر منه البحث عن المنطق والاستدلال . وهذا الاستدلال يكون في بادئ الأمر عشوائياً غير واضح المعالم ، لكنه يبدأ يتبلور تدريجياً ويصبح أكثر نية بفضل ما اكتسبه الفتى في المدرسة ، والكل يعلم كم يزداد البحث بين طلبة المدارس في المسائل الأخلاقية والسياسية والدينية ، وما هو تأثير هكذا بحث على شخصية الطالب» .

ارتقاء الاستدلال :

«إن ارتقاء الاستدلال لن يتحقق إلا بواسطة ما يكتشفه الفتى في

(١) چه ميدانم؟ (ماذا أعرف؟) ، البلوغ ، ص ٨٢ .

سن الرابعة عشرة من عمره ، ويتبلور هذا الارتقاء نتيجة اكتشاف العلاقة المنطقية ما بين هذه الأفكار من قبيل إمكانية الوصول من المبادئ السطحية إلى البراهين الحسابية والرجوع من علم الحساب إلى المحاسبات الجبرية . وكل هذه الأمور تساهم في مضاعفة قدرة التجريد الفكري»^(١) .

تنمية الذكاء :

إنَّ تحصيل العلم ومحيط المدرسة عاملان مؤثران في نمو عقل الشاب ومضاعفة ذكائه . فسراج العلم ينير للشباب طريق السعادة في الحياة المادية وطريق الإيمان والأخلاق في السعادة المعنوية ، ويرشدهم بواقعية إلى ما يترتب عليهم من واجبات .

إنَّ الشاب الذي يتلقَى العلوم الطبيعية يطلع إلى حد ما على تركيبته كموجود وتركيبية سائر الموجودات على الكرة الأرضية ، ويقف خلال تلقيه العلوم على عظمة الخلقة ونظام الكون العجيب ، وبذلك يؤمن كسائر العلماء بوجود الله سبحانه وتعالى خالق الكون ومُسيِّره . إنَّ الفتى بتلقّيه العلوم النفسية والتربوية يطلع إلى حد ما على وضعه النفسي والروحي ، ويدرك رغباته الغريزية وخطر طغيان هذه الغرائز وجوب لجمها والسيطرة عليها ، ويصبح بمقدوره في ضوء واجباته الأخلاقية والإنسانية تأمين موجبات سعاده المعنوية . وخلاصة القول: إنَّ تحصيل العلم هو أفضل وسيلة لتأمين الرفاهية في الحياة المادية ، وأفضل سبيل للتحلّي بالإيمان والأخلاق وتحقيق السعادة النفسية .

تلقي العلوم والآداب :

إنَّ أولياء الله الصالحين اعتمدوا التربية والتعليم سبيلاً لتنمية الإيمان

(١) چه ميدانم؟ (ماذا أعرف؟) ، البلوغ ، ص ١٠٦ .

والأخلاق في جيل الشباب ، وحثوا الشباب على تلقي العلوم والآداب لتأمين السعادتين المادية والمعنوية .

عن الإمام علي عليه السلام : يَا مَعْشَرَ الْفِتْيَانِ حَصِّنُوا أَعْرَاضَكُمْ بِالْأَدَبِ وَدِينَكُمْ بِالْعِلْمِ (١) .

من الواضح جداً أن لطريقة تدريس البرامج التربوية من قبل المعلمين الأكفاء الحريصين ، وتعامل المرّبين الحريصين خلال أداء واجباتهم التربوية ، دوراً مهماً جداً في تنمية عقول الشباب وتوعية أحاسيسهم بشكل صحيح .

تنمية قدرة الاستيعاب :

إنّ المعلم الكفوء هو ذلك الذي يحرص أثناء التدريس على طرح البرامج التربوية بشكل ينمي قدرة الاستيعاب لدى الشباب ، ويحاول عن طريق بحث وتحليل المسائل العلمية تحريك الاستعدادات الدفينة في عقولهم تدريجياً ، وهذا ما يؤدي بالشباب إلى بلوغ مراتب الكمال المعنوي بسرعة وتحقيق النمو المكتسب للعقل .

تسهيل الفكر :

«إنّ المعلم الناجح هو من يستطيع توفير أجواء وظروف مناسبة لتلاميذته وتحريك عوامل التفكير لديهم وتسهيلها ، وهذا لن يتحقق إلاّ بمشاركة المعلم مشاركة صادقة في جميع نشاطات تلاميذته ، ومحاولته حلّ كافة المشاكل التي تعترضهم . وهكذا معلم ليس فقط سينجح في توعية فكر تلميذه وإنما سيكتسب هو الآخر عن طريق بحثه وتحليله للأمور قضايا جديدة كانت خافية عليه ، وسيكون معلماً وتلميذاً في آن واحد» (٢) .

(١) تاريخ اليعقوبي ، ص ١٥٢ .

(٢) مقدمة على فلسفة التربية والتعليم ، ص ١١٩

إنَّ المرربي الكفوء والحريص هو ذلك الذي يحاول تفهَم نفسية الفتى وأحاسيسه الداخلية ، وهداية هذه الأحاسيس من خلال البرامج التربوية إلى مسيرها الأخلاقي الصحيح ، لصونها من الطغيان والتمرد .

تجنب الإفراط :

«إنَّ نفسية المرربي يجب أن تكون على استعداد لتفهم مختلف شؤون الشباب وقضاياهم ، وأن يكون لديه علاقة خاصة بالشباب . إذ عليه أن يهيء الأجواء المناسبة لتنمية طاقاتهم واستعمال هذه الطاقات بمقتضى الضرورة والزمان ، كما يجب عليه أن يبعدهم عن الإفراط ، أي لا يسمح بتحوّل التقليد إلى اندفاع والشوق إلى تعصّب وروح التحرر إلى عصيان وتمرد . فإذا ما أردنا صنع جيل من الشباب علينا أن نخلق فيهم روح الاندفاع وفي الوقت نفسه حب الانضباط . وفي إطار هذه الشروط يكون المرربي قد أدّى واجبه وسار بالبلاد نحو الرقي والتقدم»^(١) .

إنَّ التربية الأخلاقية وتنمية السجايا الإنسانية ركن من الأركان الأساسية لسمو الإنسان ورفعته ، فالتعليم بدون تربية والتربية بدون تعليم لا يمكنهما صنع إنسان كفوء ومتكامل من جميع الجهات .

اختلال التربية والتعليم :

إنَّ الغرب رغم كل ما أحرزه من تقدم في شتى المجالات لم يُعرتنمية روح الإيمان والأخلاق في نفوس أبنائه اهتماماً . وإنَّ الاختلاف في التربية والتعليم في البلدان المتقدمة يجعل جيل الشباب يواجه مشاكل كبيرة جمّة .

«يقول الدكتور كارل : إنَّ الذي اعتاد منذ نشأته على معرفة

(١) چه ميدانم ؟ (ماذا أعرف ؟) البلوغ ، ص ١٢٧ .

المحاسن والمساوىء ، يكون انتخاب الحسن وتجنب السيء عنده يسيراً طيلة حياته ، فهو يتعد عن كل ما هو سيء كابتعاده عن النار ، وليس الكذب والخيانة وغير ذلك في عُرفه من الأعمال الممنوعة فقط ، بل مستحيل ارتكابها» .

سينو السمعة والخلق :

«ولزرع هذه النفسية في روح الإنسان لا بد من محيط سليم تراعى فيه المبادئ الأخلاقية . فالإنسان كالقرد تسيطر عليه رغبة غريزية في التقليد ، وهو يُقلد ما هو سيء بسهولة أكبر من تقليد ما هو حسن . وفي مسيرة التقليد هذه إذا ما وقع الأبناء في أيدي من هم لا سمعة لهم ولا خلق ، فإن عيوبهم ستكثر . لذا فإن المربي الجيد هو من يؤمن ويفعل بما يقوله» .

«الكثير من علماء التربية لا يهتمون بالأحاسيس النفسية كحس الأخلاق وحس الجمال ، فالجهود التي تبذل في مجال التربية والتعليم اليوم تصب معظمها في الجانب الفكري والاجتماعي» .

«إنَّ ما يبعث على الدهشة هو أنَّ شباب اليوم الذين يرون بأَمِّ العين تفكك المدنية والحضارة هم من خريجي المدارس الجديدة ، جهلة ، محتالون ، يفتقرون إلى السجايا الأخلاقية الحسنة . وهنا لا بد من السؤال ، ألا تعتبر هذه العيوب نقصاً كبيراً في مجال التربية والتعليم ؟ ، ونسأل على سبيل المثال كم من علماء التربية أقدموا على تنمية الإرادة وتملَّك النفس لدى الشباب؟» .

«كثيرون هم الأطفال الذين يواجهون وسط أسرهم ما هو مناف للأخلاق ، ويعيشون مشاحنات ومشاجرات وتعاسة ، وكثيرون هم الذين لم يواجهوا هذه الحالات في منازلهم ، لكنهم تعلموها من أصدقائهم» .

مربون ومعلمون غير كفونين :

«وخلاصة القول: أن لا المدرسة ولا الأسرة تستطيع اليوم هداية الطفل إلى آداب الحياة ، ولهذا السبب نرى عدم كفاءة المربين والمعلمين ينعكس اليوم على جيل الشباب . فالتربية والتعليم انحصرا اليوم في الاستعداد لدخول الامتحانات وترويض الذهن على بعض التمرينات السهلة ، وبهذا الأسلوب لا يستطيع الشاب إدراك الواقع وأداء مسؤوليته الطبيعية»^(١) .

الاسلام وجيل الشباب :

إن مسألة التربية والتعليم لجيل الشباب وتنمية عقولهم وتوعية أحاسيسهم استأثرت باهتمام أولياء الله الصالحين ، حيث حثوا أنصارهم وأتباعهم قولاً وعملاً على الاستفادة من مرحلة الشباب الثمينة والزائلة استفادة قصوى ، وحذروهم من الكسل والخمول والإهمال .

هدر حقوق الشباب :

روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال : لَسْتُ أُجِبُّ أَنْ أَرَى الشَّابَّ مِنْكُمْ إِلَّا غَادِيًا فِي حَالَتَيْنِ ، إِمَّا عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَرَطٌ فَإِنْ فَرَطَ ضَيَّعَ فَإِنْ ضَيَّعَ أَثِمَّ وَإِنْ أَثِمَّ سَكَنَ النَّارَ وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ^(٢) .

كان معاذ بن جبل الأنصاري وهو من صحابة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ذا عقل نير وذكاء خارق ووجه جميل وجود وكرم ، وكان متصفاً بحسن الأدب والأخلاق ، وكان عمره لما أسلم ثماني عشرة سنة^(٣) .

وكان معاذ بن جبل منشغلاً بتحصيل العلوم الإسلامية تحت رعاية خاصة

(١) راه ورسم زندگي (سبل الحياة) ، ص ١٦٢ .

(٢) بحار الأنوار ج ١ ، ص ٥٥ .

(٣) اسد الغابة «معاذ» ص ٣٧٦ .

من قبل الرسول الأكرم ﷺ ، وقد استطاع خلال سنوات معدودة اكتساب جزء كبير من المعارف الإسلامية ، وبات من فضلاء الصحابة وذلك بفضل استعداداته الفطرية ومثابرته ومجاهدته .

وكان معاذ في السادسة والعشرين من العمر تقريباً لدى فتح مكة ، وحينما تم تطهير مكة المكرمة من المشركين وإقامة حكومة إسلامية فيها ، كان لا بد من تنصيب فرد كفوء فيها ليعلم الناس الأحكام الإسلامية - من عبادات ومعاملات - والقوانين الحقوقية والجزائية في الإسلام .

«فَتَرَكَ ﷺ معاذَ بْنَ جَبَلٍ بِمَكَّةَ مُعَلِّماً لِلنَّاسِ السُّنَنَ وَالْفَقْهَ» (١) .

وعندما نصب الرسول الأكرم ﷺ معاذ بن جبل معلماً للعلوم والسنة والفقہ للناس في مكة ، كان عمر الأخير ستة وعشرين عاماً ، وهذا ما يعتبر دليلاً على اهتمام أولياء الله ورسله سلام الله عليهم بتربية جيل الشباب وتعليمهم .

وضع أساس السعادة :

إنَّ الشاب من ذوي الاستعدادات إذا ما استفاد من مرحلة الشباب خير استفادة ، وكرّس كامل قواه وجهده في اكتساب العلم والمعرفة فإنه دون شك سيحقق درجات مرموقة خلال سنوات معدودة ، واضعاً بذلك أساس سعادته في الدنيا ، بالغاً الكمال المطلوب في وقت قصير .

«إنَّ الأساس الذي يوضع خلال مرحلة الشباب يكون له الأثر الواسع في نجاح الإنسان في حياته المستقبلية أو فشله» .

«فالإنسان يحظى في مرحلة الشباب بالكثير من إمكانيات وامتيازات العيش لكنه حينما يطأ مرحلة الشيخوخة فإنه يفقد الكثير من هذه الإمكانيات والامتيازات ، ويقع الإنسان في حسرة على ما

(١) السيرة الحلبية ج ٣ ، ص ١٢٠

مضى من الفرص الغالية التي لم يستغلها بنحو جيد ، وهذه الحسرة وذلك الندم دفعا بـ «ديسراييلي» إلى القول : الشباب غلطة ، والشيخوخة صراع ومعركة والكهولة حسرة وندم»^(١) .

داء الكسل :

إنَّ البعض من الشباب الذين يجب عليهم تكريس كل قواهم وجهدهم لتحصيل العلم والمعرفة ، يُصابون بداء الكسل والخمول ويغرقون في اليأس لأنهم هدرُوا فرصة الشباب بالمجان . وعلى مثل هؤلاء الشباب أن يعلموا أنهم ظلموا أنفسهم ودمروا سعادتهم بأيديهم .

الضعف والبطالة :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : مَنْ أَطَاعَ التَّوَانِي ضَيَّعَ الْحَقُوقَ^(٢) .
وعنه عليه السلام : هَيْهَاتَ مِنْ نَيْلِ السَّعَادَةِ السُّكُونُ إِلَى الْهَوَانِي وَالْبَطَالَةِ^(٣) .
وعن الإمام الباقر عليه السلام أَنَّهُ قَالَ : قَالَ مُوسَى يَا رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَبْغَضُ إِلَيْكَ ، قَالَ حَيْفَةُ بِاللَّيْلِ ، بَطَالُ بِالنَّهَارِ^(٤) .

العناد والاستبداد :

إنَّ الفتيان الذين يقضون مرحلة الشباب الثمينة بالكسل والخمول والبطالة نتيجة عنادهم واستبدادهم ، ولم يجمعوا لغدهم ذخائر علمية ، فإنهم سيصابون في الكبر بالندامة والحسرة ، وسيحترقون بنار الندامة التي أشعلوها في داخلهم حيث لا تنفع الحسرة ولا ينفع الندم .

قال الإمام علي عليه السلام : مَنْ أَطَاعَ التَّوَانِي أَحَاطَتْ بِهِ النَّدَامَةُ^(٥) .

(١) ما وفرزندان ما (نحن وأبناؤنا) ، ص ٧٩ .

(٢) مجموعة ورام ج ١ ، ص ٥٩ .

(٣) غرر الحكم ، ص ٧٩٢ .

(٤) السفينة ج ٢ «النوم» ، ص ٦٢٤ .

(٥) غرر الحكم ، ص ٧١٣ .

السراب والوهم :

إنَّ بعض الشباب يلجأون إلى الوهم والسراب لما تقتضيه طباعهم ، ويهدرون جزءاً من عمرهم في قراءة قصص من نسج الخيال والوهم وأساطير خرافية قد تكون مضرّة أحياناً بدلاً من إهداره في اكتساب العلم والمعرفة والفضيلة . على أولئك أن يعلموا أنهم يتعدون عن واقع الحياة وإدراك الحقائق العلمية بمقدار انجرافهم في التيار المعاكس .

انجراف الشباب وراء المجهول :

«إنَّ الشاب يحب المجهول ، فالمجهول بالنسبة له شيء جديد يتلاءم وأفكاره أكثر من المعلوم . الكل يعلم مدى رغبة الفتى بين سن ١٢ و ١٥ عاماً في قراءة القصص والروايات التي تتخللها الحوادث والمغامرات ، ثم بعد ذلك تتولد فيهم رغبة اللجوء إلى الشعر الغزلي والقصص العاطفية»^(١) .

«إنَّ كبار المفكرين والعلماء قد برزوا في وقت اقتصرت مكنتات بيوتهم على احتواء بضع من كتب التاريخ والكتب الدينية والكلاسيكية الأخرى ، وكانت هذه الكتب تُقرأ بعد يوم عمل شاق وطويل على أنوار الشموع المرتجفة .

لكننا اليوم لم نلاحظ ولادة علماء ومفكرين بالمقارنة مع تلك الأزمان رغم وجود الكثير الكثير من الصحف والمجلات اليومية والأسبوعية والشهرية والكمّ الهائل من الكتب» .

دَوَامات الفساد :

«عندما يختار الفتيان والفتيات الكتب التي تفتقر إلى أية قيمة

(١) چه ميدانم ؟ (ماذا أعرف) البلوغ ، ص ٤٩ .

معلوماتية لمطالعاتهم ، فإنهم سيفقدون بالتدريج ذوق اختيار ما هو أفضل وأنسب وأكثر قيمة . فالكتاب غير الجيد أو بالأحرى الرديء يثير مشاعر الغضب والهيجان لدى قارئه ويقربه من منزلق يؤدي به إلى دوامات الفساد الخلقي ، ومثل هذا الكتاب يؤدي إلى تضعيف الإرادة وجمود الفكر ويقضي على الحياة المعنوية ويجعل الإنسان يتفّر من كل نشاط جسماني^(١) .

تنقسم الكتب الركيكة المحتوى والقصص الخيالية التي قد يلجأ الفنى أو الفتاة إلى قراءتها إلى قسمين ، قسم يؤدي بقارئه إلى إهدار عمره والوقوع في متاهات الفساد الخلقي والإجرام والخيانة .

كتب الأساطير :

والقسم الآخر هو كتب الأساطير والخرافات التي لا تجرّ قارئها إلى الفساد الخلقي ولكنها تساهم على الأقل في إضاعة أحلى مراحل عمره أي مرحلة الشباب ، وإلهائه عن تحصيل العلم ومطالعة الكتب المفيدة .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : مَنْ أَشْتَغَلَ بِالْفُضُولِ فَاتَهُ مِنْ مُهْمِهِ الْمَأْمُولُ^(٢) .

(١) ما وفرزندان ما (نحن وأبناؤنا) ، ص ٨٣ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٦٦٩ .

المحاضرة الثامنة

حول الشاب والتجربة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿فَأَقْصِرِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١) .

التجربة ونمو العقل :

إن من عوامل النمو المكتسب للعقل التجارب التي يكتسبها الإنسان من
مختلف المجالات طوال حياته لكي يطبقها عند اللزوم .

فالإنسان الذي يسمع أو يرى حادثة ما قد تترك أثرها في نفسه ، يبقى
يفكر فيها وفي أسبابها ونتائجها ، وهذا ما يكسبه تجربة من شأنها أن تنمي عقله
وتفتح ذهنه وتفكيره . قال أمير المؤمنين عليه السلام : **العَقْلُ عَقْلَانِ عَقْلُ الطَّبَعِ وَعَقْلُ
التَّجْرِيبَةِ وَكِلَاهُمَا يُؤَدِّي إِلَى الْمَنْفَعَةِ**^(٢) .

إرشاد الفكر :

إن التجربة ترشد الفكر إلى الطريق الصحيح ، والتجربة تزيل ستائر

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٧٦

(٢) بحار الأنوار ج ١٧ ، ص ١١٦ .

الوهم والظن ، وتصنع من الإنسان إنساناً واقعياً . فالتجربة التي تأتي من العلوم الطبيعية أو من السبل الأخلاقية والتربوية أو من الحياة الفردية أو الاجتماعية أو من شتى مراحل الحياة العلمية والعملية ، تكون نتائجها إيجابية وحميدة ، والتجربة هي السبب في تنوير العقل وتعزيز القدرة الذهنية لدى الإنسان .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : **التَّجَارِبُ لَا تَنْقُضِي وَالْعَاقِلُ مِنْهَا فِي زِيَادَةٍ (١)** .

جديد العلم :

وعنه عليه السلام أيضاً : **وَفِي التَّجَارِبِ عِلْمٌ مُسْتَأْنَفٌ (٢)** .

«يقول «جان ديوي» : عندما نريد أن نجربَ أمراً أو شيئاً ما ، فإننا نجري اختباراً عليه من جهة ، ونحاول إدخال تعديل عليه يتلاءم ومحور التجربة من جهة ثانية ، أي أننا ننفذ في صلب موضوع التجربة من جهة ، ومن جهة ثانية فإن محور التجربة يتفاعل في نفوسنا ، إذن للتجربة وجهان ، وجه فاعل ووجه مفعول به ، وبدون أحد هذين الوجهين لا يمكن للتجربة أن تنجح ، فهي من دون الوجه الفاعل لا يمكن أن تحصل ، وهي أيضاً من دون وجه المفعول به لن تكون سوى محاولة عقيمة» .

تحقيق التعلّم :

«إن المحاولة قد تؤدي إلى تغيير ، ولكنها تفقد قيمتها كمحاولة إذا لم يكن لها تأثير . فعندما تؤدي المحاولة إلى تغيير ويكون لهذا التغيير أثره ، تكون التجربة قد تحققت ، وفي مثل هذه الحالة يتحقق التعلّم» .

«إن الطفل الذي يقرب يده من النار ويترك النار تلسعه لا يمكن أن

(١) غرر الحكم ، ص ٥٨

(٢) تحف العقول ، ص ٩٦ .

يصبح ذا تجربة ، ولكن الطفل الذي يمدّ يده نحو النار ويسحبها فور إحساسه بحرارتها ، يصبح ذا تجربة ، إذ ان ردّة فعله دليل على إدراكه لمعنى النار ، إن احتراق يد الطفل إذا لم يثر فيه فهمه وإحساسه فإنه يكون أشبه باحتراق قطعة من الخشب ، أي أنها مجرد عملية كيميائية لا معنى لها ولا يمكن اعتبارها تجربة» .

«إن التجربة تستلزم التفكير ، لأن التفكير يشكل حلقة الوصل المهمة بين ما نفعله تجاه الأشياء وبين ما نفعله الأشياء تجاهنا ، وهو الرابط بين جهودنا ونتائج ما نقوم به من تجارب ، لذا فإن التجربة لن تترك أثرها إلا بالتفكير^(١) .

معرفة المباح وغير المباح :

إن التجارب العلمية هي كالأبحاث العلمية وسيلة لتفتح العقل وتنمية قوّة الإدراك ، والتجارب هي دليل الإنسان نحو معرفة المباح وغير المباح والتمييز بين المحاسن والمساوىء . ويمكن تقييم قيمة آراء الناس بالمقارنة مع إدراكهم والتجارب التي اكتسبوها في حياتهم .

إن الذين يدققون في شؤون الحياة ويميزون بين الخير والشر ويعتبرون من تائبتهما ويحتفظون في ذاكرتهم بكل ما اكتسبوه من تجارب ويجعلونها أساس كل عمل يُقدمون عليه هم أناس متعلّون واعون تصيب آراؤهم وأعمالهم في الغالب .

مقياس قيمة الآراء :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : رَأْيُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ تَجَرِبَتِهِ^(٢) .
وعنه عليه السلام : مَنْ حَفِظَ التَّجَارِبَ أَصَابَتْ أَفْعَالُهُ^(٣) .

(١) مقدمة على فلسفة التربية والتعليم ، ص ١٠٥ .
(٢) و٣) غرر الحكم ، ص ٤٢٣ و٧١٩ .

ومن وصية كتبها عليه السلام : وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ (١) .

إن الجهلة من الناس هم من يستهترون بشؤون الحياة ويمرّون عليها مرور الكرام دون دقة أو تفكير ، فهم لا يفكرون بما يروونه ويسمعونه ولا يعتبرون من التجارب والحوادث التي تواجههم ، ولا يحاولون تنمية عقولهم ، يتمادون في ارتكاب الأخطاء متجاهلين عواقب أفعالهم ، فيقدمون على تكرارها مورّطين أنفسهم فيها ثانية .

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّجْرِيبَةِ (٢) .

وعنه عليه السلام أنه قال : مَنْ لَمْ يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِالبَلَاءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ العِظَةِ (٣) .

الدقة في شؤون الحياة :

هناك فتيان أكفأ نجحوا خلال فترة قصيرة في اكتساب المئات من التجارب والتمييز بين المحاسن والمساوىء وذلك نتيجة الدقة في شؤون الحياة . فهم يفكرون بتعقل في الأمور والقضايا التي تليق بهم ، وينطقون بما هو سليم . على عكس من هم أكبر منهم سناً ممن لم يستفيدوا من عمرهم ولم يكتسبوا من الحياة أي تجارب ولم يحاولوا تنوير عقولهم وتنميتها ، وما زالوا ينظرون إلى الأمور من منظار صبياني وينطقون بما ينطق به الأطفال .

«إن ما يحظى بأهمية بالغة في حياة الإنسان ليس عمره وسنوات حياته ، بل الأثر الذي تركته الحياة عليه والدروس والعبر التي اكتسبها من الحياة بما فيها من أحداث . ومن هذا المنطلق تكون أمامنا سبل جديدة لتحديد قيمة أنفسنا وقيمة من هم حولنا . فليس

(٢٠١) نهج البلاغة ، الفيض ، ص ٩٢٢ و ١٠٧٣ .

(٣) المستدرک ج ٣ ، ص ١٧٧

كل الأشخاص البالغين راشدون ، لأن هناك الكثير من الأشخاص البالغين سنّاً لا يزالون أطفالاً في تصرفاتهم وكلامهم ، وهناك الكثير من الأشخاص غير البالغين سنّاً هم بالغون في تصرفاتهم وكلامهم»^(١) ،

بناء الشخصية :

مع انقضاء مرحلة البلوغ وشروع الفرد بتحمّل جزء من مسؤوليات الحياة ، يكون الفتيان قد تجاوزوا مرحلة الطفولة ، وباتوا أعضاء مستقلين في المجتمع مسؤولين كل المسؤولية عن أعمالهم وأقوالهم ، وينبغي على مثل هؤلاء أن يستغلوا فرصة مرحلة البلوغ ، ويسعوا إلى بناء شخصيتهم وإثبات كفاءتهم وجدارتهم لأن يكونوا أعضاء أكفاء في المجتمع قدر الإمكان .

وينبغي عليهم أن يستفيدوا من إرشادات المرين وتوجيهاتهم لتقوية عقولهم وتنمية أحاسيسهم ورجباتهم تنمية صحيحة وتطبيق أفكارهم وأخلاقهم مع الظروف المعيشية والاجتماعية ومسؤولياتهم الدينية والقانونية .

ويستطيع الفتيان تحريك قوة فهمهم وإدراكهم وتحقيق النمو المكتسب لعقولهم عن طريق عاملين ، أحدهما التعلّم والآخر اكتساب التجارب .

تحليل الأحداث :

يجب على الفتيان تنمية عقولهم عن طريق تلقي العلم والمعرفة من جهة ، وتحليل الأحداث الكبيرة والصغيرة وما يواجهونه في حياتهم اليومية بمساعدة مرّبيهم ، ليدركوا أسبابها ومسبباتها . ويجب عليهم أن يفكروا في كل حادثة بما يستوعبه فهمهم ، ويحاولوا إعطاء نتيجة كل منها والتي تشكل بحد ذاتها تجربة حياتية إلى الحافظة (أي الذاكرة) ، ويجعلوها أساساً لتصرفاتهم . وبديهي أن تساهم هذه الخطوة في تنمية عقول الفتيان كتلقي العلم ، وتؤدي

(١) العقل الكامل ، ص ١٨ .

إلى تعزيز قدراتهم الفكرية وتصونهم من الانزلاق في المتاهات والضياع والانحراف .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ أَحْكَمَ مِنَ التَّجَارِبِ سَلَّمَ مِنَ الْعَوَاطِبِ ^(١) .

تلميذ المجتمع :

«إن الطفل يكتشف خلال فترة البلوغ بيئة أكبر من بيئته ، ويشرع بنشاطات وفعاليات جديدة ، ويصبح في الواقع تلميذاً في مدرسة المجتمع حتى يستطيع إيجاد علاقات جديدة بينه وبين من هم أكبر منه من البالغين . ومن هنا يتكون لديه مفهوم جديد حول شخصيته ، مفهوم أكثر عمقاً وإدراكاً من ذي قبل . وكلما عرف نفسه ووقف على حقيقة شخصيته ، كلما بدأت شخصيته تتبلور شيئاً فشيئاً» ^(٢) .

مسؤولية المربي :

«إن من مسؤوليات المربين العمل على جعل الفتيان أكثر خبرة في تشغيل عقولهم ، وهذا الأمر عسير إلى حد ما ، لأن ما هو مفقود في استدالات الفتيان هو التجربة الكافية في القيادة والتوجيه ، حتى ان الشبان أنفسهم لا يعلمون كيف يستفيدون من تجاربهم ، فهم لا يحذون تقليد الآخرين ولا نصائحهم ، ولكن عندما يختلط الاستدلال بالتجربة يبدأ عهد الكمال والنضوج» ^(٣) .

محيط المدرسة والمجتمع :

يشكل المحيط المدرسي ومحيط المجتمع للفتى العاقل المتفكر قاعدتين

(١) غرر الحكم ، ص ٦٣٠ .

(٢) چه ميدانم ؟ (ماذا أعرف؟) ، البلوغ ، ص ٧٢ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٠٨ .

تعليميتين تربويتين تساهمان في تنمية العقل ، ففي محيط المدرسة يتعلم الفتى مختلف المسائل العلمية والطبيعية والرياضية وغيرها ، وفي محيط المجتمع يتعلم كيف يميّز بين المساوىء والمحاسن وكيف يحتك بالآخرين وكيف يتعامل معهم .

والفتى لا يمكن أن تتوفر فيه شروط الشخصية العلمية ولا يمكن أن يحقق النمو المكتسب للعقل إلا إذا ما كرّس قواه الفكرية برغبة خالصة منه لإدراك دروس هاتين المدرستين .

وسائل الاختبار :

يعتمد نظام التربية والتعليم الجديد على أن تتجهز كل مدرسة بمختبر ووسائل مخبرية وذلك ليقف الطالب أو التلميذ على عمق المسائل العلمية ويدرك أسباب الطبيعة ومسبباتها . ويتم نقل الطالب من مرحلة البحث العلمي داخل الصف إلى مرحلة التطبيق النظري في المختبرات وذلك زيادة في فهمه وإدراكه لهذه المسائل .

وللوقوف على مدى أهمية هذه المختبرات نرى العلماء والمخترعين يجرون اليوم تجاربهم داخل المختبرات وذلك لكشف المزيد من المجهولات والمسائل العلمية الجديدة ، علّهم يستطيعون بجهودهم ومثابرتهم إضافة فصل جديد على فصول العلم الذي شارك في تأليفه الكثير من العلماء والمخترعين .

«إن العلم الجديد الذي انطلق في القرن السابع عشر ليحدث انقلاباً في معرفة البشر ، هو في الحقيقة قائم على التجارب التي تُجرى في المختبرات العلمية ، والتجارب التي تُجرى بمعرفة وبصيرة تكون تجارب مفيدة تؤدي إلى زيادة في العلم والمعرفة» .

تطابق ما هو مرئي وما هو ملموس :

«إن التجربة الناجحة والمفيدة هي تلك التي يتطابق فيها ما هو مرئي وما هو ملموس ، وتجتمع فيها الإدراكات الحسية المتبعثرة بواسطة دقة ذهنية فائقة لتكوّن علاقات جديدة»

«وينجح العلماء في كشف مزيد من العلاقات والحقائق الجديدة عن طريق ضبط موضوع التجربة بواسطة أجهزة ووسائل دقيقة كالمنظار والمجهر» .

«إن التجربة في معناها العلمي الدقيق لا تختلف عن العلم والمعرفة ، فمنذ أن وجدت المختبرات وبدأت التجارب تخضع لتحليل دقيق فيها ، حصل تطوّر عظيم في مجال التربية والتعليم ، وأخذ المرّبون يطبّقون المفهوم الجديد للتجربة في حقل التربية والتعليم»^(١) .

مختبر العقل :

كما هو حال العلماء الذين يخضعون شتى المسائل لتحليلات واختبارات داخل المختبرات ليحققوا في النهاية كشفاً علمياً جديداً ، ينبغي على الفتيان أيضاً أن يخضعوا أحداث الماضي والحاضر والتي هي بمثابة المواد الأولية للتفكير والتدبر لتحليلات واختبارات دقيقة في مختبرات العقل ليقفوا عند أسبابها ومسبباتها ، عندها ستشكل كل منها تجربة جديدة عليهم أن يحفظوها في ذاكرتهم .

ومردود هكذا عمل للفتيان نتيجتان ، الأولى تعزيز قواهم العقلية والفكرية نتيجة تشغيل الفكر في تحليل الوقائع وعللها ، وبذلك يكونون قد حقّقوا الخطوة

(١) مقدمة على فلسفة التربية والتعليم ، ص ١٨٨ .

الأولى على طريق النمو المكتسب ، والثانية هي أن برنامج حياتهم سيكون قائماً على التجارب التي اكتسبوها والتي ستحميهم إن استفادوا منها من الوقوع في الخطأ أو الإنحراف .

العلم المفيد :

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : التَّجَارِبُ عِلْمٌ مُسْتَفَادٌ (١) .

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : لَا يُلْسَعُ الْعَاقِلُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ (٢) .

«إن التجربة الفكرية هي تلك التجربة التي يتغلب فيها عنصر المفعول به الداخلي على عنصر الفاعل الخارجي ، وهي التي تستلزم دقة وتحليلاً وبصيرة» .

«ويمكن تسمية هذه التجربة التي تؤدي إلى كشف العلاقات والروابط وكيفيتها بالتفكر» .

للفكر هدف :

«ومن هذا المنطلق فإن التفكير أو الفكر هو محاولة متعمدة لكشف العلاقات الخاصة بين ما نستطيع القيام به وبين النتائج التي تنجم عن أعمالنا» .

«وبعبارة أخرى نقول: إن للفكر والعمل هدفاً واحداً على الدوام . إن التفكير يبدأ عند الطفل عندما يحاول بلوغ هدف ما ، فهو يسعى عن طريق أشياء ما إلى معرفة أشياء أخرى ، ويحاول ربط أمور ما بأمرٍ آخرى» .

(١) غرر الحكم ، ص ٣٥ .
(٢) بحار الأنوار ج ١ ، ص ٤٣ .

تقييم المستقبل :

«وكل حالات التفكير قائمة وثابتة على هذا الأساس . وأعظم متفكر لا يقدم على أمر قبل التدقيق فيه وفي نتائجه المستقبلية ، فهو يُقيّم المستقبل من خلال الواقع المعاش ، وهو يتكهن بنتائج ومكملات كل خطوة يقدم عليها» .

«وعلى هذا لا يمكننا أن نكون متفكرين إذا ما لحظنا ما يدور حولنا من وقائع وأحداث دون التفكير بعواقبها ، ولسنا من المتفكرين إذا ما حصرنا اهتمامنا بما دار حولنا من أحداث متغافلين عما أسفرت عنه وما نجم عنها»^(١) .

إن التجارب لا تأتي إلاً بتحليل الأحداث ومعرفة أسبابها ، وهذه الأحداث تنتج عن احتكاك شخص بشخص آخر أو شيء آخر . وحياة البشر هي بمنزلة وعاء تتجمع فيه مختلف الوقائع والأحداث ، ومن الطبيعي أن يشهد الإنسان الذي يعيش أكثر من غيره ويكون عمره أطول من عمر غيره من البشر مزيداً من الأحداث ، وهذا معناه أنه سيكون أكثر تجربة من غيره إذا ما حلل كل الأحداث التي واجهته في حياته وعرف أسبابها .

مدرسة الايام :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : الأيّام تُفيدُ التجارب^(٢) .

إن الفتيان رغم قصر أعمارهم وقلة الأحداث التي قد يواجهونها وعدم تذوقهم مرّ الحياة وحلاوتها ، بمقدورهم أن يستفيدوا من تجارب الآخرين ، ويحللوها ويضمّوها إلى تجاربهم ، ويتفكروا في كل منها وفي نتائجها ، وما يصلون إليه سيكون تجارب مفيدة عليهم حفظها في ذاكرتهم .

(١) مقدمة على فلسفة التربية والتعليم ، ص ١٠٨ .

(٢) غرر الحكم ، ص ١٧ .

استغلال الوقائع :

وهنا لا بد من البحث حول استفادة الفتيان من الوقائع التاريخية التي مرّ بها الآخرون ومن الأحداث التي يواجهونها . وسنحاول لفت انتباههم إلى طريقة الاستنادة الصحيحة من هذين المصدرين الحياتيين المفيدين .

إن الإنسان بفطرته تتكون لديه منذ مرحلة الطفولة حتى مرحلة الشيخوخة رغبة في الاستماع إلى القصص والروايات . وهذه الرغبة الطبيعية التي ولدت في ذات الإنسان بأمر من الله سبحانه وتعالى تعدّ قاعدة أساسية من قواعد التربية والتعليم . ويمكن للمربين الأكفاء استغلال هذه الرغبة مع الأخذ بنظر الاعتبار مختلف مراحل الطفولة والشباب لدى الإنسان ، وزرع بذور التربية الصحيحة في نفوس الناس عن طريق القصص المفيدة والروايات التاريخية ، وهذا ما يساعدهم في تنمية عقولهم وتعزيز أخلاقهم .

إدراك فوائد التاريخ :

«إن الفترة ما بين سن الـ ١٢ والـ ١٥ عاماً تعتبر فترة تشهد تغييرات أساسية ، ففيها ينتقل الطفل من عهد الصبا إلى عهد الشباب ، وخلالها تتبلور شخصيته وتتوضح لكنها تكون مصحوبة بكثير من العُقد . ويعتبر العلماء هذه الدورة الجديدة بأنها أساس الاضطراب وفي نفس الوقت هي ذات معانٍ جَمّة . ففي هذه الدورة يستطيع الفتيان تسخير التاريخ لأنفسهم وإعداد عقولهم لإدراك فوائده .

«إن القصص التي استأثرت باهتمامهم في عهد صباهم يصبح لها خلال الدورة المذكورة معنىً جديد ، ويمكن أن تشكل لهم أساساً نمو فكري مهماً . وبالنسبة لمجتمع الطفل ، فإن لهذه الدورة وخاصة المرحلة التي يبدأ فيها الطفل دراسة التاريخ أهمية

خاصة في تربية الطفل وإعداد فرد صالح ومفيد للمجتمع»^(١) .

تعزيز قوة النقد :

«إن مدرسة التاريخ ينبغي اعتبارها من أهم المدارس للفتيان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ - ١٨ عاماً في شتى بقاع الأرض . كما ينبغي على المعلم أن يجهد في تنمية وتوعية عقول الطلبة وذلك لتعزيز قوة النقد في نفوسهم ، وأن يجبرهم على اعتماد أسلوب التدقيق والتمحيص في الأمور والقضايا العامة ، ليتكون لديهم رأي مستقل بمجمل الأمور الحياتية ، وهذا ما يؤدي إلى نمو روح التمييز والتحكيم عند الطلبة بشكل منطقي ومدروس ، ويجعلهم يُغربلون الشواهد والدلائل لاختيار الحقائق وربطها بالحقائق الأخرى» .

«ومن هذا المنطلق يصبح الطالب قادراً على تحليل وتفسير الحقائق إضافة إلى استيعابها بشكل جيد»^(٢) .

القرآن والوقائع التاريخية :

لقد أورد القرآن الكريم الكثير من الوقائع التاريخية والروايات عن العديد من الأمم الغابرة وذلك لهداية البشر وجعلهم يطالعون أخبار هذه الأمم ويعتبرون منها .

فقد حدثنا القرآن الكريم عن إيمان بعض الملل وعدم إيمان بعضها الآخر ، وعن انتصار بعضها وهزيمة بعضها الآخر ، وعن عدالة بعضها وظلم بعضها الآخر ، وعن قوة بعضها وضعف وهلاك بعضها الآخر ، وخلاصة القول : إن الله سبحانه وتعالى قد خصص جزءاً مهماً من هذا الكتاب السماوي للحديث

(١) تعلم التاريخ (صادر عن اليونسكو) ، ص ١٠٢ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٠ .

عن تاريخ الملل وما واجهته من وقائع وأحداث سلبية كانت عليها أم إيجابية .

الوعي الفكري :

إن مطالعة كل من الوقائع التي مرّت على أسلافنا والتفكر فيها تشكل عاملاً مؤثراً في نمو الوعي الفكري للإنسان ، كما أنها تشكل عاملاً مهماً للإنسان للتمييز بين مسببات السعادة ومسببات الشقاء .
فقوانين الحياة ثابتة لن تتغير شأنها شأن القوانين والسنن الطبيعية ، إذ لا يمكن أن تتغير بمرور الزمان . فكما أن الحياة والموت والنمو وسرعة الضوء وغيرها من القوانين الطبيعية ما زالت هي هي كما كانت عليه وستبقى على هذه الحال ، كذلك هي الحال بالنسبة لعوامل سعادة الإنسان كالعدل والعلم والأمانة والصدق والوفاء بالعهد ، أو عوامل شقائه كالظلم والجهل والخيانة والكذب وغيرها فهي ثابتة لن تتغير .

أسباب الارتقاء والانهيار :

إذا ما كانت بعض الصفات كالعلم والعدل والأمانة وغيرها من الصفات الحميدة قد أوصلت بعض الملل السالفة إلى الرقي رغم تخلفها ، فإنها قادرة على إيصال شعوب اليوم إلى نفس المكانة من الرقي ، كما أن بعض الصفات السيئة كالظلم والجهل والخيانة وغيرها من المساويء التي أودت بالعديد من الملل إلى الضياع والسقوط ، قادرة على أن تؤدي بالكثير من شعوب اليوم إلى الضياع والسقوط في الهاوية .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : **إِسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهُ وَلَا تُكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَعَتْ فِي إِيْلَامِهِ فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَعَطَّى بِالْأَدَبِ ، وَالْبَهَائِمَ لَا تَتَعَطَّى إِلَّا بِالضَّرْبِ (١) .**

علاقة الماضي بالحاضر :

«من المؤسف أن التاريخ في مدارسنا وقاموسنا اليوم يعتبر خاصاً

(١) نهج البلاغة ، الفيض ، ص ٩٢٦ .

لما مضى من الأزمان وليس له أي ارتباط بواقعنا وحياتنا اليوم .
والتاريخ إذا ما تم فصله عن الحاضر فإنه لن يحمل أية فائدة أو
منفعة للإنسان ، لأنه إذا ما اعتبر خاصاً لما ولّى من الزمان فإنه
لن ينفعنا ولن يحل عقدة أو مشكلة من مشاكلنا ، ولكن واقع الأمر
ليس كذلك ، فالتاريخ رغم أنه يسرد لنا وقائع واحداثاً من
الماضي ، إلا أن هناك ارتباطاً بين هذا الماضي والحاضر
المعاش . صحيح أن التاريخ هو علم أحداث الماضي ولكن
ماضي التاريخ هو في حكم تاريخ الحاضر . فنحن لسنا قادرين
على الوقوف على مجريات الأمور في بلدنا إلا إذا ما وقفنا على
ماضيها . وربما كان أهم اكتشاف توصل إليه الإنسان في النصف
الثاني من القرن التاسع عشر هو أنه إذا ما أراد معرفة الأمور عليه
أن يبحث ويدقق في ماضيها وتاريخها . فإذا لم ننظر من حاضرها
إلى الماضي لا نستطيع أن نجد معنى لما شهدته الماضي من وقائع
وأحداث» .

«لذا فمن المسلم به أن يكون لعلم التاريخ ارتباط بالأحداث
الاجتماعية المعاصرة ، وإلا فإن التاريخ سيفقد رسالته كعامل مؤثر
في العلاقات الاجتماعية لبني البشر»^(١) .

دراسة التاريخ :

إن تاريخ الأسلاف لن ينفع الإنسان المعاصر بشيء إلا إذا ما درسه بتفكير
وتعمق .

الإعتبار :

وحاول تحليله تحليلاً صحيحاً لمعرفة أسباب سعادة الشعوب الغابرة أو
عوامل تخلفها ، وذلك للاعتبار منها وجعل أسباب سعادة الأسلاف أساساً

(١) مقدمة على فلسفة التربية والتعليم ، ص ١٥٤ .

لحياته ، واجتناب عوامل شقائهم وتخلّفهم . فالهدف من نزول القرآن الكريم وتوارد الروايات والأحاديث الشريفة هو جعل الإنسان يعتبر ويتفكّر . ﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال : مَنِ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ وَمَنْ أَبْصَرَ فَهَمَّ وَمَنْ فَهَمَّ عَلِمَ^(١) .

إن أولئك الذين لا يتفكرون ولا يعتبرون أو يتعظون من تاريخ أسلافهم ، قد حرموا أنفسهم من إدراك الكثير من الحقائق المفيدة ، ومثل هؤلاء انتقدهم القرآن الكريم والروايات الإسلامية وأمر بالإعراض عنهم .

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ، حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النَّذْرُ ، فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ﴾^(٢) .

إن القرآن الكريم غنيّ بالحكم والدروس والعبر ولكنها ليست كافية للمعاندين والمستبدين بأرائهم ، فهم لن يعتبروا من أبناء وأخبار أسلافهم ، وهم مستمرّون بعنجهيتهم وتصرفاتهم الرعناء ، لذلك جاء أمر الله سبحانه وتعالى للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أن أعرض عنهم .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : مَنْ لَمْ يَعْتَبِرْ بِغَيْرِهِ لَمْ يَسْتَظْهِرْ لِنَفْسِهِ^(٣) .

استيعاب التاريخ :

إذا أراد الفتیان والشبان تنمية قواهم الفكرية والوصول بعقولهم إلى النمو المكتسب تدريجياً للتمييز بين محاسن الحياة ومساوئها ومعرفة متطلبات الشؤون الحياتية الاجتماعية واستغلال فرصة الشباب التي لن تعوّض ، ينبغي عليهم قراءة التاريخ قراءة دقيقة لاستيعابه بالكامل . إذ عليهم أن يطلعوا على عوامل

(١) السفينة ، «العبر» ، ص ١٤٦ .

(٢) سورة القمر ؛ الآية : ٤ و ٥ .

(٣) غرر الحكم ، ص ٦٤٦ .

سعادة الشعوب والأمم السالفة وعوامل شقائها في مختلف شؤون الحياة ، وأن يعتبروا منها ، وأن يتخذوا من الأحداث التي مرت عليهم تجربة مفيدة يقيموا على أساسها برنامجهم الحياتي الصحيح .

«إن الجزء الأكبر من برنامج التاريخ الذي يجب أن يخصص للطلبة الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ - ١٨ عاماً ينبغي أن يشمل على شؤون اقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية وسبل تنميتها . ونتيجة دراسة هذه الشؤون يتوضح الاختلاف بين مختلف الأمم والشعوب وكذلك أوجه الشبه بينها ، وكيف حققت هذه الشعوب استقلالها ، وبذلك نكون قد اطلعنا على أساليب مختلف الشعوب والأقوام في العيش ، وهذا ما يمنحنا فرصة للوقوف على مسعى الإنسان نحو تحسين أوضاعه الاجتماعية وتحقيق تقدم على صعيد الحياة الاجتماعية» .

«إذا ما أبحرنا في دراسة التاريخ وبحث شتى المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، واستطعنا من خلال دراسة نفسية الفرد والمجتمع تحديد العوامل المؤثرة في كيان الإنسان ووجوده ، عندها نتجراً على القول: إننا خطونا خطوات كبيرة نحو الحقيقة»^(١) .

اندماج المعلومات :

«إن ارتباط الشر بعضهم ببعض يشكل وسيلة لزيادة تجارب الانسان ، وتحقيق ذلك يحتاج إلى رغبات مشتركة يتبادلها الناس فيما يخص العلاقات فيما بينهم . وفي مثل هذه الحال يصبح هناك اندماج بين التجربة التي حصل عليها الفرد من المعلومات

(١) تعلم التاريخ (اليونسكو) ص ١١١

التي منحها إياه الآخرون وتجارب قوم أو مجتمع أو حتى كافة أبناء البشرية» .

«إن التاريخ يعتبر أهم مدرسة تزيد من تجارب الإنسان وتعمقها ، وهي تبني جسوراً بين الإنسان وبين الأقسام والشعوب الغابرة ، ولهذا يمكن القول إن للتاريخ قيمة تربوية عظيمة ، فهو ينقل إلى الأجيال صورة طبيعية عن حياة الإنسان الاجتماعية»^(١) .

إن من الشروط الأساسية لتعلم الشبان تاريخ الأسلاف وجود المرابي الكفوء والمخلص . معلم يكون قد أدرك التاريخ برمته ووقف على حقائقه ، وكشف من خلال تحليل التاريخ أسباب ما شهدته من وقائع وأحداث . ومثل هذا المعلم إذا ما أخذ على عاتقه مسؤولية تربية وتعليم الشبان بحب ورغبة ، وسعى إلى نقل كل ما لديه من معلومات إليهم ، فإنه سينجح في تنمية قواهم الفكرية وتوعية أذهانهم ، ويكون بذلك قد دفعهم نحو تحقيق النمو المكتسب لعقولهم .

الميراث الثقافي للإنسان :

«إن معلم التاريخ ينبغي أن يكون مثقفاً ذا اطلاع كبير في مجال التاريخ ، لأن رسول الميراث الثقافي للشعوب ينبغي أن يكون مطلعاً على آداب الشعوب وعاداتها وتراثها ، وإذا ما كان هذا المعلم قد بذل ما بوسعه في سبيل علمه وتعلمه ، وأطلع على جوانب متعددة من التاريخ ، فإنه يكون قادراً دون أدنى شك على تعليم تلامذته وإفهامهم المعنى الحقيقي للتاريخ» .

الاعتراف بالجهل :

«يجب أن يكون معلم التاريخ محباً للحقيقة متصفاً بهذه الصفة أي

(١) مقدمة على فلسفة التربية والتعليم ، ص ١٥٦

بحبّه للحقيقة . وعليه أن يكون دقيقاً جداً ذا فكر ناقد في دراسة الجزئيات ، أما إذا كان لا يعلم شيئاً ينبغي عليه أن لا يخشى الاعتراف بجهله ، وهذه صفات يجب أن يكون معلم التاريخ متحلّياً بها .

«ويجب على معلم التاريخ أن لا يخشى أبداً طرح الأهداف السامية ، وعليه دائماً أن ينمي هذه الصفة في نفسه وفي نفوس تلامذته . ومعلم التاريخ لن يكون معلماً كفواً جيداً إذا عجز عن جعل تلامذته من أنصار الحق والعاملين في سبيله ، وتنمية الأفكار السامية في نفوسهم»^(١) .

التاريخ مدرسة :

لقد أشار مربي البشرية ومعلم العالم أمير المؤمنين عليه السلام في حديث موجّه إلى ابنه الإمام المجتبي عليه السلام إلى أهمية التاريخ وضرورة التعمق في حقيقته والاعتبار من مدرسته والاستفادة منه ، حينما قال عليه السلام : أَيُّ بُنْيٍّ ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمَرْتُ عُمَرُ مَنْ كَانَ قَبْلِي فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَسِرَّتُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمَرْتُ مَعَ أَوْلِيهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدْرِهِ وَتَفَعُّهُ مِنْ ضَرَرِهِ فَاسْتَخَلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَجِيْلَهُ وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيْلَهُ وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ^(٢) .

إن المتبحر في حديث أمير المؤمنين لابنه الحسن المجتبي عليه السلام يجد أن هناك خمس نقاط جاء بها عليه السلام في حديثه المبارك لهداية الآباء وإرشاد معلمي التاريخ إلى كيفية التعامل مع التاريخ ، وهذه النقاط هي :

١ - دراسة تاريخ الشعوب والأمم الغابرة .

(١) تعلّم التاريخ (اليونسكو) ص ١٣٧ .

(٢) نهج البلاغة ، «الفيض» ، ص ٩٠٤ .

٢ - تحليل التاريخ للوقوف على أسباب الوقائع والأحداث التي تخللته والتمييز بين مساوئه ومحاسنه .

٣ - اختيار ما هو قيم وثمان من التاريخ وتدرسه للفتيان .

٤ - تذكير الفتیان بأهم جوانب التاريخ وأكثرها فائدة .

٥ - عدم إرهاب أفكار الفتیان بما هو غير مفيد ولا نافع من التاريخ وعدم إهدار أوقاتهم .

كل هذه النقاط من شأنها تنمية عقول الفتیان وتوعية أذهانهم ومنحهم تجربة ثمينة تكون أساس حياتهم الفردية والاجتماعية ، وهي تساهم أيضاً في رفع مستوى إدراكهم وفهمهم للأمور ، وتحقيق عقولهم النمو المكتسب .

التمييز بين الخير والشر :

يجب على الفتیان أن يعلموا أن وجود معلم كفوء وناجح في نقل صورة واضحة وصحيحة عن التاريخ ليس كافياً لنجاحهم في الحياة ، إذ عليهم أيضاً أن يتابعوا بأنفسهم وبكل شغف قضايا التاريخ لتشخيص وتحديد الخير والشر وجعلهما أساساً لحياتهم اليومية لينتفعوا بها وينيروا دربهم نحو حياة أفضل وأطهر .

إن الاعتبار من مقطع تاريخي قصير والحصول على تجربة من واقعة صغيرة والاستفادة منها قد يحدث تغييراً في حياة شاب ما وينقذه من الزلل والضياغ ويحقق له عزّة وشرفاً ، وهنا نورد قصة تاريخية قصيرة كمثال :

كان في عهد عبد الملك بن مروان تاجر معروف بالصدق والعمل الصالح ، ولحسن سمعته في سوق دمشق واعتماد الناس عليه وثقتهم به كانوا يودعونه بعض ممتلكاتهم وبضاعتهم لبييعها لهم ويأخذ أجرته على ذلك .

خطر الذنب :

وذات يوم انحرف التاجر في إحدى صفقاته عن قويم مسيره وخان الأمانة ، فشاع الخبر وانتشر بسرعة البرق بين الناس وأصبح الشغل الشاغل لألستهم ، ففقد التاجر ثقة العامة والخاصة به واهتزت شخصيته وسحب الناس اعتمادهم عليه ، فلم يأمنوه بعدها على بضاعتهم ، حتى ساءت أموره وتشتتت تجارته وأخذ دائنوه يلحون في الطلب .

وكان للتاجر ولد عاقل تبدو على ملامحه الفراسة والذكاء ، قد اعتبر من تجربة أبيه المريرة وتعلم منها درساً لا ينسى ، وعرف أن مجرد انزلاق أو خيانة واحدة قد تؤدي إلى القضاء على كرامة الإنسان وشرفه وتبدل حياة العز إلى الدل والسوء ، فقرر في قرارة نفسه أن يبتعد حتى عن مجرد التفكير بالخيانة والذنب ويضع على الدوام نصب عينيه الطهارة والتقوى والنزاهة ، وكان لسلوكه السليم هذا مردود إيجابي عليه فقد رفعه عزاً وأدخله في جميع القلوب ، وصادف أن بعث عبد الملك بن مروان جاراً له وهو قائد عسكري كبير بمعينة جيش المسلمين في مهمة لقتال الروم ، فاستدعى الفتى قبل توجيهه إلى ميادين القتال وأودعه جميع ماله البالغ عشرة آلاف دينار من الذهب وأوصاه بأن يحتفظ بالمال كأمانة لديه حتى عودته من القتال إن سلم ، ووعدته بأن يعطيه أجراً على أمانته ، أما إذا لم يعد فأوصاه بأن يسلم المبلغ إلى أسرته متى ما ضاقت عليهم الأرض بعد أن يقتطع منها عُشرها ليعيشوا حياة كريمة . . وهكذا كان ، فقد رحل القائد دون أن يعود .

الخيانة والسقوط :

وحينما علم أب ذلك الشاب - أي التاجر المفلس - بمقتل جاره قال لابنه إنه لا أحد يعلم عن القطع الذهبية المؤمنة لديه ، وأنا - أي الأب - الآن على ما تراني في أشد الضيق وأطلب أن تعطيني بعضها على أن أردّها عليك متى صلح حالي وحسنت عيشتي . فأجابته الشاب : يا أبتاه إن الخيانة والانحراف هو الذي

أدى بك إلى ما أنت عليه من الشقاء ، فبالله لن أخون الأمانة لو قطعت إرباً
إرباً ، ولا أعيد خطأك ثانية كي لا أشقى كما شقيت .

ومضت فترة ، ساءت فيها أحوال ذوي القائد القتيل ، فجاءوا إلى الشاب
طالبين منه أن يكتب رسالة عنهم إلى عبد الملك بن مروان يعلمه فيها بفقرهم
وشدة حالهم فلربما رثى لهم وأعانهم ببعض المال . فكتب ما أمر به وسلمت
الرسالة ولكن دون جدوى ، فقد أجاب عبد الملك أن أي شخص يقتل يُحذف
أسمه من ديوان بيت المال . ولما علم الشاب بالجواب واليأس الذي سيطر
على ذوي القائد القتيل قال في نفسه : حانت الآن فرصة أداء الأمانة فلا بد من
أن أضاع القطع الذهبية تحت تصرفهم لإنقاذهم من الفقر والفاقة ، فدعا أسرة
القائد إلى منزله وقال لهم : إن أباكم استودعني كمية من المال وأوصاني أن
أسلمه إياكم عند الحاجة الماسة إليه بعد أن أقتطع عُشره ، فطار أبناء القائد
فرحاً لدى سماعهم النبأ وقالوا : سنعطيك ضعف ما أوصى به أبونا .

أثر الامانة :

جاء الشاب بالمال وسلمهم إياه ، فأعادوا إليه ألفي دينار وأخذوا ثمانية
آلاف ، ولم تمض أيام على هذه القضية ، حتى استدعى عبد الملك أسرة
القائد القتيل إلى بلاطه ليحقق حول الرسالة ، وسألهم عن حالهم فأخبروه بما
جرى لهم مع الشاب ، عندها استدعى عبد الملك الشاب فوراً وأثنى عليه
لأمانته وصدقه وسلمه مسؤولية خزينة البلاد قائلاً له : إنني لا أعرف أحداً قد قام
بأداء الأمانة كما أديتها أنت .

لذا فالشباب الذين يعتبرون من تاريخ الآخرين ويكتسبون التجارب من
الوقائع والأحداث الخيرة والشريرة ويستندون في حياتهم على منهج سليم قائم
على الفكر الصائب والعقل السليم ، هم الأكفاء الذين ينخرطون في المجتمع
عن جدارة ويتمكنون من إحياء حياة ملؤها السعادة والهناء .

الدقة في الامور الشخصية :

ليست مطالعة تاريخ الآخرين هي وحدها التي تكسب الشاب التجارب وتُثَمِّرُ فكره وتقوِّي بصيرته ، بل إن مطالعة أمورهم والأحداث والوقائع التي عاشوها والتدقيق فيها من شأنها أن تكون مصدراً للتعلم واكتساب التجارب .

وبعبارة أخرى نقول: إن على الشاب أن يستفيد من تاريخه الشخصي ويُحلِّل كل ما مرَّ عليه في حياته ليزداد عبرة وتجربة، كما هي الحال بالنسبة للشباب العاقل الذي يقرأ التاريخ ليعتبر من مصائر الآخرين ويميّز بين الخير والشر .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : العاقل مَنْ وَعَظَّتْهُ التَّجَارِبُ^(١) .

وعنه عليه السلام : مَنْ عَقَلَ اِعْتَبَرَ بِأَمْسِهِ وَأَسْتَظْهَرَ لِنَفْسِهِ^(٢) .

سبل بلوغ الواقع :

إن التجربة هي من العوامل الرئيسية لتنمية العقل والذكاء عند الإنسان ، والتجربة في حياة الإنسان هي من السبل الواضحة لبلوغ الحقيقة والواقع ، ورأي من هم أصحاب تجارب يكون سليماً وصائباً أضعافاً مضاعفة من أي البسطاء وعديمي التجربة .

فتح قلعة عمورية :

«لما خرج ملك الروم وفعل في بلاد الإسلام ما فعل بلغ الخبر المعتصم فاستعظمه وكبر لديه ، وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم وامعتصماه ، فأجابها وهو جالس على سريريه : لبيك لبيك ونهض من ساعته وصاح في قصره النفير النفير ، وبلغه أن عمورية عين النصرانية وأشرف عندهم من القسطنطينية

(١) بحار الأنوار ج ١ ، ص ٥٣ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٦٧٨ .

لتجهز بما لم تعهد من السلاح وحياض الأدم وغير ذلك وفرق
عساكره ثلاث فرق فخرّبوا بلاد الروم وقتلوا كثيراً وأحرقوا ووصلوا
إلى «أنقورية» ثم اجتمعوا في عمورية وحاصروها ونصبوا عليها
المجانيق وكانت في غاية الحصانة ، وقد ذكر الشيخ محيي
الدين ابن العربي في كتابه المسمى بالمسامرة فتح عمورية فقال :
فتحها المعتصم في رمضان سنة ثلاث وعشرين ومائتين . وسبب
فتحها أن رجلاً وقف على المعتصم فقال : يا أمير المؤمنين كنت
بعمورية وجارية من أحسن النساء سيرة قد لطمها عالج في وجهها
فنادت:وامعتصماه فقال العالج :وما يقدر عليه المعتصم يجيء على
أبلى ينصرك ؟ وزاد في ضربها فقال المعتصم :وفي أي جهة
عمورية ؟ فقال له الرجل هكذا وأشار إلى جهتها فردّ المعتصم
وجهه إليها وقال : لبيك أيتها الجارية لبيك هذا المعتصم بالله قد
أجابك ، ثم تجهّز إليها في اثني عشر ألف فرس أبلق . . . فلما
حاصرها وطال مقامه عليها جمع المنجمين فقالوا له : إننا نرى أنك
ما تفتحها إلا في زمان نضج العنب والتين ، فبعد عليه ذلك وأعتمّم
لذلك فخرج ليلة متجسّساً في العسكر يسمع ما يقوله الناس . فمر
بخيمة حدّاد يضرب نعال الخيل وبين يديه غلام أقرع قبيح الصورة
يضرب نعال الخيل ويقول : في رأس المعتصم ، فقال له معلّمه
اتركنا من هذا ما لك والمعتصم ؟ فقال ما عنده تدبير ، له كذا
وكذا يوماً على هذه المدينة مع قوته ولا يفتحها ، لو أعطاني الأمر
ما ابت غداً إلا فيها ، فتعجّب المعتصم مما سمع وأنصرف إلى
خيامه وترك بعض رجاله موكلاً بالغلام ، فلما أصبح جاءوا به ،
فقال : ما حملك يا هذا على ما بلغني منك ؟ فقال : الذي بلغك
حق ، ولّي ما وراء خبائك وقد فتح الله عمورية ، قال وليتك وخلع
عليه وقدمه على الحرب ، فجمع الرّماة واختار منهم أهل الإصابة

وجاء إلى بدن من أبدان الصور وفي البدن من أوله إلى آخره خط أسود من خشب عرضه ثلاثة أشبار أو أكثر ، فحُمى السهام بالنار وقال للرماة: من أخطأ منكم ذلك الخط الأسود ضربت عنقه ، وإذا بذلك الخط خشب ساج فعندما حصلت فيه السهام المحمية قامت النار فيه واحترق فنزل البدن وفتح الطريق أمام جنود المسلمين فدخلوا القلعة مكبرين «الله أكبر ، الله أكبر» وصار الفتح والنصر من نصيبهم وذلك قبل الزمان الذي ذكره المنجمون وفي ذلك يقول أبو تمام الطائي في قصيدة امتدح المعتصم عند فتحه عمورية :

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءٍ مِّنَ الْكُتُبِ
 فِي حَدِّهِ الْحَدِيثُ الْجَدُّ وَاللَّعِبُ
 بِيضُ الصَّفَائِحِ لِأَسْوَدِ الصَّحَائِفِ فِي
 مَتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشُّكِّ وَالرِّيْبِ

إلى آخر ما جاء في القصيدة .

ولما دخل المعتصم القلعة راكباً الفرس الأبلق ومعه الرجل الذي بلغه حديث الجارية قال له : سُرِّبِي إلى الموضع الذي رأيته فيه تصيح «وامعتصماه» ، فسار به وأخرجها من موضعها وقال لها : يا جارية هل أجابك المعتصم ؟ وملَّكها العلج الذي لطمها والسيد الذي كان يملكها وجميع ما له ، وأقام عليها خمسة وخمسين يوماً وفرق الأسرى على القواد وسار إلى طرسوس ثم رجع إلى دار ملكه»^(١) .

الاستفادة من التجارب :

لم يكن لهذا الغلام الشاب - صانع الحداد - أية ثروة علمية ، لكنه انتفع من مدرسة الحياة ، وكان قد قضى جانباً من حياته في الحدادة ، واكتسب من

(١) الفتوحات الإسلامية ج ١ ، ص ٢٥١ .

مشاهداته اليومية دروساً كبيرة ، ففرن الحدادة والفلز المنصهر وشرر النار واحتراق الخشب والاشتعال السريع لخشب الساج وما إلى ذلك من معلومات اكتسبها ذهن الحداد الشاب كوّنت في ضميره تجارب مفيدة .

فعندما عجز كبار الرجال والمتعلمون عن فتح قلعة عمورية ، وحينما بات العلماء وكبار الضباط في حيرة من أمرهم وتغلبهم اليأس والقنوط ، تدخل الغلام الشاب وحلّ هذه المعضلة بسرعة وسهولة فائقتين مستفيداً من تجاربه ومشاهداته اليومية أثناء عمله كحداد .

ومن هناك نستنتج أن هناك طريقتين أمام الفتيان لاكتساب التجارب ، الأول : من خلال دراسة ومطالعة تاريخ الآخرين والوقائع والأحداث التي عاصرت الأسلاف ، والثاني : من خلال تحليل مشاهداتهم اليومية وما يواجهونه من أحداث .

وهذان الطريقتان يؤديان إلى تنمية الفكر وتقوية النمو المكتسب لعقل الشاب .

المحاضرة التاسعة

حول : مشاعر الشاب

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تبارك وتعالى في محكم كتابه : ﴿وَإِنْ كَثُرَ لِيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ
بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(١) .

مع دخول الإنسان مرحلة البلوغ وهي مرحلة انقلابية تبدأ مشاعره
وأحاسيسه تتبلور في ذاته في نفس الوقت الذي تبدأ فيه عظامه وعضلاته وسائر
أعضاء جسمه بالنمو السريع ، وتتغير أخلاقه وطباعه كلياً .

رغبات جامحة :

إن البلوغ مرحلة تأتي لترتكب صفوة الطفولة وبراءتها وتهيج الإنسان وتخلق
فيه رغبات جامحة كما أنه خلل يعيب التوازن الطبيعي الذي كان قائماً قبل
البلوغ بين جسم الطفل وروحه ، وتبدأ كافة حركاته وسكناته وتصرفاته وأقواله
تتغير نتيجة حساسية شديدة .

أزمات عصبية :

«كلنا وقف عند هذه الحالة بشكل أو بآخر وهي أن الفتيان

(١) سورة الأنعام ؛ الآية : ١١٩ .

والفتيات يصبحون خلال مرحلة البلوغ أكثر تأثراً من الأطفال الذين لا تتجاوز أعمارهم العشر سنوات . فكلمة واحدة أو إشارة واحدة أو حتى حركة واحدة تكفي لإثارتهم وتهييج مشاعرهم . يفعلون بسرعة دون أي سبب ، الفتيات منهم يصبن أثناء البلوغ بأزمة ضحك دون مبرر تصحبها توترات وأزمات عصبية . وعندما تبرز مثل هذه الحالات فإنها تؤدي إلى إرباك حركات وتصرفات الفتيان والفتيات وتشلّ نشاطهم الفكري وتحّد من نشاطهم الثقافي» .

وكلما ازدادت حدّة الهيجانات كلما تعددت التأثيرات والانفعالات في نفوس البالغين ، فالعصبية والنفور تحلّ محل غضب الأطفال والرفاة والرحمة تحلّان محل رقة الطفولة ، حتى ان بعض حالات المحبة تشتمل على حالتي الفرح والحزن معاً» .

حالة الملنخوليا^(١) :

«إنّ حالة الملنخوليا التي لا تظهر أعراضها على الأطفال أبداً هي نتيجة الهيجانات التي تشتمل على حالتي الفرح والحزن معاً ، وهي تظهر في الـ ١٥ من العمر ، وهذه الحالة تظهر نتيجة حزن غير مبرر أو تعب وإرهاق بسيط أو انتظار مصحوب بقلق ، وكل ذلك قد يشكل أموراً تخفف عن الفتيان من الضغوط النفسية التي يعانون منها إلى حد ما» .

«إن التغييرات التي تطرأ على حالات الانفعال لدى الإنسان هي

(١) الملنخوليا : ويقال ماخول وماخوليا ومالنخ وملانكولي وماليخوليا ، وهو مرض سوداوي يصيب الدماغ ويودي بالإنسان إلى الغوص في عالم الخيال والتشاؤم وعدم الاكتراث ، وأحياناً إلى الانتحار إذا ما اشتد المرض .

نتيجة نظام جديد يطرأ على الأجهزة الهرمونية وجهاز الأعصاب لدى الإنسان ، كما لو أن جسم الإنسان قد وضع جهازاً جديداً أكثر حساسية في مواجهة الانفعالات الجديدة التي لم يكن يعرفها أو يدركها عندما كان هذا الجهاز خامداً دون عمل»^(١) .

إنّ المشاعر الحادة والرغبات التي تبرز بشكل طبيعي خلال مرحلة الشباب هي دون شك من صنع مدبّر الكون وخالقه سبحانه وتعالى ، ومن المؤكد أن لها دورها المؤثر في سعادة الإنسان .

القوة الدافعة للإنسان :

إنّ مرحلة الشباب هي مرحلة وضع أساس الحياة لبقية عمر الإنسان ، والمشاعر الحادة وغير المستقرة التي تبرز خلال هذه المرحلة تشكل دافعاً لتحركهم ونشاطاتهم ، فهم أي الشباب يقدمون على الكثير من الأعمال وغالباً ما تكون غير مدروسة ، ويواجهون ردود أفعال مختلفة عليها ، وكل ردة فعل تزيدهم تجربة وتعزز من قوة إدراكهم وترسم لهم النهج القويم للحياة .

«وسرعان ما تتولد ردة فعل لدى الشاب نتيجة ازدياد الانفعالات وطغيان المشاعر ، تدفعه إلى السيطرة على مشاعره وكبح انفعالاته . وكلما تعرض الشاب البالغ حديثاً لسيل من الانفعالات القوية والمختلفة ، كلما قويت المناعة عنده وعظمت إرادته»^(٢) .

ثروات ثمينة :

إنّ المشاعر الحماسية والعواطف الجياشة تعتبر من الثروات الثمينة لمرحلة الشباب وهذه المشاعر والعواطف تبدأ خلال مرحلة البلوغ والشباب

(١) چه ميدانم ؟ (ماذا أعرف ؟) ، البلوغ ، ص ٤٦ .

(٢) چه ميدانم ؟ (ماذا أعرف ؟) ، البلوغ ، ص ٤٧ .

بتحريك الاستعدادات الكامنة بشكل طبيعي في نفوس البشر .

بروز الاستعدادات :

فالطفل لا يعرف قيمة نفسه كإنسان ولا يعرف قيمة الثروات المعنوية الكامنة فيه قبل دخول مرحلة البلوغ ، لكنه ما أن يبلغ حتى تفتتح عواطفه ومشاعره وتولد في نفسه رغبات مختلفة تدفعه نحو التحرك وتزيد من نشاطه وفعاليته ، ومن هنا تبرز الاستعدادات الكامنة الواحدة تلو الأخرى .

اهتزاز العواطف :

«إنَّ العواطف هي عبارة عن ثروة حقيقية لروح الشباب ، فهي ضعيفة ومحدودة عند الأطفال ، بينما نرى قوة التجسّم والتخيّل لدى الشاب أكبر بكثير ، ولهذا فإن أي اهتزاز في عواطفه قد تنجم عنه عواطف مرهفة» .

«وخلال هذه المرحلة يشهد الإنسان تجديداً في مشاعره وعواطفه ، فعواطفه تجاه نفسه والديه تتلوّن بلون آخر ، وميوله العادية تفتتح وتضج ، إضافة إلى بروز مشاعر أخرى كالحب والبغض ، الإعجاب والتحقير ، حب الوطن ، أو مشاعر أُسمى من ذلك كحب الجمال وغير ذلك من المشاعر الأخلاقية والدينية»^(١) .

مشكلة تربية الشاب :

إنَّ الميول العاطفية للشباب هي من القواعد المهمة للتربية الأخلاقية والإنسانية ، ويقوم القسم الأعظم من التربية السليمة أو السقيمة للشباب على أساس أحاسيسه ومشاعره ، وينبع غالبية الشقاء أو السعادة والانتصار أو الهزيمة

(١) چه ميدانم ؟ (ماذا أعرف؟) ، البلوغ ، ص ٥٠ .

والإشباع أو الإخفاق والتوافق أو التضاد عند الشاب من عواطفه ومشاعره .

والمشكلة الكبرى في تربية الشباب هي هداية أحاسيسهم ومشاعرهم إلى الطريق السويّ الآمن . والمعلم أو المربي الكفوء هو القادر من خلال مخطط دقيق ومبرمج على تعديل الميول العاطفية للشباب وتنظيمها ، إذ عليه إشباع وإرضاء تلك الأحاسيس والعواطف بما يرضي الشاب من جهة ، ومن جهة أخرى ينبغي عليه أن يقف بوجه تمردها وجموحها .

فالرغبات النفسية والميول العاطفية هي أعنى قدرة تتحكم في نفس الإنسان وتسيطر عليه وتشده نحوها . إنّ الإنسان رجلاً كان أم امرأة ، شيخاً كان أم شاباً ، أمياً كان أم متعلماً ، وخلاصة القول جميع الناس على اختلاف طبقاتهم ينصاعون لميولهم العاطفية بنسب متفاوتة ، والعقل البشري مع كل ما يحمله من أهمية في هداية الإنسان وتوجيهه غالباً ما يقع أسير الإحساسات ، الأمر الذي يؤدي إلى كدورته .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أُسِرَ عِنْدَ هَوَى أَمِيرٍ^(١) .

وقال الإمام الصادق عليه السلام : الْهَوَى يَقْطَانُ وَالْعَقْلُ نَائِمٌ^(٢) .

أثر العاطفة في طريقة التفكير :

«إنّ الحالات العاطفية العامة التي تتحكم بنا كالأفراح والأفراح أو الحب والبغض تترك آثارها في أية لحظة كانت على طريقة تفكيرنا . فالإنسان الذي يفكر مثلاً أو يطالع أو يحكم أو يتعقل قد يكون في الوقت نفسه منغمساً تحت تأثير ميوله وأمانيه وشهواته ، فتراه إما سعيداً أو تيسياً وإما مضطرباً أو هادئاً وإما منشراحاً أو مكتئباً . ومن هنا فإن نظرة كل منا إلى الدنيا تختلف باختلاف

(١) نهج البلاغة ، الفيض ، ص ١١٧٢ .

(٢) بحار الأنوار ج ١٨ ، ص ٤٢٤ .

الحالات العاطفية والفيزيولوجية التي تتحكم بعمق مشاعرنا أثناء النشاط العقلي : وكُلُّنا يعلم أنَّ الحب والحقد والغضب والخوف كل ذلك بمقدوره إرباك حتى المنطق^(١) .

الفرق بين العقل والعاطفة :

إنَّ العقل والعاطفة عاملان مؤثران في إدارة شؤون الإنسان الحياتية ، وقدرتان مهمتان في تأمين سعادة الإنسان ورغده ، ووجود كل منهما في موقعه ضروري ولازم ، وهناك تباين بين العقل والعاطفة من حيث خصوصيات كل منهما ومجال عملهما .

فالعقل هو مصدر المعرفة البشرية ومركز التفكير . والعقل يعتمد دائماً أساس المنطق والاستدلال ويحكم في مختلف القضايا وفق معايير وحسابات صحيحة . أمَّا العاطفة فلا شأن لها بالمنطق والاستدلال ، ولا تولي أدنى اهتمام للمعايير والحسابات ، بل إنَّ هدف الدوافع العاطفية والأحاسيس هو الإثارة والتحرك وبلوغ النتيجة المرجوة سواء أتت مطابقة للمنطق والمصلحة أم منافية للاستدلال والمصلحة .

والعقل هو بمثابة السراج المنير الذي ينير ظلمة الحياة ويميز درب الهداية عن درب الضلالة والصلاح عن الفساد ، إلَّا أنَّ العاطفة هي التي تدفع بالإنسان إلى سلوك طريق الخير أو الشر ، فالميل العاطفية والرغبات النفسية هي التي تحرك الإنسان ، وتارة تراها تنصاع لنداء العقل وتنقاد إلى طريق الخير والصلاح وأخرى تتمرد عليه فتؤدي بصاحبها إلى طريق الشرِّ والوقوع في الأخطار .

قاعدة المحبة :

إنَّ العقل هو رأسمال الإنسان في سيادته وقدرته على سطح الكرة

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ١٢١ .

الأرضية ، والإنسان يستطيع بعقله حلّ رموز كتاب الخلقه وتسخير كل ما في الطبيعة لنفسه ، لكن العقل هو كالعلم والعدل جاف وبارد لا يمنح الحياة البشرية دفئاً أبداً ولا يساهم في تجاذب الناس وتعايشهم بعضهم مع البعض الآخر ، على عكس العاطفة تماماً المليئة بالوجد والدفء والنشاط ، والدوافع العاطفية هي التي تربط أواصر الناس وتجعل في نظرهم الحياة جميلة ومطلوبة .

«إن ما يدفع الإنسان إلى العمل هو العقيدة وليس المنطق ، فالعقل لا يمكنه أن يمنحنا قوة العيش وفق طبيعة الأشياء ، ولا يساهم في دفعنا إلى الأمام بل يكتفي بإنارة الدرب لنا» .

«إن سلوك المفكرين البحث في الحياة أشبه ما يكون بالمشلول الذي يُؤتى به ليشارك في مسابقة للجري ، فهو يرى ساحة الجري أمامه جيداً لكنه عاجز عن الانطلاق فيها . إننا لن ننجح في تذليل العقبات التي تعترضنا إلا إذا ما تصاعدت من أعماقنا موجة عارمة من العواطف والأحاسيس»^(١)

«إنّ العقل يستخدم المعلومات التي تملئها عليه الأعضاء الحسية من العالم الخارجي ويوفر لنا وسائل عملنا في الحياة . وقد ساهم بفضل اكتشافاته في زيادة مستوى إدراكنا وقوة تصرفنا بنمو مذهل ، وهو الذي ساهم في وصول الإنسان إلى اكتشاف المنظار الرصدي العظيم في كاليفورنيا وجبل ويلسون ، ليصل إلى عوالم أخرى تفصلها ملايين من السنين الضوئية عن المجرة ، وساهم أيضاً في اكتشاف الميكروسكوب الإلكتروني الذي يمكن بواسطته الغوص في عالم الذرات» .

(١) راه ورسم زندگی (سبل الحياة) ، ص ١١٣ .

«إذن فالعقل هو مبدع العلم والفلسفة وهو مرشد جيد إذا ما كان ممتزناً ، لكنه لا يمنحنا حس الحياة أو القدرة على العيش ، وهو ليس سوى واحد من أوجه النشاطات النفسية ، ولو نما العقل بمفرده دون أن يصاحبه نمو للعواطف والأحاسيس لفصل بين بني البشر وجردهم من إنسانيتهم» .

منشأ الاحساسات :

«تنشأ الإحساسات من الغدد الداخلية والأعصاب السمبثاوية والقلب أكثر مما تنشأ من المخ ، ويساهم الشوق والشجاعة والحب والكراهية في حثنا على تنفيذ ما خطط له العقل . ويؤدّ الخوف والغضب والحب والبغض الجرأة على العمل بواسطة الأعصاب السمبثاوية التي تعمل على غدد تدفعنا إفرازاتها إلى اتخاذ حالة العمل والدفاع أو الفرار والهجوم ، وتجعل الغدة النخامية والغدد الجنسية والكظرية الحب والشوق والحقد والكراهية أمراً ممكناً» .

«وتواصل حياة الإنسان نتيجة عمل هذه الأعضاء ، فالمنطق لا يمكنه لوحده أن يوحد بين الناس ولا هو قادر على استقطاب عطفهم أو إثارة حقدهم وبغضهم ، ولهذا فإنّ تطبيق الفضائل الأخلاقية يصبح أمراً عسيراً عندما تكون الغدد الداخلية ناقصة» .

النشاطات العاطفية :

«إنّ العقل يتمعن في ظاهر الحياة على عكس العاطفة التي تتبحر في باطنها ، يقول «باسكال» : إنّ للقلب دلالة حيث أنّه لا يعرف المنطق ، فالنشاطات العاطفية النفسية وحس الأخلاق وحس الجمال والحس الديني هي التي تبعث فينا الحيوية والبهجة وتمنحنا القدرة على الخروج من الانزواء الذاتي ومخالطة الناس

وإضمار الحب لهم والتضحية في سيلهم»^(١) .

دليل الفضيلة :

إنَّ أحدَ الفوارق المهمة بين العقل والعاطفة والذي ينبغي أن يلتفت إليه عامة الناس لا سيما جيل الشباب هو أن العقل يُشكّل بالفطرة دليل الفضيلة والطهارة ، يدعو الناس دائماً إلى الخير والصلاح ويحذرهم من الغرق في الآثام والرذائل ، أما العاطفة فلها هدف مغاير ، فهي تارة تهدي الإنسان إلى الخير والطهر وتارة أخرى تسوقه إلى ارتكاب الجرائم .

والعقل هو الحجة الإلهية وهادي البشرية ، وهو مرشد منزه يدعو الناس إلى الحق والحقيقة ، وهو جليس المعرفة التي لا تخون في الاستشارة أبداً ، إذن فاتباع العقل يبعث على السعادة والهناء ومخالفته تؤدي إلى التعاسة والشقاء ، وقد أوضح أولياء الله هذه النقطة في غير حديث وبيّنوا لأتباعهم فائدة طهارة العقل .

بلوغ الخير :

قال رسول الله ﷺ : **إِنَّمَا يُدْرِكُ الْخَيْرُ كُلَّهُ بِالْعَقْلِ**^(٢) . وعن الإمام الصادق عليه السلام قال : **حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ النَّبِيُّ ، وَالْحُجَّةُ بَيْنَ الْعِبَادِ وَبَيْنَ اللَّهِ الْعَقْلُ**^(٣) .

وقال النبي ﷺ : **اسْتَرَشِدُوا الْعَقْلَ تَرَشِدُوا وَلَا تَعْصُوهُ فَتَنْدُمُوا**^(٤) .

الناصح الأمين :

وقال الإمام علي عليه السلام : **لَيْسَتْ الرُّؤْيَةُ مَعَ الْأَبْصَارِ فَقَدْ تَكْذِبُ الْعُيُونُ**

(١) راه ورسم زندگی (سبیل الحیة) ، ص ١٣٠ .

(٢) تحف العقول ، ص ٥٤ .

(٣) الكافي ج ١ ، ص ٢٥ .

(٤) مستدرک الوسائل ج ٢٢ ص ٢٨٦ .

أَهْلَهَا وَلَا يُعْشُّ الْعَقْلُ مَنْ أَسْتَنْصَحَهُ^(١) .

وعن الإمام الصادق عليه السلام : الْعَقْلُ دَلِيلُ الْمُؤْمِنِ^(٢) .

قوة العاطفة :

في مقابل قوة العقل هناك قوى أخرى كامنة في ذات الإنسان ، يطلق عليها الأهواء والغرائز والعواطف والأحاسيس والرغبات النفسية والميول الشاذة وما إلى ذلك .

وتعتبر الميول العاطفية أكبر قدرة محرّكة للإنسان وأقوى عامل في تحريكه وإثارته ، فالعاطفة تارة تدفع بالإنسان إلى طريق الخير والصلاح وتصيح عاملاً في سمو السجايا الأخلاقية والخصال الإنسانية ، وتارة أخرى تثيره وتدفعه إلى طريق الشر والضلال وتصيح عاملاً في ارتكاب أخطر الجرائم .

مصدر الخير والشر :

إنّ الكثير من السجايا والصفات الإنسانية السامية كالعطف والشفقة والحب والعشق والتغاضي والمسامحة والعفو والمغفرة والتضحية والفداء والبذل والحنان ، تنبع بمجملها من العواطف والأحاسيس .

كما أن الكثير من الصفات الانسانية السيئة كالجريمة والقتل والخيانة والسرقة والغضب وحب الانتقام والأذى والظلم والهتك والإهانة والابتزاز والقرصنة والتخريب والتدمير والغرور والتكبر والأنانية ، تنبع هي الأخرى أيضاً من العواطف والأحاسيس .

إن الإنسان منذ اليوم الأول لولادته تصاحبه استعدادات فطرية تشكل جذوراً أساسية للميول الغرائزية والرغبات العاطفية لديه ، وتبدأ هذه الميول

(١) نهج البلاغة ، ص ٥٢٥ .

(٢) الكافي ج ١ ، ص ٢٥ .

والرغبات بالفتح الواحدة تلو الاخرى إلى جانب نمو الجسم ونمو قوة الإدراك عند الطفل بشكل يتناسب واحتياجات الحياة .

التحريك الانفعالي :

«لا يمكن ملاحظة الانفعالات المختلفة على الطفل منذ ولادته وبعدها لفترة ، وما نلاحظه في هذه الفترة هو نوع من الإثارة والهيّاج ليس إلّا ، لكن الانفعالات تبدأ بالنمو تدريجياً لتأخذ أشكالها ، وهذه الأشكال مرتبطة بالبلوغ الآلي من جهة وبالتعليم من جهة ثانية» .

«والتحريك الانفعالي للطفل في المرحلة المبكرة من عمره يرتبط باحتياجاته الفيزيولوجية ، فعندما تصطدم حاجته للطعام وتخلّصه من الألم ورغبته بالحركة بموانع ، يبدأ بالانفعال وتصدر عنه ردّة فعل كالبكاء مثلاً ، إلّا أنّ هذا الانفعال يخمد فور تلبية احتياجاته ، وهكذا تتشكل الانفعالات في نفسية الطفل»^(١) .

الأحاسيس والنمو التدريجي :

أول ما يشعر به الطفل هو الجوع والألم ، وبعد فترة يبدأ بالتبسّم ويأنس بمن حوله ، يفرح لدى رؤية البعض ويمتعض لدى رؤية آخرين ، يسرّه الغنج والدلال ويؤلمه الغضب والحدة في التعامل مما يدفعه باكياً إلى أحضان أمّه . ولا تمضي سوى فترة وجيزة حتى تولد لديه حالات الغضب والخوف ، كذلك الحسد من بعض الأطفال والتعلّق ببعضهم الآخر ، ويبرز فيه دافع التملّك وحس الجمال شيئاً فشيئاً ، وتبدأ الأشياء الملونة والملابس الجميلة تثير اهتمامه وفرحه ، ثم يتملكه حسّ الظهور والتظاهر والميل إلى العراك

(١) مبادئ علم نفسنا ، ص ١٢٠ .

والمشاجرة في محيط الأسرة أو وسط رفاقه في اللهو واللعب ، وخلاصة القول ، كلما ازداد نموه وقوة إدراكه كلما تضاعفت أحاسيسه وعواطفه .

نمو الغرائز :

تستمر الميول العاطفية والرغبات النفسية لدى الطفل بالنمو حتى مرحلة البلوغ والشباب ، عندها تفتح الغرائز الطبيعية بشكل جيد وتبلور جميع الاستعدادات العاطفية ، حتى يفرق الشاب في الأحاسيس غير العقلانية التي تأخذ بالازدياد والتوسع بشكل سريع .

تجديد الأجهزة :

«تبدأ الحساسية بالارتفاع لدى الشباب بشكل عام نتيجة صحوة قوة الحب في سني البلوغ ، وهنا تكمن المشكلة ، إذ ينبغي أن لا نتصور أن قلب الشاب هو ذاته قلب الطفل أضيف إليه الحب ، فولادة روح الحب لدى الشاب ناجمة عن تجديد في أجهزة تتعلق بقضاياهم النفسية والعاطفية أخذت تتكامل شيئاً فشيئاً^(١) .

لقد أودع الخالق سبحانه وتعالى في نفس الإنسان غرائز ورغبات من شأنها صيانة ذات الإنسان وتأمين متطلبات حياته والحفاظ على حياته الفردية والنوعية ، ووجود كل من هذه الغرائز والرغبات في موقعه المناسب ضرورة لا بد منها .

طغيان الغرائز :

إذا ما جرى تعديل مناسب للغرائز بشكل يمنع طغيانها وتمردها ، وإذا ما استخدمت الأحاسيس والعواطف بمواقعها المناسبة ومعاييرها الصحيحة ، فإن ذلك سيساهم في سعادة الإنسان فرداً ومجتمعاً وبلوغه مراحل متقدمة من

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٤٢ .

الكمال . أما إذا لم يكيح جماح الغرائز والأحاسيس وأطلق لجامها دون قيد أو شرط أو رادع ، وسمح لها بالطغيان والتمرد ، فإنها ستدفع بالمرء إلى ارتكاب جرائم كبرى ، ليصبح أكثر وحشية من أي حيوان وحشي وأكثر ضرراً من أي حيوان ضارّ . وقد أشار أولياء الله ﷺ قبل أربعة عشر قرناً إلى هذه الحقيقة النفسية المهمة ، واعترف بها علماء النفس المعاصرون اليوم صراحة .

طبيعة المعتدي :

قال أمير المؤمنين ﷺ : الشُّرُّ كائِنْ فِي طَبِيعَةٍ كُلِّ أَحَدٍ فَإِنْ غَلَبَهُ صَاحِبُهُ بَطَنَ وَإِنْ لَمْ يَغْلِبْهُ ظَهَرَ^(١) .

وعنه ﷺ : أَكْرَهُ نَفْسِكَ عَلَى الْفَضَائِلِ ، فَإِنَّ الرَّدَائِلَ أَنْتَ مَطْبُوعٌ عَلَيْهَا^(٢) .

«يعتقد العالم الفرنسي «ديدرو» أن كل الأطفال هم جناة في الأساس ، ولحسن حظنا أن قواهم الجسمية ضعيفة إلى الحد الذي لا تسمح لهم باستخدام قواهم المدمرة ضد الآخرين وضدنا»^(٣) .

النفس المتمردة :

«ويقول الدكتور «اوستاس چسر» : إن في باطن كل منا نفساً سيئة وشريرة نستطيع من خلال اكتساب العلم والتربية الصحيحة قيادتها وهدايتها، لكنها أحياناً وفي ظروف غير عادية كالحرب أو القحط مثلاً تتحرر ثانية وتتمرد من جديد»^(٤) .

(١) غرر الحكم ، ص ١٠٥ .

(٢) مستدرک الوسائل ج ٢ ، ص ٣١٠ .

(٣) العقل الكامل ، ص ١٣ .

(٤) النمو والحياة ، ص ١٣٦ .

إنَّ أولئك الذين يتحكمون بأهوائهم وميولهم الغريزية والذين يمسكون بزمام عواطفهم وأحاسيسهم ليطلقوها بالمقدار والمكان المناسبين ، هم ممن يتمتعون بإنسانية حقيقية ويحظون بسعادة بشرية .

تسخير الأهواء ؛

قال رسول الله ﷺ : أشجعُ النَّاسِ مَنْ غَلَبَ هَوَاهُ^(١) .

وعنه صَلَّى الله عليه وآله : ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ شَيْطَانٌ ، قالوا وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : وَأَنَا إِلَّا أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعَانِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ^(٢) .

تصرد الغرائز :

إن مما لا شك فيه أن الحرية المطلقة للعواطف والأحاسيس تشكل سداً منيعاً في وجه سعادة الإنسان ، فتمرد الغرائز والرغبات النفسية وإطلاقها في العنان يتنافى والنظام الاجتماعي والمدنية الإنسانية ويسوق الإنسان نحو الانحراف والسقوط .

«إنَّ الحياة لاسيما الجانب الاجتماعي منها تستوجب أن يعمل الإنسان منذ البداية على هداية غرائزه نحو تحقيق الأهداف الاجتماعية ، وينبغي على المدنية أن تعارض حرية إطلاق الغرائز ، وبعبارة أخرى نقول : مثلما يتم إقامة سدٍّ أمام مجرى للماء لتشغيل مولد ما ينبغي على المدنية أن تسيطر على الغرائز في سبيل رقي الإنسان وتحول دون التظاهر بطغيانها»^(٣) .

(١) مستدرک الوسائل ج ٢ ، ص ٣٤٥ .

(٢) الحجّة البيضاء ج ٥ ، ص ٤٩ .

(٣) أفكار فرويد ، ص ٥١ .

إطاعة هوى النفس :

قال الإمام الجواد عليه السلام : مَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ أُعْطِيَ عَذْوَهُ مُنَاهُ^(١) . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : مَنْ غَلَبَ هَوَاهُ عَلَيَّ عَقْلِهِ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ الْفَضَائِحُ^(٢) .

كلنا نعلم أنه ما من يوم يمرّ إلّا ومئات الجرائم تحدث هنا وهناك من الكرة الأرضية ، لتشوّه سمعة الإنسان بضلوعه في هذه الجرائم كالقتل والسرقة والرشوة والفساد والظلم والجور ، وتزيد آثارها ونتائجها المشؤومة من معاناة شعوب العالم بنسب أو بأخرى .

مصدر الجرائم :

إنّ الأحاسيس غير المعدّلة والرغبات المتمردة التي تسيطر دائماً على ضمير الإنسان وتدفعه نحو الرذيلة والانحراف ، هي التي تحرك الإنسان وتشوقه لارتكاب الجريمة .

دافع المجرمين :

«إن دوافع ارتكاب الجريمة يمكن أن تختلف بين أربعة مجرمين مثلاً ، فأحدهم يقتل انتقاماً من منافسه ، والآخر يقتل أحد أقاربه الذي كان يحول دون حصوله على الإرث ، والثالث امرأة تخنق طفلها لتريح نفسها من عذاب تربيته ، والرابع يسطو على منزل شيخ هرم ليسرق أثاثه دون إحداث ضجة فيقدم على قتل صاحب المنزل .
إذن لكل مجرم دافع خاص نحو الجريمة ، وهنا لا بدّ من التساؤل إن لم يكن هذا الدافع نابعاً من الإحساسات فمن أين يمكنه أن يكون ؟ .

(١) سفينة البحار ج ٢ (هوى) ، ص ٧٢٨ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٦٧٥ .

إنَّ الرغبةَ بالثأر لإهانةٍ لحقتْ بكرامةِ إنسانٍ أو بعزةِ نفسه ، أو الإقدامَ على القتلِ طمعاً في الحصولِ على ثروةٍ أو مالٍ ، وكذلك الاعتداءَ على شرفِ امرأةٍ ، كل ذلك نابع من الإحساس بحب السيطرة والتسلط . وتخدم نار الشهوة بمجرد أن يحاول رجل أن يثبت رجولته لامرأةٍ ضعيفةٍ بإجبارها على التضحية بشرفها وعفتها ، أما الحريق المتعمد فغالباً ما ينجم عن الإحساس بحب الانتقام ، وكذلك السرقة فإنها تنجم في كثير من الأحيان عن الإحساس بالحرص» .

«إذن ، كما لاحظنا، إنَّ حب التسلط والغرور واستعراض القوة والحرص والتملك وغيرها من الأحاسيس المختلفة كلها تشكل دوافع لارتكاب الجريمة»^(١) .

تعديل الأحاسيس :

إن القوة القادرة على كبح جماح الأحاسيس وتوجيهها نحو الوجهة الصحيحة المنتهية إلى السعادة ، هي العقل . والقدرة التي تستطيع تعديل الرغبات النفسية والميول العاطفية واستخدامها على أفضل وجه ، هي العقل أيضاً .

فالعقل هو مرشد منزه يمنع الإنسان من الاستسلام إلى الأحاسيس غير المباحة ، وهو حارس أمين يمنع الإنسان من الجري وراء الأهداف الخطيرة ويحفظه من الانحراف والسقوط ، وبالتالي فإن العقل هو الذي يمنع الأحاسيس من التمرد والطغيان ويردع صاحبه عن ارتكاب الجرائم .

(١) چه ميدانم ؟ ماذا أعرف ، الجناية ، ص ١٦

الخواطر المذمومة :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : لِلنَّفُوسِ خَوَاطِرٌ لِلهَوَى ، وَالْعُقُولُ تَزْجُرُ وَتَهَيُّ (١) .

وعنه عليه السلام : لِلْقُلُوبِ خَوَاطِرُ سُوءٍ وَالْعُقُولُ تَزْجُرُ عَنْهَا (٢) .

الأحاسيس المدمرة :

«إن دوافع الأعمال هي من النوع العاطفي ، وحتى أفلاطون لم يكن يعتبرها منحصرة بالجانب العقلي فقط . فنحن في الوقت الذي نحتاج فيه الإحساس نحتاج أيضاً إلى المنطق . والإحساس إذا لم يُوجَّه بواسطة العقل يكون خطيراً ، فخطر الحسد مثلاً ليس أقل من خطر مرض الطاعون ، لأن المبتلى به يحاول أن يؤذي الآخرين أكثر من أن يحاول إعانة نفسه . والحق أيضاً كالحسد يتنافى وسنن الحياة ، لأنه مدمر في طبيعته» (٣) .

إن المجتمع الذي يتغلب فيه العقل على الأحاسيس وتسير فيه ميول الناس العاطفية بما يقرره العقل ، هو مجتمع سعيد وهو مهد للعدالة والأمن ، وهو مجتمع المدينة الفاضلة ، حيث يسخر أبناء هذا المجتمع كل قواهم الحسية والعاطفية لصالح مادياتهم ومعنوياتهم ، ويبقون بفضل توجيهات العقل مصانين من الأخطار التي قد تحدق بهم خلال مسيرتهم الحياتية .

الفساد والانحراف :

أما المجتمع الذي يتغلب فيه الهوى على العقل وتسيطر فيه الميول النفسية والرغبات الغريزية على الناس ، ويلهث فيه الناس خلف الشهوات

(١) تحف العقول ، ص ٩٦ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٥٨١ .

(٣) راه ورسم زندگی (سبل الحياة) ص ١١٤ .

والغرائز دون أي دور للعقل ، فهو مجتمع فاسد ومنحرف ، وهو مجتمع غارق في الشقاء والتعاسة لا يعرف شيئاً عن العدل والإنصاف ولا عن الحق والفضيلة ، ولن يسعد بمفهوم الحياة الإنسانية والسجايا الأخلاقية .

إطاعة الهوى والانهيار :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : مَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ هَوَاهُ أَفْلَحَ ، وَمَنْ غَلَبَ هَوَاهُ عَقْلُهُ افْتَضَحَ (١) .

وعنه عليه السلام : إِنَّكُمْ إِنْ أَمَرْتُمْ عَلَيْكُمْ الْهَوَى أَصَمَّكُمْ وَأَعْدَاكُمْ وَأَرْدَاكُمْ (٢) .

العقل الضعيف والأحاسيس العادة :

هنا لا بدّ من الإشارة إلى أن العقل الضعيف والعاجر لا يستطيع التغلّب على الميول النفسية وكبح جماح الأحاسيس المتمردة للإنسان ، والعقل الكامل هو الوحيد القادر على الوقوف سداً محكماً بوجه السيل الجارف للشهوات والميول النفسية ، بقيادة عواطف الإنسان وأحاسيسه الجياشة .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : الْعَقْلُ الْكَامِلُ قَاهِرٌ يُلْطَعِ السَّوْءُ (٣) . من المؤسف أننا قلّما نجد بين بني البشر حتى بين أولئك الذين بلغوا سن الكمال ، من هم يتمتعون بعقول كاملة وقوية ، فعقول غالبية الناس هزيلة وعاجزة أمام أعاصير الأحاسيس الهوجاء ، وهي تفتقر لأدنى درجات المقاومة . وعند أية إثارة للشهوات والميول النفسية وعندما تطفئ حوافز الغضب وروح الانتقام وتجعل من كيان الإنسان ساحة للصراع ، فإن العقل يفقد تأثيره كلياً ويترك ساحة الصراع للشهوات والنزوات ، وعندها تقع مصائب وويلات لا تُحمد عقبائها .

(١) مستدرک الوسائل ج ٢ ، ص ٢٨٧ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٢٩٢ .

(٣) بحار الأنوار ج ١٧ ، ص ١١٦ .

سببات العقل :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَبَابِ الْعَقْلِ وَقُبْحِ الزَّلَّلِ (١) .

الغضب وفساد العقل :

وعنه عليه السلام : الغَضْبُ يُفْسِدُ الْأَلْبَابَ وَيُبْعِدُ مِنَ الصُّوَابِ (٢) . وعن الإمام

الصادق عليه السلام : الغضب مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ (٣) .

«إنَّ الغضب يولد البغضاء ، والبغضاء تثير روح الانتقام ، فالتفكير بالجريمة لا ينطلق بتاتا من السكون والاستقرار ، بل يولد في لحظة توتر شديد وبشكل مفاجيء ، وتتلور أحاسيس يصعب مقاومتها تحت ضغوط الرغبات والميول التي تستولي على الإنسان ، وغالباً ما تقترن هذه الأحاسيس مع اضطرابات عضوية واختلالات جسمية تؤدي إلى ثورة روحية . وفي مثل حالة الاضطراب هذه ، ما الدور الذي يمكن أن يلعبه العقل ، لا شيء غير أنه يستسلم للأحاسيس ويخفت» .

«لقد درس العالم «ريسو» في بحث حول منطق العواطف هذه المسألة واعتبرها مغايرة للمنطق العقلي ، فالعقل يأخذ من المقدمات النتائج الكلية دون انحياز ، أما الأحاسيس فتعتمد المقدمات وصولاً للهدف المنشود» .

فقدان التوازن :

«إن المرء الذي يستسلم للغضب وسياطه لا يمكنه أن يفكر أو

(١) نهج البلاغة ، الفيض ، ص ٧٠٥ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٤٩

(٣) الكافي ج ٢ ، ص ٣٠٣ .

الرغبات المجنونة :

ليست الجرائم والانحرافات الأخلاقية هي وحدها الناجمة عن الإحساسات المتحررة من كل القيود والميول الشاذة، بل إن الانحرافات المعنوية والعقائدية هي أيضاً ناجمة عن الرغبات المجنونة والأهواء النفسية، فالتعصب والعناد والتكبر والغرور وغيرها من الصفات المذمومة تشكل سداً في وجه سعادة الإنسان، وتمنعه من التفكير السديد والتمييز بين الهداية والضلال واللجوء إلى الحق والحقيقة .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

جيل الشباب والأحاسيس :

بالرغم من أن جميع بني البشر مهما اختلفت طبقاتهم وتفاوتت أعمارهم ، هم أسرى أحاسيسهم القوية وميولهم العتيدة بنسب متفاوتة وهم عرضة لخطر الضلال والانحراف ، إلا أن خطر تمرد الأحاسيس وطغيانها على جيل الشباب أكبر بكثير مما يهدد سعادتهم ومستقبلهم ، ذلك لأن الرغبة الجنسية وسائر الرغبات العاطفية تولد في ذاتهم بحلول مرحلة البلوغ وتترك تأثيرها العميق على نفوسهم ، هذا من جهة ، أما من جهة ثانية فإن عقل البالغ حديثاً لم يكتمل نموه النهائي بعد ولم يبلغ كماله الطبيعي والمكتسب ، فهو إذن

(١) چه ميدانم ؟ (ماذا أعرف) ، الجناية ، ص ١٩ .

كما لو كان عقل طفل لم يزل ضعيفاً وعاجزاً ولا يمكنه مقاومة أمواج الأحاسيس المتلاطمة ، وطبيعي أن يكون الشاب في مثل هذه الظروف على شفير هاوية قد يهوي إلى قاعها لأدنى غفلة . فلو أثير أحد الدوافع العاطفية لدى الشاب ، أو طغى أحد ميوله النفسية ، سيؤدي وبسرعة إلى تعكير صفو مزاجه ، مما قد يدفعه بسبب بساطة عقله والعجز عن التفكير بالمصلحة وما ستؤول إليه ، إلى ارتكاب ما يتعارض والمصلحة أو ارتكاب جرائم مهولة أحياناً تجلب له التعاسة والشقاء أبد الدهر .

الشاب ورقة النفس :

إن النفس الرقيقة للشباب أشبه ما تكون بمستودع بارود قابل للانفجار في أية لحظة ، وهذه النفس تكفيها شرارة صغيرة لتفجرها وتأتي على سعادة صاحبها والمحيطين به .

إن للفتيان والأحداث مزاجاً قابلاً للثورة والطغيان ومهيأً للهيّاج والتخريب ، فهم وبسبب شدة الميول العاطفية التي تعصف بهم ينظرون إلى الأشياء والأشخاص من وراء منظار الأحاسيس ، وقد تزل أقدامهم وينحرفون عن الطريق القويم بمجرد إثارة بسيطة أو صدمة نفسية .

عدم احترام الشباب :

من العوامل المهمة التي تبعث على تمرد جيل الشباب هو عدم احترام شخصية الشاب وإهانته وتحقيره . ولكي لا يغرق الفتیان قسراً في دوامة الاندفاعات العاطفية ولكي لا تثور فيهم روح الانتقام مما يدفعهم إلى ارتكاب أعمال قبيحة ومنبوذة ، ينبغي على الوالدين في المنزل والمربي في المحيط التربوي التعامل معهم بما لا يثير نفسياتهم الرقيقة والهشة ، ولا يجرح عواطفهم وأحاسيسهم كي لا يشعروا بالحقارة والدناءة ، لأن مثل هذه الحالة النفسية إن وجدت فإنها قد تثيرهم وتدفعهم إلى ارتكاب أعمال غير مباحة .

جرم الشباب :

«إن أهم الدراسات التي جرت حول الجوانب النفسية - الطيبة لجرائم الشباب وأكثرها دقة ، دراسة قام بها العالمان «هيلي وبرونر». فقد قام هذان العالمان بإجراء اختبار دقيق لـ(١٠٥) أزواج من الأطفال الذين كانوا قد ارتكبوا مخالفات كبيرة ، وقارنا بينهم وبين عدد من إخوانهم وأخواتهم ممن لم يرتكبوا خلافاً ، وذلك للكشف عن العوامل المتعلقة بالوراثة والمحيط الاجتماعي والاقتصادي ، وقد توصل هذان العالمان إلى نتيجة مفادها أن واحداً وتسعين بالمئة من الشبان المجرمين يعانون من اختلالات عاطفية ، أي أنهم من ناحية العلاقات العاطفية يشعرون بعدم استقرار وأمان كونهم لم يشعروا بالعطف والحنان ، ويعانون من ناحية الانضباط الأسروي من اختلالات عاطفية ، كما أنهم يضمرون شيئاً من الحقد والحسد وحب المنافسة لإخوة لهم ، كذلك تبدو عليهم آثار صراعات عاطفية نفسية عميقة يصحبها إحساس لا شعوري بالذنب مع رغبة في تلقي العقاب»^(١) .

العنف دون سبب :

إن مما لا شك فيه أن جانباً من طغيان الشباب وتمردهم مرده افتقارهم للعطف والحنان ، ومعاناتهم من تصرفات غير عقلانية تصدر عن أبويهم . فالتحقير والتأنيب في غير محلّهما والقسوة والعنف والاعتراض والانتقاد الذي قد يصدر عن أبوين جاهلين يغيب الشباب من الأبناء ويدفعهم إلى اتخاذ موقف معاد في مواجهة هذه التصرفات ، وقد وجّه أولياء الله سلام الله عليهم أجمعين انتقادات قوية لمثل هؤلاء الآباء والأمهات الجهلة .

(١) علم النفس الاجتماعي ، ص ٤٤٧ .

الأحاسيس الحادة :

رغم أن الأعمال المشينة والتصرفات السيئة الصادرة عن بعض الآباء والأمهات تشكل عاملاً من عوامل طغيان جيل الشباب وتمردّه ، إلا أنه لا بد من القول إن الأحاسيس الحادة والأفكار غير الناضجة للشباب أنفسهم تلعب دوراً أكثر تأثيراً في روح العداة والاستبداد التي تتلبسهم . فأصحاب العقول النيرة من الآباء والأمهات الذين يتفكرون في عواقب الأمور قد يرفضون لأبنائهم الشباب أحياناً بعض المطالب الساذجة وغير المدروسة لأنها تتعارض - حسب اعتقادهم - ومصالحهم . لكن الأبناء الشباب يعتبرون هذا الرفض إهانة لشخصيتهم ويشعرون بالخيبة والاستحقار مما يشعل نيران الغضب في نفوسهم ويدفعهم إلى ارتكاب أعمال غير عقلانية وحتى غير إنسانية أحياناً للتعويض عن الخيبة الوهم التي واجهتهم .

فالبعض يطلق لسانه توهيناً وإساءة لأبويه ، ويده تطاولاً عليهما ، والبعض الآخر يغضب ويهجر بيته وذويه كخطوة احتجاجية ، حتى ان هذا البعض يغادر أحياناً حتى مدينته تاركاً أبويه يتخبطان اضطراباً وقلقاً . والبعض من الشبان ممن هم أكثر جهلاً يرتكب أعمالاً وحشية وخطيرة لا يمكن تلافيتها ، والبعض الآخر يقدم على الانتحار نتيجة ضغوط نفسية حادة يعاني منها .

عجز العقل :

كل هذه الأعمال غير المباحة والتصرفات السيئة ناجمة عن عجز في العقل وحده في الأحاسيس والميول العاطفية لدى جيل الشباب . وطالما لم يتجاوز الشاب هذه المرحلة الحساسة وهذا الإعصار ، فإنه يظل يعاني من عدم توازن بين عقله وأحاسيسه .

الدوافع العاطفية :

هناك حقيقة مرّة لا يمكن إنكارها وهي أن غالبية الشباب يقبعون تحت

تأثير أحاسيسهم الملتهبة ، فعندما تثير الدوافع العاطفية والميول النفسية هذه الأحاسيس فإنهم لا يميزون بين خير أعمالهم وشرها بسبب قصور في الفكر وقلة في التجربة ، متجاهلين ما قد يترتب على قراراتهم الارتجالية المستعجلة من عواقب وانعكاسات . وإذا لم يتدخل الآباء والأمهات الحريصون على مستقبل أبنائهم لمعارضة هذه القرارات المتهورة والحوول دون تسرعهم وتفريطهم فإن أحداثاً غير محمودة قد تقع ، وقد يتسببون في خطوة منافية لمصلحتهم في بروز مشاكل عضال تواكب مسيرتهم الحياتية . كان لعبد الملك بن مروان عين بالمدينة يكتب إليه أخبار ما يحدث فيها ، وإنَّ علي بن الحسين عليه السلام اعتق جارية له ثم تزوجها ، فكتب العين ذلك إلى عبد الملك الذي كتب إلى علي بن الحسين عليه السلام : أما بعد فقد بلغني تزويجك مولاتك ، وقد علمت أنه كان في أكفائك من قريش من تمجد به في الصهر ، وتستنجه في الولد ، فلا لنفسك نظرت ولا على ولدك أبقيت والسلام .

اللوم في غير محله :

فكتب إليه الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام : أما بعد ، فقد بلغني كتابك تعنفي بتزويجي مولاتي وتزعم أنه قد كان في نساء قريش من أتمجد به في الصهر ، وأستنجه في الولد وأنه ليس فوق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرتقى في مجد ولا مستزاد في كرم . وإنما كانت ملك يميني ثم خرجت من ملكي فأراد الله عز وجل أمراً ألتمس به ثوابه فارتجعتها على سته ومن كان زكياً في دين الله فليس يخل به شيء من أمره ، وقد رفع الله بالإسلام الخسيصة ، وتمم به النقيصة ، وأذهب اللوم ، فلا لوم على امرئ مسلم إنما اللوم لوم الجاهلية والسلام .

فلما قرأ الكتاب رمى به إلى ابنه سليمان فقراً ، فقال : يا أمير المؤمنين لشد ما فخر عليك علي بن الحسين !! ، فقال : يا بني لا تقل ذلك فإنها ألسن بني هاشم التي تفلق الصخر ، وتغرف من بحر ، إن علي بن الحسين عليه السلام يا

بني يرتفع من حيث يتضع الناس^(١) .

الأفكار المنبوذة :

وقد ردّ الإمام السجاد عليه السلام على كتاب عبد الملك بن مروان ، مشيراً إلى المنزلة الرفيعة للنبي الأكرم عليه السلام وافتخار أبنائه به ، وموجّهاً اللوم بشكل غير مباشر إلى عبد الملك عليه السلام جهالة كلامه . واعتبر عليه السلام أفكار ابن مروان الخاطئة بأنها من بقايا الأفكار المنبوذة والمطرودة لعهد الجاهلية . وطبيعي أن يثير كتاب كهذا غضب واستياء عبد الملك وابنه سليمان .

لم يكن من اللائق والمفروض أن يوجّه عبد الملك كتاباً إلى الإمام علي بن الحسين عليهما السلام يلومه دون مرر على عمل صحيح وقانوني أقدم عليه ، ولكن بما أنه قد كتب ما كتب كان الأجدر به أن يستعد لاستلام ردّ غاية في الدقة والفظنة من الإمام عليه السلام ، ليقف عند عواقب فعلته .

تطرف الشاب :

استطاع عبد الملك الذي كان قد تجاوز مرحلة الشباب ، وبلغ عقله نموه الطبيعي ، واكتسب تجارب لا بأس بها ، استطاع إلى حد ما السيطرة على أحاسيسه ، وصيانة نفسه من الانفعالات الخطيرة ، لكن ابنه الشاب الذي كان يطوي مرحلة شبابه ، ولم يكن قد بلغ كمال النمو العقلي ، ولم يكتسب من الحياة شيئاً من التجارب ، كان من المستبعد أن يستطيع السيطرة على نفسه وتجنب الانفعال والتطرف واتخاذ المواقف الجاهلية حينما تفعل أحاسيسه .

وجاء الردّ القاطع للإمام السجاد عليه السلام بمثابة ضربة موجعة تلقّتها نفسية الأب والابن معاً ، حيث أثار فحواه غضبهما واستياءهما مع فارق بين حالتهما ، فالأب الخبير بشؤون الحياة وتجاربهها قد أخفى انفعاله ولم ينبس

(١) بحار الأنوار ج ١١ ، ص ٤٥ .

بينت شفة ، بينما لم يستطع الإبن الشاب القليل التجربة السيطرة على نفسه ،
فأنفعل وأظهر غضبه واستيائه .

الرغبة في الانتقام :

لو كان زمام الأمور بيد الإبن الجاهل الضيق التفكير لما تردد في الانتقام
إرضاءً لأحاسيسه ، ولاستخدم كل القوى العسكرية وغير العسكرية في البلاد
لإنزال أفدح الخسائر المادية والمعنوية بالإمام السجاد عليه السلام غير آبه للنتائج
السلبية التي ستمخض عن تصرفه هذا ، وذلك انتقاماً للفشل المعنوي الذي
لحق به ، لكن الأب الناضج والعامل الذي أدرك القضية بمختلف أبعادها ،
رأى بعد أن أعاد حساباته أن عواقب الانتقام من الإمام عليه السلام أكثر مرارة من ردِّ
الإمام السجاد عليه السلام على كتابه ، لأن أي مكروه كان سيلحقه بالإمام عليه السلام كان
أثار غضب الرأي العام وسخطه ، وربما دفع بالرعيّة إلى الثورة على حكومته
وإسقاطها .

دليل التعقل :

لقد توصل عبد الملك بن مروان من خلال إعادة الحسابات والتفكير ملياً
بعاقبة الأمور إلى هذه النتيجة وهي أن يتحمل أعباء الضغط النفسي الذي
أحدثته رسالة الإمام السجاد عليه السلام ، وأن يغض النظر عن الانتقام الذي يحمل
أخطاراً أكثر جسامة ، ولا بد من تحمل الهزيمة المعنوية التي لحقت به من
جراً تلك الرسالة ، لتجنب نفسه غضب الرأي العام وسخطه ، ففي ذلك
هزيمة أكبر . ومن هذا المنطلق العقلاني قرر عبد الملك التزام الصمت ،
وطلب من ابنه عدم إثارة هذا الموضوع ثانية ، وهذه الخطوة بحد ذاتها دليل
على تعقله وتدبّره .

ميزان المساواة :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : (لَيْسَ الْعَاقِلُ مَنْ يَعْرِفُ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ ، وَلَكِنْ

العاقِلَ مَنْ يَعْرِفُ خَيْرَ الشَّرِّينِ^(١) .

إن الرجل الناضج العاقل لا يفكر في إرضاء ميوله ورغباته فقط ، بل يفكر بعقله النَّيِّر بما هو أبعد من ذلك ، فهو يعمل على إرضاء هذه الميول والرغبات إلى حدٍّ لا يسبب له شقاءً ومستقبلاً مظلماً . أما الشبان فتغلب عليهم أحاسيسهم وتمنعهم من التفكير بعواقب أعمالهم ، وهذا ما يؤدي بهم إلى ممارسة أعمال قبيحة وغير مباحة وبالتالي إلى الانحراف .

وإذا ما أراد الشباب أن ينجحوا في السيطرة على عواطفهم وأحاسيسهم ، وحماية أنفسهم من الأخطاء المحتملة ، وتعديل ميولهم النفسية وإدارتها على أفضل وجه ، ينبغي عليهم أن يلتفتوا إلى النقاط المهمة التالية :

سدّ في وجه السعادة :

أولاً : على الشاب أن يعلم بأن الغرور والاستبداد وتحرّر العواطف والأحاسيس تشكّل أكبر سدّ في وجه السعادة ، والشاب الحريص على سعادته عليه أن يجهد نفسه للسيطرة على أهوائه النفسية وميوله العاطفية ، واستخدامها في موقعها المناسب وبالمقدار المناسب ، والحيلولة دون طغيانها وتمردّها .

مكافحة الصفات المذمومة :

إن تحكيم الأسس الأخلاقية وتنمية السجيا الإنسانية ومكافحة المساوىء الأخلاقية والصفات المذمومة ، إن لم تكن أكثر أهمية من تلقّي العلوم والمناهج الدراسية في إطار حياة الإنسان وسعادته ، فهي ليست أقلّ منها أهمية .

«نحن لا مانع لدينا من قضاء سنوات عديدة من عمرنا في تعلّم الحساب والتاريخ والعلوم والفلسفة وغيرها من الدروس ، وتمضية فترات زمنية طويلة في تعلّم قواعد الرياضة والعجري والسباحة وكرة

(١) بحار الأنوار ج ١٧ ، ص ١١٦ .

القدم والتزلج وكرة المضرب» .

«والشباب يقدمون برحابة صدر على امتحانات المتوسطة والاختبارات اللازمة على رخصة قيادة السيارات أو الطائرات ، إلا أنهم لم يلتفتوا بعد إلى أن تقنية مسيرة الحياة أكثر صعوبة من التنمية الفكرية» .

أهمية القرارات الحكيمة :

«إن مكافحة الغرور بحاجة إلى أسلوب أكثر علمية من مكافحة مرض التيفويد أو الكوليرا ، ومما لا شك فيه أن ترك العادات الضارة هو بصعوبة دراسة الرياضيات المتقدمة . وينبغي أن يتعلم الطفل منذ دخوله المدرسة القوانين الأساسية للحياة إلى جانب تعلمه الخط والحروف الأبجدية . فالوقاحة والحسد وإثارة الفتن هي عيوب أكبر بكثير من الجهل في علم الجغرافيا وقواعد اللغة ، واتخاذ القرارات الحكيمة وتطبيقها ليس أقل أهمية من تعلم الحساب»^(١) .

الجهاد الأكبر :

مما يؤسف له ، أن التغلب على هوى النفس وكبح جماح العواطف والأحاسيس يعتبر عملاً شاقاً وعسيراً ، وقد اعتبر النبي الأكرم ﷺ القتال والتضحية في ساحات الحرب والانتصار على العدو المسلح بأنه جهاد أصغر ، بينما وصف الصراع مع هوى النفس وهو العدو الداخلي للإنسان بأنه الجهاد الأكبر .

عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال : (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَعَثَ سَرِيَّةً فَلَمَّا رَجَعُوا قَالَ : مَرَحِبًا بِقَوْمٍ قَضَوْا الْجِهَادَ الْأَصْغَرَ وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ

(١) راه ورسم زندگي (سبل الحياة) ، ص ١١٧ .

الجهاد الأكبر . قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر قال جهاد النفس^(١) .
 ثانياً : إن القوة التي بمقدورها محاربة هوى النفس والتغلب عليه
 بمجاهدتها ومثابرتها ، هي قوة العقل . ولكي يخرج الشباب من الصراع مع
 هوى النفس فاتحين ، ويستطيعوا إدارة وهداية أحاسيسهم ، عليهم إطاعة العقل
 والامتثال لأوامره .

استشارة العقل :

فقبل الاستسلام لأية رغبة نفسية ، عليهم استشارة العقل ، فإن كانت
 منطقية فيها ، وإن كانت غير منطقية فتركها واجب . في مثل هذه الظروف يقوى
 العقل تدريجياً ويمسك بلجام النفس المتمردة ويخرجها من تمرداها وطغيانها ،
 وبذلك يضمن لصاحبه السعادة والهناء .
 قال أمير المؤمنين عليه السلام : (وَالْعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِعٌ ، وَقَاتِلْ هَوَاكَ
 بِعَقْلِكَ)^(٢) .

التعاليم الإلهية :

ثالثاً : إن هوى النفس والميول العاطفية تكون عادة في مزاج الإنسان في
 موقع الغالب ، أما العقل الذي يشكّل قوة لضبط الميول وتعديلها فيكون لدى
 عامة الناس لا سيما جيل الشباب في موقع المغلوب . وليس بمقدور العقل
 بمفرده التمييز بين صالح الشؤون الحياتية وطالحها ، ولا السيطرة على
 الأحاسيس إلى الأبد وفي كل مكان ، ولهذا بعث الله سبحانه وتعالى رسله إلى
 البشر لتأمين سعادتهم ، وجعل التعاليم الإلهية والأحكام الدينية مؤيدة للعقل .
 قال أمير المؤمنين عليه السلام : (الْعَقْلُ شَرْعٌ مِنْ دَاخِلٍ وَالشَّرْعُ عَقْلٌ مِنْ
 خَارِجٍ)^(٣) .

(١) معاني الأخبار ، ص ١٦٠ .

(٢) نهج البلاغة ، الفيض ، ص ١٢٧٥ .

(٣) مجمع البحرين ، (العقل) .

فلو أحكم الشباب منذ طلعتهم روح الإيمان في نفوسهم ، وصَبَّوْا جُلَّ اهتمامهم على التعاليم الإلهية والأحكام الدينية ، لاستطاعوا السيطرة على أحاسيسهم وصون أنفسهم من الآثام والذنوب .

الرغبة الجنسية :

إن الرغبة الجنسية هي أشد الرغبات والميول النفسية قوة لدى الشباب ، فغالبية الشباب يقعون في شراكها . لكن قوة الإيمان العظيمة هي التي أنقذت نبي الله يوسف عليه السلام الشاب وأبقته منزهاً وطاهراً في ظروف كانت فيها الغريزة الجنسية في أشد هياجها .

قال الله تبارك وتعالى في محكم كتابه : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(١) .

إذن لو استمدَّ عقل الشاب من قوة الإيمان ، واتحد الدين والعقل في حركة نحو السعادة ، لسكنت النفس المتمردة وهدأت ثورتها ، ولاستطاع الشاب إدارة أحاسيسه وعواطفه محققاً بذلك سعادة حقيقية لنفسه .

(١) سورة يوسف ؛ الآية : ٢٣ .

المحاضرة العاشرة

حول الرغبات الفطرية والمكتسبة للشباب

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾^(١) .

الرغبات الفطرية والمكتسبة :

يمكن تقسيم مجموعة الرغبات النفسية والاندفاعات العاطفية لدى الشباب إلى قسمين : الأول ، مجموعة من الميول والرغبات التي تولد بشكل طبيعي مع ولادة الإنسان ، أي أنها ميول ورغبات فطرية ، والثاني ، مجموعة من الميول والرغبات المكتسبة التي تولد نتيجة ظروف خاصة بالتربية الأسرية والبيئة الاجتماعية .

إن الغرائز الطبيعية والرغبات الفطرية تستمر بالفتح تدريجياً منذ فترة الطفولة حتى فترة البلوغ ، وتبرز الواحدة تلو الأخرى إلى حين الفعل . وتتلور هذه الغرائز والرغبات وتصحح أكثر وضوحاً وعنقواناً حالما يبلغ الطفل أو الفتى . كما أن هناك رغبات فطرية أخرى تظهر علاماتها على الشاب بمجرد بلوغه ، وتبدأ نشاطها ، منها الاندفاعات الغريزية والرغبات الشديدة تجاه الجنس الآخر

(١) سورة الاسراء ؛ الآية : ٨٤ .

وإبراز الشخصية والرغبة الملحة في الاستقلالية وحب التجمل وإبراز النفس وغيرها من الرغبات الفطرية .

الصفات الثابتة :

كما أن الرغبات المكتسبة تظهر تدريجياً بتطور التربية العائلية أو تدينها وتأثير المحيط الاجتماعي في فترة ما قبل البلوغ . وكلما تجذرت الآثار التربوية الحسنة أو السيئة في ضمير الطفل ووجدانه كلما توضحت صورة الأمانى الناجمة عنها ، وتتحول الميول والرغبات الحسنة والسيئة شيئاً فشيئاً إلى صفات ثابتة في نفس الإنسان كـرغبة العدل والإنصاف أو دافع العدوان والظلم أو الرغبة في الحب والحنان أو الشعور بالحق والعداء أو الرغبة في الجود والكرم أو البخل واللؤم وما شابهها من صفات .

ظهور نتائج التربية :

عندما يبلغ الطفل ويبدأ فترة المراهقة وتتسارع قواه الجسمية والنفسية في النضوج والنمو ، تتوضح نتائج التربية في مرحلة الطفولة سلبية كانت أم إيجابية ، وتبرز بقوة بشكل تبدو آثارها واضحة على سلوك الفتى المراهق .

فالطفل يولد وهو لا يعرف شيئاً، وذاكرته خالية من أي أثر لعلم كان أم معرفة، لكنه يحمل معه ما يخوله للتعلّم والذي أنعم به الله سبحانه وتعالى عليه ، فقد وهبه ذهنًا متفتحاً يتكامل تدريجياً ليصبح مهياً لاستقبال العلوم ، ووهبه البصر والسمع لكي يدرك من خلال المسموعات والمرئيات حقائق الأمور ويبلغ مراتب متقدمة من العلم والمعرفة .

قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١) .

(١) سورة النحل ؛ الآية : ٧٨ .

المعلم الأول للطفل :

إن أول معلم يعلم الطفل دروس الحياة ويطلع على قلبه البريء وذنه الصافي آثاراً إما حسنة أو سيئة ، هو الأب والأم . وأول عامل يجعل الطفل البريء يتسم بصفات إما حميدة أو ذميمة ، ويولد فيه ميولاً ورغبات إما مباحة أو غير مباحة ، هو التربية الأسرية .

فالطفل منذ ولادته ينمو وترعرع جسماً وروحاً في محيط أسرته ، ويوضع الحجر الأساس لتكوينه الجسمانية والأخلاقية في أحضان أبيه ، لذا فإن المثقفين الواعين والحريصين من الآباء والأمهات هم القادرون على تربية أبناء أكفأ صالحين وتقديمهم للمجتمع ، على عكس الجهلة والمهملين منهم الذين لا يقدمون إلى المجتمع سوى حفنة من الأشرار والفسقة .

إرساء قواعد الحياة :

«لا شك أن الطفل ربما تمكن في المستقبل من بناء شخصيته والانطلاق بها نحو المجد والعُلا ، ولكن قدره غالباً ما يكون مرتبطاً بأسلوب من يحتضنه ويرعاه في التربية ، ويضع له القواعد الأولى لسلوكه وأخلاقه ، ويجسّم ويصوّر له أولى توقعاته بالنسبة للحياة» .

الأسرة والتربية :

«ليس هناك أية تركيبة اجتماعية تؤثر في بناء الطفل مثل المنزل ، ففيه توضع قواعد الأخلاق . والمنزل الذي يسود فيه التفاهم والمحبة والألفة بين أفرادها ، تتهياً سبيل الكمال بنحو أسرع ، ويؤخذ بيد الطفل نحو الاعتماد على النفس وتحقيق الجدارة والكفاءة ، وتنمية روح التفاهم وحب المسؤولية في نفسه . أما المنزل الذي ينعدم فيه التفاهم والمحبة والألفة بين أفرادها فلا سبيل

للكمال ، وفيه يشعر الطفل بأنه منبوذ من قبل الجميع ، وربما كان هذا سبباً في عدم تحركه في الحياة بثقة واطمئنان ، أو أنه يصاب بصدمة خوف من كثرة ما يتعرض له من تهديد ، فيتملكه الخوف من أدنى شيء ، وهذا ما يجعله بعد فترة يخجل من نفسه ، أو أنه يتلقى معاملة من أبويه يعجز معها عن التكهن برودة فعلهما إزاء الواقع ، وهكذا يعيش الطفل دائماً حالة عصبية ، أو أنه يصبح مجرد وسيلة يتنافس عليها أبواه ، أو أنه يجد نفسه مرغماً على الدخول في منافسة عمياء للحصول على ما يبتغيه ، أو أنه يتوصل من خلال معايشرة من هم أكبر منه سناً إلى نتيجة خاطئة تقول بأن الحياة لا معنى لها إذا ما صرف الإنسان النظر عن تحقيق أمانيه وسد احتياجاته .

«والذين يُولدون في منازل ووسط أسر كالتّي أشرنا إليها آنفاً يطوون مرحلة الطفولة دخولاً إلى مرحلة البلوغ دون أن يكونوا أهلاً لارتقاء سلّم الكمال»^(١) .

بذور التربية :

إن قلب الطفل أشبه ما يكون بالأرض الخصبة المستعدة لاستقبال بذور أي نوع من النباتات ، وتوفير مستلزمات النمو والنضج لها . والسلوك الصحيح أو الخاطئ للأبوين وأسلوبهما التربوي داخل الأسرة ، بمثابة بذور تنثر في ضمير الطفل ، لتنمو تدريجياً حتى تنضج وتثمر بعد أن يتكامل نموها وتفتحها .

وتأتي ثمرة التربية الأسرية الحسنة أو السيئة على شكل رغبات إيجابية أو سلبية تستقر في ضمير ووجدان الشاب الذي لا يلبث أن يحث الخطى

(١) كتاب العقل الكامل ، ص ٢٢١ .

الإشباعها . أما نتائج التربية الأسرورية فتكون على شكل صفات حميدة أو ذميمة يتسم بها الشاب وتكون أساساً له في معايشة الناس .

حقوق الأبناء :

إن الدين الإسلامي المبين يعتبر التربية الصالحة للأبناء واحدة من المسؤوليات الملقاة على عاتق الأبوين . والتربية الصالحة للأبناء تعتبر من الواجبات التي يؤاخذُ عليها الله سبحانه وتعالى ، فهي تدخل في إطار الحقوق المترتبة على الأبوين تجاه أبنائهما .

قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام : (وَأَمَّا حَقُّ وَلَدِكَ فَإِنَّ تَعَلَّمَ أَنَّهُ مِنْكَ وَمُضَافٌ إِلَيْكَ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا بِخَيْرِهِ وَشَرِّهِ وَأَنَّكَ مَسْئُولٌ عَمَّا وَلِيْتَهُ بِهِ مِنْ حُسْنِ الْأَدَبِ وَالذَّلَالَةِ عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْمُعَوْنَةِ لَهُ عَلَى طَاعَتِهِ ، فَأَعْمَلْ فِي أَمْرِهِ عَمَلٌ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَثَابٌ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ مُعَاقِبٌ عَلَى الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِ) (١) .

مسؤولية الآباء :

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : (وَحَقُّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُحْسِنَ أَسْمَهُ وَيُحْسِنَ أَدَبَهُ وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ) (٢) .

فالتأديب والتربية في نظر أولياء الله سلام الله عليهم أجمعين من المسؤوليات الحتمية التي تقع على عاتق الإنسان ، وأحد أهم أركان سعادة الإنسان .

قال الإمام الصادق عليه السلام : (إِنْ أَجَلْتَ فِي عُمْرِكَ يَوْمَيْنِ فَاجْعَلْ أَحَدَهُمَا لِأَدَبِكَ لِتَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى يَوْمِ مَوْتِكَ) (٣) .

(١) مكارم الأخلاق ، ص ٢٣٢ .

(٢) نهج البلاغة ، الفيض ، ١٢٦٤ .

(٣) روضة الكافي ، ص ١٥٠ .

أشرف خدمة :

بالتربية السليمة للأبناء ، يقضي الآباء والأمهات أكبر دَينٍ وطني وإنساني بدمتهم ، ويؤدون أهم الواجبات الإسلامية الملقاة على عاتقهم . ويُعتبر الإسلام التربية السليمة للأبناء أشرف وأسمى خدمة يسديها الآباء والأمهات لأبنائهم ، وفي هذا المجال ورد الكثير من الروايات والأحاديث :

عن أمير المؤمنين عليه السلام : (مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَوَلَدًا نَحْلًا أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ . (١) ، (ونحلّ هنا بمعنى أهدى) .

أفضل نسب :

وعنه عليه السلام : (حُسْنُ الْأَدَبِ أَفْضَلُ نَسَبٍ وَأَشْرَفُ سَبَبٍ) (٢) .

وعن الإمام الصادق عليه السلام : (إِنَّ خَيْرَ مَا وَرَثَ الْآبَاءُ لِأَبْنَائِهِمُ الْأَدَبُ لَا الْمَالُ) (٣) .

أفضل ميراث :

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : (لَا مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ) (٤) .

أما الإمام السجاد عليه السلام فيستعين بالله سبحانه وتعالى على مسؤولية تربية الأبناء ، إذ يناجي ربه في جانب من دعائه : (وَأَعِنِّي عَلَى تَرْبِيَّتِهِمْ وَتَأْدِيبِهِمْ وَبِرِّهِمْ) (٥) .

أول فرصة :

ومن وصايا أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام : (فَبَادِرْتُكَ

(١) مستدرک الوسائل ج ٢ ، ص ٦٢٥ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٣٧٩ .

(٣) روضة الكافي ، ص ١٥٠ .

(٤) نهج البلاغة ، الفيض ، ص ١١٢٩ .

(٥) الصحيفة السجادية ، (دعاؤه لولده) .

بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبَكَ وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ^(١) .

إذن ، فالتربية الأسروية تعتبر العامل الأقوى في بناء عواطف الإنسان وتنمية رغباته وميوله . وسلوك الآباء والأمهات سواء كان إيجابياً أو سلبياً يساهم في تحديد رسم الشخصية المعنوية للأبناء ، ويأخذ بيدهم إلى طريق الهداية أو الضلال . والتربية التي يتلقاها الأبناء خلال فترة الطفولة تنعكس على تصرفاتهم وسلوكهم خلال فترة الشباب .

تأثير المحيط الاجتماعي :

إن العامل التربوي الثاني في تكوين نفسية الطفل وتنمية عواطفه وميوله ، هو الظروف التي تكتنف المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه الطفل ، فالطفل يتأثر دائماً بالمجتمع المحيط به ، وترتك عادات المجتمع والصفات الحسنة أو السيئة التي تسوده آثاراً عميقة في نفسية الطفل ، تتضح معالمها ونتائجها خلال مرحلة الشباب .

وهناك عوامل متعددة كالمحيط الاجتماعي والأخلاق والتربية العامة تترك آثاراً عميقة في نفوس الناس وأفكارهم ، كتأثير العوامل الطبيعية مثل أشعة الشمس والبرد والحر والرطوبة والجفاف وغير ذلك من عوامل على جسم الإنسان وأخلاقه أحياناً . وكل إنسان شاء أم أبى لا بد وأن يتأثر بالمحيط الاجتماعي الذي يولد ويتربص فيه .

علاقة الفرد بالمجتمع :

«إن لكل كائن ترتبط نشاطاته بناشطات الآخرين محيطاً اجتماعياً ، وكل ما يفعله وما يستطيع فعله مرتبط بما يطلبه الآخرون أو يتوقعونه منه» .

(١) نهج البلاغة ، الفيض ، ص ٩٠٣ .

«إذن ، فالكائن المرتبط بالآخرين لا يستطيع القيام بنشاط ما دون الأخذ بعين الاعتبار نشاطات الآخرين التي تعتبر في حكم الشروط الضرورية لنشاطه ، وكل حركة تصدر منه تؤثر في الآخرين . وإذا أردنا تحديد نشاطات شخص ما وتقييمها بمعزل عن نشاطات الآخرين نكون قد ابتعدنا عن الواقع» .

«كلنا قادرون على ملاحظة دور المجتمع في تكوين العادات الظاهرية للفرد ، وهذا الأمر لا يعني الإنسان وحده ، بل إن بعض الحيوانات كالكلاب والحياد تكتسب عادات جديدة نتيجة احتكاكها بالإنسان ، مما يؤدي إلى حصول تغييرات في حياتها الأولية»^(١) .

اكتساب صفات المجتمع :

إن للطفل استعداداً لتعلم أية لغة أو لهجة ، فأينما يولد ويتعرعرع ويختلط بمجتمع ذلك المحيط ، يتقن لغته بكل خصائصها ويتكلم باللهجة المتعارف عليها في ذلك المجتمع .

وللطفل أيضاً استعداد لاكتساب أي خلق حسناً كان أم سيئاً ، فهو يتحلى بصفات المجتمع الذي يربى فيه ، ومهما كانت الأخلاق السائدة في مجتمعه فإنها ستترك آثارها على نفسية الطفل لا محالة ، ويصبح في النهاية متحلياً بنفس أخلاق مجتمعه ، مكتسباً عاداته .

التعصب الأعمى :

إن الطفل الذي يتعرعرع وسط مجتمع يسود التعصب الأعمى والعادات السيئة أفراداه ، تراهم يتعصبون ويستبدون في آرائهم ومواقفهم ، والتي تجرهم

(١) مقدمه اي بر فلسفة أموزش وپرورش (مقدمة على فلسفة التربية والتعليم) ، ص ١٦ .

أحياناً إلى القتل وسفك الدماء ، لا يمكن إلا أن يكون متعصباً ومستبداً . أما الطفل الذي يترعرع وسط مجتمع يُعتبرُ حبُّ الضيافةِ وكرمها سُنةً وطنيةً ، ويُعتبر كلُّ أفراد ذلك المجتمع استضافةً الضيف من الواجبات ، لا يمكن إلا أن يتحلّى بالسخاء والكرم وحب الضيافة .

المخاصمة :

«كل طفل يولد وسط قبيلة مخاصمة لا تعتمد غير القتال لتأمين احتياجاتها ومتطلباتها ، يصبح واحداً من أفرادها ، ويتعلم بمقتضى المحيط السائد في تلك القبيلة العنف والمخاصمة . وعندما يصبح قادراً على مشاركة القبيلة قتالها ، ينهال عليه المديح والثناء ويصبح فرداً له أهميته ومكانته بين أفراد القبيلة ، أما إذا تجنب المخاصمة فإن أفراد قبيلته سيستهزئون به وينبذونه . وطبيعي أن يفسح المجال لمثل هذا الفرد في هكذا محيط لاستعراض ميوله وعواطفه المخاصمة والعدائية والتي تطفئ على سائر عواطفه وميوله الأخرى ، وبذلك ينحصر فكره كلياً بشؤون القتال ليصبح خير خلف لمجتمعه»^(١) .

تكوين الشخصية :

«إن تأثير المحيط في تكوين شخصية الإنسان مهم جداً ، فلو كان أحدنا قد وُلد وسط قبيلة من قبائل الأسكيمو لاختلفت شخصيته كلياً عما هو عليه الآن ، ولم يكن هذا الاختلاف ينحصر في نوعية الملابس أو المنازل أو طريقة الكلام أو تناول الطعام فقط ، بل لتعدى ذلك ليشمل حتى تصوّرنّا للعالم ولمكانتنا في هذا العالم . وقد أكّد الباحثون في علم معرفة الأقسام والملل حقيقة أهمية

(١) نفس المصدر ، ص ١٩ .

العامل الثقافي والاجتماعي في تكوين الشخصية»^(١) .

إن العقل الباطن للطفل يختزن كل ما يتعلمه من تربية حسنة كانت أم سيئة من قبل أسرته أو محيطه الاجتماعي ، لتصبح فيما بعد القاعدة الأساس لشخصيته الأخلاقية والإنسانية ، وآثار ذلك تظهر على سلوكه وتصرفاته بعد أن يجتاز مرحلة البلوغ ليصبح عنصراً من عناصر المجتمع .

قال جلّ وعلا : ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ .

إن سوء الأخلاق والصفات الذي يتلى به الأطفال نتيجة سوء تربية الآباء والأمهات لهم أو بسبب فساد المحيط الاجتماعي ، يعتبر من أهم المصائب التي يعاني منها الفرد والمجتمع . لأن المبتلى بسوء الأخلاق والصفات يبقى يتعذب في حياته منذ بلوغه وحتى نهاية عمره ، ويشكّل أيضاً مصدر عذاب للآخرين .

الانحرافات الأخلاقية :

«يجب أن نعلم أن الآلام الجسمية ربما كانت إزالتها أسرع من الآلام النفسية التي يمكن أن تلازم الإنسان إلى الأبد ، وإرادة الإنسان هي وحدها القادرة على إنقاذه من آلامه . فالأفراد الذين انحرفت أفكارهم وطباعهم ونفسياتهم نتيجة سوء التربية الأسروية والاجتماعية ، هم أنفسهم لا يعرفون ماذا يُعيبهم ولم لا يستطيعون أن يكونوا سعداء هائثين في حياتهم . إن الضرر الذي يلحق بنفسية الطفل وفكره خلال فترة الطفولة يجعله ذا أخلاق وسلوك غير طبيعيين في الكبر»^(٢) .

(١) مبادئ علم نفسنا ، ص ١٥٦ .

(٢) النمو والحياة ، ص ١٥ .

تعديل الميول إلى الحرية

إن الطفل يرغب بالفطرة في أن يكون حراً في تصرفاته ، يفعل ما يحلو له ، لكن هذه الحرية المطلقة ليست في صالحه . وهنا يتوجب على الآباء والأمهات الواعين السعي بكل جدٍ ورغبة إلى تعديل ميول أطفالهم ، وبذل ما بوسعهم من خلال التربية لطرد الرغبات السيئة وغير المباحة عنهم ، ومنعهم من الانحراف وعمل السوء الذي لا يجلب لهم بئير الشقاء والتعاسة .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : مَنْ كُفِّ بِالْأَدَبِ قَلَّتْ مَسَاوِيُهُ^(١) .

وعنه عليه السلام : مَنْ لَمْ يُجْهِدْ نَفْسَهُ فِي صِغَرِهِ لَمْ يَنْبُلْ فِي كِبَرِهِ^(٢) .

تغذية الجسم والروح :

ينمو جسم الطفل وروحه بموازاة بعضهما البعض . فكما ينمو جسم الطفل بسرعة ويكتسب قوة وصلابة نتيجة التغذية السليمة والرقابة الصحية ، يمكن لروحه أيضاً أن تتغذى وتزداد قوة وسلامة وتصل إلى الكمال الذي يليق بها بفضل التربية والتعليم الصحيحين .

تدعيم أسس السعادة :

وهنا يتوجب على الآباء والأمهات انتهاز فرصة طفولة أبنائهم لتدعيم أسس السعادة الأبدية لهم .

«إن معرفة الزمان الفزيولوجي (علم وظائف الأعضاء) تعطينا معلومات ثمينة تساعد على تربية وتنمية الأفراد ، وتفهمنا كيف ومتى يمكن لهذا العمل أن يكون مؤثراً» .

(١) غرر الحكم ، ص ٦٤٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٤٥ .

«ويتشكل البعد الزمني للإنسان في فترة الطفولة التي يكون نشاطه فيها دؤوباً وأكثر فاعلية . ففي هذه الفترة التي تتزايد فيها النشاطات العضوية يوماً بعد يوم ، والتي يمكن من خلالها تربية الطفل بالشكل المطلوب ، ينبغي تكريس الاهتمام حول تنمية جسم الطفل وروحه في آن واحد . على كل حال ، يجب الأخذ بعين الاعتبار في التربية الجسمية والذكورية والأخلاقية ، طبيعة أعمارنا والبعد الزمني الخاص بنا»^(١) .

هداية الرغبات :

من الوظائف المهمة الملقاة على عاتق الآباء والأمهات في مجال تربية الأطفال ، هداية رغباتهم الفطرية هداية صحيحة . فلكل طفل غرائز وميول طبيعية ، وإذا ما وُجّهت توجيهاً صحيحاً واستخدمت بشكل سليم ، فإنها ستكون عاملاً من عوامل سعادته في الحياة ، أما إذا أهملت وانحرفت عن جادة الصلاح فإنها ستجرّ عليه دون شك ويلات وأخطاراً جمّة .

«تلعب الغريزة في سلوك الأشخاص دور الوسيط . والأخلاق هي في الحقيقة عبارة عن سعي يُبذل للحصول على أرضية مناسبة لإبراز الغرائز ، ونجاح هذا المسعى ليس بالأمر اليسير طبعاً ، فالغرائز التي لا تستخدم في سبيل الإصلاح وتجديد القوى ، تجد لنفسها وبشكل تلقائي أرضية غير مناسبة لإبراز نفسها بصورة رتيبة وهمجية ، أو أنها تتحول إلى مرض نفسي»^(٢) .

الميل لإبراز الشخصية :

إنّ من الأسباب الرئيسية التي تؤدي إلى سوء سلوك الشباب وخلقهم ، هو

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ١٨١ .

(٢) الأخلاق والشخصية ، ص ١٦٠ .

خطأ يرتكبه الآباء والأمهات أو تهاون في توجيه وهداية غرائز أبنائهم وميولهم النفسية خلال فترة الطفولة .

إنَّ الميل إلى التفوق والرغبة في اكتساب القدرة والأهمية ، هما من الميول الطبيعية لأي إنسان ، ومن فروع غريزة حب الذات . فالطفل يميل من جبهة إلى جلب انتباه الآخرين نحوه واستعراض شخصيته أمام هذا وذاك ، ومن جهة أخرى يشعر في قرارة نفسه بالضعف والحقارة بسبب ضعف جسمه ، وهذا التناقض الداخلي يدفع بالطفل إلى القيام بمزيد من الحركة والنشاط ، فهو يسعى بكل ما بوسعه إلى تفجير طاقاته الكامنة ، لإبراز شخصيته وإثبات وجوده أمام الآخرين .

جلب انتباه الآخرين :

إنَّ الطفل ليفرح كثيراً لأدنى درجة من النجاح يحققها في هذا المجال . فتراه وعلامات البهجة والفرح تغمره عندما يمسك شيئاً ما بيديه الصغيرتين ، أو يسمع صوتاً آتياً من لعبة يهزّها بيديه ، أو حينما يبدأ بالوقوف لأول مرة على قدميه . وفي مثل هذه الحالات يتوقع الطفل ممن يعيشون معه الانتباه إليه ومشاركته فرحه وسروره وتشجيعه على ما حققه من تقدم .

تربية الشخصية :

إنَّ الآباء والأمهات إذا ما اهتموا بهذا الميل الفطري ، وعملوا على إرضاء ميل الطفل إلى إبراز نفسه بشكل لائق ، واعتبروه إنساناً كسائر أفراد الأسرة وأدوا له كل احترام وتقدير ، واهتموا بتصرفاته وسلوكه رغم طفوليتها دون تحقير أو استهزاء يعكّر صفو مزاجه ويجرح شعوره ، فإنهم بذلك كلّه يحققون نتيجتين مهمتين : الأولى ، أنهم تمكنوا من توجيه ميوله ورغباته الفطرية التوجيه الصحيح ، والثانية ، أنهم استطاعوا أن يجعلوا منه فرداً مستقلاً له شخصيته ومكانته .

عن النبي الأكرم (ص) : أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابكم (١) .

إنَّ الطفل الذي يتم إرضاء ميله إلى إبراز عزة نفسه وشخصيته ، ويحظى بحفاوة التكريم والاحترام ، لا يمكن أن يصاب بانهيار نفسي أو يشعر في قرارة نفسه بالحظة والحقارة ، ويبقى ليس فقط في فترة الطفولة بل وفي فترة الشباب مصاناً حتى نهاية العمر من الأعراض والعواقب السيئة الناجمة عن الإحساس بالحقارة .

الرغبة المكبوتة :

إنَّ الطفل الذي لا ينال في محيط أسرته قسطاً وافراً من الاهتمام والتقدير من قبل أبويه ، والطفل الذي يتم قمع غريزة حب الذات وإبراز الشخصية في نفسه ويتعرض إلى تحقير وإهانة بصورة دائمة ، والطفل الذي يشعر بعدم احترامه كإنسان ، أو يعتقد بأنه عالية على أسرته لا أحد يرغب في وجوده ، سيتألم ويغضب لا محالة ، ويلجأ إلى اتباع أساليب خاطئة وأحياناً خطيرة للتعويض عن الإحساس الداخلي بالحقارة وإشباع رغباته المكبوتة ، وذلك في محاولة منه لإثبات وجوده وإبراز شخصيته وجلب انتباه الآخرين إليه .

تدارك خطأ تربوي :

إذا لم يتدارك الآباء والأمهات أخطاءهم التربوية ، ولم يسارعوا إلى احترام شخصية الطفل واستغلال الفرص المناسبة لإبراز الود له ، وذلك لحل عُقده الداخلية وتوجيه غرائزه وميوله توجيهاً صحيحاً ، فإنه سيغالي في انحرافه وسلوكه المشين ، وسيواصل ارتكاب الممارسات الطفولية الخاطئة في شبابه وربما حتى نهاية عمره .

إنَّ بعض الأطفال الذين يفتقرون لاهتمام الأبوبين يشعرون بأنهم لو كانت

(١) بحاز الأنوار ج ٢٣ ، ص ١١٤ .

لديهم حاجة مشروعة يطلبونها بشكل عادي ، فإنهم لن يحصلوا عليها وسيتم تجاهلهم وتجاهل مطالبهم . لذا فهم يلجأون إلى القوة لبلوغ مرادهم وإثبات شخصيتهم ، فتراهم يصرخون ويلقون بأنفسهم أرضاً ويغلقون الأبواب بقوة ويحطمون الزجاجيات ، مُحدثين بذلك جواً من الرعب والخوف . وباختصار فهم ينالون مبتغاهم عن طريق التخريب والتدمير وإلحاق الضرر بهذا أو بذاك .

مسؤولية الوالدين :

وفي مثل هذه الحالات يتوجب على الوالدين الاهتمام بشخصية أبنائهم وأمانهم ، والاستجابة لكل حاجة يطلبونها ضمن حدود المنطق ، وذلك لمنعهم من اللجوء إلى القوة من جهة ، وإفهامهم بأن مثل هذا السلوك المرفوض لا يمكن أن يكون سبيلاً للنجاح من جهة ثانية .

«إن الطفل في بدايات حياته ربما تصور أن السبيل الوحيد لتحقيق مبتغاه هو إلحاق الأذى بنفسه وبالآخرين ، فهو يتصور على سبيل المثال أنه لو صرخ بأعلى صوت وضرب الأرض بقدمه بقوة ولطم وجهه وجرحه ، قد يثير مخاوف أبويه ويدفعهما إلى الرضوخ لمطالبه» .

توقف النمو العقلي :

«إذا كان للطفل أبوان على مستوى من الوعي والتعقل ، فإنهما سيعملان على إفهامه بأن تعامله بهذه الطريقة ليس صحيحاً ، أما إذا كانا على مستوى متدنٍ من الوعي ، ويحاولان في كل مرة عبر أساليب خاطئة زحزحة ثقته بهما ، فإن هذا السلوك الطفولي سيرسخ في ذهنه شيئاً فشيئاً ، ممّا يحدّ من رقي فكر الطفل ويتسبب في توقف نموه العقلي» .

«وإذا تربى الطفل على هذا السلوك فإنه قد يلجأ في سن الشباب

أو حتى في سن الأربعين إلى الغضب والعصية وضرب الزوجة والأطفال وسبّ وشتّم من هم تحت كفّالته، وذلك لبلوغ مراده . أما إذا دخل مثل هذا الرجل حقل السياسة ، فإنه سيقدم على قمع كل مخالفه ومعارضيه متوسلاً بالعنف الذي يشبه إلى حدّ كبير عنف سني الطفولة من ضرب وسباب وركل ، بدل أن يسعى إلى النجاح عن طريق انتهاج سبل منطقية»^(١) .

ويعمد بعض الأطفال ممن حُرّموا من اهتمام الآخرين بهم واحترامهم ، إلى التعرّض بالسخرية لبعض الأفراد مقلّدين طريقتهم في الكلام والمشى ، محاولين بذلك إضحاك الناس وجلب اهتمامهم وأنظارهم ، وقد ينجح الطفل بهذا الأسلوب الخاطيء في جلب أنظار الناس ، لكن نجاحه سوف يكون مقطعيّاً .

العادات السيئة :

إذا لم يعمد الآباء والأمّهات إلى إفهام أبنائهم بطريقة أو بأخرى بقبح سخريتهم من الناس ، ولم يسارعوا إلى تربيّتهم تربية صالحة وسليمة ، وإذا لم يحاولوا توجيه غريزة حب الذات واستعراض الشخصية في نفوسهم توجيهاً سليماً ، ومنعهم من اعتماد مثل هذا الأسلوب الخاطيء ، فإن أطفالهم سيتطبّعون تدريجياً على هذه العادات السيئة والصفات الضّارة ، ممّا سيجعلهم يتمادون في سلوكهم هذا حتى بعد البلوغ ، يُهينون الناس ويستهزئون بهم .

«يقول الدكتور هير. أ. أوفرسترايت أستاذ جامعة كاليفورنيا حول بعض الفتيان في أمريكا ممن تلقوا تربية سيئة خلال طفولتهم : إنهم يضعون في جيوبهم أحياناً علبة من السجائر التي تحمل مواد حفيفة الانفجار ، ويقدمونها لمن يرغبون أن تفجّر بهم ، أو

(١) العقل الكامل ، ص ٢٣ .

يُشبعون زهرة ما برائحة كريهة ويقدمونها لشخص ما لكي يشمها ، وذلك بهدف إضحاك الآخرين على من يشم الزهرة وعلامات الاشمئزاز والنفور ترتسم على وجهه ، أو يضعون قنبلة صوتية تحت عجلة سيارة الضيف الذي ما أن يودع المستضيفين له ويستقل سيارته لينطلق بها حتى تنفجر مُحدثة صوتاً قوياً إلى حد ما ، يُرعبه ويضحك الآخرين ، وأحياناً تراهم يعمدون إلى تمزيق أثاث الفنادق أو ملابس النساء . إنَّ البعض منهم لا يزال يرى في نفسه ذلك الصبيَّ الشيطان رغم كبر سنّه وتساقط شعره وانتفاخ بطنه»^(١) .

الشباب الرذيل :

من المؤسف جداً أنَّ هناك فتیاناً في بلداننا يعانون من مرض الرذالة وإلحاق الأذى بالناس ، فمثل هؤلاء كثيراً ما يشكلون مصدر إزعاج للناس على الطرقات وفي المراكز الاجتماعية بسبب سوء التربية التي تلقوها أثناء الطفولة . فتراهم يسخرون من المرأة والرجل والعجوز والشباب دون استثناء ، ويحتقرونهم بحركات رذيلة وألفاظ بذيئة ، واهمين أنَّ مثل هذا السلوك سيرفع من شأنهم ويبرز شخصيتهم أمام الناس ، وبالتالي سيكسبهم قدرة وأهمية ، غافلين عن أن هذا السلوك السيء ليس فقط لا يرفع من شأنهم ، بل ويزيد صاحبه حقارة وضيعة .

أيام الطفولة والحرمان :

إنَّ تحقير الطفل وحرمانه من الحنان والمحبة والنييل من شخصيته وعزّة نفسه ، وغير ذلك من أنواع الحرمان الذي يمارس ضد الطفل نتيجة سوء التربية ، تبقى آثاره في نفس الطفل حتى يصبح شاباً ، فتتبلور انعكاسات هذا

(١) نفس المصدر ، ص ٢٤ .

الحرمان وتبرز بصور مختلفة .

إنَّ بعض الشبان يظلم انناس ويقسو عليهم ، والبعض الآخر يسخر منهم ويستهزئ بهم ، وقسماً منهم يحب إلحاق الأذى بنفسه وبالآخرين ، فيما تلجأ مجموعة أخرى منهم إلى عالم الخيال والأوهام ، بينما نرى بعضاً منهم يلجأ إلى الوحدة والانزواء ، وبعضاً آخر يتصور نفسه أعلى مقاماً من الآخرين الذين يعجزون - حسب رأيه - عن إدراك ما يتمتع به من أحاسيس رفيعة . وهناك فئة من الشباب يسيطر عليها حب التملق والاستخفاف والاستذلال ، وفئة أخرى تُنمي روح العداة لمن هو أعلى منها شأنًا وسلطة دون أن يصدر عنها أي رد فعل ظاهري .

الصدّامات النفسية :

«لو فكّر كل منّا جيداً لأدرك أن نفسيته الجاهلة هي السبب في كل ما يصدر عنه من أفكار وأفعال . ففي الحقيقة لا أحد يعلم لماذا تصدر عنه مثل هذه الأفكار ولم يُقدم على مثل تلك الأعمال ، والسبب يعود إلى عدم تدخل عقولكم وإرادتكم في كل ما يصدر عنكم ، ويرجع ذلك في الأصل إلى ما تلقته نفسية الطفل وذهنه من صدمات صغيرة وبسيطة خلال مرحلة الطفولة ، مثل الأحداث والذكريات الحزينة والمؤلمة التي تركت آثاراً قوية على نفسية الطفل ، كالحرمان من الحنان والمحبة ، وتجاهل الآخرين لهم ، ورؤية المشاهد المرعبة ، والتعرّض لأذى الآخرين وما شابه ذلك . وهنا نقول : لو توصل كل منّا إلى مصدر هذه الأفكار والأعمال والتصرفات ومسبباتها ، واسترجع شريط تلك الذكريات الأليمة التي هزّت نفسيته ، لخطا خطوة نحو النجاح والتغلب على ما تعانیه نفسيته من نقص»^(١)

(١) النمو والحياة ، ص ١٧١ .

الإفراط في المحبة :

لا بد لنا من التوضيح هنا أن الإفراط في المحبة للطفل هو كحرمانه منها له نتائج السلبية . فكما أن إهانة الطفل وتحقيره وعدم احترامه وتجاهل حبه لذاته وعزة نفسه ، تترك في مجموعها أثراً سيئاً في نفس الطفل تتكشف نتائجه السيئة في شبابه ، كذلك الإفراط في المحبة للطفل وتدليله ، له أثره السيء على الطفل ، إذ يجعل منه فرداً حساساً غير متوازن نفسياً يعاني من الشقاء والتعاسة خلال شبابه .

«يرى مثل هؤلاء أنهم جديرون بكل سعادة ، ويفترضون أن الدنيا بأسرها أداة طيعة في أيديهم ، وكلما واجهوا الإحباط والفشل والحرمان يهتمون الزمان والمكان بأنهما حالاً دون تحقيق مرادهم ، حتى وإن لم يبذلوا ولو اليسير من السعي والجهد والمثابرة ، ويعتبرون أنفسهم تعساء محرومين ، فيخسرون جزءاً من معنوياتهم . ومثل هؤلاء الأفراد غالباً ما يتصورون أن الآخرين هم سبب فشلهم ، لذا فهم يتخاصمون مع الجميع ، وهذا ما يجعلهم يخسرون أصدقاءهم الواحد تلو الآخر»^(١) .

شَرُّ الآبَاء :

عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : شَرُّ الآبَاءِ مَنْ دَعَاهُ الْبِرُّ إِلَى الْإِفْرَاطِ^(٢) .

وإنَّ الطفل بحاجة ماسة إلى المحبة ولكن ليس لذلك النوع من المحبة المفرطة التي تثير رغباته وميوله .

إنَّ لكل عصر قوانين راسخة لها تأثيرها في إدارة الحياة وقيادة

(١) سلامة الروح ، ص ٥٥ .

(٢) تاريخ يعقوبي ج ٣ ، ص ٥٣ .

المجتمعات ، ولا يمكن أن تتحقق السعادة وراحة البال والخاطر إلاّ باتّباع هذه القوانين الخالدة والراسخة» .

عالم الأوهام :

«إنّ أحد تلك القوانين يقول بإمكانية أن يصل كل شخص إلى تقرير مصيره بنفسه في ظل الصبر والتحمّل والثبات إزاء الواجب . في حين أن الطفل الذي عاش فساداً ودلالاً فاو، حدّه لا يمكنه تحقيق ذلك ، فهو لم يزل يعيش في عالم وهمي غير مستقر ، ويُخَيَّل له أن باستطاعته أن يجذب رافة الجميع ومحبتهم له بابتسامة خفيفة»^(١) .

الشباب وانعدام الشخصية :

الحياة مقرونة دائماً بالصعاب والمشاكل ، والطفل الذي يواجه مثل هذه المشاكل والصعاب يسعى بنفسه إلى البحث عن سبيل لتجاوزها ، ويشغل فكره لحل كل المشاكل الواحدة تلو الأخرى بصبر وثبات ، إذا لم يجد فوق رأسه أباً وأماً جاهلين يُدلّله دون سبب ويحميانه دون حاجة . وطبيعي أن يصبح طفل كهذا عندما يبلغ مرحلة الشباب ، رجلاً فعّالاً ونشيطاً ، مقاوماً كل الصّعاب مذللاً إيّاه . على عكس الطفل المدلّل والمغرور الذي يصبح حينما يبلغ مرحلة الشباب عنصراً غير كفوء تنقصه الشخصية ، ليس بوسعه تذليل صعاب الحياة ، فتراه ينكفيء ويتقهقر أمام أواجهها المتلاطمة .

عن صالح بن عَبَّه قال : سَمِعْتُ الْعَبْدَ الصَّالِحَ الْإِمَامَ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ : يُسْتَحَبُّ غَرَامَةُ الْغُلَامِ فِي صِغَرِهِ لِيَكُونَ حَلِيمًا فِي كِبَرِهِ^(٢) .

(١) نحن وأطفالنا ، ص ٤٠ .

(٢) وسائل الشيعة ج ٥ ، ص ١٢٦ «الغرامة ما يلزم أدائه ، ومنه يستحب غرامة الصبي» مجمع البحرين ، (غرم) .

الشباب و بروز العادات :

مثلاً يعمل البلوغ على كشف الصفات الذميمة التي يتصف بها الأطفال الذين تلقوا تربية سيئة ، ويعمل على تفعيلها أكثر ، كذلك تتفاعل آثار الصفات الحميدة والسجايا الأخلاقية لدى الأطفال الذين كانت تربيتهم حسنة وتبرز بوضوح .

فالطفل الذي تربى على الخير والنزاهة والطهارة ، ونمت نفسه على صفات حميدة كحب الناس والإخلاص والصدق والعدل والإنصاف وغيرها من الصفات ، تشتد هذه الصفات في نفسه وضوحاً عندما يبلغ .

رسوخ الصفات الأخلاقية :

وتبدو هذه المسألة واضحة تماماً إذا ما استرجعنا تاريخ حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وقارنا بين مرحلة طفولته صلى الله عليه وآله وأيام شبابه ، حيث يتوضح لنا كيف تفاعلت السجايا الأخلاقية والإنسانية التي كان صلى الله عليه وآله يتحلّى بها في طفولته ، وازدادت وضوحاً خلال مرحلة الشباب . وهنا نشير إلى موقف بسيط من مواقف الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله العظيمة وذلك كمثال :

... فَلَمَّا صَارَ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ قَالَ لِأُمِّهِ حَلِيمَةَ: يَا أُمَّيْ أَيْنَ إِخْوَتِي ، قَالَتْ يَا بُنَيَّ إِنَّهُمْ يَرْعَوْنَ الْعَنَمَ الَّتِي رَزَقْنَا اللَّهُ إِيَّاهَا بِبَرَكَتِكَ ، قَالَ يَا أُمَّاهُ مَا أَنْصَفْتَنِي ، قَالَتْ كَيْفَ ذَلِكَ يَا وَلَدِي ، قَالَ: أَكُونُ أَنَا فِي الظِّلِّ وَإِخْوَتِي فِي الشَّمْسِ وَالْحَرِّ الشَّدِيدِ وَأَنَا أَشْرَبُ مِنْهَا اللَّبَنَ^(١) .

فكرة العدل والانصاف :

إنَّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كان وهو في سنِّ السابعة يتحدث مع مرضعته عن الإنصاف داخل محيط الأسرة الصغير ، وينمّي في عقله الفتى مفهوم العدل

(١) بحار الأنوار ج ٦ ، ص ٨٨ .

والإنصاف ، وعندما بلغ عليه السلام وشبَّ ترسَّخ هذا المفهوم في ذهنه أكثر ، وعمد إلى نقل هذا المفهوم من محيط الأسرة المحدود وتطبيقه على محيط مدينة مكة الواسع ، فاجتمع عليه السلام مع مجموعة من كبار رجال العرب في حلف سُمِّيَ بـ (حلف الفضول) وذلك بهدف تحقيق العدالة وتطبيق العدل الاجتماعي ، فتحالف معهم دفاعاً عن حقوق الناس ، وكان ما كان كما نقله لنا التاريخ .

حلف الفضول :

كان نفر من جرهم وقطراء يقال لهم الفضيل بن الحارث الجرهمي والفضيل بن وداعة القطوري والمفضل بن فضالة الجرهمي اجتمعوا فتحالفوا أن لا يقروا ببطن مكة ظالماً ، وقالوا لا ينبغي إلا ذلك لما عظم الله من حقها ، فقال عمر بن عوف الجرهمي :

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ألا يقرب بطن مكة ظالم
أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا فالجار والمعبر فيهم سالم

ثم درس ذلك فلم يبق إلا ذكره في قريش ، ثم إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف فتحالفوا في دار عبد الله بن جذعان لشرفه وسنّه وكانوا بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو أسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة فتحالفوا وتعاقدوا إن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، فسَمَّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول^(١) .

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ، ص ١٥ .

النفس التّوّاقة للعدل :

كان الرسول الأكرم ﷺ يتجنّب في فترة شبابه الاختلاط بالمنحرفين في ذلك العصر الجاهلي قدر الإمكان ، ويمتنع عن مجالستهم ، لكنه ﷺ شارك في هذا الحلف بكل سرور ورحابة صدر ، وتعاون مع الأشخاص الذين تعاهدوا وتوثقوا على بسط العدل ، لأن هذا الحلف جاء مطابقاً لمرامه وطباعه ﷺ ونفسه التّوّاقة للعدل .

فالذي يفكر بالعدل منذ طفولته ، ويتحدث عن الإنصاف مع مرضعته وهو ابن سبع سنين ، لا بد أن يترسخ هذا المفهوم في نفسه أكثر فأكثر عندما يصبح شاباً . وكان لا بد للرسول الأكرم ﷺ أن يستفيد من كل فرصة تسنح له ويلجأ إلى أتباع شتى الأساليب لتطبيق العدل الاجتماعي الذي يشكّل هدفاً مقدساً بالنسبة له ﷺ . وفعلاً حانت الفرصة المنتظرة عندما قرر عدد من كبار رجال مكّة بذل ما بوسعهم لتطبيق العدل ووضع حدّ للظلم والجور ، فاغتنمها رسول الله ﷺ معلناً استعداده للتعاون معهم والانضمام للحلف ، فكان ما كان .

ذكرى عظيمة :

وقد دعا الرسول الأكرم ﷺ الناس قاطبة إلى العدل منذ بعث نبياً . وقد تخطّط دعوته حدود مكّة وبلاد الحجاز وكان لها صدى واسع في جميع أنحاء المعمورة . ولم تغب ذكرى حلف الفضول عن بال رسول الله ﷺ الذي كان يتذكّرها فيسعد ويفتخر بها .

فَقَالَ جِبْنَ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى : لَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ عُمُومَتِي حِلْفًا فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَدْعَانَ مَا أُحِبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ ، وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لِأَجَبْتُ (١) .

(١) نفس المصدر ج ٢ ، ص ١٦ .

لا أحد يعلم على وجه التحديد كم مرّة نجح حلف الفضول منذ قيامه في إحقاق الحق وبسط العدل بين الناس ، ولكن هناك حالتان نوردهما بإيجاز حسبما وردت في التواريخ .

الظلمة الأولى :

السبب في هذا الحلف والحامل عليه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشترها منه العاص بن وائل وكان من أهل الشرف والقدر بمكة فحسب عنه حقه فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف عبد الدار ومخزوماً وجمحاً وسهماً وعدي بن كعب فأبوا أن يعينوا على العاص وانتهروه - أي الزبيدي - فلما رأى الزبيدي الشررقى على أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة فقال بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته بيطن مكة نائي الدهر والقفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت مكارمه ولا حرام لشوب الفاجر الغدر

والحرام بمعنى الإحترام ، فقام في ذلك الزبير بن عبدالمطلب أي مع عبدالله بن جدعان واجتمع إليه من تقدم وقيل : قام فيه العباس وأبو سفيان وتعاقدوا وتعاهدوا ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه شريفاً أو وضيعاً ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه^(١) .

الشكوى والاستغاثة :

إن رجلاً من خثعم قدم مكة معتمراً أو حاجاً ومعه بنت له جميلة فاغتصبها

(١) السيرة الحلبية ج ١ ، ص ١٥٦ .

منه نبيه بن الحجاج فقيل له : عليك بحلف الفضول، فوقف عند الكعبة ونادى يا لحلف الفضول ، فإذا هم يعنقون إليه من كل جانب وقد انتضوا أسيافهم أي جردوها يقولون : جاءك الغوث فما لك ؟ فقال : إن نبيها ظلمني في بنتي فانتزعها مني قسراً ، فساروا إليه حتى وقفوا على باب داره فخرج إليهم ، فقالوا له : أخرج الجارية فقد علمت من نحن وما تعاهدنا عليه . فقال : أفعل ولكن متعوني بها الليلة ، فقالوا: لا والله ولا شخب لقحة - أي مقدار زمن - فأخرجها إليهم^(١) .

بسط العدل :

يُعَدُّ حلف الفضول من أبرز المحطات المضيئة في حياة الرسول الأكرم ﷺ وخاصة في فترة شبابه . فالإنسان الذي يتحدث في طفولته عن العدل والإنصاف ، لم يستطع أن يقف في شبابه مكتوف اليدين أمام ظلم الأعراب آنذاك ، وهذا ما دفعه إلى المشاركة في حلف الفضول ، والتعاون مع نفر من الخيرين لبسط العدل وجعل مكة حصناً أميناً للمظلومين من أهالي مكة وزوارها .

إنَّ التربية الفردية التي يتلقاها الإنسان في فترة طفولته تلعب دوراً أساسياً في تكوين نفسيته . ويصبح الخير والشر اللذان يكتسبهما الطفل من أبويه أو من محيطه الاجتماعي أساس سلوكه في شبابه وحتى مماته . والسعيد هو ذلك الشاب الذي تلقى في طفولته تربية صالحة طاهرة ، واكتسب من أسرته ومحيطه الاجتماعي خيراً الصفات والسجايا الأخلاقية ، ومثل هذا الإنسان لا يجد أدنى مشقة في السير على طريق الصلاح والاستقامة ، وبذلك يكون قد ضمن سعادته وسعادة الآخرين من حوله .

(١) نفس المصدر ج ١ ، ص ١٥٧ .

نقاط الارتكاز:

«إنَّ لمرحلة الطفولة نقاط ارتكاز ثابتة وقوية يقوم عليها نموُّ الأحاسيس في المراحل اللاحقة . وقد لا يستطيع المرء أن يدرك أخلاق الفتى في سن البلوغ إذا لم يكن على معرفة سابقة بطفولته .

لا شك أن المحبة التي يتلقاها الطفل قبل بلوغه سن الخامسة أو السادسة ، والذكريات اللطيفة أو السخيفة التي يحملها من تلك الفترة ، ستترك آثاراً في نفسية الطفل البريئة ، تتبلور على أساسها أحاسيسه ، وتؤثر في سلوكه دون علمه وإرادته»^(١) .

وهنا ربما تساءل البعض ، هل إن الفتيان الذين تلقوا في طفولتهم تربية سيئة وتعلّموا من مربيهم دروساً في الخيانة والرديلة ، سيجدون أنفسهم أيام البلوغ والشباب يغوصون في الرديلة لا محالة ؟ ، وهل حكم عليهم أن يكونوا ضحايا تلك التربية دون أن يتمكنوا من إصلاح أنفسهم ؟ ، أم أنهم قادرون بطوع إرادتهم على نسيان ما اكتسبوه في طفولتهم من تعاليم مضلّة وطردها من نفوسهم والسعي لاكتساب التعاليم الصحيحة التي تؤمن لهم سعادتهم ، والسير على هداها في طريق الخير والصلاح ؟ .

ولحسن الحظ أن الإجابة على هذه الأسئلة من الناحيتين الدينية والعلمية تبعث على الأمل والسرور . فالشاب الذي ساءت تربيته في فترة طفولته ، وساهم مُربّ جاهل أو عالم لكنه خبيث في تضليله وانحرافه ، بإمكانه إذا ما عقد العزم على إصلاح ذاته ، أن يطهر نفسه من أدران التربية السيئة ، ويسعى لاكتساب خير التعاليم الأخلاقية والإنسانية ، ليصنع من نفسه إنساناً خلوفاً كفوفاً يطمح لبلوغ مراتب الكمال .

(١) ماذا أعرف ، البلوغ ، ص ٤٢ .

الدعوة العامة للإسلام :

إنَّ الإسلام لا يخص طائفة دون أخرى أو جيلاً دون آخر ، فهو يلزم جميع البالغين مهما اختلفت قومياتهم وجنسياتهم ومهما كانت ظروفهم التربوية ، بأداء الواجبات الدينية ، وهو يدعو عامة الشباب إلى الإيمان والتحلّي بالخلق الحميد . ولو كان من العسير إصلاح الشاب الذي تلقى تربية سيئة في طفولته ، لما دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والأخلاق الفاضلة .

ويستشف من دعوة الرسول الأكرم ﷺ لجميع البالغين مهما كانت ظروفهم التربوية نحو الطهر والفضيلة والتحلّي بالصفات الأخلاقية والإنسانية ، أن الفتيان والشباب الذين ساءت تربيتهم يمكن إصلاحهم بشيء من العزم والإرادة .

تشخيص العيوب الأخلاقية :

ينبغي على الشاب المراهق السيء الخلق أن يستعين بعقلاء الرجال وفضلاتهم لمعرفة عيوبه الأخلاقية ، والسعي لعلاجها ، كما يجب عليه أن يعتبر من سوء سلوك الآخرين ، ويستعين بعقله وفكره لإصلاح نفسه وصونها من عار الرذيلة .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : **الفِكرُ مرآةٌ صافيةٌ والاعتبارُ مُنذِرٌ ناصِحٌ وكفى أدباً لنفسك تجنّبك ما كرهته لغيرك** (١) .

وعنه عليه السلام : **مَنْ لَمْ يَهْدَبْ نَفْسَهُ فَضَحَهُ سُوءُ الْعَادَةِ** (٢) .

تجنّب الاثم :

يتوجب على كافة الناس مهما كانت أعمارهم العمل على إصلاح الذات

(١) نهج البلاغة ، الفيض ، ص ١٢٤٦ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٧١٩ .

وتجنب الآثام والاستغفار إلى الله سبحانه وتعالى من الذنوب ، لكن أداء هذا الواجب المقدس يعتبر أكثر أهمية للشباب الذين يَشْتَبون في هذه المرحلة دعائم حياتهم المستقبلية . فما أفضل أن يستفيدوا من الفرصة المتاحة لهم ويظَهروا أنفسهم من سوء التربية الذي اكتسبوه في طفولتهم ، ويعيشوا بقية عمرهم في جوٍّ مفعم بالظَّهر والخير والفضيلة .

التوبة في الشباب :

قال رسول الله ﷺ : التَّوْبَةُ حَسَنَةٌ لَكُنْهَا فِي الشَّبَابِ أَحْسَنُ (١) . ومن هذه الناحية يقول منطِق علم النفس بإمكانية الشباب من تناسي ذكريات التربية السيئة التي تلقَّوها في طفولتهم ، ومحو أي أثر لها من نفوسهم بعزم وإرادة قويين ، والتخلُّق بالصفات الحميدة والأخلاق الحسنة .

تدارك النقص :

«يقول الدكتور «اوستاس چسر» : ربما ابتليتُم خلال مرحلة الطفولة بنقائص ومشاكل نتيجة بعض العوامل المؤثرة في النمو وبناء الشخصية . ولحسن الحظ أن هذه النقائص ليست بالشيء الثابت الذي لا يمكن تداركه . فمعظمنا قادر على إزالة الآثار السلبية لمرحلة الطفولة ، وذلك من خلال العزم والإرادة . ويتوجب علينا وخاصة خلال مرحلة الشباب أن نسعى لتدارك النقائص التي ربما تكون الأحداث التي مررنا بها في حياتنا قد زرعتها في أجسامنا ونفوسنا» (٢) .

«لو كنتم قد زرعتُم في حديقة منزلكم شجرة قَرَع (كوسا) ، ورجب أحدكم ربما في حفر اسمه بعود ثقاب على ثمرة يختارها من بين

(١) مجموعة ورام ج ٢ ، ص ١١٨ .

(٢) النمو والحياة ، ص ١٦ .

ثمار الشجرة ، فهو يعلم أن أسمه المحفور سيكبر مع نمو هذه الثمرة ، ولكنه ، أي الإسم المحفور سيبدو حينما يكتمل نمو الثمرة ويحين موعد قطفها أكثر اتساعاً ، إلا أنه لم يعد واضحاً كما كان عليه من قبل . شأن ذلك شأن الآثار على نفسية الطفل ، حيث من المحتمل أن تضعف هذه الآثار وتخفت الذكريات ، إلا أن ميدان نشاطها وفعاليتها سيتسع ، ويظهر تأثيرها على الأخلاق والسلوك .

وكلنا نعلم أن القرع (الكوسا) ليس بقادر على إزالة الأثر الذي ترك على قشرته ، أما نحن ، إذا ما أردنا وعقدنا العزم ، فإننا قادرون على أن لا نسمح لتلك الآثار والذكريات العالقة في نفوسنا ، أن يكون لها أثرها السلبي على حياتنا^(١) .

مسؤولية الشباب :

يتحمل الإنسان الذي عاش طفولته في ظل تربية سليمة ، مسؤولية كبيرة في شبابه ، إذ عليه أن يحذر من ثورة شهواته وانفعالاته وتمرد سائر رغباته الفطرية ، لئلا يسوقه ذلك نحو الضلال والرذيلة .

أما الإنسان الذي عاش طفولته في ظل تربية سقيمة أربكت أخلاقه ورغباته ، فتقع على عاتقه مسؤوليتان كبيرتان ، الأولى ، السيطرة على شهواته ورغباته الفطرية وتطويعها ، والثانية ، السعي من أجل محو الصفات الذميمة التي تطبع عليها في طفولته ، وهجر العادات السيئة ، وإحلال ما هو حميد من الصفات والأخلاق والعادات محلها .

الشباب وما تقتضيه طباعهم :

على أي حال ، يتوجب على الإنسان من أي فئة كان من الفئتين اللتين مرَّ

(١) نفس المصدر ، ص ١٦٠ .

ذكرهما ، أن يعرف جيداً ما يقتضيه طبع الشاب ، وأن يفرض رقابة دقيقة على نفسه ، وعليه أن يعلم أن مرحلة الشباب مرحلة محفوفة بالشهوة والغضب والغرور والأناية والغفلة واللامبالاة ، وأن هناك أخطاراً تهدد سعادته على طول مسيرته في الحياة .

سكر الغفلة والغرور :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : سُكْرُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرُورِ أْبَعْدُ إِفَاقَةً مِنْ سُكْرِ الْخُمُورِ^(١) .

وهنا لا بدّ من توجيه نصيحة إلى الفتیان الذين عاشوا طفولتهم في ظل تربية صالحة وفي كنف أبوين صالحين ، وهي أن لا يغترّوا ، ويعتقدوا خطأً أن نتائج التربية السليمة تبقى ثابتة وراسخة في كل الأحوال والظروف .

فإذا انقاد هؤلاء في شبابهم إلى أهوائهم ورغباتهم الدفينة ، وطغت رغباتهم الفطرية ونزواتهم الغريزية على عقولهم ، فستنهار أسس التربية السليمة التي تلقّوها في طفولتهم ، وتذهب جهود سنين طويلة بذلها آباؤهم وأمهاتهم أدرج الرياح ، وينحرفوا هم عن الطريق السويّ لينزلقوا في وادي الضلالة والتعاسة والشقاء .

القرار الصائب :

وفي المقابل ننصح الفتیان الذين عاشوا طفولتهم في بيئة فاسدة ، بأن لا يسمحوا لليأس والقنوط بالسيطرة عليهم ، وأن لا يتصوّرُوا خطأً أن نتائج التربية السيئة تبقى ثابتة وراسخة في كل الأحوال والظروف .

فهؤلاء إذا ما أدركوا ما هم عليه من استعدادات معنوية وكفاءات نفسية ، وعقدوا العزم على تحقيق سعادتهم في الحياة ، ولجأوا إلى خيرة المربين

(١) غرر الحكم ، ص ٤٤٠ .

والعلماء ليكشفوا لهم أمراضهم النفسية ويشرفوا على مكافحتها ، فإنهم
سيصبحون لا محالة قادرين على تدمير أسس التربية السيئة ، والتحرر من قيود
الصفات الرذيلة والأخلاق الذميمة ، والتخلص من عواقبها المشؤومة .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : مَنْ عَرَفَ شَرَفَ مَعْنَاهُ صَانَهُ عَنْ دَنَاءَةِ شَهْوَتِهِ
وَزَوْرٍ مُنَاهُ^(١) .

(١) نفس المصدر ، ص ٧١٠ .

المحاضرة الحادية عشرة

حول الشاب وتعديل الرغبة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى في محكم كتابه : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾^(١) .

الشباب وولادة الرغبات :

إنَّ الإنسان عندما يطوي مرحلة الطفولة ويدخل مرحلة التكليف والشباب مروراً بشورة البلوغ ، تولد في ذاته رغبات مختلفة ، ويشرع الشاب المراهق بكل حيوية ونشاط ، في حركة دؤوبة لإشباع رغباته وميوله النفسية .

رغبات أيام الشباب :

تمتلك الفتى الشاب رغبة في معرفة أسرار الطبيعة وأسباب الوجود ومسبباته وخالقه ، والاطّلاع على شؤون الدين . والفتى الشاب تراه ينجذب بالفطرة إلى الحق والحقيقة والطّهر والفضيلة والعدل والإنصاف والسّموّ والسّخاء . وهو يطالب بالحرية والاستقلال الذاتي وتكوين الشخصية ، وهو يرغب أيضاً في إبراز نفسه وشخصيته . وعندما يبلغ تولد فيه رغبة جامحة

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ١٦ .

للجنس الآخر ، بحيث تطفئ الشهوة الجنسية على سائر رغباته وميوله . وتملك الفتى أيضاً رغبة شديدة في التزيّن والتجمل ، كما أنه يسعى إلى التأقلم مع المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه ليصبح عضواً فاعلاً في المجتمع ، يكذب ويشقى ليستجمع ثروة لا بأس بها . وهنا لا بد من القول: إن كل ما أشرنا إليه يدخل في إطار الرغبات التي تولد في ذات الشبان نتيجة البلوغ ، وتستولي على أفكارهم واهتماماتهم .

إن كل نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان تمثل غصناً في شجرة سعادته ، والشاب الذي يروم السعادة والهناء ، ويرغب في أن يصبح إنساناً بكل معنى الكلمة ، عليه أن يلتفت إلى رغباته الفطرية ، ويعمل على إرضاء كل منها في الوقت المناسب وبالقدر المناسب .

الكفر بالنعم :

إن الذي يبحث عن سعادته في إشباع بعض من غرائزه ورغباته فقط ، وكذلك الذي يكرس جلّ اهتمامه بميل من ميوله النفسية متجاهلاً بقية الاستعدادات الكامنة في نفسه ، إنما يظلم نفسه كإنسان ، ولن يحقق ما يليق به كإنسان من كمال وسعادة .

قال رسول الله ﷺ : مَنْ لَمْ يَرَ أَنَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ نِعْمَةً إِلَّا فِي مَطْعَمٍ أَوْ مَشْرَبٍ فَقَدْ جَهِلَ وَكَفَرَ نِعَمَ اللَّهِ وَضَلَّ سَعْيُهُ وَدَنَا مِنْهُ عَذَابُهُ^(١) .

«ينبغي أن يكون هدفنا الصحيح والعملية تنمية نفوسنا من جميع الجهات ، لا أن نحصره في اكتساب العلم وترويض الجسم والعمل وكسب المال فقط ، طبعاً لكل ما ذكرناه أهميته في مكانه وزمانه المناسبين ، ولكن الأهم من كل ذلك هو أن يفكر كل منا كيف يكون إنساناً حقيقياً»^(٢) .

(١) تحف العقول ، ص ٥٢ .

(٢) النمو والحياة ، ص ١٨ .

بناء الجسم والروح :

تعتبر فترة الشباب مرحلة تتبلور فيها شخصية الإنسان ، وهي الفرصة الذهبية - إن صحَّ التعبير - التي يبني فيها الشاب جسمه وروحه ليحيا حياة سليمة تليق به ، ويتجهَّز بكل مستلزمات الحياة . لذا يتوجب عليه استغلال هذه الفرصة لما فيه خيرهِ وصلاحيهِ ، والالتفات إلى جميع رغباتهِ وميولهِ المادية والمعنوية ، واستثمار كافة استعداداتهِ وتنشيطها بشكل متعادل يضمن له سعادته وهناءه .

تغيير الذات :

«إن مرحلة البلوغ تمنح الإنسان فرصة يستطيع من خلالها توسيع آفاقهِ وتحليل نفسه كموجود ومعرفة كل ما يتمتع به من طاقات واستعدادات ، واختيار الأفضل متاعاً له في رحلته نحو الكمال دون إرباك . إن ما يقوم به الفتى في هذه الفترة ليس لعبة صبيانية بسيطة ، بل هو أمر غاية في الجِدِّ والأهمية يتحدّد على أساسهِ مسار حياته والتزاماتهِ المستقبلية» .

«إنَّ من أهم فوائد هذه المرحلة ، هو أن الإنسان لا يتحجّم أو يتحدّد أو يواجه قيوداً على حين غرّة ، بل هو سائر إليها تدريجياً وبشكل طبيعي . وتعتبر مرحلة الشباب أفضل مرحلة لتغيير الذات ، لما يتمتع به الشاب في هذه المرحلة من قوة في التجسّم والتجسيد وحب التدقيق والتفحص . إن الأفكار الجديدة والآراء الخاصة وكل ما من شأنه أن يساهم في تحديد مستقبل الإنسان ، تبدأ في هذه المرحلة بالنمو والتفتح .

وفي هذه المرحلة بالذات تتشكل مواقفنا وحالاتنا الأساسية تجاه الحياة . وكلما تقدّم الإنسان في السن نحو الكمال ، كلما

ارتسمت أمامه ذكريات حية عاشها في مرحلة شبابه ، ذكريات قامت على أساس من الثقة بالنفس والنبل والطهارة^(١) .

حاجة الشاب للهداية :

ليس من اليسير على الشاب العمل على تعديل ميوله النفسية وقياس رغباته الغريزية وإشباع جميع رغباته الدفينة بشكل متعادل ومتناسق ، واستثمار كل طاقاته ، والتزود بما يمكنه من أن يعيش حياة سليمة ، وكل ذلك يدخل في إطار بناء الذات .

فالفتى المراهق الذي يعاني - من جهة - من قصور في النمو الطبيعي والمكتسب لعقله ، ومن جهة أخرى من وقوعه أسير فورة أحاسيسه وهياجها ، لن يكون قادراً على تحديد كل ما يصب في مصلحته ، أو تحديد طريق الفلاح الذي يضمن له سعادته . لذا عليه أن ينتفع من تعاليم الإسلام السامية ويستعين بهدي العلماء والمربين الأكفاء للسَّير في هذا الطريق المليء بالمخاطر والمزلات ، وعليه أيضاً أن يستنير بنور العلم والمعرفة لتجنب الزلل والانحراف .

الحاجة إلى المعرفة :

قال رسول الله ﷺ : مَنْ عَمِلَ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ (٢) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : يَا كَمِيلُ ، مَا مِنْ حَرَكَةٍ إِلَّا وَأَنْتَ مُحْتَاحٌ فِيهَا إِلَى مَعْرِفَةٍ (٣) .

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : الْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ لَا يَزِيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إِلَّا بُعْداً (٤) .

(١) ماذا أعرف؟ البلوغ ، ص ١٢٥ .

(٢ و٣) تحف العقول ، ص ٤٧ ، ١٧١ .

(٤) الكافي ج ١ ، ص ٤٣ .

لقد ارتأينا أن نخصص جانباً من بحثنا لبيان مسألة تعديل الميول ، ونوجهه إلى جيل الشباب ، حتى يتعرفوا على أنفسهم حق المعرفة ويطلعوا على ميولهم الباطنية حقّ اطلاع ، ويتمكنوا من إشباع كل رغباتهم الدفينة دون إفراط أو تفريط ، ويستتبروا بنور الدين والعلم وهم يسلكون الطريق نحو السعادة ، ليكونوا في مأمن من مخاطر هياج ميولهم النفسية وتمرد غرائزهم .

مصادر الرغبات :

تنشأ الرغبات الموجودة داخل كل إنسان بالفطرة من مصادر مختلفة . فجزور بعض هذه الرغبات تمتد إلى غريزة حب الذات والغريزة الجنسية وغيرها من الغرائز الفطرية ، وجزء من هذه الرغبات يولد مع بلوغ الإنسان . والبعض الآخر له علاقة بالمعرفة الفطرية والضمير الأخلاقي للإنسان ، بينما نرى بعض هذه الرغبات ينشأ عن تفكير العقل ودرجة الذكاء . وفي بحثنا هذا سنتطرق إلى كافة الميول الباطنية لجيل الشباب .

القوى المحركة :

إنّ هذه الرغبات الفطرية والميول الطبيعية تشكل القوة المحركة للإنسان في جميع مجالات الحياة . فهذه الرغبات والميول هي التي تدفع بالإنسان إلى السعي من أجل اكتساب الملذات أو طرد الآلام .

وهناك مسألة مهمة ينبغي على الشباب الالتفات إليها وهي أن القوى الدافعة والمحركة للميول والرغبات الكامنة في ذات الانسان ، لا تتساوى جميعها بالفعل والتأثير ، بحيث ان اندفاع بعضها تكون قوية جداً ، بينما تكون عند البعض الآخر متوسطة أو ضعيفة إلى حدّ ما .

ففي باطن كل شاب تكمن غريزة الشهوة والجنس من جهة ، وحب الصدق والأمانة والوفاء بالعهد من جهة ثانية ، لكن الفرق بين هذه وتلك ، هو أن دوافع الشهوة والقوى المحركة للإنسان نحو إشباع غريزته الجنسية تكون أقوى بكثير من ميوله الفطرية التي تدفعه نحو الصدق والأمانة والوفاء بالعهد .

تصاعد الغريزة الجنسية :

إن تأثير الغريزة الجنسية على نفوس الشباب أشبه ما يكون بالنار المستعرة ، فإذا ما تمرّدت وتجاوزت حدود المصلحة وتُركت طليقة دون قيود تحدّ من هياجها ، فإنها تكون قادرة على أن تحرق جذور كل الفضائل الإنسانية والسجايا الأخلاقية ، وتقضي بالتالي على سعادة الإنسان .

مركز إثارة الرغبات :

« لا بدّ للغريزة الجنسية أن تنفّذ إلى ضمير الإنسان لا سيما الفتى الشاب ، ويبدأ في داخله صراع بين الدوافع الغريزية ، لكن هذه الغريزة - أي الغريزة الجنسية - يكون لها تأثير قوي جداً يمنحها المركزية في إدارة رغبات سائر أعضاء جسم الإنسان بشكل مباشر . أما تأثيرها غير المباشر فهو أكبر من ذلك بكثير ، حيث تبدو تأثيراتها واضحة على سلوك الإنسان وخصاله ، فلو تملكك هذه الغريزة جانباً محدوداً من أحاسيس الإنسان في سن الـ ١٣ أو الـ ١٤ ، فإنها بعد مضي ثلاث أو أربع سنوات ستتملك كل أحاسيسه وجوارحه ، وتصبح مركز انطلاقٍ لجميع خصاله»^(١) .

إثارة الشهوة والغضب :

ليست الغريزة الجنسية هي وحدها أقوى من صحوة الضمير الأخلاقي والعقل ، بل تتبعها في ذلك دوافع كل الغرائز الكامنة في ذات الإنسان . ففي الحالات العادية التي يكون فيها الإنسان بعيداً عن الغرائز وفورتها ، يستطيع سماع نداء الضمير والعقل ، والتمييز بين الخير والشر ، ولكن عندما تثور

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٤٦ .

الغرائز ويطفح كيلها ،وعندما تهتز الشهوة ويهيج الغضب ، ويبدأ كل منها نشاطه ، فإن الإنسان يقع أسير صراع هذه الغرائز ، ولا يعود بمقدوره سماع نداء العقل والضمير .

تناقض الرغبات :

إن المشكلة الأساس التي يعاني منها بنو البشر عامة وجيل الشباب خاصة فيما يتعلق بمسألة إشباع الرغبات هي تناقض هذه الرغبات في ذات الإنسان . فهناك رغبات متعددة في ذاتنا ليست على وفاق فيما بينها ، وإشباع أي منها بإفراط ودون حساب ، معناه كبت أخرى ، وهذا ما يترك أثراً سلبياً على حياة الانسان وتطلعه نحو السعادة .

التقصير المضرّ والافراط المفسد :

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : لَقَدْ عَلِقَ بِنَايِطِ هَذَا الْإِنْسَانِ بَضْعَةٌ هِيَ أَعْجَبُ مَا فِيهِ وَذَلِكَ الْقَلْبُ وَلَهُ مَوَادُّ مِنَ الْحِكْمَةِ وَأَضْدَادٌ مِنْ خِلَافِهَا فَإِنْ سَنَحَ لَهُ الرَّجَاءُ أَذْلَهُ الطَّمَعُ وَإِنْ هَاجَ بِهِ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ الْجِرْصُ وَإِنْ مَلَكَهُ الْيَأْسُ قَتَلَهُ الْأَسْفُ وَإِنْ عَرَضَ لَهُ الْغَضَبُ أَشْتَدَّ بِهِ الْغَيْظُ وَإِنْ أَسْعَدَهُ الرِّضَا نَسِيَ التَّحْفُظَ وَإِنْ غَالَهُ الْخَوْفُ شَغَلَهُ الْحَدْرُ وَإِنْ اتَّسَعَ لَهُ الْأَمْنُ اسْتَلْتَبَتْهُ الْعِزَّةُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَّه الْجَزَعُ وَإِنْ أَفَادَ مَالاً أَطْغَاهُ الْغِنَى وَإِنْ عَضَّتْهُ الْفَاقَةُ شَغَلَهُ الْبَلَاءُ وَإِنْ جَهَدَهُ الْجُوعُ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ وَإِنْ أَفْرَطَ بِهِ الشُّبْعُ كَطَنَتْهُ الْبِطْنَةُ فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ مُفْسِدٌ^(١) .

تعديل الرغبات :

إنَّ السبيل الوحيد الذي يمكن من خلاله إزالة التناقض والصراع بين الرغبات والميول ، وإشباع كل من الرغبات الفطرية للإنسان في المكان والمقدار المناسبين ، هو تعديل الرغبات وتحجيم الميول الباطنية .

(١) نهج البلاغة ، الفيض ، ص ١١٢٦ .

إنَّ الإفراط في استخدام بعض الغرائز وإشباع بعض الرغبات النفسية ، غالباً ما يجرّ الشباب نحو الزلل والانحراف . والهدف من البرامج الدينية والعلمية في تربية الشباب ، هو إرشادهم إلى الطريقة الفضلى التي يمكنهم اتباعها أثناء استخدام غرائزهم أو الاستجابة لرغباتهم ، وتحذيرهم من الإفراط والتقصير لتجنّبهم مخاطر الزلل والانحراف .

ومن هنا جاء تأكيد الإسلام القاطع على تجنّب عبادة الهوى وضرورة تعديل الرغبات النفسية ، كما أن ضرورة تحجيم هذه الرغبات تعتبر من النواحي العقلية والعلمية والتربوية والأخلاقية والصحية والاجتماعية من الأصول الثابتة التي لا يمكن تجاهلها .

غضّ الطرف عن الرغبات المحرمة :

إذا أراد الإنسان أن يهنأ في عيشه ، وتكون له حياة سليمة ومستقرة ، ينبغي عليه أن يغض الطرف عن الرغبات المحرمة ، ويتجنب الأعمال اللاإنسانية ، فليس بمقدور الإنسان الذي يُفلس غرائزه ويمنح رغباته النفسية مطلق الحرية ، أن يواصل حياته الفردية والاجتماعية ، ويؤمن لنفسه سبل الفلاح والنجاح .

المطالبة بمكارم الأخلاق :

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : لَوْ كُنَّا لَا نَرْجُو جَنَّةً وَلَا نَخْشَى نَارًا وَلَا ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا لَكَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَطَالِبَ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فَإِنَّهَا مِمَّا تَدُلُّ عَلَى سَبِيلِ النَّجَاحِ (١) .

ولكي يعي الشباب ضرورة تعديل رغباتهم النفسية في كافة شؤونهم

(١) آداب النفس ج ١ ، ص ٢٦ .

الحياتية ، ويولوها قسطاً وافراً من اهتماماتهم ، أرى لزاماً أن أشير هنا وبشكل مقتضب إلى بعض النقاط .

تعديل رغبة المريض :

إنّ من الواجبات المهمة الملقاة على عاتق الأطباء في برامجهم العلاجية للمرضى ، هو السعي لتعديل رغباتهم . فالمريض يريد الشفاء من المرض والسلامة من جهة ، ويرغب في تناول مختلف أنواع الطعام من جهة أخرى ، وإذا ما أراد هذا المريض أن يلبي رغبته نحو الطعام دون قيد أو شرط ، ويتناول كل ما يثير شهيته ، فإنه يخالف بذلك رغبته في الشفاء من المرض ، لأن بعض الأطعمة مضرّة له ويزيد من شدة مرضه .

والطبيب الحكيم بمقدوره أن يدرس نفسية المريض ويحاول تعديل رغبته نحو الطعام ، فيجيز ما هو مناسب له من الطعام ويمنع عنه ما يضره منه ، ويعمله هذا يكون الطبيب قد أشبع رغبة المريض في الطعام بالمقدار المناسب أخذاً بعين الاعتبار رغبته في تحقيق الشفاء العاجل ، أي أنه استطاع من خلال البرنامج الغذائي الذي فرضه على المريض ، أن ينفي التناقض الذي كان قائماً بين رغبة المريض نحو الطعام ورغبته في الشفاء من المرض .

كذلك تعتبر مسألة تعديل رغبات الناس من واجبات المشرّع العادل للقانون لحفظ حقوق الناس وبسط العدالة الاجتماعية . فكل إنسان يحمل رغبتين متناقضتين ، إحداهما تنشُد الحرية ، والاخرى تتوق إلى الأمن والاستقرار . وإذا ما أراد الإنسان إشباع رغبته في الحرية دون قيد أو شرط ، أي أنه يفعل ما يحلوه له ، عليه أن يغض النظر عن رغبته في تحقيق الأمن والاستقرار ، لا بل يجمعها ، لأن الحرية المطلقة لا يمكن أن تلتقي مع الأمن والاستقرار .

التوازن بين الحرية والأمن :

والمشرّع العادل للقانون يجري محاسبة دقيقة يقوم على أساس نتائجها

بتعديل الرغبة في الحرية . فيجيز للإنسان ممارسة حريته الفردية ضمن إطارها الصحيح وبالشكل الذي لا يتعارض والأمن الاجتماعي ولا يتضارب مع حرية الآخرين . ويكون بعمله هذا قد حقق رغبة الانسان في التحرر والحرية بالمقدار السليم ، وحافظ على رغبته في التعم بالامن والاستقرار ، وأزال كل تناقض بين هاتين الرغبتين .

رغبة اللذة والسلامة :

إن من توجيهات عقل الإنسان ، تعديل الرغبات . فالإنسان يرغب من جهة في الاستمتاع بملذات الحياة، ومن جهة أخرى يرغب في المحافظة على سلامته ونشاطه . إذن هناك تناقض بين الرغبتين ، فبعض الملذات كسكره الهيروثين والكحول وغيرها لا يمكن أن يتوافق مع رغبة الإنسان في البقاء سالماً نشيطاً معافى ، وفي مثل هذه الحالات يتدخل العقل لتعديل رغبة اللذة ، فيقنع الإنسان بالاستمتاع بالملذات المفيدة أو على الأقل غير الضارة ، ويحذره من الإتيان بالضارة منها . ويكون العقل بتوجيهه هذا قد ضمن إشباع رغبة اللذة بالمقدار السليم ، وحافظ على رغبة الإنسان في ديمومة سلامته ونشاطه ، وبالتالي نافية كل تناقض بين الرغبتين .

ونستنتج من خلال الأمثلة الثلاثة التي أوردناها ضرورة تعديل الرغبات من الناحية الطبية والصحية والاجتماعية والعقلية . كما أن هناك ضرورة حتمية لتحديد هوى النفس في شتى مجالات الحياة ، لأننا من دون ذلك لا يمكننا أن نهنا بحياة سليمة إن على الصعيد الفردي أو الاجتماعي .

ميل الشاب إلى المكارم :

ومن الميول والرغبات الاخرى التي يحملها الشاب في نفسه ، ميله نحو السجاياء والصفات الإنسانية والأخلاقية . فالشاب يميل بفطرته لأن يكون إنساناً بكل معنى الكلمة ، ويرغب في أن يعيش على الطهر والنزاهة والشرف ، وأن ينال سعادة حقيقية في حياته . ومما لا شك فيه أن هذه الرغبة الإنسانية السامية

لن تتحقق ما لم يجتنب الإنسان ارتكاب الآثام والرذائل ويمسح في نفسه كل الرغبات اللإنسانية .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : مَنْ أَحَبَّ الْمَكَارِمَ اجْتَنَبَ الْمَحَارِمَ (١) .

الاسلام وتعديل الرغبات :

لقد جاء الدين الإسلامي الحنيف ليهدي المجتمعات البشرية إلى طريق الفلاح والسعادة ، ويصنع من الإنسان إنساناً حقيقياً . كما أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قد عمل في ظل التعاليم الإلهية وما زالت أحاديثه الشريفة تعمل على تعديل الميول النفسية والرغبات الباطنية للإنسان ، وجعل الإنسان يُرضي كل رغباته بالمقدار السليم وفي حدود المصلحة .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يَا عِبَادَ اللَّهِ أَنْتُمْ كَالْمَرْضَى وَرَبُّ الْعَالَمِينَ كَالطَّيِّبِ ، فَصَلِّحُ الْمَرْضَى فِيمَا يَعْلَمُ الطَّيِّبُ وَتَدْبِيرُهُ بِهِ لَا فِيمَا يَشْتَهِيهِ الْمَرِيضُ وَيَقْتَرِحُهُ ، أَلَا فَسَلِّمُوا اللَّهَ أَمْرَهُ تَكُونُوا مِنَ الْفَائِزِينَ (٢) .

ضرورة تعديل الرغبات :

كما هو الحال بالنسبة للمريض الذي يطيع أوامر الطبيب ويلتزم بوصفته الغذائية ابتغاء الشفاء والسلامة ، والمواطن الذي يطيع القانون ويحد من حريته ابتغاء الأمن والاستقرار ، والإنسان الذي يُحكّم عقله ويجتنب الملذات الضارة والهدامة ، كذلك ينبغي على كافة أبناء البشر الاقتداء بالتعاليم الإلهية ، وتخليص نفوسهم من شرك الرغبات التي هي أساس كل الآثام والرذائل ، وذلك من أجل تحقيق الكمال المعنوي واكتساب أسمى الصفات الإنسانية .

ولا بدّ للإنسان أن يسعى إلى تعديل كل الميول والرغبات والغرائز التي يحملها في نفسه ، كغريزة حبّ الذات والغريزة الجنسية والرغبة في الانتقام والرغبة في اكتناز المال والميل لبلوغ منصب أو مقام والرغبة في الحرية والتحرّر

(١) إرشاد المفيد ، ص ١٤١ .

(٢) مجموعة ورام ج ٢ ، ص ١١٧ .

والرغبة في إبراز الشخصية والاستقلال ، وغيرها من الميول والرغبات ، وعليه أيضاً أن يسعى إلى إرضاء كل منها وفق مقاييس دقيقة دون تفریط أو تقصير ، وأن يتجنب الإفراط في إرضاء إحداها على حساب الاخرى ، لأن ذلك يتنافى وسعادة المرء وصلاحه .

اشباع كل الرغبات :

ولكي يطلع الشاب على طبيعة نفسه والتضاد القائم بين ميوله ورغباته النفسية ، ويقنع بضرورة تعديلها ، لا بد لنا هنا من أن نتطرق في بحثنا ولو بشكل مختصر إلى الغريزة الجنسية ، ونلفت انتباه الشباب إلى بعض الأخطار التي قد تسببها لهم هذه الغريزة في حياتهم ، وفي ضوء هذا البحث سيتحدد وضع سائر الغرائز الاخرى .

اشباع الغريزة ضمن حدود المصلحة :

إنَّ غريزة الشهوة الجنسية هي من أقوى الغرائز وال ميول التي مُنحت للإنسان بحكمة إلهية ، فإذا ما تم تعديل هذه الغريزة الجامحة بشكل صحيح ، وتم إشباعها في مكانها المناسب ، فإنها توفر للإنسان لذة ما بعدها لذة ، وتساهم في الحفاظ على نسل البشر . أما إذا أفلت لجامها وسُمح لها بالتمرد والطغيان متجاوزة حدود المصلحة ، فإنها ستسبب في مفاسد عظيمة لا يمكن تحاشيها تؤدي بالإنسان إلى الشقاء والسقوط .

وإذا ما حَجَّم الانسان غريزته الجنسية ، واستعملها في مكانها وضمن إطارها ، فلن يكون ثمة تضادَ بينها وبين بقية غرائز الإنسان ورغباته ، ويصبح بمقدور الشاب استعمال غريزته الجنسية وإشباع سائر ميوله الفطرية .

ولكن إذا لم يعمل الإنسان على تعديل غريزته الجنسية وأراد أن يستعملها بحرية وبالطريقة التي تحلوه ، عندها سيبدأ صراع الرغبات والغرائز ، وبما أن الغريزة الجنسية هي أقوى الغرائز لدى الإنسان ، فلا شك أن هذا الصراع سينتهي لصالح هذه الغريزة وضد غيرها من الغرائز الفطرية للإنسان .

رغبة مكارم الأخلاق :

إنَّ الشاب يميل بفطرته الإنسانية إلى الصدق والحقيقة والاستقامة والعدل والإنصاف وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وغير ذلك من مكارم الأخلاق . وتنشأ هذه الرغبات الإنسانية الفاضلة من الضمير الأخلاقي والإلهام الإلهي . وقد خلق الله سبحانه وتعالى هذه الرغبات النبيلة في ذات الإنسان ليعمل بها ويبني حياته على أساس متين من الصفات الحميدة ، ليكون إنساناً حقيقياً يسير نحو الكمال والسعادة .

كبح الميول الانسانية :

ولكن هذه الشهوة أو الغريزة إذا لم يتم تعديلها ، وأخذت تعصف متمردةً في ذات الشاب ، وبدأت الدوافع الجنسية تدفعه للعمل على إشباعها ، فإن ذلك سيساهم في كبت سائر الرغبات والميول الإنسانية والأخلاقية في ضميره ، مما قد يدفعه إلى الكذب والافتراء وخيانة الأمانة والنكث بالعهد والجريمة وغير ذلك من الرذائل والآثام ، إرضاءً لزوجاته وغرائزه العابرة ، محطماً ركنين مهمين في الحياة ، الفضيلة والسعادة .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : كَمْ مِنْ لَذَّةٍ دَنِيَّةٍ مَنَعَتْ سَنِيَّ دَرَجَاتٍ^(١) .

إن الشاب يميل بطبيعته إلى عزة النفس والنبيل ، ولا يرضى بأدنى إهانة أو تحقير . وهذا الدافع الطبيعي هو الذي يدفع به للعمل من أجل إحراز شخصيته وعزة نفسه في المجتمع ، وهو الذي يُحول دون خضوع الشاب للذل والهوان .

ومن هنا ، فإن الشاب الذي يعجز عن تعديل غريزته الجنسية والسيطرة على شهواته ، يبدو من المستبعد أنه يقدر على إرضاء رغبة عزة النفس والنبيل لديه ، لأن الشهوة العاصفة والمتمردة والمتحررة من كل قيد ، لن تأتي إلا بالفضيحة وهدر الكرامة ، وهذا ما لا يتفق مع العزة والشرف والكرامة .

(١) غرر الحكم ، ص ٥٥٠ .

أسرى الشهوة والهوى :

ما أكثر الفتيان والفتيات الذين هم أسرى شهواتهم وأهوائهم ، يفعلون كل شيء إرضاءً لها ، حتى وإن عاد عليهم هذا الشيء بالذل والعار ، وتراهم يفرقون في النهاية في مستنقع من الفسق والفجور والعهر ، مضحين بشرفهم وكرامتهم وصفاتهم الإنسانية والأخلاقية وسمعة أسرهم .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : مَنْ غَلَبَ شَهْوَتَهُ صَانَ قَدْرَهُ^(١) .

أذل من عبىد الرق :

وقال عليه السلام أيضاً : عَبْدُ الشَّهْوَةِ أَذَلُّ مِنْ عَبْدِ الرِّقِّ^(٢) .

وعنه عليه السلام أنه قال : مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ عَلَا أَمْرُهُ ، وَمَنْ مَلَكَتْهُ نَفْسُهُ ذَلَّ قَدْرُهُ^(٣) .

إنّ العقل هو أغلى هبة منّ بها الله تبارك وتعالى على الإنسان . فالعقل هو السراج الذي يستنير به الإنسان طريقه في الحياة ، وهو دليل الإنسان نحو السعادة والهناء . والإنسان العاقل المتدبر هو الذي يُحكّم عقله في كل صغيرة أو كبيرة يؤدّ القيام بها ، ويعمل دائماً حسبما يُمليه عليه عقله من توجيهات .

طغيان الشهوة وكدورة العقل :

من المؤسف أن الغريزة الجنسية من القوّة بمكان بحيث انها إن لم يجبر تعديلها ، وبدأت بطغيانها وتمردّها ، فإنها ستؤدّي إلى كدورة العقل وتدفع بالشباب إلى القيام بأعمال جنونية وخطيرة .

(٣١) مستدرك الوسائل ج ٢ ، ص ٢٨٧ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٤٩٨ .

الفشل والانتقام :

قبل بزوغ فجر الإسلام ، نشبت ذات يوم معركة طاحنة بين قبيلتي بني عامر وبني كنانة في سوق عكاظ ، سمّيت في التاريخ بـ «حرب الفجار» ، وسبب تلك المعركة هو أن امرأة من بني عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فطاف بها شاب من قريش من بني كنانة فسألها أن تكشف وجهها فأبت ، فجلس خلفها وهي لا تشعر وعقد ذيلها بشوكة ، فلما قامت انكشف دبرها فضحك الناس منها ، فنادت المرأة يا آل عامر ، فثاروا بالسلاح ، ونادى الشاب يا بني كنانة ، فاقتلوا^(١) .

إذن ، فالشاب الذي فشل في تحقيق مبتغاه فكّر بالانتقام من المرأة ، فأقدم على تصرف أرعن نابع من شهوته الجنسية ، مما أدى إلى نشوب حرب في سوق عكاظ راح ضحيتها الكثيرون . والتاريخ يُحدّثنا عن قضايا مماثلة كثيرة .

زوال العقل :

إنّ الغريزة الجنسية إن لم تكبح فإنها ستؤدي إلى زوال نور العقل وضعف البصيرة ، وتدفع بالشباب إلى القيام بما يتعارض ومنطق العقل والمصلحة ، وتجلب لهم شرّ المصائب والويلات .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : زوالُ العَقْلِ بَيْنَ دَوَاعِي الشَّهْوَةِ وَالغَضَبِ^(٢) .

وعنه عليه السلام أنه قال : مَنْ لَمْ يَمْلِكْ شَهْوَتَهُ لَمْ يَمْلِكْ عَقْلَهُ^(٣) .

تغلّب الشهوة على الجسم والروح :

تشكّل الغريزة الجنسية خلال مرحلة الشباب أكبر قوة تسيطر على جسم

(١) السيرة الحلبية ج ١ ، ص ١٥١ .

(٢و٣) مستدرك الوسائل ج ٢ ، ص ٢٨٧ .

الشباب ولبّه وأقوى دافع يسلب منه القدرة على التفكير والعمل . وتفكير الشباب في هذه المرحلة ينحصر في كيفية إرضاء شهوته وإشباع رغبته ، وقلّما يفكر بما يقتضيه عقله ومصالحته . ومن هنا فإنه سيقع في خطأ كبير إذا ما أقدم على اختيار شريكة حياته بنفسه دون استشارة من هم أكبر منه سنّاً وأدرى منه مصلحة ، وسيجلب لنفسه التعاسة والشقاء مدى العمر لمجرد أنه حصر تفكيره في لذة جنسية زائلة .

قطبان : سالب وموجب :

«يمكن تشبيه الزواج الذي يتم باتحاد شخصين ، باتصال قطبين موجب وسالب ، يمكنه أن يبعث على الدفء والحرارة أو أن يؤلّد حريقاً كبيراً . وليس صحيحاً ما يقوله البعض عن الزواج بأنه اختبار للحظ ، لأن من يتتبع نظارة لا تتناسب وبعده نظره أو قصره مثلاً ، يكون الحقّ عليه لا على حظّه ونصيبه .

ينبغي على المرء أن لا يفكر بالزواج على أنه مجرد استلذاذ وتمتّع . فالطفل وبسبب جهله ينحرف وراء كل ما هو لذيق دون أن يفكر بما يحمله له من أضرار . والشباب أمام مسألة الزواج غالباً ما يكون كالطفل حريصاً لا يفكر في عواقب الأمور ، ويتصوّر أن الزواج ليس سوى إصابة لذة أو متعة تستمر مدى الحياة ، أي أنّه لا يتوقّع من شريكة حياته غير اللذة ، بينما نرى الإنسان الناضج الواعي ينظر إلى الزواج من منظار آخر ، ويتطلّع إلى شريكة حياته على أنها شريكة حقيقية تقاسمه أفراحه وأتراحه ، وتعيّنه في مسيرة الحياة الطويلة الشاقّة» .

الأزواج الأكفء :

«ومن هنا يتوجب على الإنسان أن يتروّى في اختيار من ستشاركه

حياته ، وأن ينتخب من هي جديرة لهذه المسؤولية ، وأن يحكم عقله إلى جانب قلبه ، ويستشير ذوي التجارب من الأهل والأصدقاء وخاصة أبويه ، ويطلب النصح منهم في هذا الأمر المهم . إذن نستشف من كل ما مرّ ذكره ، أن بناء الحياة الزوجية يجب أن يقوم على أساس العقل ويُزَيَّن بالعشق والمحبة ، وإلا فإن احتمال انهياره كبير جداً»^(١) .

شيمة الحمقى :

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : **الاستهتار بالنساء شيمة النوكى**^(٢) . وعن الإمام الصادق عليه السلام : **إنما المرأة قِلادةٌ فأنظر إلى ما تقلدها**^(٣) . ونستنتج ممّا مرّ في هذا البحث أن الميول الجنسية لدى الشاب أقوى بكثير من الميول العقلية ، لذا فإن تعديل هذه الميول أو بالأحرى هذه الغرائز يعتبر أساس تربية جيل الشباب .

فإذا ما تمّ تحجيم الغريزة الجنسية في إطارها الصحيح وطريقها المشروع ، لن يكون هناك أي تضادّ بينها وبين سائر الرغبات والميول الإنسانية والأخلاقية . ويستطيع الشاب إرضاء غريزته الجنسية وتلبية رغباته الأخلاقية الأخرى وفق ما يمليه عليه عقله من توجيهات ، ليصبح بالنتيجة إنساناً حقيقياً ووجد سبيله نحو السعادة والهناء .

ركود العقل :

أما إذا أفلت الشاب لجام غريزته الجنسية وحرّرها من القيود ، واستسلم

(١) البهجة ، ص ١٤٨ .

(٢) مستدرک الوسائل ج ٢ ، ص ٥٣٢ .

(٣) الكافي ج ٥ ، ص ٣٣٢ .

لشهواته ونفسه الأمارة بالسوء ، يكون قد مهّد الأرضية في نفسه لصراع الميول والرغبات ، حينها ستتغلب غريزته الجنسية عليه جسماً وروحاً ، وتدفعه إلى ارتكاب الآثام والرذائل لأجل إشباعها ، وعند ذلك يكون قد ساهم من حيث لا يدري في كبح ضميره الأخلاقي وركود عقله واضمحلاله ، ممّا يسوقه نحو ارتكاب الجرائم والإتيان بالرذائل التي لا تعود عليه إلّا بالتعاسة والشقاء .

غرفة الأحزان :

تحت هذا العنوان كتب مصطفى لطفى المنفلوطي قصة مؤلمة عن حياة شاب وشابة ، يلحظ من يرجع إلى القصة عواقب الإفراط في إشباع الشهوة وصراع الرغبات والميول وما ينجم عن هذا الصراع . وهنا ننقل القصة كاملة لتكون عبرة لمن أراد من الشباب والشابات أن يعتبر .

كان لي صديق أحبّه لفضله وأدبه أكثر ممّا أحبّه لصلاحه ودينه ، فكان يروفتي منظره ويؤنسني محضره ، ولا أبالي بعد ذلك بشيء من نسكه وعبادته ، أو فسقه واستهتاره ، لأنني ما فكّرت قط أن أتلقّى منه علوم الشريعة أو دروس الأخلاق .

السفر الطويل :

قضيت في صحبته عهداً طويلاً ما أنكر من أمره ولا ينكر من أمري شيئاً حتى سافرت من القاهرة سفرأ طويلاً ، فتراسلنا حيناً ثم انقطعت عني كتبه ، فرابني من أمره ما رابني ، ثم رجعت فجعلت أكبر همّي أن أراه ، فطلبته في جميع المواطن التي ألقاه فيها فلم أجده ، فذهبت إلى منزله فحدثني جيرانه أنّه هجره من عهد بعيد وأنهم لا يعرفون أين مصيره ، فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان ، يغالب أولهما ثانيهما حتى غلبه ، فأيقنت أنني قد فقدت الرجل ، وأني لن أجد بعد اليوم إليه سبيلاً .

فقدان الصديق :

هناك ذرفت من الوجه دموعاً لا يذرفها إلا من قلّ نصيبه من الأصدقاء ، وأقفر ربه من الأوفياء ، وأصبح غرضاً من أغراض الأيام ، لا تخطئه سهامها ، ولا تغبه آلامها .

عهد مع الله :

بينما أنا عائد إلى منزلي في ليلة من ليالي الأسرار (من الليالي الأخيرة للشهر) إذ دفعتني الجهل بالطريق في هذا الظلام المدلهم إلى زقاق موحش مهجور يخيل للناظر إليه في مثل تلك الساعة التي مررت فيها أنه مسكن الجان ، أو مأوى الغيلان ، فشعرت كأني أخوض بحراً أسود يزخر بين جبلين شامخين ، وكأن أمواجه تقبل بي وتدبر ، وترتفع وتنخفض ، فما توسطت لجته حتى سمعت في منزل من تلك المنازل المهجورة أنه تتردد في جوف الليل ثم تلتها أختها ثم أخواتها ، فأثر في نفسي مسمعا تأثيراً شديداً وقلت يا للعجب ، كم يكتنم هذا الليل في صدره من أسرار البائسين ، وخفايا المحزونين ، وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم ألا أرى محزوناً حتى أقف أمامه وقفة المساعد إن استطعت ، أو الباكي إن عجزت ، فتلمست الطريق إلى ذلك المنزل حتى بلغته فطرت الباب طرقة خفيفاً فلم يفتح ، فطرقته أخرى طرقة شديداً ففتحت لي فتاة صغيرة لم تكد تسلك العاشرة من عمرها ، فتأملتها على ضوء المصباح الضئيل الذي كان في يدها ، فإذا هي في ثيابها الممزقة ، كالبدن وراء الغيوم المتقطعة ، وقلت لها: هل عندكم مريض ، فزفرت زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها ، وقالت: أدرك أبي أيها الرجل فهو يعالج سكرات الموت ، ثم مشت أمامي فتبعتها حتى وصلت إلى غرفة ذات باب قصير مسنم فدخلتها فخيّل إلي أنني قد انتقلت من عالم الأحياء إلى عالم الأموات ، وأن الغرفة قبر ، والمريض ميت ، فدنوت منه حتى صرت بجانبه ، فإذا قفص من العظم يتردد فيه النفس تردد الهواء في البرج الخشبي ، فوضعت يدي على جبينه ففتح عينيه وأطال

النظر في وجهي ثم فتح شفتيه قليلاً قليلاً وقال بصوت خافت (أحمد الله فقد وجدت صديقي) ، فشعرت كأن قلبي يتمشى في صدري جزعاً وهلعاً وعلمت أنني قد عثرت بضالتي التي كنت أنشدها ، وكنت أتمنى ألا أعثر بها وهي في طريق الفناء ، وعلى باب القضاء ، وألا يجدد لي مرآها حزناً كان في قلبي كميناً ، وبين أضعالي دفيناً ، فسألته ما باله ، وما هذه الحال التي صار إليها ، وكان أنسه بي أمد مصباح حياته الضئيل بقليل من النور ، فأشار إلي أنه يحب النهوض ، فمددت يدي إليه فأعتمد عليها حتى استوى جالساً وأنشأ يقص علي القصة التالية :

قصر عظيم وفتاة ساحرة :

منذ عشر سنين كنت أسكن أنا ووالدتي بيتاً يسكن بجانبه جار لنا من أرباب الثراء والنعمة ، وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ماضت القصور أجنتها على مثلها حسناً وبهاءً ، ورونقاً وجمالاً ، فألم بنفسي من الوجد بها ما لم أستطع معه صبراً ، فما زلت بها أعالجها فتمتنع ، وأستنزلها فتعذر ، وأتأتى إلي قلبها بكل الوسائل فلا أصل إليه ، حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرت منه إليها ، فسكن جماعها ، وأسلس قيادها ، فسلبتها قلبها وشرفها في يوم واحد ، وما هي إلا أيام قلائل حتى عرفت أن جينياً يضطرب في أحشائها ، فأسقط في يدي ، وطفقت أرثي بين أن أفي لها بوعدا ، أو أقطع جبل ودّها ، فأثرت اخراهما على اولاهما وهجرت ذلك المنزل إلى المنزل الذي كنت تزورني فيه ، ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئاً .

رسالة تهز الكيان :

مرّت على تلك الحادثة أعوام طوال وفي ذات يوم جاءني منها مع البريد هذا الكتاب ، ومدّ يده تحت وسادته وأخرج كتاباً بالياً مصفراً فقرأت فيه ما يأتي :

«لو كان بي أن أكتب إليك لأجدد عهداً دارساً ، أو ودّاً قديماً ، ما كتبت

أساس الخوف والفضيحة :

إنَّكَ عرفت حين تركتني أن بين جنبيَّ ناراً تضطرم ، وجنيناً يضطرب ، تلك للأسف على الماضي ، وذاك للخوف من المستقبل ، فلم تبال بذلك وقررت مني حتى لا تحمل نفسك مؤونة النظر إلى شقاء أنت صاحبه ، ولا تكلف يدك مسح دموع أنت مرسلها ، فهل أستطيع بعد ذلك أن أتصور أنك رجل شريف ، لا بل لا أستطيع أن أتصور أنك إنسان ، لأنك ما تركت خلة من الخلال المتفرقة في نفوس العجماوات وأوابد الوحوش إلا جمعتها في نفسك وظهرت بها جميعها في مظهر واحد .

وسيلة لارضاء الشهوة :

كذبت عليّ في دعواك أنك تحبني ، وما كنت تحب إلا نفسك ، وكل ما في الأمر أنك رأيتي السبيل إلى إرضائها ، فمررت بي في طريقك إليها ، ولولا ذلك ما طرقت لي باباً ، ولا رأيت لي وجهاً .

ختنتي إذ عاهدتني على الزواج فأخلفت وعدك ذهاباً بنفسك أن تتزوج امرأة مجرمة ساقطة ، وما هذه الجريمة ولا تلك السقطة إلا صنعة يدك ، وجريرة نفسك ، ولولاك ما كنت مجرمة ولا ساقطة ، فقد دافعتك جهدي حتى عييت بأمرك فسقطت بين يديك سقوط الطفل الصغير ، بين يدي الجبار الكبير .

سلب العقّة :

سرت عفتي ، فأصبحت ذليلة النفس حزينة القلب ، أستقل الحياة وأستبطن الأجل ، وأي لذة في العيش لامرأة لا تستطيع أن تكون زوجة

لرجل ، ولا أماً لولد ، بل لا تستطيع أن تعيش في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية إلا وهي خافضة رأسها ، مسبلة جفنها ، واضعة خدّها على كفّها ، ترتعد أوصالها وتذوب أحشاؤها ، خوفاً من عبث العابثين وتهكم المتهاكمين .

سلبتني راحتي ، لأنني أصبحت مضطرة بعد تلك الحادثة إلى الفرار من ذلك القصر الذي كنت متمتعة فيه بعشرة أبي وأمي ، تاركة ورائي تلك النعمة الواسعة وذلك العيش الرغد إلى منزل حقير في حي مهجور لا يعرفه أحد ، ولا يطرق بابه طارق ، لأقضي فيه الصبابة الباقية لي من أيام حياتي .

قتلت أمي وأبي ، فقد علمت أنهما ماتا ، وما أحسب موتهما إلا حزناً لفقدي ، ويأساً من لقائي .

مرارة السّم :

قتلني لأن ذلك العيش المرّ الذي شربته من كأسك ، والهَم الطويل الذي عالجتَه بسبك ، قد بلغا مبلغهما من جسمي ونفسي ، فأصبحت في فراش الموت كالذبابه المحترقة تتلاشى نفساً في نفس ، وأحسب أن الله قد صنع لي ، واستجاب دعائي ، وأراد أن ينقلني من دار الموت والشقاء ، إلى دار الحياة والهناء .

فأنت كاذب خادع ، ولصّ قاتل ، ولا أحسب أن الله تاركك دون أن يأخذ لي بحقي منك .

على باب القبر :

ما كتبت إليك هذا الكتاب لأجدد بك عهداً ، أو أخطب إليك ودّاً ، فأنت أهون عليّ من ذلك ، على أنني قد أصبحت على باب القبر وفي موقف وداع الحياة بأجمعها خيرها وشرّها ، سعادتها وشقتها ، فلا أمل لي في ودّ ، ولا متّسع لعهد ، وإنما كتبت إليك لأن لك عندي وديعة وهي فتاتك ، فإن كان الذي ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الأبوة ، فأقبل إليها وخذها

إليك حتى لا يدركها من السقاء ما أدرك أمها من قبلها .

جرائم مروعة :

فما أتممت قراءة الكتاب حتى نظرت إليه فرأيت مدامعه تنحدر على خديه فسألته ، وماذا تم له بعد ذلك ؟ ، قال إني ما قرأت هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تمشي في جميع أعضائي ، وخيل إلي أن صدري يحاول أن ينشق عن قلبي حزناً وجزعاً ، فأسرعت إلى منزلها وهو هذا المنزل الذي تراني فيه الآن ، فرأيتها في هذه الغرفة على هذا السرير جثة هامدة لا حراك بها ، ورأيت فتاتها إلى جانبها تبكي بكاءً مرّاً ، فصعقت لهول ما رأيت ، وتمثلت لي جرائمي في عشتي كأنما هي وحوش ضارية ، وأسود ملتفة ، هذا ينشب أظافره ، وذاك يحدن أنيابه ، فما أفقت حتى عاهدت الله ألا أبرح هذه الغرفة التي سميتها (غرفة الأحزان) حتى أعيش فيها عيشها ، وأموت وموتها .

وها أنذا أموت اليوم راضياً مسروراً ، فقد حدّثني قلبي أن الله قد غفر لي سيئاتي بما قاسيت من العناء ، وكابدت من الشقاء .

الكلمة الأخيرة :

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى انعقد لسانه واكفهر وجهه وسقط على فراشه فأسلم الروح وهو يقول : ابنتي يا صديقي ، فلبثت بجانبه ساعة قضيت فيها ما يجب على الصديق لصديقه ، ثم كتبت إلى أصدقائه ومعارفه ، فحضرُوا تشييع جنازته ، وما رئي مثل يومه يوم كان أكثر باكية وباكياً .

ولما حثونا التراب فوق ضريحه جزعنا ولكن أي ساعة مجزع

يعلم الله أنني أكتب قصته ، ولا أملك نفسي من البكاء والشيح ولا أنسى ما حييت نداه لي وهو يودّع نسمات الحياة وقوله «ابنتي يا صديقي»^(١) .

(١) النظرات ج ١ ، ص ٢٤٥ .

عذاب الضمير الأخلاقي :

لقد وقعت هذه الحادثة المؤسفة نتيجة اعتداء جنسي قام به شاب على فتاة سرعان ما استسلمت . والذي أوصلهما إلى هذه المأساة تضاداً الميول والرغبات لديهما وعذاب الضمير الأخلاقي ، فكان ما كان .

فلو كان الطرفان قد أقدما منذ البداية على تعديل ميولهما الجنسية ، وسيطرا على أهوائهما النفسية ، ولم يختلطا بشكل منافٍ للعفة والقانون ، لما بلغا ما بلغاه من مأساة يندى لها الجبين وتهتز لها المشاعر .

فالشاب غشيته شهوته وتملكته ميوله الجنسية ، ولم يعد يفكر سوى بإرضاء نزوته ، فوعد كذباً لبلوغ مراده .

أما الفتاة فكانت تفقد السيطرة على أهوائها النفسية ، والمقاومة أمام الغريزة الجنسية ، ولم تكن تخشى إلا على شرفها وكرامتها ، وعندما وعداها الشاب بالزواج استسلمت له متصورة أن هذا الوعد قد رفع كل تضاد ما بين الرغبة الجنسية والرغبة في الحفاظ على الشرف ، وأن سمعتها ستبقى مصانة .

نقض العهد :

وبعد أن أفرغ الشاب شهوته وأشبع غريزته ، هجر الفتاة ناقضاً عهده لها بالزواج ، وذلك خلافاً للفطرة الأخلاقية والصفات الإنسانية ، أما الفتاة فبعد أن خسرت شرفها وكرامتها ، دفعها الخوف من الفضيحة وسوء السمعة إلى هجر الدنيا ومن فيها وما فيها حتى أبويها ، وتقبّل تلك الحياة رغم مرارتها وصعوبتها ، لكن الإحباط النفسي الذي عاشته الفتاة بعد انهيار كرامتها قد ساهم في دنوّ أجلها وهي في ريعان شبابها .

تأنيب الضمير :

وقد تألم الشاب كثيراً بعد أن أطلع في الرسالة على نتيجة نقضه للعهد وخيائته ، ولما صار عندها وشاهد الفتاة المسكينة جثة هامدة أغمى عليه . ولم

يعد بعد موت الفتاة يستطيع مواصلة حياته بشكل طبيعي نتيجة تأنيب الضمير والندم ، فأجبره الشعور بالذنب على هجر الحياة ليبقى حبيس غرفة الأحزان تلك حتى يفارق الحياة .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : كَمْ مِنْ شَهْوَةٍ سَاعَةٍ أَوْرَثَتْ حُزْنَاً طَوِيلاً^(١) .

المنزلق الخطير :

تعتبر الغرائز وخاصة الغريزة الجنسية منزلقاً خطيراً في حياة الشباب . والشاب الذي يبحث عن سعادته وهنائه في الحياة ، عليه أن يسرع في تعديل أهوائه النفسية وتسليم لجام غرائزه لعقله ، ليصون نفسه من مخاطر تمردها وطمغيانها ، ويُجنّبها شقاء العمر وتعاسته .

عباد الهوى :

تطلق كلمة «المترف» في اللغة العربية على كل من لم يعمل على تعديل غرائزه ، ويعيش أسير شهواته ونزواته ، ولم يسع إلى تحجيم رغباته وميوله في أطرها الصحيحة ، ويبقى عبداً لهواه ، وينفق من نعم الله في غير محلها ، ولا يخشى الإتيان بالمعاصي إرضاءً لشهواته .

ومثل هذا الإنسان المترف الأناني عبد الهوى ، لا يجلب الشقاء والتعاسة لنفسه فقط نتيجة عدم تفكيره في تعديل ميوله وغرائزه ، بل إن مثل هذا العنصر الخطير يتسبب في شقاء مجتمع بأكمله . إذ بمقدوره أن يجرف الآخرين نحو الفساد والرذيلة ، ويقضي على كل الموازين الأخلاقية والإنسانية ، ويدمر منازل السعادة في المجتمع ، وبالتالي يأخذ بيد هذا المجتمع نحو السقوط والدمار . وقد صرّح القرآن الكريم بهذا الأمر الاجتماعي والتربوي المهم ، وتطرّق إلى

(١) وسائل الشيعة ج ٤ ، ص ٢٩ .

خطر وجود المترفين من عبّاد الهوى على المسلمين .

قال تبارك وتعالى :

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾^(١) .

(١) سورة الإسراء : الآية : ١٦ .

المحاضرة الثانية عشرة

حول الشاب والحسّ الديني

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تبارك وتعالى في محكم كتابه : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^(١) .

القاعدة التربوية للشباب :

تعتبر معرفة الميول والرغبات الفطرية التي تكمن في ذات الشباب ، ومحاولة إرضاء كل منها بشكل معتدل وصحيح ، من أهم قواعد التربية لجيل الشباب . والمربي الكفوء هو من يستطيع تحليل التركيبة النفسية الطبيعية للشباب من جميع الجهات ، ومعرفة ما يختلج في صدره من رغبات وميول ، ومن ثم العمل على إرضاء كل منها بصورة سليمة ومنطقية .

إنّ تربية كهذه تتوافق ونظام التكوين وتتماشى مع قانون الخلقة ، هي من أفضل أنواع التربية وأكثرها تأثيراً واستقراراً ، وبفضل هذه التربية يمكننا أن نصنع جيلاً صالحاً وكفوئاً من الشباب ، ونوفّر لهم أسباب سعادتهم في الحياة .

(١) سورة التين ؛ الآية : ٤ .

منشأ انحراف الشاب :

ثمة عاملان رئيسيان يعتبران منشأ معظم انحرافات الشباب التي تؤدي بهم في النهاية إلى التعاسة والشقاء . العامل الأول ، هو قمع بعض من ميوله الفطرية وعدم الاهتمام بها . والعامل الثاني ، هو تمادي الشباب في إرضاء بعض من ميولهم ورغباتهم .

«يقول الدكتور كارل : ينبغي علينا أن نهتم من الآن فصاعداً بمسألة إحياء التعاليم العامة . فالمدارس والثانويات والكليات لم تستطع أن تبني رجالاً ونساءً يكونون مؤهلين لإدارة دفة الحياة بشكل سليم ، والمدنية الغربية سائرة نحو الرذيلة والانحطاط ، فلا المدرسة ولا الأسرة قادرتان على تربية جيل يمكن اعتباره متمدناً» .

عدم الاهتمام بمبادئ الأخلاق :

«إنَّ سبب فشل التربية والتعليم في عصرنا هذا يعود إلى ندرة الآباء والأمهات الذين يتمتعون بوعي كبير وثقافة عالية ، واهتمام المرَّبين بالقضايا الفكرية للشباب دون الاهتمام بقضاياهم الفيزيولوجية ومبادئ الأخلاق . وقد تجلَّى النقص التربوي لدى الشباب من خريجي المدارس والجامعات بوضوح خلال الأحداث التي شهدتها الأعوام الأخيرة ، ونحن نتساءل هنا ، ما فائدة العلم والأدب والفن والثقافة والفلسفة لمجتمع يعصف به التشتت والضياع» .

إدراك الحقائق :

«ولكي تبقى حضارتنا ومدنيتنا متواصلة ، ينبغي على كل فرد من أفراد مجتمعنا أن يشمّر عن ساعده ليواكب الحياة ليس وفقاً

للأيدولوجيات بل حسب النظام الطبيعي للأشياء . ومن هنا تأتي أهمية إحلال مبدأ التعليم الشامل والجامع محل التعليم الذي لا يخرج عن إطار الفكر . وبعبارة أخرى نقول : يجب أن نسعى لإحياء وتنشيط كل الأساليب والمناهج والوسائل التربوية الموروثة ، لكي تساعدنا في تربية جيل يدرك حقيقة مجتمعه والعالم .

إننا نفتقر اليوم لمربيين يعملون في مجال التربية والتعليم الشاملين . لذلك علينا وقبل أي شيء آخر أن نفكر بايجاد مراكز ومعاهد لإعداد مربيين يتعلمون فيها أساليب التربية الصحيحة ومنهجها .

لأن من واجب المربي الناجح تكريس كل ما تعلمه لتفجير كامل الطاقات الكامنة في نفوس الأفراد من أدب ووقار وصدق وحس جمالي وديني وصور البطولة والشجاعة ، وعليه أيضاً أن يكون على اتصال مباشر ودائم بالأطباء النفسيين وأساتذة التربية البدنية والتنمية الفكرية وعلماء الدين الحقيقيين وأولياء أمور التلاميذ ، وذلك من أجل العمل بكل ما يستحصل عليه من استشارات وآراء تخوله لأن يجعل من كل طفل كائناً متزناً ، عندها فقط تبرز أهمية المربي وتسمو مكانته في المجتمع»^(١) .

احياء كل الرغبات :

يقوم المنهاج التربوي لجيل الشباب في الشريعة الإسلامية على قاعدة إحياء كل الرغبات والميول الفطرية ، وهدايتها نحو مسارها الطبيعي . فقد أولى رسول الله (ص) أهمية بالغة لما في نفوس الشباب من رغبات وميول مادية

(١) سبل الحياة ، ص ١٧٠ .

ومعنوية ، وحرص في كل توجيهاته ووصاياه ومواعظه على أن يوازن وينسّق فيما بينها ، ويعطي كلّاً منها حقّها في بلوغ الإشباع وفق معيار صحيح .

منهاج التربية في الاسلام :

إنّ الشاب الذي يتعرّع في كنف الإسلام ، ويربّي جسمه وروحه في ظل توجيهات الرسول الأكرم (ص) وتعاليمه ، يكون إنساناً حقيقياً يتمتع بكل ما يضمن له سعادته وهناءه في الحياة . فهو يملك ثروة الإيمان والأخلاق ، ولا يفكر إلاّ بالطهر والفضيلة ، وله نفس هادئة ومطمئنة بفضل اتكاله على الله سبحانه وتعالى ، لا تشنيه شدائد الحياة ، ولا تفقده صعابها شخصيته المعنوية . يعمل بجد ونشاط دون تقاعس أو إهمال ، ولا يتهرب من المسؤولية ، يتمتع بكل ما في الحياة من لذائذ بصورة مشروعة وفق ما تقتضيه المصلحة العامة والخاصة ، دون أدنى شعور بالكبت والحُرمان . وحرّيّ بنا أن نقول: إنّ الشاب الذي يربّي على المنهاج التربوي للإسلام ، يكون قادراً على إشباع كل رغباته وميوله بشكل سليم ، وبلوغ درجة تليق به من الكمال .

وفي هذه المحاضرة سنحاول بحث بعض الأساليب التربوية للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام ، على الصعيدين العلمي والعملي ، بهدف إطلاع الشباب على المنهاج التربوي في الإسلام فيما يخصّ إحياء الميول والرغبات وتعديلها ، وإفساح المجال أمامهم للاقتداء بها وصولاً إلى النجاح والسعادة .

تأتي المعرفة والإلهية والوجدان الأخلاقي في إطار الميول والرغبات الفطرية التي تولد مع ولادة كل إنسان ، وتضرب بجذورها في أعماق كل الشعوب والمجتمعات .

القدرة الأزلية :

إنّ الناس يدركون بالفطرة أنّ ثمة قدرة ثابتة لن تتغيّر في هذا العالم المليء بالمتغيّرات ، ولن يؤثر فيها كل ما يستجدّ على هذا العالم ، ولن تتغيّر

مهما طال الزمان وتغيّر ، وتلك القدرة الحقيقية هي قدرة الله الأزلية .

الاهتمام بمبدأ الفطرة :

والإنسان بما يضمه من رغبات ودوافع فطرية ، يرغب في معرفة المزيد عن تلك القدرة الحقيقية ، لينحني تعظيماً وإجلالاً لها .

قال تبارك وتعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (١) .

عن زرارة قال: سألت الإمام الباقر عليه السلام ما الحنيفية ؟ ، قال : هي الفطرة التي فطر الناس عليها ، فطرهم على معرفته (٢) .

حقيقة ثابتة :

«يقول جون . بي . كايزل : كلما مضينا في حياتنا ازددنا حرصاً على معرفة مبدأ وجود الكون ، وازددنا إصراراً على إدراك حقيقة الخالق وجماله ونعمه وما يربطنا به ، وانصرف اهتمامنا من الماديات إلى المعنويات ، ومن الذات إلى الكون . لرى أن مبدأ الحياة متغيّر ، وأن كلاً ممّا ينتقل كل سبع سنوات من مرحلة إلى مرحلة ، أي أنه متغيّر ، وأن الأشجار تجفّ والزهور تذبل ، والأصدقاء والأقارب والأهل يموتون ، والآداب والعادات والتقاليد وما إلى ذلك ممّا له علاقة بالمجتمعات تنقرض وتزول ، إذن ، ما هو الثابت الذي لا يموت ؟ .

لقد سعى الإنسان بفكره كثيراً لأن يعرف المبدأ الثابت والخالد الذي لا يتغيّر في هذا الكون المليء بالمتغيّرات ، حتى توصل إلى هذه الحقيقة وهي أن ما هو أزلّي وبقا في هذا الكون

(١) سورة الروم ؛ الآية : ٣٠ .

(٢) بحار الأنوار ج ٢ ، ص ٨٧ .

المتغير ، هو الخالق أو بتعبير آخر مسبب الخلق»^(١) .

إلهام إلهي :

إنَّ الإنسان يدرك بفطرته المبادئ الأولية للمساواة والمحسن دون حاجته إلى مربِّ أو معلم ، ويميل بطبعه نحو المحسن مجتنباً المساوئ . وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الميل الفطري الناتج من الهداية التكوينية الإلهية بـ (الإلهام الإلهي) .

قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٢) .

عن الإمام الصادق عليه السلام قال : ﴿فألهمها فجورها وتقونها﴾ قال بيّن لها ما تأتي وما تترك^(٣) .

الضمير الأخلاقي :

يعتقد علماء النفس بأن قوة الإدراك الموجودة في ذات كل إنسان ، والتي يميّز بواسطتها بين مبدئي الخير والشر ، هي الضمير الأخلاقي .

«يقول جان جاك روسو : انظروا إلى كافة شعوب العالم ، وأرجعوا إلى تواريخها ، ستجدون أن ثمة ما يجمع بين كل تلك الشعوب مهما اختلفت قومياتها وألوانها وأطوارها وعاداتها وتقاليدها ، ألا وهي مبادئ العدالة والمساواة والقوانين الأخلاقية ومفاهيم الخير والشر .

دليل الخير والشر :

«ومن هنا يمكننا القول : إن هناك مبدءاً فطرياً في أعماق كل إنسان ،

(١) البهجة ، ص ٤١ .

(٢) سورة الشمس ، الآيات : ٧ و ٨ .

(٣) الكافي ج ١ ، ص ١٦٣ .

هو مبدأ العدالة والتقوى ، يحكم من خلاله على أعماله وأعمال الآخرين ، ويحدّد خيرها وشرّها ، رغم كل القوانين والعادات والتقاليد ، وهذا المبدأ هو ذلك الذي أُسميه أنا بـ (الضمير) .

ترى ، هل يوجد بلد في العالم يُعتبر فيه التمسك بالإيمان والعقيدة والوفاء بالوعد والرأفة والشفقة وحب الخير والشهامة ، جريمة ؟ ، هل هناك بلد يكون فيه الإنسان الحسن الخلق منبوذاً والسيء الخلق محترماً ؟ ، أيّها الوجدان ، أيتها الغريزة الملكوتية ، أيّها الصوت السماوي الخالد ، أيّها الدليل المطمئن لهذه الكائنات الجاهلة ، أنت العاقل والحر . يا من لا تخطيء في حكمك بين الخير والشر ، يا من تقرب الإنسان من الله ، وتجعله ذا طبيعة حسنة ، وتوفّق بين أعماله والقوانين الأخلاقية ، فلولاك ، لما أحسست بشيء في ذاتي يرفعني فوق البهائم ، وما يميّزني عنها ليس سوى فكر مبعثر وعقل مشتت أضلّ بهما طريقي ، وأنهض من خطيئة لأقع في أخرى»^(١) .

الميل إلى الإيمان والأخلاق :

لقد سبق وذكرنا أن الجذور الرئيسية للغرائز والرغبات والأهواء النفسية الكامنة في ذات كل إنسان ، تعود إلى مرحلة الطفولة ، حيث تبدأ بالنمو بما يتلاءم ونمو جسم الطفل ، وتشتد هذه الغرائز قوة مع بلوغ الإنسان ، شأنها شأن جذور المعرفة الفطرية والضمير الأخلاقي ، فهي كامنة في أعماق الطفل قلما تبرز بروزاً خفيفاً . ولكن بمجرد أن يصل الطفل إلى مرحلة البلوغ والشباب ، وتشتد قواه الجسمية والعقلية ، تبدأ هذه الجذور بالفتح ، لتوقظ في نفسه الميل إلى الإيمان والأخلاق .

(١) اميل ، ص ٢٠٤ .

عجز الطفل عن إدراك المجردات :

«لم يكن ذهن الإنسان في مرحلة الطفولة مستعداً بعد لإدراك الحقائق الثابتة كالصدق والجمال والخير ومبدأ الخلق أي الخالق . فالطفل يكون متعلقاً بالماديات وعاجزاً عن إدراك المجردات ، ولهذا لا يمكن للطفل أن يفهم معنى الله الذي هو حقيقة تفوق كل الماديات ، وكذلك الدين الذي يتحسس الإنسان من خلاله علاقته بالله سبحانه وتعالى .

وتنحصر اهتمامات الطفل بكل ما يراه ويلمسه ويسمعه ويشمه ويتذوقه ، ولا بد من مضي فترة زمنية معينة حتى يخرج الطفل من عالمه هذا ، ويبدأ بإدراك المجردات وكل ما من شأنه أن يوصله إلى مدبر الكون .

وقد أثبتت التجارب والاختبارات أن روح الإيمان بالدين تدب في ذات الإنسان من سن الثانية عشرة . ويشتد الإيمان بالحقائق والإحساس بالحاجة إلى العبادة لدى الأشخاص الذين يتمتعون بسلامة طبيعية ، مع تقدّم أعمارهم ، ويبدأ تأثير الإيمان يطغى على أفكار الإنسان وأعماله كلما ازداد نمواً جسمىً وفكرياً^(١) .

الدوافع الروحية لدى الشباب :

إن فورة البلوغ تساهم في بروز كافة الميول والرغبات الفطرية والملكات الطبيعية الكامنة في ذات الشاب . فعندما يناهز الشاب فترة البلوغ تتفجر في أعماقه الميول الغريزية ، وتصحو في نفسه العوامل المعنوية والأخلاقية .

وكما هو حال الدافع الغريزي الذي يدفع بالشباب إلى إرضاء ميولهم المادية أي النفسية ، كذلك الأمر بالنسبة للدوافع الروحية ، حيث تدفع بالنسبة

(١) البهجة ، ص ٤٠ .

إلى إرضاء ميولهم المعنوية .

ويعتقد علماء النفس أن فترة البلوغ والشباب هي فترة تفجر الأحاسيس الدينية ، وتفتح الميول الإيمانية والأخلاقية .

بحثاً عن الحق :

إن فطرة الشاب تدفعه تلقائياً لمعرفة مبدأ الكون وخالقه ، وتدفعه إلى البحث عن الحق وبذل ما بوسعه وصولاً إلى الحقيقة ، وبذا يكون قد عمل على إرضاء ميوله الفطرية إلى المعرفة .

كما أن الشاب يميل بطبعه وفطرته إلى الطهر والفضيلة والعدل والإنصاف وأداء الأمانة والوفاء بالوعد والصدق والخير وما إلى ذلك من سجايا إنسانية ، ويرغب في أن يبنى شخصيته على أساس كل ما هو نابع من الضمير الأخلاقي .

وتساوى لدى الشاب القدرة على انتخاب الصفات الحميدة والتمسك بها ، أو انتخاب الصفات الذميمة والانجراف وراءها ، فهو قادر على انتخاب الطريق الملتوي الذي يوصله إلى الانحراف والرذيلة ، لكن الدوافع الفطرية الكامنة في أعماقه تشده نحو الطريق السوي الذي يوصله إلى الاستقامة والفضيلة ، محذرة إياه من عواقب المعاصي وسوء الخلق .

نداء الحق والحقيقة :

ثمة نداء واحد يهزّ الشاب من أعماق الضمير ، ألا وهو نداء الحق والحقيقة ، نداء الطهر والفضيلة ، نداء وجد بالفطرة في ضمير الإنسان ، وهو ما عُرف بالإلهام الإلهي والضمير الأخلاقي .

إن ميل الفتيان الطبيعي نحو الفضائل الأخلاقية يكون شديداً جداً ، بحيث انهم يفتأظنون لأدنى ظلم أو سلوك مشين يصدر عن آبائهم وأمهماتهم ، ويلومونهم بقوة ، ويحتجون على سلوكهم ، ويعتبرونهم عاراً على المجتمع .

السجاياء الانسانية :

إن تفكير الفتیان لا ینحصر فقط فی صفاتهم الحميدة وسلوکهم الحسن ، بل تدفعهم میولهم الباطنية و رغباتهم الفطرية للمتمنی أن تتسم شعوب العالم قاطبة بمثل هذه الصفات ، ویکون لها نفس هذا السلوك .

إنهم يتألمون من سوء خلق الآخرين ، ويتأسفون لانحرافهم ، ومرادهم أن تعمّ الفضائل الأخلاقية كافة البشر ، لیسیر الجميع نحو الاستقامة والصلاح ، وینعموا بالسعادة والهناء .

«يقول موريس دبس أستاذ جامعة ستراسبورغ : تعصف روح الإيمان أو الشجاعة في أعماق الفتیان ما بین الخامسة عشرة والسابعة عشرة من العمر، حيث يتمنون لو أنهم يستطيعون تشكيل العالم من جديد ، ليمحوا كل أثر للظلم ، و یقیموا العدل مكانه»^(١) .

«هناك قيم ما وراء الطبيعة والدين إلى جانب المثل الأخلاقية وقيم ما وراء الطبيعة لدى الشباب . فالطلبة الجامعيون الشباب تراهم يتعلقون بكل ما له صلة في البحث عن حقائق شؤون الحياة .

لقد أطلق أوغست في قانونه الذي تطرق فيه إلى المراحل الثلاث التي يمر بها الإنسان ، أطلق على مرحلة البلوغ إسم مرحلة ما وراء الطبيعة . إن غالبية الأشخاص الذين يخوضون في أسرار الكون والخلقة والوجود ، يعانون من اضطراب خاص ، وهذا ما يمكن اعتباره سبيلاً آخر للوصول إلى ما وراء الطبيعة . ومن الصعب جداً الفصل بين نفوذ فكرة ما وراء الطبيعة والشؤون الدينية في أذهان الشباب ، لأن كل القيم الروحية تلتقي عند نقطة واحدة .

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ١٢٢ .

البلوغ والحس الديني :

«يبدو أنّ هناك إجماعاً في الرأي بين علماء النفس حول وجود علاقة بين أزمة البلوغ والثوب المفاجيء للحس الديني لدى الشاب البالغ .

تنمية الشخصية :

«ففي هذه الفترة ، تولد نهضة دينية حتى عند أولئك الذين لم يكونوا في السابق من المتمسكين بأمور الدين ، ولن يكونوا في سني الكمال والنضوج من المؤمنين بها . ويعتقد «ستانلي هال» بأنه يمكن لمس آثار هذه النهضة الدينية ، أو لنقل الحس الديني في نفسية الفتى حتى سن السادسة عشرة كحد أقصى . ويمكن اعتبار هذا التغير بأنه يندرج في إطار تنامي شخصية الشاب . وهذا الحس يمنح الشاب الذي يتخبط تحت تأثير شتى العوامل ، الفرصة لكي يعرف نفسه ويدرك أسبابها ومسبباتها في وجود الله سبحانه وتعالى . فإدراكه لوجود الله تباركت أسماؤه يخفف من معاناته وعذابه ، ويجعله يشعر بمكانته في هذه الحياة . ومثل هذا الوثوب المفاجيء لن يحصل عند الأشخاص الذين عاشوا أعمارهم في ظل تربية دينية ، ولكن حبهم لله يزداد ، وتتغير أحاسيسهم تجاهه - جلّ وعلا - عما كان عليه أثناء طفولتهم لاسيما عند الفتيات ، حسب قول العالم «ب. بوريه»^(١) .

سنون ما وراء الطبيعة :

إن الفتيان بشكل عام مهما اختلفت قومياتهم وألوانهم يميلون بالفطرة نحو معرفة الله والسجاي الأخلاقية . وقد دفع هذا الميل الطبيعي والشديد بعلماء

(١) ماذا أعرف ؟ البلوغ ، ص ١١٨ .

النفس إلى اعتبار سنوات البلوغ بأنها سنوات ما وراء الطبيعة، وتخصيص جانب مستقل من أبحاثهم لدراسة نفسية الشاب .

ويقول علماء النفس: إنَّ ثمة علاقة بين أزمة البلوغ والوثوب المفاجيء للحسن الديني ، لا يمكن إنكارها أو تجاهلها ، حتى الأطفال الذين يترعرعون وسط أسر لا تمت إلى الدين والإيمان بصلة ، يبدون في مرحلة البلوغ أهمية أكبر بالشؤون الدينية .

رغبة الشاب في فهم الدين :

إنَّ طلب الدين يعتبر من الرغبات الفطرية للإنسان ، وهو رغبة تصحو في أعماق الإنسان عند البلوغ ، شأنها شأن الكثير من الرغبات الفطرية التي تكمن في أعماقه . وللشاب رغبة ماسّة وطبيعية في فهم شؤون الدين ، فتراه يصغي بكل أحاسيسه وبملاء إرادته إلى الخطب والمواعظ الدينية .

رغبة الشباب في الاسلام :

عندما خرج الرسول الأكرم ﷺ شهراً دعوته بين الناس في مكة ، دبّت فورة عظيمة بين جيل الشباب ، فتجمّعوا بدافع من ميولهم الفطرية حول الرسول ﷺ ينهلون من معين أحاديثه الشريفة ، وقد أثار هذا الأمر خلافات شديدة بين الشباب وأسرهم ، ودفع بالمشركين إلى الاحتجاج على ذلك عند الرسول الأكرم ﷺ .

... فاجتمعت قريش على أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب : إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وأفسد شبابنا وفرّق جماعتنا^(١) .

غذاء الروح :

لقد بلغت دعوة النبي محمد ﷺ أسماع كل الناس من رجال ونساء ،

(١) بحار الأنوار ج ٦ ، ص ٣٤٣ .

وشيوخ وشباب ، إلا أن الشباب كانوا أكثر تأثراً بهذه الدعوة واندفاعاً لها ، لأن وثوب الحسن الديني لديهم خلال مرحلة البلوغ ، جعلهم متعطشين لتعلم فضائل الإيمان والأخلاق ، ولهذا كانت كلمات الرسول الأكرم ﷺ تنزل في نفوسهم كالماء السلسيل ، كما أنها كانت بالنسبة لهم بمثابة غذاء للروح ، دون غيرهم من الشيوخ والطاعين في السن .

فلما أوفد الرسول الأكرم ﷺ مصعب بن عمير إلى المدينة ، ليعلم أهلها قراءة القرآن ، وينشر بينهم التعاليم والمعارف الإسلامية ، كان الشباب أول من لَبَّى دعوته ، حيث أبدوا رغبة شديدة في تعلم قراءة القرآن واكتساب التعاليم الإسلامية .

وكان مصعب نازلاً على أسعد بن زرارة ، وكان يخرج في كل يوم ويطوف على مجالس الخزرج يدعوهم إلى الإسلام فيجيبه الأحداث^(١) .

إن الرغبة الطبيعية في الإيمان والأخلاق التي وجدت في أعماق الإنسان بمشيئة الله وقدرته الحكيمة ، والتي تبرز في أوج أزمة البلوغ على شكل وثوب في الحسن الديني ، هي أفضل القواعد لتربية جيل الشباب وأكثرها قوة .

وينبغي على المرّبين الأكفاء ، استغلال هذه الرغبة الفطرية والدافع الروحي ، وترتيب برامجهم التربوية على أساسها ، بما يكفل بقاءها حيّة في ضمير الشاب .

الإنقياد لقانون الخلقة :

إنّ عمل الشباب وسعيهم لإرضاء رغباتهم الإيمانية والأخلاقية ، يدخل في إطار انقيادهم لقانون الخلقة واتباعهم لنظام التكوين . والتربية التي تكون منسجمة مع نداء الفطرة ، وقائمة على أركان الرغبات والميول الطبيعية ، تكون تربية قوية وثابتة ، تحقق للإنسان هناءه وسعادته .

وهذه الرغبات التي تصحو في ضمير كل إنسان عند البلوغ ، تعتبر ثروة من ثروات الشباب التي لا تقدر بثمن ، وتؤدي كل منها دوراً كبيراً في تربية جيل الشباب . والمربون الأكفاء هم الذين يستفيدون من جميع هذه الرغبات خيراً استفادة ، ويعملون على هداية وتوجيه كل منها في مسارها السليم . ولكن توجه علماء النفس والتربية ينصب بشكل دقيق على مسألة مهمة ، وهي ، من أين ينطلقون في تربية الشباب ؟ وأي رغبة من الرغبات يضعونها ضمن أولويات برامجهم التربوية ؟

فترة الفرصة :

«يقول موريس دبس أستاذ جامعة ستراسبورغ : ثمة فرصة تتوسط المرحلة التي يعي فيها الشاب اليافع قيمته الذاتية ، والمرحلة التي يدرك فيها القيم الاجتماعية ، ينبغي الاستفادة منها لتربية الشباب وتعليمهم ، واختيار ما من شأنه أن يشمخ بشخصية الشاب ويرفع من معنوياته ، من القيم الأخلاقية والإنسانية المتنوعة والكثيرة . ومما لا شك فيه أن نفسية الشاب ستتكيف حسب القيم التي أحاطت به .

وهنا سؤال يطرح نفسه قسراً ، أي القيم يجب اختيارها؟ ، وأيها ينبغي تقديمها على الآخرين؟ ، سؤال أتجنب الإجابة عليه - والكلام مازال للأستاذ موريس دبس - ، لأن الموضوع له صلة مباشرة وعميقة بالمربين»^(١) .

بداية التربية :

أما الدين الإسلامي فقد أجاب بكل صراحة على هذا السؤال ، حيث أكد على ضرورة الاهتمام بالرغبة الدينية وتقديمها على غيرها من الرغبات في

(١) ماذا أعرف؟ ، البلوغ ، ص ١٢١ .

البرنامج التربوي الخاص بالشباب . فبالرغم من اهتمام الإسلام بسائر الرغبات الطبيعية لدى الشباب ، والتأكيد على إرضاء كل منها في موقعها الصحيح وبالمقدار السليم ، إلا أنه يقدّم الرغبة الدينية على سائر الرغبات الأخرى ، ويبدأ منهاجه التربوي انطلاقاً من إرضاء رغبة المعرفة الفطرية والضمير الأخلاقي .

إن الإسلام بمنهجه الرامي إلى تعزيز روح الإيمان والأخلاق في أعماق الشاب اليافع ، إنما يدفعه نحو الفضيلة وعبادة الله الواحد الأحد ، ويجعله إنساناً بكل ما في الكلمة من معنى ، ويعده إعداداً سليماً ليحيا حياة شريفة كريمة مقرونة بالإيمان الإلهي والسجايا الأخلاقية .

وتبرز هذه الأهمية جلية في خطاب حكيم مسهب وجهه أمير المؤمنين علي عليه السلام لابنه الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ، وكان شاباً يافعاً ، حدّد فيه أسلوبه في التربية ، مبتدئاً منهجه التربوي بإحياء الرغبات الدينية .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : وَأَنْ أْبْتَدِثَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ وَتَأْوِيلِهِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ (١) .

كبح الغرائز :

إنّ لتعليم الشاب أحكام الدين وشرائعه ، وكذلك تعزيز روح الإيمان والأخلاق في نفسه ، أثرين كبيرين ، الأول : إرضاء الحسّ الديني الفطري لدى الشاب ، والثاني : جعل هذا الحسّ قادراً على كبح سائر الرغبات الطبيعية والغريزية في أعماق الشاب ، والحوّول دون تمردها وطغيانها ، وذلك لإنفاذه من الضلالة والانحراف .

قال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ .

(١) نهج البلاغة ، الفيض ، ص ٩٠٥ .

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في أحسن صورة ، وبث في أعماقه رغبة المعرفة وقدرة التمييز بين الخير والشر . ولكن ما يبعث على الأسف أن معظم الناس ينجرفون نحو الرذيلة والانحطاط الخلقي والأخلاقي ، بسبب عدم اهتمامهم ببناء الفطرة وإفراطهم في الإذعان لغرائزهم وأهوائهم النفسية ، أما الذين يستجيبون لنداء الفطرة ، ويسعون إلى إرضاء رغبتهم الإيمانية والأخلاقية إلى جانب رغباتهم الأخرى ، منهم السعداء دون غيرهم .

الرغبة الجامحة :

مع حلول فترة البلوغ ، تصحو رغبة المعرفة والحسّ الديني في أعماق الشباب ، وتجعلهم يندفعون إلى تعلّم المسائل الدينية . وهذه الرغبة الفصريّة تكون في سنّي البلوغ جامحة وقوية ، لكنها سرعان ما تخفّ وتصبح مجرد رغبة عادية بانتهاء هذه المرحلة .

مقدمة كتاب التربية :

لقد تعمّق الإسلام ضمن برنامجه التربوي لجيل الشباب في اهتمامه بوثبات الحسّ الديني والرغبات الدينية الجامحة التي تصحو عادة في نفوس الشباب خلال مرحلة البلوغ . وقد بدا اهتمام الإسلام بهذه الفرصة القصيرة والثمينة جداً جلياً ، حينما اعتبرها بمثابة مقدمة لكتاب يحمل عنوان «تربية الشاب» .

لقد عمل الإسلام على تنظيم برنامج تنمية روح الإيمان والأخلاق ، الذي يعتبر ركناً مهماً من أركان تربية الشباب ، وفق ميولهم ورغباتهم الفطرية وعلى أساس العرض والطلب . فإذا طلب الشاب المعرفة الدينية أثناء فورة البلوغ ، وشعر بحاجته إلى تعلّم أمور الدين ، فإنه يجد الغرض عند أولياء الله سلام الله وصلواته عليهم أجمعين ، الذين لم ينطقوا إلاّ دُرّاً ، ولم يتفوهوا إلاّ دروساً عظيمة ، حيث أوصوا الإنسان لاسيما الشاب بتعلّم قراءة القرآن والالتزام بأحكام الإسلام وشرائعه واجتناب المعاصي والإتيان بالأوامر الإلهية ،

وهناك روايات كثيرة عنهم سلام الله عليهم ، نأتي إلى ذكر بعض منها :

تأثير الدين في الشاب :

قال الإمام الصادق عليه السلام : مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَهُوَ شَابٌ مُؤْمِنٌ اخْتَلَطَ الْقُرْآنُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ (١) .

وعنه عليه السلام أنه قال : الغلام يلعب سبع سنين ويتعلم الكتاب سبع سنين ويتعلم الحلال والحرام سبع سنين (٢) .

قيمة عبادة الشاب :

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : سبعة يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظلِّهِ يَوْمَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ ، الإمام العَدْلُ وشابٌّ نشأ في عبادة الله (٣) .

توبة الشباب :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب (٤) .

استحقاق الجزاء :

يشكل إرضاء الرغبة الدينية لدى الشباب وتنمية روح الإيمان والأخلاق في ضمائرهم ، ضرورة تربوية ملحة . والشباب الذي يتهرب من أداء هذه المسؤولية يستحق الجزاء برأي أئمة الهدى المعصومين (٥) .

قال الإمام الباقر عليه السلام : لَوْ أُتِيَتْ بِشَابٍّ مِنْ شَبَابِ الشَّيْخَةِ لا يَتَّقُهُ في الدِّينِ لأَوْجَعْتُهُ (٦) .

(١) وسائل الشيعة ج ٢ ، ص ١٤٠ .

(٢) الكافي ج ٦ ، ص ٤٧ .

(٣) تفسير مجمع البيان ج ٢ ، ص ٣٨٥ .

(٤) مشكاة الأنوار ، ص ١٥٥ .

(٥) سفينة البحار ، (شباب) ، ص ٦٨٠ .

الآباء المهملون :

وفي هذه المسيرة التربوية لا يمكن أن نغفل عن مسؤولية الآباء تجاه أبنائهم ، فهم ملزمون بتعليم أبنائهم وتشجيعهم على تعلّم الفرائض الدينية ، ليصنعوا منهم جيلاً مؤمناً مستقيماً . والآباء الذين يهملون هذه المسؤولية التربوية العظيمة ، ويتجاهلون رغبة أبنائهم في المعرفة الدينية والإيمانية . أشار إليهم الرسول الأكرم ﷺ بأصابع اللوم ، وأكد على البراءة منهم .

روي عن النبي ﷺ أنه نظر إلى بعض الأطفال فقال : وَيَلُّ لَأَوْلَادِ آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ آبَائِهِمْ . فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ آبَائِهِمُ الْمُشْرِكِينَ ، فَقَالَ : لَا ، مِنْ آبَائِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَعْلَمُونَهُمْ شَيْئاً مِنَ الْفَرَائِضِ وَإِذَا تَعَلَّمَ أَوْلَادُهُمْ مَنْعُوهُمْ وَرَضُوا عَنْهُمْ بِعَرَضٍ يَسِيرٍ مِنَ الدُّنْيَا ، فَأَنَا مِنْهُمْ بَرِيءٌ وَهُمْ مِنِّي بَرَاءٌ^(١) .

أول فرصة :

ولكي نعمق من أثر المعارف الدينية في ضمائر الشباب ، ينبغي علينا أن نستغل أول فرصة متاح لنا ، ونبدأ بتلقين أبنائنا العلوم والمعارف الدينية ما أن نلمس وثوب الحسّ الديني في أعماقهم ، وهذا ما يؤكدّه أولياء الله عليهم أفضل الصلاة والسّلام .

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : بَادِرُوا أَحْدَانَكُمْ بِالْحَدِيثِ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَكُمْ إِلَيْهِمُ الْمُرْجِئَةُ^(٢) .

ركيزة اطمئنان القلب :

الإيمان بالله قاعدة قوية لسعادة الإنسان .

والإيمان بالله مصدر حقيقي لقوة الإنسان وثقته بنفسه .

والإيمان بالله ركيزة صلبة لراحة النفس وسكونها .

(١) مستدرک الوسائل ج ٢ ، ص ٦٢٥ .

(٢) الكافي ج ٦ ، ص ٤٧ .

قال عزّ من قائل : ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (١) .

قوة الايمان :

إنّ الأحداث الذين ترعرعوا منذ بداياتهم وسط جوّ من الإيمان ، وباتت قلوبهم مفعمة بالإيمان بالله جلّ وعلا ، وعملوا على إرضاء رغباتهم الدينية ، لا يمكن أن يستسلموا لمشاكل الحياة وصعابها ، بل هم قادرون بفعل إيمانهم على تحديّ كل ما يعترضهم في مسيرتهم الحياتية من صعاب ، والتغلب عليها .

«يقول وليم جيمس أخصائي في علم النفس الحديث وأستاذ الفلسفة في جامعة هارفرد : إنّ الإيمان هو واحد من القوى التي يستعين بها الإنسان في حياته ، وفقدان الإيمان بالكامل يعني انهيار الإنسان» (٢) .

«أما جون. بي. كاينزل فيقول : لعل أكثر ما يؤلم في عدم الإيمان ، هو أن المبتلى به يشعر وكأن الدنيا وما فيها باتت مملّة غير مستقرة ، في حين أن المؤمن يرى في الخلقة والحياة هدفاً لا يمكنه إثباته للآخرين» .

«فالإيمان قلعة تقينا من أعاصير الحياة ، وتحمينا من السقوط والانهازم ، وهو مقياس عظيم ، إذا ما قسنا بواسطته كل شيء لأدركنا ضالّة وحقارة كل ما يسعدنا ويتعسنا ، فلن نعود نشي أمام الشدّة ولن نغترّ ونضلّ أمام الفرج . فمن لا دين له أشبه ما يكون بالغريق الذي يتخبط في بحر من الشك والتردد والحيرة ، لا يمكنه أن يميّز بين الخير والشر ، والضار والمفيد ، والصدق والكذب ،

(١) سورة الرعد ؛ الآية : ٢٨ .

(٢) سنّة الحياة ، ص ١٥٥ .

ولا مستقرّ له على رأي أو عقيدة ، ويعاني من صراع دائم مع الذات والطبيعة والناس»^(١) .

حبّ النزاهة :

«يقول الدكتور كارل : ثمة رجال ونساء في جميع بلدان العالم يعتبرون أن الحياة لمجرد الحياة ليس هدفاً كافياً ، وأن الحياة برأيهم ليست أسمى النعم والعطايا ، إنهم تواقون للجمال والنزاهة والعشق ، ويرومون الوصول إلى الله» .

«ولم تأت الفلسفة إلا بأجوبة سطحية على أسئلتهم ، ولم يستطع سقراط ولا أفلاطون ولا غيرهما تهدئة الاضطراب الذي يشعر به الإنسان أمام سرّ الحياة» .

إزالة الاضطراب :

«الدين فقط هو الذي استطاع أن يضع حلولاً لكل ما يدور في خلد الإنسان ، وهو الذي استطاع أن يزيل الاضطراب الذي عاشه الإنسان على مدى قرون مضت إزاء أسرار الحياة ، فالوعي الديني والتوجّه إلى الله والإيمان به ، كل ذلك يقرب الإنسان من قوة اليقين وراحة النفس»^(٢) .

إنّ الإنسان بحاجة إلى توجيه صحيح وتربية سليمة لكي يسعد في حياته كإنسان واقعي . ومن هنا يتوجب على الآباء مراقبة أبنائهم خلال الفترة الواقعة بين عهد الطفولة والصبا وعهد البلوغ والشباب ، والاهتمام بتربيتهم تربية صالحة ، وعليهم أن يسعوا إلى تعليم فلذات أكبادهم عوامل الخير والشر ، وتشجيعهم على تحمّل المسؤوليات ، وهذه المسؤوليات التربوية تؤكد لزوميتها

(١) البهجة ، ص ٤٣ .

(٢) سبل الحياة ، ص ١٢٦ .

جميع المذاهب والأديان السماوية وتقرّها كافة المناهج العلمية والتربوية في العالم ، مع وجود فارق واحد بينها ، وهو أنّ المذاهب والأديان السماوية تؤكد ضرورة الإيمان بالله كقاعدة رئيسية وشرط أساسي في برنامج التربية وتطبيق المُثل الأخلاقية .

التربية من دون إيمان :

أمّا المراكز والمؤسسات التربوية، فجميعها إما تلتزم الصمت حيال مسألة الإيمان بالله ، وإما تحذو حذو الماديين في تأييد تطبيق التربية دون أن يكون للإيمان فيها أساس أو وجود . ومسألة التأكيد على أهمية الإيمان في التربية امتازت بها جميع الرسائل السماوية عن العقائد البشرية .

فأتباع الأنبياء والرسل يؤمنون بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون ، وهو الذي خلق الإنسان بإرادته الحكيمة ، وبث في أعماقه روح الإيمان والأخلاق ، وحدّد له معالم الخير والشر ، لذا فهم يؤمنون بأن التمسك بالإيمان والأخلاق ، طاعة لأوامر الله تبارك وتعالى .

وليد الصدفة :

أمّا الماديون وأتباعهم فيعتقدون بأن الكون وليد تطورات وتفاعلات خضعت لها المادة ، وأنّ الإنسان وما يحمله في أعماقه من ضمير أخلاقي ، إنّما هو وليد صدفة حصلت في الطبيعة ، لذا فلا معنى للقيم الأخلاقية برأي هؤلاء حتى يلزموا أنفسهم باتباعها ، ويغضّوا الطرف عن ميولهم وغرائزهم احتراماً لها .

«إنّ الإحساس يسبق المنطق دائماً في تحريك الإنسان في أي سنّ كان ، وإذا ما اقتنع الإنسان بأن كل ما في الحياة من قوانين رغم صعوبتها ، إنّما هي من مشيئة الله سبحانه وتعالى ، لامثل للطاعة بمزيد من الرغبة والاندفاع . وقد أثبتت التجربة أن انقياد الإنسان لشخص واحد أفضل بكثير من انقياده لمبدأ معين . وإذا ما نظر

الفرد إلى قوانين الحياة وسننها واستمرار النسل وسمو النفس على
أنها منبثقة من إرادة الله ، لازداد قوة ونفوذاً في الحياة»^(١) .

الطريق إلى السعادة الأبدية :

يعتقد أتباع الرسالات السماوية أن ما جاء به أنبياء الله من تعاليم
أخلاقية ، إنما هي أوامر من عند الله تبارك وتعالى يجب على كل الناس
الاعتداء بها ، لأنهم يؤمنون بأن إطاعة أوامر الرسل والأنبياء ، تسر الله سبحانه
وتعالى ، وتبعث على سعادة الإنسان ، وأن عدم إطاعة هذه الأوامر تغضب الله
وتسقي الإنسان في حياته . ومن هذا المنطلق ، يندفع أتباع الرسالات السماوية
نحو الالتزام بالأحكام والتعاليم الدينية ، وتطبيقها عملياً في حياتهم . أما أتباع
المدارس الوضعية فيعتقدون بأن الفكر البشري هو الذي سن هذه القوانين
ووضع هذه التعاليم الأخلاقية ، أي أنها من صنع الإنسان ، وكيف يكون ذلك
والإنسان معرّض دائماً للخطأ ؟ ، بل كيف يمكنه ذلك وهو الذي لا يلبث أن
يغير من مواقفه ومعتقداته تبعاً لاختلاف العوامل والظروف التي يعيشها ؟ .

الأخلاق وتعارضها مع الأهواء النفسية :

لربما عمل هؤلاء وفقاً للمناهج التربوية في الظروف العادية ، لكنهم
عندما يرون أنها تتعارض مع شهواتهم وأهوائهم النفسية ، يتعمّدون تجاهلها
ويتحركون في الطريق المعاكس تحقيقاً لميولهم ورغباتهم .

«يقول «لوكونت دونوي» : إن بعض العلمانيين ممن يتمتعون
بجانب من الأخلاق يقولون : أنّ لا حاجة لهم بالدين إذا استطاعوا
تطبيق التعاليم والقوانين الأخلاقية ، طالما أن إطاعة هذه القوانين
تعتبر المشكلة الأساس . وهذه الفكرة الخاطئة إنما هي نابعة من
جهلهم لعلم النفس ، لأن الإنسان يشكك على الدوام بكل قاعدة

(١) نفس المصدر ، ص ١٦٩ .

يجهل مصدرها . كما أنّ هذه الفكرة تعتبر دليلاً واضحاً على عدم إدراكهم لأساس المشكلة ، فالهدف أن نجعل الإنسان يبني ذاته بذاته ليكتسب الخلق الفكري ، لا أن نجبره على الإتيان بما يجسّد هذا الخلق ، لأن عمل كل إنسان سيقى مصطنعاً ومؤقتاً طالما أنّه لم يعكس نموه الفكري وتكامله الباطني . إنّ القواعد الأخلاقية إذا ما فرضت على الإنسان فرضاً فإنها رغم قيمتها العملية لن تكون مؤثرة أمام النزوات الحيوانية»^(١) .

أفضل كفيل لتطبيق التعاليم :

ونستشف ممّا مرّ ذكره أن المنهاج التربوي الذي جاء به أنبياء الله يترك آثاراً عميقة في نفوس أتباعهم وطرق تفكيرهم ، وتنفذ تعاليمهم الدينية والأخلاقية إلى أعماق أتباعهم . فالإيمان بالله وهو القاعدة الأساسية للدين يعتبر أفضل كفيل لتطبيق التعاليم الأخلاقية .

حدود التعاليم الإلهية :

إنّ الذين يؤمنون بحق خالق الكون ويعتقدون دينه لن يتوانوا عن القيام بواجباتهم ومسؤولياتهم تجاهه مهما كانت الظروف والأحوال ، ولن يتجاوزوا حدود الفضيلة والأخلاق التي هي حدود التعاليم الإلهية ، وإذا ما صادف وزّلت أقدامهم وتخلّفوا عن المنهج الديني ، فإنهم يتألمون كثيراً ويتوبون إلى الله طالبين منه العفو والغفران .

أما التربية التي لا تقوم على أساس الإيمان بالله ، فإنها تكون تربية متزلزلة لا أثر لها في أعماق الإنسان وفكره . وربما أوجدت هكذا تربية في الظروف العادية نظماً أخلاقياً واجتماعياً ، ولكنها تفقد كل أثر لها في الظروف الاجتماعية الحرجة . فالإنسان الذي تلقى هذا النمط من التربية قد يجد نفسه مضطراً في الظروف الصعبة إلى ارتكاب أبشع الجرائم والقيام بما يتعارض

(١) سرنوشت بشر ص ٢١٦ (مصير البشرية) .

والمعرفة الإنسانية والأخلاقية ، ولنا في الأحداث المرّوعة التي شهدها العالم الغربي المتحضر إبان الحرب العالمية الأولى والثانية خير شاهد ودليل .

محو القيم الأخلاقية :

«يقول «إدكارش» عالم النفس الفرنسي : لقد انهارت الظواهر الأيديولوجية والأخلاقية التي كانت تصطبغ بها الحضارة الأوروبية على أثر اندلاع الحرب العالمية الأولى ، وسبب ذلك أنها كانت تقوم على أسس مادية بحتة . وباندلاع الحرب العالمية الثانية سادت العالم حالة هستيرية من الخوف والقلق ، حيث فقدت الإنسانية احترامها ، وفقدت القيم الأخلاقية أدنى أثر لها ، وباتت عمليات الإبعاد والنفي والإبادة الجماعية للمدنيين والفتك والقصف والتدمير ومعسكرات العمل القسري (التي كانت تشهد شتى أنواع التعذيب إلى جانب القحط والجوع والأمراض السارية التي كانت متفشية فيها) ، كل ذلك بات من الأساليب الطبيعية المتبعة خلال الحرب» .

العدالة الهابطة :

«وبين هذه الأساليب وتلك الحروب حاول عدد من المؤلفين الحقوقيين إضفاء الشرعية على هذا (الحق) الجديد ، والهبوط بالتصوّر الذهني العام للعدالة إلى أدنى الدرجات» .

ومن هنا فإن الوقت قد حان ليتعمّق أصحاب النوايا الحسنة في هذه المسألة الحياتية ، ويسعون لإيجاد جواب على هذا السؤال ، ما هي طبيعة التمدّن وإلى أين هو صائر بالناس ؟^(١) .

«هناك عدد كبير من المتمدنين ممن يهولهم مجرد تصوّر جريمة

(١) أفكار فرويد ، ص ١١٧ .

قتل أو علاقة جنسية غير مشروعة ، لا يتورعون عن القيام بالعدوان والاعتداء الجنسي وكل ما يحرصون عليه ، وإذا استطاعوا الإفلات من الجزاء والعقاب ، لألحقوا الأذى بأبناء جنسهم من كذب وخداع وتضليل وافتراء»^(١) .

«تجيز الحكومات خلال الحروب ممارسة شتى أنواع الظلم والعدوان والتي يتسبب أذناها خلال فترة اللا حرب بهدر كرامة الإنسان . وفي هذا الإطار تلجأ الحكومات إلى استخدام أسلوب المكر والخداع المتعمد في مواجهتها للأعداء ، وهذا ما لاحظناه رائجاً خلال الحرب العالمية بشكل لم يسبق له مثيل»^(٢) .

هدم الأسس الأخلاقية :

«وهذه السياسة لا تقضي فقط على كل مسعى لرقى الإنسان وشموخ مكانته ، بل تساعد الحكومات على تدمير المجتمعات التي تحكمها وهدم كل الأسس الأخلاقية التي كلف بناؤها الكثير من التضحيات»^(٣) .

إذن ، فالمنهج التربوي مهما كانت جذوره العلمية والنفسية يفتقر لقدرة المقاومة أمام الغرائز والأهواء في الحالات العصبية ، ما لم يكن قائماً على أساس الإيمان بالله والامثال لأوامره جلّ وعلا ، ولا يمكنه أن يدفع بالإنسان نحو تأدية واجباته ومسؤولياته واجتناب كل ما يتعارض والشؤون الأخلاقية والإنسانية .

التربية على أساس الفطرة :

لقد جاء الإسلام ببرنامج تربوي منظم على أساس فطرة الإيمان ، وذلك لبناء أمة صالحة تحتضن جيلاً من الشباب يؤمنون بالله واليوم الآخر . والإسلام يستند في برنامجه على قوة الضمير الأخلاقي الذي زرعه الله سبحانه وتعالى في

(١) و٢ و٣) أفكار فرويد ، ص ١٢٣ و١٢٥ و١٢٦ .

نفوسنا ، بهدف بناء مجتمع تحكمه الصفات الإنسانية والسجايا الأخلاقية .

استغلال الحسّ الديني :

لم يتجاهل الإسلام في برنامجه التربوي وثوب الحسّ الديني لدى
الفتيان ، فقد كلّفهم بتأدية سلسلة من الفرائض الدينية لمجرد أن تفتح في
أعماقهم رغبة المعرفة الدينية بشكل طبيعي . كما دعم الإسلام إيمان الناس
بالله سبحانه وتعالى من خلال العبادات اليومية التي فرضها عليهم .

تعديل الرغبات :

وينطلق الإسلام في تربية جيل الشباب من رغباتهم في المعرفة الأخلاقية
والدينية ، وهو يساهم من خلال إرضاء هذه الرغبات الروحية في تعديل سائر
الرغبات الطبيعية لدى الشبان ، ومنعها من التمرد والفلتان .

وتؤكد الشريعة الإسلامية أن الإيمان بالله وإرضاء الحسّ الديني ، هما
الكفيلان بنجاح كل المناهج والمدارس الأخلاقية والتربوية ، وتحذّر الناس من
مخاطر الانجراف في تيار الرذائل والآثام .

إنّ الشاب الذي يودّ أن يتربّي وسط هالة من السجايا الأخلاقية والصفات
الإنسانية ، ويطمح لأن تكون له شخصية معنوية مرموقة ، ويطمح في أن
يستطيع كبح رغباته وأهوائه النفسية في الحالات الانفعالية ، ليحيا حياة مليئة
بالظّهر والفضيلة والاستقامة ، ينبغي عليه أن يستجيب فور بلوغه لنداء الإيمان
والضمير الأخلاقي ، وأن يعمل منذ أن تفتح في أعماقه رغبة المعرفة الدينية ،
على اكتساب العقائد الصحيحة والتعاليم الأخلاقية السليمة ، والتمسك بحبل
الله المتين ، لإرضاء تلك الرغبة الفطرية في نفسه ، وأن يوطّد العلاقة الروحية
بينه وبين خالقه ، ويتذكّره ويذكره في جميع الأحوال .

اتباع قانون الفطرة :

أما المرَبون الذين يريدون إعداد جيل كفوء صالح من الشباب ، فعليهم

اتباع قانون الفطرة والتكوين ، والتوفيق بين برامجهم التربوية ورغبات الشباب الفطرية .

إنَّ إحياء الرغبات الإيمانية والأخلاقية لدى الشباب ، وإرضاء أحاسيسهم تجاه المعرفة الدينية ، يعتبران إطاعة لقانون الخلقة ونظام التكوين . وعدم الاهتمام بهذه الرغبات ، وكبت تلك الأحاسيس ، يعتبران مخالفة صريحة لقانون الفطرة ونظام التكوين ، ومما لا شك فيه أن التمرد على هذا القانون تترتب عليه نتائج لا تحمد عقباها ، وأن المتمرد لا بد وأن ينال جزاءه لا محالة .

إحدى المشاكل الاجتماعية :

لقد استأثرت مسألة الشباب التي تصدرت أهم المشاكل التي تعاني منها مجتمعات البلدان المتقدمة اليوم ، باهتمام كبير من تيل كبار العلماء والمفكرين لما لها من أهمية بالغة .

إذ تؤكد إحصائيات دقيقة أن عدد الجرائم التي يرتكبها الشباب في الدول الغربية يتضاعف كل عام . وهؤلاء الشباب قد اعتادوا على الفلتان والعصيان وأدمنوا على الموبقات نتيجة عدم إيمانهم وسوء تربيتهم .

وباتت الممارسات المنافية للقانون والأخلاق ، كانتهاك حرمة القانون والعصيان والسرقه والعدوان والتعدي على حقوق الآخرين وترك العلم والإدمان على المخدرات وتعاطي المسكرات والرذيلة وغيرها من الذنوب والآثام ، كل هذه الممارسات باتت متفشية بين جيل الشباب ، والسبب في ذلك هو التربية القائمة على عدم الإيمان والتمرد على قانون الفطرة .

إنَّ الذنوب التي ترتكب عن عدم إيمان لا بد وأن تؤدي في النهاية بمرتكبها ومن يحيط به إنَّ على صعيد الأسرة أو المجتمع نحو التعاسة والشقاء .

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً
ضَنْكًا﴾^(١) .

(١) سورة طه ، الآية : ١٣٤ .

المحاضرة الثالثة عشرة

حول تحديد غرائز الشاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تبارك وتعالى في محكم كتابه : ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾^(١) .

أحد أركان التمدن :

إن تعديل الميول النفسية وترويض الغرائز هما من الأركان الرئيسية للتمدن ، والشروط الأساسية لسعادة الإنسان وهنائه ، وهذا ما أجمعت عليه كل الأديان السماوية وكافة العلماء والمفكرين .

فالإنسان الذي يود أن يكون إنساناً حقيقياً على الصعيد المعنوي ، ويبلغ الكمال الحقيقي في ظل التعاليم الإلهية السمحاء ، وأن يعيش حياة هانئة متمتعاً بكل الصفات الأخلاقية والإنسانية ، ينبغي على مثل هذا الإنسان أن يسعى إلى تحديد غرائزه وأهوائه النفسية بالمقدار الصحيح ، والحيلولة دون تمردها وإفراطها ، لأن الانجرار دون وعي وراء هوى النفس ، يجرد الإنسان من إنسانيته ، ويرمي به إلى مستنقع الرذيلة والفجور .

(١) سورة الشورى ؛ الآية : ٣٧ .

سبب الضياع والانحراف :

كان أبو عبدالله الإمام الصادق عليه السلام يقول : لا تَدْعِ النَّفْسَ وَهَوَاهَا فَإِنَّ هَوَاهَا زَدَاهَا^(١) .

وبغض النظر عن البعد المعنوي والإيماني ، يتوجب على المرء تحديد غرائزه وشهواته النفسية إذا ما أراد أن يكون إنساناً متمدناً يتمتع بكل مظاهر المدنية ، وأن يكون فرداً من أفراد المجتمع من الناحية المادية .

«يتجه الكثير من الناس إلى معارضة المدنية لأنها تحدّ من عمل غرائزهم ، ويجب الالتفات إلى أن هذه المعارضة مرفوضة بتاتاً ، لأن مسألة تحديد الغرائز هي من المسائل الضرورية جداً من الناحية الفنية التي تعتمد عليها المدنية لبلوغ أهدافها ومراميها .

إذن ، فالإنسان الذي يتوقّع أن ينعم بالأمن والاستقرار في ظل المدنية دون أن يفرط بحريته الشخصية ، يكون توقّعه أجوف ، لأنه إذا ما أراد أن يعيش في مجتمعه عليه أن يصرف النظر عن حريته الطبيعية التي كان يتمتع بها قبل نشوء المدنية» .

وجهان متضاربان :

«إنّ الرغبة في الرجوع إلى الوضع السابق ، لإطلاق الغرائز ومنحها حريتها ، خطأ كبير ، لأن توقّع العيش وسط مجتمع متمدن مع الحفاظ على الحرية الشخصية الكاملة ، يشكّلان وجهين متضاربين ، ويؤديان إلى سلب الآخرين حريتهم» .

«إنّ الحدّ من الاعتداءات والتجاوزات يعتبر ضرورة اجتماعية ، وواضح جداً أنّ الإنسان الذي يسمح لدوافع العدوان أن تتفاعل

(١) الكافي ج ٢ ، ص ٣٣٦ .

في نفسه بشكل غريزي (كحب القتل أو الاعتداء الجنسي) ، لا يمكنه أن يقيم أية علاقة اجتماعية»^(١) .

ضرورة تحديد الغرائز :

وباختصار نقول : إن جميع العلماء وكافة المؤسسات العلمية في العالم يلتقون في آرائهم عند ضرورة تحديد الغرائز وتعديل الميول النفسية في حياة الإنسان . فالإنسان مضطر للحدّ من حرية ميوله النفسية وإرضاء غرائزه وفق معيار سليم ، وذلك تحقيقاً لسعادته في الحياة ، أو على الأقل تأميناً لحياة مدنية سالمة .

وهنا ربما يتساءل البعض ، كيف يمكن كبح الشهوات والغرائز الجامحة للإنسان ؟ ، وبأية وسيلة يمكن تحذير الإنسان من مخاطر طغيان الرغبات والأهواء النفسية ؟ ، وما هي القدرة التي يمكنها أن تضمن مسألة تعديل الميول النفسية للإنسان ؟ .

إنّ من أهم العوامل المؤثرة في تعديل الرغبات والميول النفسية ، وكبح غرائز الإنسان ، العقل .

العقل وقياس الشهوات :

إنّ العقل باستطاعته وفق حسابات دقيقة تحديد حرية الإنسان ، وتحديد كل ما هو مباح وغير مباح له في مسيرته الحياتية ، وكذلك يستطيع العقل قياس شهوات الإنسان ورغباته ، وتوفير الأرضية المناسبة لتعديلها ، والعقل قادر أيضاً على هداية غرائز الإنسان إلى سبيل الخير والصلاح ، ومنعها من التمرّد والطغيان ، وهو بالتالي الهادي إلى الفلاح والرّشاد .

(١) أفكار فرويد ، ص ١٢١ .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : فِكْرُكَ يَهْدِيكَ إِلَى الرَّشَادِ (١) .

طغيان الغرائز :

إنَّ المشكلة الأساس التي تعترض العقل في مسيرته لهداية الإنسان ، هي قوة الشهوات والدوافع الغريزية في أعماق الإنسان ، فعندما تهيج هذه الشهوات والغرائز ، ويستولي الغضب على الإنسان ، يضعف نور العقل ويخفت ، ويفقد العقل قدرة المقاومة أمام هذا السيل العارم من الشهوات والزوات التي تغلب على الإنسان وتملك كل كيانه وأحاسيسه ، وتدفعه بجنون إلى ارتكاب الموبقات .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : الغَضْبُ يُفْسِدُ الْأَلْبَابَ وَيُبْعِدُ عَنِ الصَّوَابِ (٢) .

عجز العقل :

وعنه عليه السلام أنه قال : أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ (٣) . ونستشف ممَّا ورد أن للعقل دوراً مؤثراً في الحالات الطبيعية في كبح الغرائز وتعديل الميول النفسية ، وهو قادر على تحديد حرية الإنسان وفق إطارها الصحيح ، ولكنه في حالات هياج الأحاسيس وطغيان الغرائز يصبح عاجزاً تماماً عن تسكين فورة هذه الأحاسيس والغرائز .

العلم شعلة منيرة :

من العوامل الاخرى القادرة على تعديل الميول النفسية وكبح الغرائز في أعماق الإنسان ، هو العلم . فالعلم هو كالشعلة المنيرة التي تنير للإنسان دربه المظلم في الحياة ، لتصونه من الانزلاق في متاهات الحياة . وممَّا لا شك فيه أن للعلم دوراً مؤثراً جداً في تنمية طاقات الإنسان واستعداداته ، وهو قادر على

(١ و٢ و٣) غرر الحكم ، ص ٥١٦ و ٤٩٠ و ٤٩١

تحديد غرائز الإنسان ، ولفت انتباهه لصلاح نفسه ، ومنعه من الإتيان بما تمليه عليه أهواؤه النفسية .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : كَلَّمَا زَادَ عِلْمُ الرَّجُلِ زَادَ عِنَايَتُهُ بِنَفْسِهِ وَبَذَلَ فِي رِيَاضَتِهَا وَصَلَاحِهَا جُهْدَهُ^(١) .

العلم والأحاسيس :

يتساوى العلم رغم كل ما يحمله من آثار عظيمة مع العقل في مواجهة فورة الأحاسيس ، ويفقد مقاومته أمام هياج الغرائز . فالدراسات العليا لا يمكنها أن تصون الإنسان من الحرص والجشع والغرور والتكبر وحبّ الجاه ، ولا يمكنها أن تكبح شهوته وتهديء غضبه ، أو أن تجعله إنساناً محبباً للتضحية والإيثار .

التراجع عن النظرية العلمية :

لو تفحصنا تاريخ العلم والعلوم قليلاً ، لرأينا كيف أن العالم المشهور غاليلو الذي تعرّض لانتقادات وضغوط شديدة ووُجّهت إليه دعوة للمثول أمام مجلس الكنائس للتحقيق في النظريات ، بسبب نظريته حول حركة الأرض ، كيف تراجع عن نظريته وأعلن عن توبته لينقذ نفسه من التهلكة إرضاءً لغريزة حب الذات .

«كان مكتب الأب المقدس منهمكاً في إعداد الحكم ، وفي العشرين من حزيران عام ١٦٣٣ اقتيد غاليلو إلى المكتب وأجبر في الثاني والعشرين منه في نفس العام على توقيع اعتراف أعد مسبقاً جاء فيه : إنني غاليلو البالغ من العمر ٧٠ عاماً ، أقسم أمامكم أيها الحضرات بهذا الكتاب المقدس على أنني أنفي ما

(١) مستدرک الوسائل ج ٢ ، ص ٣١٠ .

ورد في ادعائي حول حركة الأرض نفيًا قاطعاً ، وأرفض هذه النظرية رفضاً لا رجعة فيه»^(١) .

التربية وتعديل الرغبات :

ومن العوامل الأخرى المؤثرة في تعديل الرغبات والميول النفسية ، عامل التربية . فالذين يتلقون منذ نعومة أظفارهم تربية صالحة على أيدي مربين أكفاء ، يكونون في كبرهم ممن يستطيعون السيطرة إلى حد ما على غرائزهم وميولهم ، لأنهم اعتادوا على الطهر والفضيلة وابتعدوا عن الإثم والرذيلة ، وذلك بفضل التربية السليمة التي تلقوها .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : مَنْ كُفِّتْ بِالْأَدَبِ قَلَّتْ مَسَاوِيهِ^(٢) .
والتربية إذا ما استندت إلى غريزة حب الذات وامتزجت بشيء من العاطفة والحنان ، فإنها تشكل عاملاً مؤثراً في كبح الغرائز وتعديل الميول النفسية . أما إذا لم تعتمد العاطفة والحنان واكتفت بالمحاسبات العقلية والعلمية ، فإنها لن تكون قادرة على مواجهة طغيان الغرائز وفورة الأحاسيس .

التربية والتعليم :

ثمة منهج تربوي وتعليمي يسود العالم الغربي منذ أمدٍ بعيد ، يهدف إلى كبح الغرائز وإيجاد مدنية حقيقية ، وقد تربى على أساس هذا المنهج مئات الملايين من البشر عبر عدة أجيال متوالية ، لكنهم ورغم كل المساعي التي بذلت في هذا الإطار ، غالباً ما يعلنون عن استيائهم من الحدود التي طوّقت غرائزهم والقيود التي فرضتها المدنية على تحصيل رغباتهم وميولهم ، ولن يدخروا وسعاً في إرضاء وإشباع غرائزهم بأية وسيلة كانت إذا ما ساحت لهم الفرصة بذلك متحللين من قيود المدنية .

(١) تاريخ العلوم ، ص ١٩٣ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٦٤٥ .

المدنية الظاهرية :

«يقول أستاذ علم النفس الفرنسي «إدكاربش» : إن الممارسات العدوانية التي يرتكبها الكثير من الناس فور تحلل القيود وزوال الموانع الاجتماعية ، تثبت أن الإنسان مهما عاش وسط المجتمعات وعاصر مدنيات مختلفة ، يبقى بعيداً عن التمدن . وهذه الأكثرية التي تحدثنا عنها إنما هي بعيدة عن المدنية لأنها لا تعرف للمدنية معنى ، وهي تحترم المدنية ما دامت هناك ضغوط اجتماعية عليها»^(١)

«يقول فرويد في أحد مؤلفاته : إن عدد الذين يدعون كذباً وافتراءً مناصرتهم للمدنية أكثر بكثير من أولئك المتمدنين حقاً . إن المدنية يجب صونها والدفاع عنها في مواجهة فورة الغرائز لدى الأفراد وعدائهم»^(٢) .

الشكوى من التمدن :

«إن شكوى الناس من التمدن تظهر في الواقع اندفاعاتهم الغريزية وروح العدا في نفوسهم . إن أولئك الذين يشكون المدنية وينتقدون هيكليتها وتركيبتها من الجوانب المعنوية والسياسية والاقتصادية ، ليسوا متمدنين ، وإنما يدعون التمدن كذباً . فالكثير من الأفراد يسعون إلى إرضاء غرائزهم تحت ستار التمدن ، وكلهم تقريباً تراهم يؤيدون القيود والموانع الاجتماعية إذا ما فرضت على سواهم ، أما إذا طالتهم ، فإنهم يولولون احتجاجاً واعتراضاً»^(٣) .

(٢١) أفكار فرويد ، ص ١١٦ و ١١٨ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٩ .

عوامل ترويض الغرائز :

ثمة عوامل أخرى يمكنها أن تساهم في تحديد الرغبات النفسية والحدّ من الاعتداءات التي تحصل بدافع غريزي ، كالإشراف القومي واستياء الرأي العام والقوانين الجزائية وغيرها ، ولكل منها أثرها في تعديل الرغبات والحدّ من الحرّيات المفرطة، إلّا أنّ العوامل الأساسية الثلاثة ، العقل ، والعلم ، والتربية هي التي اشتهرت في عالمنا هذا بعوامل ترويض الغرائز ، حيث جعل منها المربّون التربويّون أساساً لمناهجهم ، ولكن كما سبق وذكرنا فإنّ أيّاً من هذه العوامل لا يمكنها أن تقاوم أمام طغيان الشهوات والغرائز ، إذن ، فهي ليست إيجابية وثمرّة في جميع الأحوال .

وهنا لعل البعض يتساءل ، لماذا لا يستطيع العقل والعلم والتربية كبح الغرائز والأهواء النفسية ؟ ، بل لماذا ينهزم العقل والعلم والتربية ، ويفقد كل منها أي أثر له أمام فورة الشهوة وهياج الغضب ؟ .

القوة المحركة للإنسان :

وللإجابة على هذين السؤالين نقول : تعتبر قوة الأحاسيس أكبر قوة محرّكة للإنسان ، فهذه القوة هي التي تدفعه إلى القيام بصلاح الأعمال وطالحها ، وهي التي تمنحه قدرة الحركة والنشاط . فالشجاعة والشهامة والصرّاحة والتضحية والإيثار من جهة ، والخوف والجبن والرياء والخبث والغرور والحطّة من جهة أخرى ، كلها تنبع من الأحاسيس .

والعقل قادر على تحديد طريق السعادة والهناء للإنسان وفق محاسبات دقيقة ، ولكن القدرة التي تمكّن الإنسان من طي المسالك الوعرة وتجاوز المنعطفات الخطيرة في مسيرة الحياة ، هي قدرة الأحاسيس .

فالرأفة والمحبة والإحسان وحبّ الناس والسخاء وغيرها من الأحاسيس النبيلة هي التي تضمن للإنسان سعادته ، أما الحسد والغرور والتكبّر والبخل

وسوء الخلق وما إلى ذلك من أحاسيس رذيلة ، فهي التي توقع الإنسان في التعاسة والشقاء ، ومن هنا كانت الأحاسيس القوة المحركة للإنسان .

قوة الغرائز وضعف العقل والعلم :

مع الأخذ بعين الاعتبار انتماء الغرائز والأهواء النفسية إلى مجموعة الأحاسيس القوية جداً في أعماق الإنسان ، يتضح لنا سبب عجز العقل والعلم والتربية عن كبح الغرائز والنزوات ، لأن قوة اندفاع الغرائز والميول النفسية أكبر بكثير من قوة العقل والعلم ، ولا يمكن أبداً لقوة صغيرة أن تسخر قوة كبيرة لها أو تتغلب عليها .

توازن القوة :

بفضل التقدم العلمي العظيم في عصرنا الحالي ، يتم كبح جريان مياه الأنهار العظيمة بواسطة سدود عظيمة تقام فوق الأنهار ، ويتم ادّخار ملايين الأمتار المكعبة من المياه خلف السدود ، للاستفادة منها في مجالي العمران والزراعة وفق خطط ومشاريع مدروسة ، وبهذا العمل يكون الإنسان قد أستفاد من مياه الأنهار استفادة قصوى ، وفي الوقت ذاته صان نفسه ومصالحه من الأضرار التي يتسبب بها فيضان الأنهار .

ومما لا شك فيه أن الشرط الأساس في وقف جريان الماء ، هو إيجاد توازن بين قوة ضغط الماء وقوة بناء السّد . وهذا ما يدخل في إطار عمل المهندسين الذين يُجرون دراسة دقيقة لإنشاء سدّ تفوق قوة مقاومته قوة ضغط الماء ليصمد أمام ارتفاع منسوب مياه الأنهار وفيضانها .

والغرائز والأهواء النفسية في كل فرد منّا أشبه ما تكون بينابيع وعيون دافقة ، إذا ما اهتممنا بها وفتحنا لها ترعات وقنوات وفق دراسة دقيقة ، فلا شك أنها ستعش ليس الفرد فحسب ، بل المجتمع برّمته ، أما إذا أهملناها وتركنا مياهها تتدفق بغزارة ، فإنها ستتلّف كل شيء ، وتعود علينا جميعاً بمخاطر كبيرة .

كبح الغرائز :

لكي يستطيع الإنسان كبح الإحساس الغريزي وهوى النفس في أعماقه ، عليه أن يستنفر إحساساً ذا قوة أكبر من قوة الإحساس الغريزي ، ولما كان العقل والعلم والتربية جميعاً عاجزين عن مقاومة إعصار الغرائز ومنعها من الطغيان والتمرد ، يبقى الإحساس بحد ذاته هو الوحيد القادر على تطويع وتسخير غيره من الأحاسيس .

«ليس هناك من هو مستعد للتضحية بنفسه في سبيل حقيقة علمية ، حتى غاليليو أنكر نظريته العلمية خشية الشهادة في سبيلها . لا يكفي أن تكون صحة واجب ما هي الدافع الإلزامي لإطاعة هذا الواجب . فعندما تؤثر نظرية ما في سلوك الناس ، يكون مرد ذلك احتواؤها على عوامل عاطفية إلى جانب العوامل المنطقية» .

قوة الحب :

«إنَّ الحب هو الوحيد القادر على تحطيم قلاع النفس التي تتحصن خلفها أنانياتنا ، وبث روح الحياة في نفوسنا ، وجعلنا نتعشق التضحية وإن كانت مؤلمة . فحب الأم لابنها الصغير مثلاً هو الذي يجعله يكتسب سلوكاً مهذباً وعاقلاً . إن مطالعة كتاب في الحقوق لا يمكنها أن تثير فينا روح الحياة ، والشهداء الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل المسيح لم يخسروا حياتهم من أجل بعض القوانين الطبيعية والوضعية ، فليس لأي مفهوم القدرة على إثارة الإنسان ما لم يكن مقترناً بالعقيدة»^(١) .

لقد استأثرت العوامل المساعدة في كبح الغرائز وتعديل الميول النفسية

(١) سبل الحياة ، ص ١١٣

مثل العقل والعلم والتربية والحياء الاجتماعي والرقابة الحكومية وقوانين الجزاء وما إلى ذلك من عوامل مؤثرة ، استأثرت باهتمام الإسلام ، وقد نزلت في ذلك الكثير من الآيات الكريمة والروايات التي نقلها إلينا التاريخ ، ولكن العامل الأقوى والأهم الذي أكد عليه الإسلام لكبح الغرائز ، وجاءت نتائجه ثمرة ، هو عامل الحسّ الديني .

حبّ الله :

لقد أوجد الإسلام في نفوس أتباعه الحقيقيين سداً عظيماً من قوة الإيمان وحبّ الله الواحد القهار ، يقيهم من مخاطر أعتى الغرائز والشهوات ، ويحفظهم من شرّ الميول والرغبات المتمردة .

وبعبارة أخرى نقول : لم يكتف الإسلام بقوة العقل والعلم والمنطق لتعديل الميول وتحديد الرغبات النفسية للإنسان ، بل جاء ليؤكد أهمية قوة الإيمان والحسّ الديني في تحقيق هذا الهدف ، وبذلك هدف إلى حماية أتباعه من مخاطر تمرد الميول وطغيان الرغبات النفسية .

وهنا لا بد من توضيح مختصر لمفهوم التربية في الإسلام .

الضمير الأخلاقي :

كما ذكرنا في الفصل السابق ، فإن المعرفة الإلهية والضمير الأخلاقي قد امتزجا بفطرة الإنسان ، والطفل كلما ترعرع وزادت قوة إدراكه ، كلما تفتحت ملكاته الفطرية ونضجت .

والضمير الأخلاقي الذي عبّر عنه القرآن الكريم بالإلهام الإلهي ، هو ركن أساس من أركان التربية ، وهو بمثابة شعلة وهّاجة يتصاعد لهيبتها من أعماق روح الإنسان لا يمكن إخمادها بأي شكل من الأشكال .

رسوخ الضمير :

«يقول هنري باروك : ليس الضمير الأخلاقي ردة فعل مصطنعة ،

بل هو أكثر العوامل تعمقاً في كيان الإنسان الفطري ، وليس بمقدور الإنسان مهما كانت الظروف قتل الضمير في نفسه . إضافة إلى ذلك ، فإن رسوخ الضمير الأخلاقي في أعماق الإنسان حتى وإن كان مريضاً أو مختلاً عقلياً أو مكتئباً نفسياً ، وكذلك بقاؤه بعد خفوت العقل والذكاء ، لدليل واضح على أهميته ومكانته في الإنسان» .

«يتساءل بعض العلماء ، أليس الضمير الأخلاقي وليد التربية والتعليم والدين ؟ ، وهنا لا بدّ من القول إنّ هناك دلائل بارزة على وجود الضمير حتى عند الانسان البدائي ، فالإحساس بالذنب الذي كان يساور القبائل البدائية ويدفعها إلى الاستغفار ، لدليل ثابت على أن الضمير موجود في أعماق الإنسان منذ بدء الخليقة ، وإنكارنا لهذه الحقيقة يعكس عدم إيماننا بشخصية الإنسان»^(١) .

الميل إلى المعرفة الدينية :

يعتقد جميع العلماء أنّ هناك ميولاً أخرى إلى جانب المعرفة الفطرية والضمير الأخلاقي تتوضح معالمها بشكل طبيعي في الإنسان لدى بلوغه سن الـ ١٢ ، أي مع بداية مرحلة الحداثة والفتوة ، ومن جملة هذه الميول ، الميل إلى المعرفة الدينية ، وهذا الميل يزداد ويشدّد تدريجياً مع تفاعل العوامل الطبيعية للبلوغ حتى يصل ذروته في سن الـ ١٦ .

«يقول جان . بي . كايزل : لقد أثبتت الاختبارات أنّ الإيمان بالدين يبدأ تفاعله في أعماق الإنسان من سن الـ ١٢»^(٢) .

(١) ماذا أعرف ؟ ، الأمراض النفسية والعصية ، ص ٦٧ .

(٢) البهجة ، ص ٤١ .

«أما موريس دبس فيقول : يبدو أن هناك إجماعاً بين علماء النفس على وجود علاقة بين أزمة البلوغ والثوب المفاجيء للحسن الديني لدى الإنسان . وفي هذه الفترة يُلاحظ وجود نوع من النهضة الدينية والوعي الديني حتى عند أولئك الذين لم يكونوا ليعيروا اهتماماً من قبل بكل ما يتعلق بالدين والإيمان . وهذا الحسن الديني يبقى يتفاعل في أعماق الإنسان حتى يصل في سن الـ ١٦ إلى ذروته»^(١) .

ونستنتج من هذا البحث أن هناك ثلاثة ميول وجدانية في ذات الفتيان والشبان تشكل ثروة فطرية ، هي المعرفة الإلهية والعلاقة بما وراء الطبيعة ، والضمير الأخلاقي الذي يميز بين أمهات الفضائل والرذائل ، والمعرفة الدينية .

إرضاء الحسن الديني :

ويمكن القول : إن الميلين الأول والثاني يكمنان في الميل الثالث أي المعرفة الدينية ، وإذا ما عمل الإنسان على إرضاء هذا الميل ، يكون في الحقيقة قد أرضى الميول الثلاثة بكاملها من حيث لا يشعر .

«من الصعب جداً الفصل بين حدود ما وراء الطبيعة والقضايا الدينية في ذهن الفتيان ، وذلك بسبب التقاء كل القيم الوجدانية والمعنوية في نقطة واحدة»^(٢) .

أساس التربية في الإسلام :

لقد اعتمد الإسلام على قوة الميل إلى المعرفة والضمير والحسن الديني اعتماداً كلياً لتعديل الميول النفسية وكبح الغرائز ، وأرسى قواعد منهجه التربوي

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ١١٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٨ .

على أساس قانون الخلقة ونظام التكوين الثابت .

والطريف في الأمر أن الميل إلى المعرفة الدينية يبدأ بالظهور في سن الـ ١٢ ، أي في نفس الفترة التي تبدأ فيها اضطرابات البلوغ بالتفاعل ، حيث لم تكن الغرائز قد تفتحت بشكل جيد بعد ، ولم يقع مزاج الطفل أسير الشهوات وطغيانها ، وكأن الله سبحانه وتعالى قد أعدّ الوسيلة المناسبة لكبح الغرائز قبل أن تولد حتى وتطغى ، وجعل من فترة البلوغ فرصة بمقدور الإنسان أن يستغلّها في إعداد نفسه وتنمية الحسّ الديني في أعماقه .
ولكي يتحقق إرضاء الحسّ الإيماني والمعرفة الدينية لدى الفتيان ، ينبغي الالتفات إلى نقطتين مهمتين ، الأولى : هداية الحسّ الديني في نفوسهم هداية صحيحة ، والثانية : العمل على تنمية هذا الحسّ بالوسائل العلمية والعملية .

الدين السليم والدين العقيم :

يمكن أن نشبّه الفتى وما يضمّره في باطنه من ميل شديد إلى الدين والإيمان ، بالطفل الجائع الذي يبحث عن الطعام لإشباع بطنه . فإذا أكل هذا الطفل طعاماً سالمًا نما ظفّره وقوي عظمه ، وإذا أكل طعاماً فاسداً تسمّم وضعف وهزل ، كذلك الحال بالنسبة إلى الدين السليم والمنطقي ، فإنه يبعث على سعادة الفتى وهنائه ، أما الدين العقيم والباطل فإنه يؤدي به إلى الضلالة والشقاء ، وهداية الميول التي تحدثنا عنها سابقاً لن تكون صحيحة وسليمة ، إلاّ بتوجيهها منذ تفتحها وبروزها في أعماق الفتى إلى الإيمان بالله الواحد والدين الحق ، وتطهيرها من كل الأوهام والمعتقدات الباطلة .

الشرك وعبادة الأصنام :

لقد بقيت عقول الناس وعلى مدى قرون طويلة أسيرة أوهام ومعتقدات باطلة من شرك وعبادة أصنام ، كانت تفرض عليهم بصور مختلفة باسم الدين ، وقد آمن غالبية الناس بهذه المعتقدات ، وأرضوا على أساسها ميولهم الفطرية إلى المعرفة الدينية ، وذلك نتيجة جهلهم . ولكن هناك من جاهد لمعرفة

الحقيقة ، فعرّفها واستبدل دينه ، وهناك من قمع الرغبة في المعرفة الدينية في نفسه ، ليتحرر من كل قيد يربطه بدين أو مذهب .

وفي عالمنا اليوم يواجه جيل الشباب مشكلة كبيرة فيما يخص الدين . رغم كل ما نشهده من تطور علمي وازدهار ثقافي ، فهناك تياران متضادان ، الأول وهو تيار الأحاسيس الفطرية والمويل إلى الإيمان والمعرفة الدينية ، يجعل الشاب يندفع نحو الدين وتعلّم مفاهيمه وأحكامه ، والثاني تيار المعتقدات الباطلة التي تسود الكثير من الأديان والمذاهب في العالم ، هذا التيار يجعل الشاب يتردد في توجهه ، لا بل ويشكك بالدين ، ويسلبه الاستقرار والاطمئنان النفسي . ولم يستطع القادة الروحيون لمعظم الأديان والمذاهب في العالم إقناع الشباب بالمنطق الصحيح والاستدلال السليم ، وهداية ميولهم إلى المعرفة الدينية هداية صحيحة ، لأنهم هم أنفسهم يغوصون في مستنقع الخرافات والأوهام ، وبذا يفقد غالبية الشباب الثروة الروحية والإيمانية التي يمتلكون .

أزمة الشك :

«يسعى الشاب في المحيط الثقافي والفكري إلى إيجاد نوع من التوفيق بين معتقداته الدينية وما اكتسبه من معلومات علمية . ويواجه الشاب بين سن الـ ١٧ والـ ١٨ أزمة من الشك ، لأنه لم يستطع من خلال نظرته الناقدة للأمور أن يوفق بين المواعظ والآيات السماوية وكل ما يتعلق بالدين وبين الحقائق العلمية أو الأمور المتعلقة بالحياة العادية» .

«ولاحظ علماء النفس الكاثوليك أنّ هذه الأزمات تظهر في الحالات التي يكون فيها أسلوب التربية والتعليم الديني سطحياً وبدائياً ، حيث يصبح الدين كالثوب الذي يخلعه الإنسان متى ما شعر أنه يضايقه» .

«وبعد الخروج من هذه الأزمات يفقد الشباب إيمانهم أحياناً ، أو

بالعكس يقوى إيمانهم ويشد نتيجة استدلال منطقي ، وبعضهم يختار ديناً خاصاً دون أي تعصب»^(١) .

إذن ، فالشرط الأول الذي ينبغي على الفتيان والشباب الذين يريدون إرضاء ميولهم الإيمانية والمعنوية الالتزام به ، هو العمل على هداية أحاسيسهم الإيمانية والدينية هداية صحيحة ، وإرضائها وفق التعاليم السليمة والبعيدة عن الأوهام والخرافات .

التعاليم الراسخة :

لقد جاء الإسلام ليؤكد في منهجه التربوي والأخلاقي على أهمية هذا الشرط ، معتبراً إياه بأنه ركن أساسي من أركان سعادة الإنسان ، حيث دعا أتباعه إلى التمسك بأكثر التعاليم رسوخاً ، تلك التي وردت في خير الكتب السماوية القرآن الكريم .

قال تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٢) .

لقد استهل الإسلام دعوته ومحاولته هدي الناس بالتأكيد على أهمية عقل الإنسان ، داعياً الناس إلى التعقل والتفكر في سطور القرآن الكريم .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٣) .

أقوى عوامل الإنحطاط :

يرى الإسلام أن أقوى عوامل الانحطاط والضلالة هو إهمال العقل وتجميد الفكر ، وقد جاء في القرآن الكريم وصف صريح لأولئك الذين لا يعقلون ، قال تعالى : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا

(١) ماذا أعرف ؟ البلوغ ، ص ١٢٠ .

(٢) سورة الإسراء ؛ الآية : ٩ .

(٣) سورة الأنبياء ؛ الآية : ١٠ .

فالإسلام هو دين التعقل والتدبر ، ودين العلم والتعلم ، وهو رسالة السماء إلى أهل الأرض ، والإسلام ليس فقط منزهاً من كل الأوهام والخرافات ، بل جاء ليؤكد ضرورة خوض صراع ضد الأديان والمعتقدات الباطلة ، وهذا التأكيد تناولته الكثير من الآيات القرآنية .

مكافحة الخرافات :

لقد حمل القرآن الكريم وبشدة على عبدة الأوثان والحيوان والكواكب والنجوم ، ودعا الناس إلى التعقل والتدبر وتوحيد الله الأحد الصمد ، كما جاء الإسلام ليفتح جبهة صراع عريضة ضد الجهل والخرافات وأساس التثليث (الأب والإبن وروح القدس) الذي تنتهجه اليوم شعوب أوروبا وأمريكا ، وليبريئ السيد المسيح من لقب (إبن الله) الذي ألصق به زوراً وبهتاناً ، ويطهر سمعة عيسى بن مريم من العار الذي ألحقه المسيحيون به نتيجة مغالاتهم ، ويعرفه على أنه أحد أنبياء الله المرسلين .

معيار تفوق الاسلام :

إن الإسلام دين الحق الذي يضمن للبشرية سعادتها ، هو دين منزّه من الأوهام والخرافات ، يهدي الناس إلى سبيل الخير والفلاح ، وهذه الخصوصيات تشكل معيار تفوق الإسلام على غيره من الأديان . هذا ما أكدته القرآن الكريم ووعد بانتصار الإسلام على سائر الأديان الاخرى .

قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٢) .

إذن ، فالدين الإسلامي قد حدّد وبكل وضوح السبيل الأمثل لهداية

(١) سورة الأنفال ؛ الآية : ٢٢ .

(٢) سورة التوبة ؛ الآية : ٣٣ .

الحسّ الديني لدى الشباب ، وهو كما ذكرنا شرط أول وأساس لإرضاء ميولهم إلى المعرفة الدينية . كما أن ما جاء به الرسول الأكرم ﷺ يمكنه أن يكون خير هادٍ للحسّ الديني لدى الشباب على مرّ العصور والدهور ، يرضي ميولهم على أحسن وجه ويضمن لهم سعادتهم في الدنيا والآخرة .

تنمية الرغبات الدينية :

ثمة شرط معنوي آخر يساعد على تحديد الأهواء النفسية لدى الشاب ، وهو تنمية رغبته في المعرفة الدينية . إذ من الضروري اللجوء إلى شتى الوسائل العلمية والعملية لتنمية الحسّ الديني عند الشاب ، والعمل على تعزيزه وتقويته ، ليصبح قادراً على مقاومة الغرائز والشهوات وتمردّها .

فالحسّ الديني الذي يُولد في أعماق الشاب بشكل طبيعي ومفاجيء أثناء أزمة البلوغ ، أشبه ما يكون بنواعةٍ لثمرةٍ ما ، إذا زرعتها في أحضان الأرض وسقيتها واعتنت بها ، فإنها ستنتج شجرة مثمرة ، وإلا بقيت نواة لا نفع فيها ولا فائدة .

والحسّ الديني هو كحسّ حب الجمال تمتد جذوره بالفطرة إلى أعماق الإنسان . وإذا ما أردنا أن نقوّي هذا الحسّ ليرتقي إلى مصاف غيره من الأحاسيس القوية ، علينا أن نرعاه وننمّيه حتى يبلغ الكمال المنشود .

إحياء فطرة الإيمان :

لقد ركّز الإسلام أسس التربية الوجدانية والمعنوية للشباب على أساس تنمية أحاسيسهم الدينية وإحياء فطرتهم الإيمانية ، وعلى رأسها الإيمان بالله . وقد تحدّثت الآيات القرآنية والروايات والأحاديث الإسلامية عن الإيمان بالله على أنه أساس سعادة الإنسان في الحياة .

والإسلام لم يأت ليفرض عن جهل الإيمان بالله على الناس وخاصة الفتيان والشباب ، بل دعاهم إلى طرح هذا الموضوع في محكمة العقل ،

والتَمَعَنَ في آيات الله البَيِّنَات ، ليدركوا وجوده ويؤمنوا بذاته المقدَّسة .

وبعبارة أُخرى ، فإنَّ الفتىَ يجتاز عدة أشواط على طريق معرفة الله حتى يبلغ منزل الإيمان ، وهو القاعدة التي ينطلق منها في توجهه الديني ، ومن هذه الأشواط : أولاً : رغبة المعرفة الفطرية التي تكمن في ذات كل طفل ، ثانياً : وثوب الحسِّ الديني الذي يبدأ في سن الـ ١٢ ، وهو ما يدفع الفتى نحو معرفة ذاته والتدقيق والتحقيق بشأن خالق الكون ، ثالثاً : التدقيق في آيات الله البيّنات ومناقشتها بحكمةٍ وتعمُّلٍ ، رابعاً : الإيمان بالله والتقرُّب إليه والتعلُّق به تبارك وتعالى .

القرآن والمخلوقات :

إنَّ القرآن الكريم ليس من كتب التاريخ الطبيعي ، لكنه يحوي مئات الآيات التي تتحدث عن تكوين الإنسان والحيوان والنبات والمعدن والأجرام السماوية وما إلى ذلك من مخلوقات في السماوات والأرضين . والهدف من احتواء القرآن على مثل تلك الآيات ، لفت انتباه الإنسان إلى إبداع الله في خلقه ، لينظر فيها ويتعمُّل حتى يتيقن من وجود الله ويلمس علمه وقدرته وإرادته وحكمته ولطفه ورحمته وغيرها من الصفات الألوهية ، ليؤمن بالتالي بوجود خالق لهذا الكون .

القرآن وصفات الله :

يدعو القرآن الكريم الناس إلى عبادة الله الرحمن الرحيم ، العالم العادل ، الذي يحبُّ عباده الصالحين ، وهو بهم رؤوف رحيم ، العالم بما تخفيه صدورهم ، العادل الذي يحبُّ القسط والمقسطين ويبغض الظلم والظالمين ، المحسن الذي لا يضيع أجر المحسنين ولا يحبُّ الخائنين ، الغفور الذي يحبُّ التوابين ويغفر لهم ذنوبهم ويرحمهم ، السميع المجيب الذي يجيب دعوة الداعي إذا أخلص في دعوته ، الرحمن الرحيم الذي ينبغي على العباد أن يأملوا رحمته ، الشديد العقاب الذي ينبغي على العباد أن يخشوا

غضبه وعذابه . وباختصار ، فإن القرآن الكريم يربط بين العقل والعواطف لتحقيق الإيمان بالله تبارك وتعالى .

العقل المبدع :

«يقول آرثور كانتون: إن النظرية الإلهية تعتبر أفضل نظرية لتعليل وجود الكون ، مثلها مثل الكثير من النظريات الفيزيائية والقانون ، وهي أي النظرية الإلهية قد أثبتت جدارتها ، لذا ليس هناك ما يدعو لتركها وإهمالها» .

«ويتجه كل من ميليكان وأدنيكتون وجينز إتجاه نيوتن الذي يعتقد بأن العالم من صنع وتدبير عقل مبدع ، ولكن هذه النظرية التي لن ترضي سوى علماء الفيزياء والمنجمين لا تكفي ، فإله نيوتن ليس أوفر حظاً من إله أفلاطون ، وكلاهما لن يستطيعا حلّ مشاكل الناس والتخفيف من آلامهم . نحن لا نريد أن يكون إلهنا عالماً في الرياضيات أو عالماً متمرساً تردّد في الكثير من تجاربه ، وإتّما نريد إلهاً يحبّنا ويفهمنا ويساعدنا»^(١) .

الله .. الرحمن الرحيم :

تبدأ جميع سور القرآن الكريم بـ (بسم الله) ، ولكن هناك صفتان بين سائر الصفات الإلهية اقترنتا دائماً باسم الجلالة ، هما الرحمن والرحيم . ويبدو أنّ كل التعاليم السامية التي جاء بها الدين الإسلامي قد تضمنت دعوة إلى الله الرحمن الرحيم .

وهاتان الصفتان تشكلان العامل الأساس لتحريك عواطف الناس وأحاسيسهم ، حيث تستقطبان حب الناس لله سبحانه وتعالى ، وتثيران قلوبهم

(١) سبل الحياة ، ص ١٣٦ .

إنَّ من أولويات المنهج التربوي للإسلام ، الهادف إلى تنمية الحسِّ الديني لدى الشباب وإرضاء رغباتهم الإيمانية ، هو الدعوة إلى الله الرحمن الرحيم والاتكال عليه ، وهاتان الصفتان تساهمان في اتحاد العقل والأحاسيس على طريق تنمية الحسِّ الديني لدى الإنسان .

الإله المحبوب :

والرحمن الرحيم ، صفتان حميدتان تحبَّبان الإله في نفوس الفتيان والشبان ، وتثيران عواطفهم وأحاسيسهم لحب الله العزيز ، وكلما ازداد الإنسان حباً لله ، كلما قوي دينه ورسخ إيمانه .

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : هَلِ الدِّينُ إِلَّا الحُبُّ (١) .

فالحب هو أكبر قوة محرِّكة للإنسان في جميع مواقف الحياة . وبالحب ، ذلك الإحساس الجميل ، يمكن تذليل كل الصعاب وتحمل الويلات والمصائب ، فالحب هو الذي يدفع بالإنسان إلى التفاني والإيثار من أجل الحبيب .

أفضل النعم :

إنَّ الدين كما يقول الإمام الباقر عليه السلام ليس سوى حبِّ ، حبِّ الله ونبِيِّه وأوليائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وليس من نعمة أفضل عند عباد الله الصالحين من نعمة رضئ الله ورسوله وأوليائه .

قال تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٢) .

(١) روضة الكافي ، ص ٨٠ .

(٢) سورة التوبة ؛ الآية : ٧٢ .

الدعوة على أساس الحب :

إنَّ العامل الأساس الذي يدفع بالناس نساءً ورجالاً إلى الالتزام بأحكام الإسلام وشرائعه ، هو حب الله والسعي إلى كسب رضاه . وقد حثَّ القرآن الكريم المؤمنين على الإتيان بمحاسن الأمور وتجنُّب مساوئها ، حيث عمد إلى مخاطبتهم بلسان الحب ، وهنا لا بد من الإشارة إلى بعض من الآيات القرآنية المباركة .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١) .

وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢) .

وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾^(٣) .

وقال : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾^(٤) .

وقال : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٥) .

وقال أيضاً : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٦) .

لقد حدَّدت الآيات الشريفة التي أشرنا إليها أولئك الذين يحبهم الله ، أما أولئك الذين يبغضهم الله ، فقد حددتهم الكثير من الآيات القرآنية ، نختار بعضاً منها :

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٧) .

وقال : ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾^(٨) .

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ٤٢ .

(٢) سورة التوبة ؛ الآية : ٤ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٢٢ .

(٤) سورة التوبة ؛ الآية : ١٠٨ .

(٥) سورة آل عمران ؛ الآيتان : ١٤٨ و ١٤٦ .

(٦) سورة البقرة ؛ الآية : ١٩٠ .

(٨) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٠٥ .

وقال : ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(١) .

وقال : ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾^(٢) .

وقال : ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾^(٣) .

وقال أيضاً : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾^(٤) .

حب الله والتضحية :

كل إنسان يحب نفسه وماله ويسعى إلى حفظهما ، وذلك لطبيعته وفطرته ، ولكن ما يميّز الإنسان المؤمن الحقيقي عن غيره ، ويدفعه إلى التضحية بالمال والنفس في سبيل الله ، هو إيمانه بالله سبحانه وتعالى وحبّه الشديد له .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ﴾^(٥) .

الاحسان في سبيل الله :

وقال عزّ من قائل : ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾^(٦) .

ويتضح من خلال الآيات الشريفة التي ذكرناها مدى اعتماد الإسلام على مسألة حبّ الله والايمان به ، في تنمية الحسّ الديني لدى أتباعه ، وكيف استند

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ٥٧ .

(٢) سورة النحل ؛ الآية : ٢٣ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٧٦ .

(٤) سورة الأنفال ؛ الآية : ٥٨ .

(٥) سورة النساء ؛ الآية : ٤ .

(٦) سورة البقرة ؛ الآية : ١٧٧ .

على هذه المسألة في حثّ المسلمين على الإتيان بالفضائل لكسب رضى الله تبارك وتعالى ، وتحذيرهم مما يغضب الله من رذائل ، وطبيعي أنه كلما ازداد الإحساس بالحب والعاطفة قوة ، كلما جاءت النتائج إيجابية أكثر ومتطابقة مع المنهج التربوي للإسلام .

لقد اعتمد الإسلام شتى الوسائل والأساليب العلمية والعملية لتعريف حبّ المسلمين لخالقهم جلّ وعلا ، وغرز جذور المحبة في أعماقهم ، وقد سعى من خلال برامجه إلى تحقيق هذا الهدف المقدّس .

العبادة والدعاء :

تعتبر العبادات الواجبة والمستحبة التي شرّعها الإسلام ، وكذلك الأدعية والأذكار ، عاملاً مؤثراً في رسوخ حب الله في نفوس المسلمين .

همزة الوصل بين المخلوق والخالق :

وتعتبر الصلاة وهي عمود الدين وواحدة من أهم العبادات في الإسلام ، وسيلة التقرب المعنوية إلى الله تبارك وتعالى ، وهي همزة الوصل بين الخالق والمخلوق ، فالمصلّي يقف عدة مرات كل يوم بين يدي الله عزّ وجلّ إيماناً به وإجلالاً لعظمته ، يتحدث إليه خاشعاً راجياً لطفه ورحمته ، مستعيناً به على ضعفه وقلة حيلته ، وهذا ما يمنحه قوة على السيطرة على أهوائه النفسية ليصون نفسه من الذنوب والمعاصي .

قال تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١) .

إنّ المصلّي يستفيق في الثلث الأخير من الليل ليقف بين يدي خالقه ، متضرعاً خاشعاً ، يناجيه وكأنه يناجي حبيبه ، يذرف دموع الحب وهو مسترسل في صلاته ، يطلب حاجته بينما الناس يغطّون في سبات عميق .

(١) سورة العنكبوت ؛ الآية : ٤٥ .

وهذا الارتباط المعنوي لن يزيد إلا نوراً وإيماناً وحباً لله سبحانه

وتعالى

طاعة المحبوب :

كذلك الحال بالنسبة لفريضة الصوم والزكاة وغيرها من الفرائض والعبادات ، فهي كالصلاة تسهم في تعزيز إيمان الفرد بخالقه وحبّه له ، لأن العبادة ، إنما تؤتي بقصد إطاعة أوامر الحق ، وطاعة المحبوب تقرب الحبيب من محبوبه وتزيده حباً واحتراماً له .

ركيزة الايمان :

لقد وضع الإسلام منهجاً تربوياً عملياً منظماً لتنمية الحسّ الديني لدى الشباب وكبح غرائزهم وتحديد ميولهم النفسية ، ليصنع منهم جيلاً مؤمناً قوي الإرادة ، وإليك عزيزي القارئ أهم البنود التي تدخل في إطار هذا المنهج التربوي :

١ - الدعوة إلى الإيمان بالله عزّ وجلّ حالما يبرز الحسّ الديني لدى الفتیان الذين يكونون متعطشين للتعرف على كل ما له صلة بالدين ، والاستدلال على وجود الله بأسلوب منطقي عقلاني يسهل على الفتیان إرداكه . وبذا تكون قد وضعت اللبنة الاولى لأساس الدين .

٢ - الحديث عن الصفات الإلهية التي تثير عاطفة الفتى وأحاسيسه تجاه خالقه وتزيده حباً له وتعلقاً به ، كالرحمن الرحيم ، فحب الله أفضل وسيلة يمكن أن نحى بها الحسّ الديني لدى الشباب ونرضي رغباتهم في التزوّد بسلاح الإيمان .

٣ - الاستفادة من تفتح الحسّ الديني لدى الفتیان والشباب على حبّ الله لهدايتهم إلى طريق الطاعة وتشجيعهم على أداء كامل الواجبات والفرائض الدينية

قال عزّ من قائل :

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) .

مضاعفة الحب :

وعندما يشعر الفتى بأنه قد حظي برضى الله تبارك وتعالى وعنايته نتيجة التزامه بأوامر الله ورسوله ، فإن حسّه الديني سيتفاعل ويزداد وحبّه للخالق الحق سيتضاعف .

رجاء الرحمة :

٤ - تكليف الفتى بأداء العبادات المترتبة عليه من واجبة ومستحبة ، بهدف إقامة علاقة مباشرة بينه وبين خالقه ، فالصلاة اليومية التي بدأ يتعلّمها في سن السابعة وأخذ يتمرّن عليها تدريجياً ، عليه اليوم أن يواظب عليها ، ليقف بين يدي الله وقفة خشوع وتوسل ، ثم يتفرّغ إلى الدعاء لخالقه السميع العليم ، راجياً رحمته خاشعاً غضبه .

إنّ الفتى الذي يتربّى في سن الـ ١٢ في ظلّ التعاليم الإلهية ، وينمي بفضل إيمانه بالله عواطفه وأحاسيسه الدينية ، لا شك أنّه سيصبح في سن الـ ١٦ فرداً مؤمناً بكل ما في الكلمة من معنى ، تستطيع أحاسيسه القوية مقاومة غرائزه وشهواته والحيلولة دون تمرّدها .

أمّا الفتى الذي لم تحظ أحاسيسه الإيمانية ورغبته في المعرفة الدينية برعاية واهتمام ، ولم يتم إرضاء رغباته المعنوية ، ولم يعرف نور الإيمان إلى ضميره وقلبه سبيلاً ، فإنه سيصبح في سن الـ ١٦ أسير غرائزه وشهواته ، ولن تكون أحاسيسه الدينية قادرة على مقاومتها ، وحمائته وهو في هذه المرحلة الخطيرة من شبابه ، من الضلالة والانحراف .

(١) سورة آل عمران : الآية : ٣١ .

الإيمان والمرحلة الصعبة :

«يقول موريس دبس حول هذا الصنف من الفتيان : إنَّ إيمانهم ولا شك سيمرّ في مرحلة صعبة وحرّجة عندما يرون تضارب النظريات والمبادئ الحديثة في مفهومها حول تعيين وتحديد سلوك الشباب» .

إرضاء أنانية الشاب :

«وتبرز هذه الحالة بشكل خاص عندما تتضارب المبادئ السماوية مع النظريات الوضعية الحديثة ، لتنفذ بآثارها إلى أعماق الشاب ، وترضي أنانيته ، أو عندما تثور الغرائز والشهوات على القواعد الأخلاقية والدينية ، وفي مثل هذه الحالة لا يبقى للإيمان أثر في أعماق الشاب»^(١) .

إن المعرفة الفطرية والضمير الأخلاقي والحسّ الديني ، تدخل جميعها في مجموعة الرغبات والميول الطبيعية لجيل الشباب . وإذا ما أردنا أن نوّفر للشباب تربية سليمة وصحيحة ، ينبغي علينا أن نتصرف معهم وكأنهم وُلدوا حديثاً ، يعني يجب أن نراعي فيهم الجوانب المادية والمعنوية والجسمية والنفسية ، ونستثمر بحكمة وتدبّر استعداداتهم الطبيعية وميولهم الفطرية ، ونضع على أساسها قواعد التربية السليمة .

مخالفة قانون الخلقة :

إنَّ الإنسان كائن مخلوق من جسم وروح ، وقائم على مجموعة من الميول والرغبات الطبيعية ، ولا يمكن أن نحقق السعادة لهذا الإنسان ما لم نلحظ الجانبين المادي والمعنوي لشخصيته ، ونسعى إلى إرضاء كافة رغباته وفق المعايير الصحيحة . لأن الاهتمام ببعضها وإهمال بعضها الآخر يخالف

(١) ماذا أعرف. ؟ ، البلوغ ، ص ١١٩ .

قانون الخلقة ويتنافى وسعادة الإنسان .

«يقول الدكتور كارل : إننا مضطرون لإجراء دراسة شاملة على الإنسان ، نتناول فيها طبيعته التركيبية والفيزيولوجية والفكرية والأخلاقية والثقافية والدينية والاجتماعية و... الخ . والعالم الذي لا يتناول إلا جانباً من مجموع الجوانب المعقدة لشخصية الإنسان ، يُخَيَّلُ له أنه أصاب في اكتشاف هذه الشخصية بكل جوانبها ، في حين أنه لم يكتشف سوى جزءٍ صغيرٍ من كلِّ كبير» .

قصور العلم :

«إنَّ عقل الإنسان لا يمكنه أن يتقبَّل ما لا يتوافق ومبادئ ونظريات عصرنا العلمية والفلسفية . ومهما يكن العالمُ ، لا يتعدى كونه إنساناً يتأثر بالظروف المحيطة به ، وسرعان ما ينسى وجود بعض القضايا والمسائل التي لا تعللها النظريات الحديثة .

ويبدو أن التجارب والاختبارات العلمية لن تكفي لدراسة شخصية الإنسان وتحليل كل ما يقوم به من نشاطات ، وواضح أن العلماء والباحثين في شؤون الإنسان عاجزون عن اكتشاف مكامن الإنسان ، لأن تقنيَّاتنا لا يمكنها أن تصل إلى الأشياء التي لا أوزان لها ولا أبعاد ، لذا فهي عاجزة عن قياس مدى الحرص والحقد أو العطف والحنان في الإنسان ، أو القوة التي تثير أفكار العلماء وأحاسيس الفنانين والشعراء ، ومن هنا لم تكتمل مجموعة المعلومات الضرورية لمعرفة طبيعة الإنسان ، وهذا ما يلزمنا بدراسة أنفسنا من جميع الجهات دون أن نهمل جهة منها أو نغفل عنها»^(١) .

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٣٦ و٣٧ .

عدم الاهتمام بالحسّ الديني :

مماً يؤسف له أن معظم البرامج التربوية الخاصة بجيل الشباب في عالمنا اليوم لا تولي اهتماماً برغبات الشباب الإيمانية وأحاسيسهم الدينية ، وبتات الحسّ الديني الذي يتفتح بشكل طبيعي خلال فترة البلوغ ، طيّ النسيان ، وهذا الحسّ يمكنه أن يصبح أكبر قوة لكبح الغرائز والأهواء النفسية ، إذا ما تمّت تنميته في أعماق الانسان بصورة سليمة .

ويتّجه العالمُ اليوم إلى تنمية حسّ الجمال في الانسان بشتى الطرق والأساليب ، متغافلاً عن الحسّ الديني والرغبة الإيمانية فيه . كما أن المربّين يقفون مكتوفي الأيدي أمام هذه المسؤولية الكبيرة ، والنتيجة هي أن الشاب يربى غير مهتم لا بدينه ولا بإيمانه .

غرور الفتيان :

إنّ عدم الإهتمام بالحسّ الديني لدى الفتيان يعتبر مخالفة لقانون الخلقة ونظام التكوين ، والتنصّل من هذا القانون لن يمرّ دون عقاب ، والعقاب يكمن في غرور الفتيان والشباب وتمردهم وفتناتهم في شتى أصقاع الأرض .

جرائم الشباب :

«عقدت منظمة الأمم المتحدة مؤتمرها الثالث لمكافحة الجرائم ومعالجة المجرمين في ستوكهولم بمشاركة نحو ألف من القضاة وعلماء الاجتماع والشرطة ، وقد أصدر المؤتمر في ختام المؤتمر الذي استغرق أسبوعاً واحداً سلسلة من التوصيات ، ناشد فيها العالم السعي لمكافحة جرائم الشباب ، واتخاذ ما يلزم للحيلولة دون تفشيها ، لأن العالم بات يئن تحت وطأة هذه الجرائم»^(١) .

(١) صحيفة إطلاعات الإيرانية ، العدد ١١٧٦٥

«نيويورك ترتجف من هول جرائم الشباب ، تحت هذا العنوان كتبت صحيفة كيهان الإيرانية تقول : إنَّ ازدياد عدد المجرمين في صفوف الشباب يزيد من حالة الخوف والقلق بين الناس . فقد ارتفعت الجرائم التي ارتكبتها شبان وشابات لم تتجاوز أعمارهم الـ ١٦ عاماً بنسبة ١٥٪ خلال الفترة الممتدة ما بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٦٤ ، ويواجه الشبان الذين يقضون أحكاماً بالسجن تهماً مختلفة كالقتل والاعتصاب والسرقه والمشاركة في عمليات تهريب مخدرات وأخرى مسلحة . أما نسبة الشبان الذين لا تتجاوز أعمارهم الـ ٢٠ عاماً وارتكبوا جرائم مماثلة ، فقد بلغت خلال العام ١٩٦٤ ثمانية وثلاثين بالمئة من المجرمين الموقوفين في نيويورك»^(١) .

هبوط المستوى الأخلاقي :

«ألم تسبب الحياة العصرية في هبوط المستوى الفكري والأخلاقي للناس ؟ ، لماذا إذن تُصرف البلايين من الدولارات سنوياً لمكافحة الإجرام ؟ ، ولماذا يواصل المجرمون ارتكاب السرقات والسلب والإغارة على البنوك والمصارف وخطف الأولاد والأطفال للمتاجرة بهم ، رغم كل الأموال الطائلة التي تُصرف لمكافحةهم ؟ ، حري بنا ونحن نرى تقهقر المدنية نحو الأفول أن نسأل أنفسنا عمّا إذا كانت عوامل التقهقر والانحطاط قد تفتّت فينا وفيمن حولنا»^(٢) .

التربية من دون إيمان :

يُعدّ «سيجموند فرويد» واحداً من كثير من علماء الغرب الذين تجاهلوا

(١) صحيفة كيهان الإيرانية ، العدد ٦٥٩٦ .

(٢) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٢٦٥ .

الرغبة الإيمانية في أعماق الشباب ، واعتمدوا منهج التربية من دون إيمان .
فهو من جهة - ونقصد فرويد - يعترف بأن الدين نجح في كبح جماح
الغرائز والأهواء النفسية بشكل ملحوظ ، فيقول :

«لقد قدّم الدين خدمات مهمة للإنسانية والمدنية حين نجح في
لجم غرائز الإنسان وميوله النفسية إلى حدّ كبير ، لكنه - أي
الدين - لم يستطع تحقيق مزيد من التقدّم في هذا المجال»^(١) .

«ومن جهة أخرى يقول فرويد : من المستحسن اختبار منهج
تربوي غير الدين ، وذلك بهدف تعويد الناس وجعلهم ينصرفون
عن هذه التسلية ، ويخرجون من هذا الحصن ليواجهوا الأخطار
والصعاب معتمدين على أنفسهم فقط»^(٢) .

الحضارة المزيّفة :

لقد أحييت الحضارة المزيّفة التي بلغت البلدان الغربية قبل الحرب
العالمية الأولى ، والنظم الأخلاقية التي سادت المجتمعات الأوروبية آنذاك ،
الأمّل في نفس فرويد بإمكانية تحقيق تمدّن يستطيع لجم غرائز الإنسان
المتمرّدة ، وضمان سعادته في الحياة ، وذلك باعتماد منهج تربوي لا يقوم على
الإيمان والدين .

وقد تصوّر فرويد بعد أن لمس روح الإحساس بالمسؤولية لدى الشعوب
الأوروبية نتيجة المنهج التربوي الحديث ، تصوّر أن الفرد الغربي بات إنساناً
حقيقياً يتمتع بكافة الصفات الإنسانية والملكات الأخلاقية .

محو القيم الأخلاقية :

«وبينما فرويد غارق في أوهامه ، اندلعت نيران الحرب العالمية

(٢٠١) أفكار فرويد ، ص ٩٦ و ٩٧ .

الأولى لتربك أفكار فرويد الذي كان يقضي سنوات الشيخوخة ، حيث رأى بأنّ العين كيف تُمحي القيم الأخلاقية والمبادئ العقائدية التي عاش حياته في ظلّها .

وسعى فرويد بعلمه ونظرياته إلى تهدئة الناس وإعدادهم نفسياً لتحمل الصعاب واجتياز العقبات التي قد تعترضهم نتيجة الحرب ، ولكن مسعاه انهار وفقد كل أثر له مع دوي انفجار أول قذيفة مدفع ، وجاء الإنسان الذي كان يفخر بأنه أصبح كالطير يحلق في أعالي السماء ، جاء ركباً أول طائرة ليلقي بأول قبلة من صنع الإنسان على رأس الإنسان .

وفي خضم الحرب ، كتب فرويد في أحد مؤلفاته عام ١٩١٥ م يقول : وأخيراً اندلعت الحرب التي لم نشأ حتى التفكير بها ، ولم تكن أكثر الحروب قتلاً وتدميراً بسبب ما استخدم فيها من أسلحة هجومية فتاكة فحسب ، بل كانت أيضاً أسوأها شراسة وظلماً وحقداً .

«لقد ذهلنا وصعقنا لما رأينا من تصرفات بعض البلدان تجاه جاراتها ، والتي لم تتوافق والقوانين الأخلاقية ، وكذلك أعمال العنف التي صدرت عن الأفراد ، إذ لم نكن نتوقع أبداً مثل ذلك من أناس يُعتبرون سفراء المدنية والحضارة .

التراجع الثقافي :

«وبسبب المجازر الجماعية التي ارتكبت في أوروبا والتي هدّدت العالم يومها بتراجع وتقهقر ثقافي وحضاري ، وكذلك بسبب حالة الاضطراب والخوف من اندلاع حرب جديدة ، لجأ فرويد إلى التفكير والتعمق بمستقبل العالم ، وأصدر كتاباً تحت عنوان

المجازر الوحشية :

لقد أربكت المجازر الوحشية والأعمال غير الإنسانية التي حصلت في الدول الغربية إبان الحرب العالمية الاولى ، حالة فرويد النفسية ، وتركت أثراً بالغاً في أفكاره ونظرياته العلمية . وتبلورت في نفسه قناعة تامة بأن التربية التي لا تقوم على أساس من الإيمان والدين ، لم تنجح في جعل شعوب أوروبا متمدنة متحضرة لا تقدم على ارتكاب الجرائم والممارسات اللاإنسانية .

«لقد عاش فرويد كغيره من الناس أجواء الفتك والقتل الجماعي والتدمير التي عمّت فجأة كل أوروبا صيف عام ١٩١٤ م . وتركت تلك الأحداث أثراً بالغاً في نفس كل عالم ومتفكر وفيلسوف ومن بينهم فرويد طبعاً ، وذات مرة نظر فرويد وهو في مكتبته إلى الخارج ، فلم يجد أمامه سوى عالم يعيش أقصى درجات الخوف والاضطراب والتهديد . وقد آلت تلك الأحداث إلى حصول تغييرات في أفكار فرويد وهو في الـ ٦٠ من عمره ، فأخذ ينظر بواقعية وتعمق إلى الأمور التي لم يكن يتطلع إليها إلا من منظار علمي»^(٢) .

الممارسات الوحشية :

«كتب فرويد عام ١٩١٧ م يقول : لقد دفعتنا الممارسات الوحشية التي تتعارض والحياة المدنية لأن ننظر إلى العالم على أنه عالم مجرم فاسد ومخرب ، لأنه لم يجلب لنا سوى اليأس والألم

(١) أفكار فرويد ، ص ١٠١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٠٠ .

والمرارة .

وهذا ما جعلنا نعتبر كافة شعوب العالم غارقة في بحر من الانحطاط والحقارة ، بعد أن كنا نتصوّر خطأ قبل الحرب بأنها بلغت مستوى عال من الأخلاق والمعنويات»^(١) .

«يقول «إدغار بش» : لحسن الحظ أن فرويد لم يعاصر ممارسات هتلر الرهيبة من قتل وقتك وتنكيل ، ولم ير كبريات المجازر التي شهدتها التاريخ ، ولا حرق الملايين من الناس ، ولا عمليات القصف التي طالت المدن ومحت الكثير منها عن بكرة أبيها ، ولا عمل الطوربيدات والقنابل الذرية»^(٢) .

التصوّر الخاطيء :

لقد انبهر فرويد بالمدينة المزيفة التي حققتها الأمم الغربية ، فتصور أنه يمكن أن نجعل من الإنسان إنساناً متمدناً متحلياً بأفضل الصفات ، ونكبح غرائزه وميوله ونهديها نحو الفضيلة والرّشاد ، إذا ما أهملنا رغباته الوجدانية وأحاسيسه الدينية ، ووقرنا له برنامجاً تربوياً لا يقوم على أساس الإيمان بالله والدين . إلا أنّ المجازر الوحشية والممارسات اللاإنسانية التي حصلت في عالم الغرب المتمدّن خلال الحرب العالمية الاولى والثانية في حياة فرويد وبعد مماته ، قد أبطلت نظريته ، وأثبتت أن المنهج التربوي الذي لا يستند إلى الإيمان بالله والدين عاجز عن كبح غرائز الإنسان وتعديل ميوله النفسية وهدايتها لما فيه مصلحة الفرد والمجتمع والبشرية .

وما نريد أن نتوصّل إليه من خلال بحثنا هذا ، هو أن الإسلام قد اعتمد في منهجه التربوي لجلب الشباب على معرفتهم الفطرية وضميرهم الأخلاقي وأحاسيسهم الدينية .

(١ و ٢) نفس المصدر ، ص ١١٧ و ١١٨ .

الاسلام وغرائز الشاب :

استفاد الإسلام من قوة العقل والعلم والتربية إلى جانب قوة الإيمان بالله العظيمة وقوة الحسّ الديني ، في كبح غرائز الشاب وتعديل ميوله ورغباته .

لقد أيقظ الإسلام روح الخوف والرجاء في نفوس أتباعه ، بعد أن زرع فيهم الإيمان برحمة الله ولطفه وشدة عقابه ، ودعاهم إلى طاعة أوامر الله وتجنّب معصيته . ولكنه ركّز في دعوته على قوة الإيمان بالله والأمل برحمته أكثر من عقاب الله والخوف من عذابه .

وقد سعى الإسلام عبر السبل المنطقية والعبادات اليومية ، إلى ترسيخ حبّ الله تدريجياً في ضمير الشاب ، ليكون سداً منيعاً بوجه النزوات والغرائز ، أي أنه عمد إلى كبح الإحساس بالإحساس .

أسمى الأحاسيس الدينية :

يُعتبر الإسلام حبّ الله سبحانه وتعالى والإيمان به من أسمى الأحاسيس الدينية . والمؤمن الحقيقي هو الذي يطغى حبّ الله في ضميره وقلبه على سائر الأحاسيس والرغبات ، فيحبّ كل شيء بمقدار لا يفوق حبه لله تبارك وتعالى .

إنّ من يفوق حبه لنفسه وماله ، لزوجه وولده ، لعمله وتجارته وما إلى ذلك من شؤون الحياة ، حبه لله ، فهو ليس بمؤمن حقيقي ولا يمكنه أن يدعي الإيمان أو يفخر به .

قال تعالى :

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١) .

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ٢٥ .

فالإيمان بالله وحبه تبارك وتعالى يبينان في قلب المؤمن قلعة حصينة تحفظه من السقوط في مستنقع المعاصي والردائل بسبب تمرّد غرائزه وشهواته ، وتطرّد من نفسه روح الشرّ والانتقام إذا ما غضب .
قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (١) .

الإِنسان الكامل :

قال الإمام علي بن الحسين السّجاد عليه السلام : الرَّجُلُ كُلُّ الرَّجُلِ نِعَمَ الرَّجُلِ هُوَ الَّذِي جَعَلَ هَوَاهُ تَبَعاً لِأَمْرِ اللَّهِ (٢) .
تعديل الحسّ الديني :

لا يفوتنا أن نقول: إن الحسّ الديني والدعاء والعبادة ينبغي تعديلها واستخدامها وفق معيار صحيح ، شأنها شأن سائر الرغبات والأحاسيس الأخرى . فالإسلام الذي حدّر من الإفراط في إرضاء الرغبة الجنسية وحب المال والجاه وما شابه ذلك ، يحدّر أيضاً من الإفراط في إشباع الحسّ الديني ، وقد أكد الأئمة الأطهار عليهم السلام ضرورة الاعتدال في العبادة .

الاعتدال في العبادة :

جاء في وصيّة أمير المؤمنين لولده عليه السلام : وَأَقْتَصِدْ يَا بُنَيَّ فِي مَعِيشَتِكَ وَأَقْتَصِدْ فِي عِبَادَتِكَ (٣) .
وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : اجْتَهَدْتُ فِي الْعِبَادَةِ وَأَنَا شَابٌّ فَقَالَ لِي أَبِي: يَا بُنَيَّ دُونَ مَا أَرَأَيْتَ تَصْنَعُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا رَضِيَ مِنْهُ بِالْيَسِيرِ (٤) .

(١) سورة الشورى ؛ الآية : ٣٧ .

(٢) مجموعة وزّام ج ٢ ، ص ١٠٠ .

(٣) بحار الأنوار ج ١٥ ، القسم ٢ ، ص ١٧٣ .

(٤) الكافي ج ٢ ، ص ٨٧ .

المحاضرة الرابعة عشرة

حول الشاب وحب الكبرياء والظهور

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى في محكم كتابه : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾^(١) .

حب الاستقلال وبناء الشخصية :

من الرغبات الطبيعية الاخرى التي تبدأ بالظهور في أعماق الفتى لدى بلوغه ، وتحفز على العمل والنشاط ، الرغبة في تحقيق الاستقلال الذاتي وبناء الشخصية .

فالطفل لا يجد نفسه جديراً بأن يكون مستقلاً في عمله وقراراته وإرادته ، وذلك بسبب ضعف جسمه وعدم نضوج فكره ، فهو لم يزل طفلاً بحاجة إلى رعاية أبويه واهتمامهما . ومع حلول مرحلة البلوغ تنتهي فترة الطفولة ، ويبدأ الجسم بالنمو الشامل والسريع ، وتبرز فيه تدريجياً صفات الرجل الكامل ، وإلى جانب التغييرات الجسمانية هناك تغييرات تطرأ على نفسية الفتى ، حيث تولد فيه عواطف وأحاسيس جديدة ، منها حس الاستقلال وبناء الشخصية .

(١) سورة محمد ، الآية : ١٤

ميل الشاب للحرية :

«تبرز رغبة الشاب في إثبات شخصيته الاجتماعية في حالات عديدة ، لا تخرج عن إطار نشاط ذاتي صرف . فيسعى الفتى إلى إبداء رغبته في الانفصال عن عالم الطفولة لتكون له حياة حرة ومستقلة» .

«إذ لم يعد الفتى بحاجة إلى من يرعاه ويشرف عليه ، فهو المسؤول عن كل حركاته وتصرفاته أمام المجتمع ، وهذا ما تؤكدُه القوانين الجزائية والحقوقية . فالفتى لم يعد طفلاً صغيراً ، وينبغي على أبويه أن يمنحاه حرته شيئاً فشيئاً ، لأنه شاء أبواه أم أبا يرغب في أن تكون له حياة تختلف عن حياة الطفولة التي هجرها بكل ما له صلة بها من حركات وتصرفات وعادات صبيانية . إنّه خارج من نطاق الطفولة الضيق إلى عالم الرجولة والكمال الواسع ، وما الرغبة في الاستقلال إلّا حلقة في السلسلة التكاملية لحياة الإنسان»^(١) .

قبول عضويته في المجتمع :

إنّ إرضاء رغبة الفتى في تحقيق الاستقلال وبناء الشخصية إرضاءً صحيحاً أمر واجب ، إذ يجب الاهتمام بهاتين الرغبتين الفطريتين ، لأن الفتى وبتيجة البلوغ يجد نفسه أمام مسؤوليتين كبيرتين ، مؤاخذه الناس له على تصرفاته الشخصية وقبول عضويته في المجتمع . ولكي يحصل الفتى على استقلالته عليه أن يهتم بمسؤوليته الشخصية ، أما إذا أراد أن يكون عضواً في مجتمعه ، فعليه أن يبني شخصيته .

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٧٦ .

استحقاق الثواب والعقاب :

إنَّ الفتى مسؤول عن سلوكه وتصرفاته كما تنص الأحكام الإسلامية والقوانين الوضعية ، فهو مستقل ومخير في أداء خير الأعمال والتصرفات أو شرّها ، فهو إذن ينطبق عليه قانون الثواب والعقاب . ولا بد للمرء من أن يكون مستقلاً في شخصيته وإرادته حتى يؤاخذ على سلوكه وأعماله حسب الأحكام الشرعية والقوانين الوضعية .

وتشكّل مرحلة الشباب نهاية فترة الطفولة وبداية حياة اجتماعية كاملة ، فالفتى البالغ يخرج من محيط الأسرة الضيق إلى محيط المجتمع الواسع ، ليصبح عضواً في المجتمع يتحمّل ما يتحمّله الآخرون من مسؤوليات . ومن رغب في أن يكون عضواً مؤثراً في المجتمع ، عليه أن يبني لنفسه شخصية يمكنها أن تتألف مع المجتمع ، وتتصف بصفات العضوية فيه . وهذه الصفات التي يختارها الفرد ليتطبّع بها ويستطيع من خلالها أن يذوب في المجتمع ، يصطلح عليها في علم النفس بالصفات الشخصية . وباختصار فإن ضرورة تحقيق المسؤولية الشخصية والعضوية الاجتماعية تستدعي من الفتى العمل على تحقيق رغبته في الاستقلال وبناء الشخصية ، وإرضاء هاتين الرغبتين الفطريتين بشكل سليم .

جيل الشباب والمشكلة الكبرى :

إنّ موضوع بناء الشخصية واختيار ما يلزم من صفات للتوافق مع المجتمع ، يشكل إحدى المشاكل الكبرى التي يعاني منها جيل الشباب . فالكثير من الفتيان تزل أقدامهم عن الطريق السوي بسبب غرورهم واستبدادهم برأيهم وانعدام المرّبين الأكفأ ، فيختارون الذميمة من الصفات بدل الحميدة منها ، وبذا يصبحون عاجزين عن تكييف أنفسهم مع المجتمع .

وتنشأ معظم حالات التمرد والعصيان والإحباط والإخفاق والحرمان

والانتحار أحياناً من ضعف شخصية الشباب وسوء تشخيصهم للعوامل التي تساعدهم في تكيف أنفسهم مع المجتمع .

التوافق مع المحيط :

«كلما ضعفت علاقة الشاب بمحيط أسرته وتقلّصت ، كلما واجه الشاب الذي يشعر بعنفوانه وحرينه وطاقته وحيويته مشاكل جديدة» .

«إن إثبات الشخصية وهو أمر طبيعي لمثل هذا العمر غالباً ما يثير تضاداً بين الشاب والمحيط الذي يعيش فيه . وقد لاحظ (ماندوس) أن الشباب في الغالب لا يحاولون تكيف أنفسهم مع محيطهم الاجتماعي ، وإنما يريدون عكس ذلك» .

«إن الضوابط الاجتماعية التي يواجهها الشاب بعد خروجه من محيط أسرته إلى محيط المجتمع ، تثير فيه الدهشة والحيرة ، البعض من الشباب يملكه الاضطراب الشديد والبعض الآخر يصاب بإحباط نفسي ، وقليل من الشباب من يستطيعون أن يكتفوا أنفسهم مع تلك الضوابط» .

«ومن هنا تنشأ حالات التمرد والعصيان والفوضى والفتان ، وتملك التخيلات والأوهام أحاسيس أصحاب النفوس المريضة والطباع الضعيفة»^(١) .

حسن التفوق والأفضلية :

ثمة أسباب عديدة وراء خطأ الشباب في اختيار الصفات الشخصية وانحرافهم عن طريق الفضيلة والصلاح ، ومما لا شك فيه أن الحالات النفسية

(١) ماذا أعرف ؟ البلوغ ، ص ٨٢ .

والعصبية التي يعيشها الشاب أثناء فورة البلوغ ، هي من جملة هذه الأسباب .

ومن الأحاسيس الطبيعية الاخرى التي تبرز في أعماق الشاب ، حسّ التفوق والأفضلية . وهذا الحسّ الفطري الذي يبدأ نشاطه مع حلول مرحلة البلوغ يعتبر ثروة عظيمة من ثروات الشباب ، إن استغلّوها استغلالاً صحيحاً سارت بهم نحو السموّ والكمال ، وإن أفرطوا في استغلالها تسببت في شقائهم وتعاستهم .

اكتساب القدرة والجاه :

إنَّ حب الظهور والرغبة في التفوّق هما من الميول الغريزية للإنسان ، وعادة ما يكون هذا الميل شديداً جداً لدى الشباب مما يدفعهم برغبة وشوق إلى السعي والمثابرة لاكتساب القدرة والجاه في مجتمعاتهم .

ردّة فعل الشعور بالحقارة :

ويمكن القول : إنَّ الرغبة الجامحة لدى الشباب في اكتساب القدرة ولفت أنظار الآخرين إليهم ، ما هي إلاّ ردّة فعل منهم على ما شعروه من حقارة النفس أثناء طفولتهم . فالفتى الذي طوى لتوّه مرحلة الطفولة وأخذ جسمه ينمو وعظمه يصلب ، يسعد ويتلذذ لأدنى قدرة أو شهرة يحققها للتعويض عن ضعف الطفولة وحقارة النفس التي عاشها .

«إن من الرغبات التي يعتبرها «ماك دوغال» غريزية ، رغبة حب الظهور والتفوّق وإحراز منزلة مرموقة في المجتمع . لكنها ليست غريزية فحسب وإنما هي دافع رئيسي لسلوك الفرد وتصرفاته حسب اعتقاد العالم النفساني «الفريد أدلر» وأتباعه» .

«ويعتقد «آدلر» أنّ حب الظهور والتفوق هو ردّة فعل إزاء الشعور بالحقارة الحقيقية أو الحقارة الوهمية ، فهناك نوع من الحقارة والصغر يشعر به الجميع ، لأنهم كانوا يوماً ما صغاراً . وينشأ الشعور بالحقارة لدى الطفل من ثلاثة عوامل :»

تلافي الحقارة :

«وهذه العوامل الثلاثة هي : أولاً : الإحساس بالعجز ، ثانياً : الإحساس بالضعف أمام الكبار ، ثالثاً : الإحساس بالتبعية للكبار والتعلق بهم . إن كل طفل يرغب في أن يكون إنساناً كبيراً يسعى للتفوق والنجاح لتلافي الحقارة التي يشعر بها»^(١) .

«إنَّ نجاح الشاب في إثبات وجوده بيِّن تكامل القدرة البدنية والفكرية لديه في المرحلة الأخيرة للنمو ، وفي الوقت نفسه يعكس ردّة فعل الرغبة في تحقيق القدرة والتفوق إزاء الشعور بالحقارة والضّعة أمام الأفراد البالغين ومن هم أكبر منه سنّاً»^(٢) .

تقليد الآخرين :

يُعتبر حسّ التقليد من الرغبات الطبيعية التي يحملها كل فرد منّا في أعماقه ، وهذه الرغبة هي أشد عند الشباب من غيرهم . فالإنسان يستطيع بواسطة التقليد الاستفادة من التجارب العلمية والعملية للآخرين ، والسير على خطاهم المثمرة للوصول إلى قمة النجاح بجهد أقل وسرعة أكبر .

ويُقَدِّد الفتيانُ الآخرين في أسلوب بناء الشخصية واختيار الصفات اللازمة لهذه الشخصية . ونظراً لشدة حبّ الظهور والرغبة في إبراز شخصيته ، يحاول الفتى أو الشاب قدر إمكانه تقليد المتفوقين والمشاهير من الرجال ، ويسعى إلى التّطبع بصفاتهم لبناء شخصيته ، وكلّه أمل في أن يستطيع اكتساب مزيد من الشهرة والتفوق في أسرع وقت ممكن ليكون محطّ أنظار عامة الناس .

«حالما تبرز روح الأنانية وتنمو في الإنسان ، يبدأ بالمقارنة بينه وبين الآخرين ، بمعنى أنه لا يمكن أن ينظر إلى الآخرين دون أن

(١) علم النفس الإجتماعي ج ١ ، ص ١١٦ .

(٢) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٨٨ .

يلتفت لنفسه ليقارن بينه وبينهم .

« إنَّ شبابنا ما أن يتعرفوا على شخصية من مشاهير التاريخ حتى يُغيّروا سلوكهم ، بمعنى أنهم يرغبون في أن يكونوا مكان هذه الشخصيات ، فتراهم تارة يريدون أن يحلّوا محل تراجان وتارة أخرى محل الإسكندر . ولهذا حينما يعودون إلى أنفسهم يتألّمون ويتحسّرون على ما هم عليه ويصابون باليأس والمرارة»^(١) .

حب الشهرة والغرور :

إن الفتى كثيراً ما يحب أن يعرض وجوده ويثبت شخصيته ، ويبيد رغبة كبيرة تجاه كل ما من شأنه أن يزيد من شهرته وغروره ، أو يثبت قوته واقتداره . ونظراً لحسّ التفوق والأفضلية في أعماق الفتى ، فإنه يعشق الأعمال البطولية والملاحم ويبيد ولعاً شديداً بالأبطال حقيقيين كانوا أم أسطوريين ، يحب أن يقرأ تاريخهم بتمعن ليتعرف على تفاصيل حياتهم ، ويطبّق على نفسه كل ما قرأه عنهم .

تقليد الأبطال :

أحياناً يلجأ الفتى إلى تقليد الأبطال الرياضيين بكل أفعالهم وتصرفاتهم ، وقد يُقدم على بعض الألعاب الرياضية التي تتطلب منه جهداً يفوق طاقته وذلك لإحراز لقب البطولة ، أو أنه يقوم بألعاب خطيرة تنفّسه وهو نبي ريعان فتوته وشبابه صحته وسلامته .

الرياضات الخطية :

«قد تؤدي الرياضات البدنية الفتيان والشباب إلى وقوع خسائر

(١) اميل ، ص ١٨٩ .

وأضرار لا يمكن تعويضها إذا لم تدرس بشكل دقيق من جميع جهاتها .

ففي مجال الصناعة ، وُضعت منذ أكثر من قرن وحتى يومنا هذا قوانين صارمة تقضي بملاحقة أولئك الذين يستثمرون الشباب والأطفال ويحملونهم ما لا طاقة لهم عليه . وهذا الأسلوب يجب اتباعه في مجال الرياضة البدنية ، حيث ينبغي اتباع مراقبة طبية شديدة للرياضات البدنية في المدارس ، لأنه ربما أقدم بعض الفتيان البالغين على القيام بما يفوق طاقاتهم بدافع من الغيرة أو الحسد أو عزة النفس .

«فكما تمّ منع الناشئين والمبتدئين من العمل الإجباري داخل المعامل والمصانع ، ينبغي أيضاً منع البالغين حديثاً من القيام بنشاطات وألعاب تفوق قدراتهم البدنية ، لأن ذلك قد يلحق بسلسلة عظامهم أضراراً لا يمكن تفاديها ، والأسوأ من ذلك قد يُصاب الفتى بأمراض مزمنة وخطيرة في القلب نتيجة ما يتعرّض له من ضغط شديد»^(١) .

تقليد نجوم السينما :

وأحياناً يلجأ الفتى إلى تقليد نجوم السينما بكل ما يقومون به من حركات مصطنعة وبعيدة عن الواقع ، ويعتقد أن هذا الأسلوب الخاطيء سيعود عليه بالفخر والشهرة ، فهو يقلّد نجوم السينما في مشيته وكلامه ، في ملبسه ونظراته ، في حبه وبسماته ، وفي تصفيف شعره وتجميل وجهه ، وباختصار فإنه بدل أن يبني شخصيته على أساس السجاياء الأخلاقية والصفات الإنسانية ليكون إنساناً كفوّاً في مجتمعه ، يذهب في تقليده نجوم السينما إلى حدّ الغلو ، ليوجّه بذلك ضربة قوية إلى شخصيته المعنوية .

(١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٣٩ .

«يقول الدكتور كارل : لقد ساهم انتشار الصحف والمجلات الرخيصة ودور السينما والإذاعات ، في تدني المستوى الفكري للطبقات الاجتماعية ، فأفكار طلبة المدارس والجامعات تتأثر كل التأثر ببرامج الإذاعات وأفلام دور السينما التافهة والرخيصة التي اعتادوا عليها . إذن لم يعد المحيط الاجتماعي ساحة ينمي فيها الإنسان فكره وينير عقله» .

عدم الاهتمام بحسن الخلق :

«ينتشر الفن الصناعي في عالمنا اليوم بسرعة فائقة ، كما شهد الفن المعماري ازدهاراً كبيراً لم يشهده من قبل ، حيث ارتفعت المباني لتناطح السحاب وتغير من ملامح المدن . لكننا لم نشهد مثل هذا الازدهار والتقدم في مجال تنمية الأخلاق وتحسينها . فقد تأسست المجتمعات مسألة الأخلاق ، لا بل قضت عليها بالكامل . ويات الفتیان يتعلمون أدوارهم من أبطال شاشات السينما ليطبّقوها في حياتهم اليومية»^(١) .

مما لا شك فيه أن لوسائل الإعلام المقروءة والمرئية في عالمنا اليوم دوراً كبيراً ومؤثراً في تفتح أذهان المجتمعات وبناء شخصية الإنسان لاسيما الشباب . فما يطالعه الشاب في الصحف اليومية وما يشاهده على شاشات السينما يترك أثراً عميقاً في نفسه ، فيسلب منه لُبّه من حيث يدري أو لا يدري ، ويدفعه في الطريق الذي ترسمه له وسائل الإعلام هذه . ويعتقد كبار فلاسفة علم النفس في العالم بأن هاتين الوسيطتين الإعلاميتين المؤثرتين لم تسهما في تنمية أفكار الناس تنمية سليمة ، بل وتهدفان أيضاً إلى جرف أفكار الناس من مسارها الصحيح نحو الانحراف والرذيلة .

(١) الإنسان ذلك المجهول : ص ١٤٤ .

أخبار الصحف :

«يقول هـ . ا . أوفرستريت أستاذ جامعات كاليفورنيا ونيويورك :
إنَّ أهم الأخبار التي تتناولها الصحف :

«هي تلك التي تترك آثاراً سلبية في نفوس قرائها . فالأخبار السياسية المحلية عادة ما تكون مخصصة للاجتماعات والزيارات والجولات والمحادثات ، إلا أنَّ الأخبار العامة أو الأخبار الأمنية المحلية التي تصدر أهم الصفحات والأعمدة في الصحف ، لا تخرج عن إطار الأحداث والجرائم ، فهذا قُتل ، وذاك خُطف ، وثالث تعرَّض للضرب والإهانة ، أو فلان احتال على فلان ، أو فلان قتل فلاناً وهرب ، أو فلان كشف النقاب عن أسرار تتعلق بفلان ، وما إلى ذلك من أحداث وجرائم تثير ألماً وحرزناً في نفس القارئ» .

الانحراف عن مسار الحياة :

«وباختصار نقول: إنَّ أكثر الصحف قد توصلت إلى نتيجة مفادها أنَّ معظم الناس يميلون إلى كل ما هو منحرف عن مسير الحياة الطبيعي الهادي» .

«ويمكن القول : إنَّ الصحف نجحت في إثارة اهتمام الناس بالحوادث والجرائم ، فإذا ما استحصلت على حدث مثير فإنها تُطبِّل له وتزمر ، وإذا ما كُشف النقاب عن حادثة مؤلمة فإنها ستكون السبَّاقة في نشرها» .

مواقف عدائية :

«إنَّ لكل منَّا نظرتَه إلى الكمال ، ولكل نظرة في علم النفس معنى خاص ، وتفسير ذلك أنَّ نظرتنا إلى الحياة تضيق يوماً بعد آخر

وسنة بعد سنة لتصبح منحصرة في زاوية منحرفة . إننا نرى أن الحياة بما يتخللها من مواقف عدائية وأحداث مؤلمة وممارسات تخريبية أجمل من تلك التي تسودها مواقف الأخلاق والصدقة والمحبة» .

«إننا أفراد مدنية يتأثر أبنائها منذ طفولتهم بما تتناقله الصحافة ، لتترسخ في أذهانهم فكرة خاطئة تقول بحلاوة وأهمية كل ما له صلة بالحروب والأحداث غير الطبيعية»^(١) .

عمل وحشي :

«يقول الدكتور وعالم النفس الإنجليزي «اوستاس چسر» : يصوّرون لنا في بعض الأفلام العنف على أنه صفة حميدة تستحق الثناء ، وفي هذه الأفلام يصوّرون لنا ذلك القرصان الشقي ورجل الغابة طرزان على أنهما أسوة علينا أن نفتدي بهما في حياتنا . إن ما تتمتع به هاتان الشخصيتان من قوة جسمانية خارقة ، أمر جميل وحسن ، ولكن كما يقول شكسبير :

«إن امتلاك قوة جسمانية خارقة أمر جميل وحسن ، لكن استخدام تلك القوة الخارقة عمل وحشي»^(٢) .

تعتبر فترة البلوغ مرحلة يبني فيها الفتى شخصيته المعنوية ، ويعدّ نفسه للتكيف مع المجتمع . وفي هذه المرحلة بالذات يحتاج الفتى لمن يراقبه مراقبة كاملة ، ويوفر له مربين أكفأ يساعده في تخطي هذه المرحلة الصعبة بسلام ، وتجاوز كل الأخطار التي قد تهدده في مسيرته .

(١) العقل الكامل ، ص ٢٠٠ .

(٢) النمو والحياة ، ص ٢٢٥ .

والفتى الذي يريد بناء شخصيته يجد نفسه من جهة مضطراً لتقليد الآخرين والاستفادة من تجاربهم الحياتية ، ومن جهة أخرى رغباً في انتهاج نهج الأبطال والمشاهير في العالم ، وذلك لإرضاء رغبته في التفوق وحبّ الظهور .

أفلام مضلة :

كم من شاب ضلّ طريقه وانجرف في تيار الفساد بسبب مشاهدة بعض من الأفلام المضلّة . وقد أقدم هؤلاء على ارتكاب المعاصي والآثام إرضاءً لرغبة التفوق وحبّ الظهور ، جالبين لأنفسهم التعاسة والشقاء .

«إن الشباب المعاصر الذين يعشقون السينما بإفراط يرغبون دون شك في أن تكون لهم حياة شبيهة بحياة أبطال السينما دون أن يفكروا بأن ما يروونه بعيد عن الواقع ومصطنع» .

الانهيار وسوء السمعة :

«إن أبطال الأفلام غالباً ما يقتحمون ساحة المعارك بكل جرأة وشجاعة ، وليس هناك ما يقف في طريقهم أو يمنعهم من الوصول إلى هدفهم ، إنهم يتفوقون دائماً على منافسيهم ، وكثيراً ما يلعب المسدّس دوراً هاماً في مثل هذه الأفلام . ولكن كلنا أسف ونحن نقول إن هذا التقليد - أي تقليد استخدام المسدس أو السلاح - الأعمى لا يمكنه أن يعود بالنفع على الإنسان ، ولن يساعده في الانتصار أو الحصول على ثروة أو استرداد الحبيبة التي باتت اليوم زينة الأفلام السينمائية ، ولا يمكنه أن يجني شيئاً غير المثل أمام المحكمة الجنائية والانهيار وسوء السمعة» .

«من منا يستطيع أن ينكر تأثير الروايات البوليسية في نفوس شباننا ؟ ، فشباننا الذين يصعب عليهم أن يلعبوا دور المفتش أو

رجل الأمن الحاذق ، تراهم يندفعون لاتخاذ دور المجرم دون تفكير ، وهذا الدور اليسير برأيهم سيكلفهم غالياً»^(١) .

الخيانة والسرقة :

«أخطار السينما ، تحت هذا العنوان نقلت صحيفة اطلاعات الإيرانية خبراً عن إحدى الصحف اللبنانية مفاده أن امرأة لبنانية تُدعى آمنة غندور تقدمت بشكوى ضد ابنها المدعو عدنان غندور ، أوضحت فيها مخاطر الأفلام السينمائية التي تركّز على العنف والإجرام على الأطفال والفتيان . وتقول آمنة في شكاوها إن ابنها عدنان البالغ من العمر اثني عشر عاماً يفرّ من المدرسة باستمرار وينفق المال دون حساب ، وهي لا تعلم من أين يحصل ابنها على هذا المال !» .

«والقي القبض على عدنان الذي اعترف أثناء التحقيق بأنه تعلّم فن السرقة من الأفلام السينمائية ، وارتكب حتى إلقاء القبض عليه سبعاً وعشرين جريمة سرقة شملت فيما شملت سبع درّاجات هوائية باعها بها سرقتها»^(٢) .

الاستمتاع بالمغامرة :

«القي القبض في طهران على مجموعة من الفتيان بعضهم من طلبة المدارس بينما كانوا يسرقون سيارة في أحد شوارع العاصمة . وأثناء التحقيق اعترف هؤلاء الذين تراوحت أعمارهم بين الـ ١٦ والـ ٢٠ عاماً بأنهم لا يعرفون لماذا امتهنوا السرقة ،

(١) ماذا أعرف ؟ ، الجريمة ، ص ٢٧ .

(٢) صحيفة إطلاعات الإيرانية ، العدد ١٠٣٨٦ .

لكنهم كانوا يستمتعون بالسرقة وخاصة أجواء المغامرة التي كانوا يعيشونها أثناء سرقاتهم - حسب زعمهم - ، وقالوا : إنهم لم يستفيدوا من الأموال التي كانوا يستحصلون عليها من سرقة السيارات .

«وفي أمريكا ألقى القبض على مجموعات كبيرة من الفتيان يعملون في سرقة السيارات ، وقد اعترف الجميع خلال التحقيق بأنهم لم يقدموا على السرقة بدافع من الفقر والعوز وإنما بدافع الاستلذاذ ، فهم قرروا تجاوز كافة القيود الاجتماعية والقوانين الجزائية في بلدهم ليصيبوا لذة من ذلك .

ويعزو بعض علماء النفس هذه الحوادث إلى جملة من الأسباب ، أهمها التأثير السلبي للأفلام البوليسية وأفلام العنف والإجرام والمجلات في نفوس الشباب»^(١) .

دوافع الإجرام :

ورغم الآثار السلبية التي تتركها أفلام العنف والإجرام المضلة في نفوس عامة الفتيان الذين يعانون ما يعانون من أجل بناء شخصيتهم ، والتي قد تسبب في انحرافهم ولجوئهم إلى ارتكاب أبشع الجرائم تقليداً منهم لأبطال السينما ، إلا أن الأخطر من ذلك هو مشاهدة أولئك الذين يشعرون بعقدة الحقارة أو أولئك الذين لم يتلقوا تربية سليمة في طفولتهم لمثل هذه الأفلام التي تثير في نفوسهم رغبة التفوق ودوافع أخرى تدفعهم نحو الإجرام .

أسباب عقدة الحقارة :

إنَّ الفتى الذي أعادق عليه أبواه في طفولته الحب والدلال وبات اليوم مهملًا محتقرًا في مجتمعه ، والفتى الذي حُرْم من عطف أبويه خلال طفولته ،

(١) صحيفة إطلاعات الايرانية ، العدد ١١٦٣٠ .

والفتى الذي تخلف عن رفاقه في المدرسة بسبب الكسل أو التخلف الذهني ،
والفتى الذي يعاني من الإحساس بالنقص نتيجة فقدانه أحد أعضاء جسمه ،
والفتى الذي يعاني من الظلم في محيط الأسرة والمجتمع وتهدر حقوقه ،
وأخيراً الفتى الذي يعاني من إرباك في ضميره أو أنه يشعر بالحقارة في نفسه
لسبب معين ، كل هؤلاء همهم الوحيد التعويض عن الحقارة التي يشعرون
بها ، فهم يرغبون في إظهار أنفسهم وإثبات وجودهم بأي شكل من الأشكال .

انعكاسات الأفلام المضلة :

وتأتي الأفلام المضلة لتلعب دورها في هذا المجال وترسم له الطريق
الذي يبحث عنه ، فأبطال هذه الأفلام يعلمون الفتى الذي يشعر في ذاته بعقدة
الحقارة كيف ينتقم وكيف يطغى وكيف يرعب الآخرين وكيف يثبت شخصيته
وكيف يفرض آراءه على الآخرين وكيف يسرق ليستجمع ثروة وكيف يشبع
غريزته الجنسية بالطرق غير المشروعة ، ويعلمونه أيضاً ماذا يصنع لكي يصبح
بطلاً ويرضي رغبة التفوق في نفسه من جهة ، وكيف يزيل عقدة الحقارة من
ذاته من جهة أخرى .

ومما لا شك فيه أن التقليد يُعتبر ركناً أساسياً من أركان رقي الإنسان
وتقدمه ، وعاملاً غاية في التأثير في تقدم الفرد والمجتمع . وينبغي على الفتى
أن يستفيد من هذه الرغبة الطبيعية في بناء شخصيته ، شرط أن يلتفت إلى
نقطتين مهمتين كي لا يقوده التقليد الأعمى إلى الانحراف عن طريق الفضيلة
والرشاد .

فشل المذنبين :

وهاتان النقطتان هما : أولاً : عدم تقليد المنحرفين والمذنبين . ثانياً :
عدم الإتيان بالمعاصي والمحرمات طمعاً في اكتساب لقب البطولة أو إحراز
مركز اجتماعي مرموق ، لأن المنحرفين والمذنبين سرعان ما يفشلون .

روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال : مَنْ حَاوَلَ أَمْرًا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ كَانَ أَفْوَتًا لِمَا يَرْجُو وَأَسْرَعَ لِمَا يَحْذَرُ^(١) .

التقليد الخاطيء :

«إن سلوكنا بشكل عام تَشَكَّل نتيجة التقليد ، فلو لم تكن هذه الغريزة لوجب على كل منا أن يبدأ منذ طفولته في تحديد سبيل الحياة التي تناسبه ويصنع لنفسه سلوكاً معيناً ، وهذا ما يجعل الحياة الاجتماعية صعبة للغاية وربما مستحيلة» .

«ولأسف هناك من يندفع نتيجة تشخيص خاطيء أو رغبة ذاتية نحو تقليد أشخاص غير مرغوب فيهم أو حتى منبوذين من قبل العقلاء .

وقد يُقدم شاب متعطر لإظهار نفسه وإثبات وجوده على تقليد شخص قد يكون بلغ مراده بالصدقة عبر طرق غير مشروعة ، ولن تكون نتيجة هذا التقليد الخاطيء سوى شقاء هذا الشاب وتعاسته»^(٢)

الاستعدادات المتباينة :

النقطة المهمة الثانية هي أن يعلم الشباب أن هناك تبايناً في استعداداتهم الفطرية ، فالتركيبية الطبيعية للإنسان تختلف من شخص لآخر ، لأن الله سبحانه وتعالى خالق الناس أجمعين خصّ كل إنسان بقوة استعداد معينة للقيام بعمل معين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اَعْمَلُوا فِكْلًا مُيسَّرًا لِمَا خُلِقَ لَهُ^(٣) .

(١) بحار الأنوار ج ١٧ ، ص ١٤٩ .

(٢) البهجة ، ص ١١٢ .

(٣) سفينة البحار ، يسر ، ص ٧٣٢ .

إنَّ الإنسان لا يبلغ درجة تليق به من الكمال ما لم يفجّر كل الطاقات الكامنة في أعماقه ويستفيد من استعداداته الدفينة . إنَّ المقصود من التقليد هو أن يُقدّم الإنسان على تقليد الآخرين في مجال إحياء الطاقات وإبراز الشخصية ، ليحقق كما حققوا من قبله نتائج مثمرة ، لا أن يُقدّم على تقليد الأبطال دون بصيرة ، ليكون بطلاً - حسب تصوّره - هاملاً بذلك استعداداته الفطرية التي يمكنها أن تأخذ به إلى الشهرة والمجد .

البطل الأسطوري :

«إنَّ روح المغامرة وحبّ المجازفة وما شابه ، ليست من الأمور التي يقوم عليها أساس حياتنا ، لذا يجب أن لا نهتمّ بها كثيراً ، لأنها أمور لا بد وأن تصادف كل إنسان في مقاطع مختلفة من حياته ، ولكن على كل إنسان أن يسعى لأن يكون هو نفسه لا أن يكون بطل قصة أو فيلم .»

«إذا أخذ الإنسان جانباً من شخصيته وحاول تدريبه على حركة يقوم بها بطل اسطوري ما ، فإنه بلا شك سيكون بعيداً عن شخصيته الحقيقية .»

إنَّ الإنسان الذي يكون طبيعياً جداً في حركاته وأفكاره وسلوكه ، يحظى لدى الآخرين بمرتبة واحترام وتقدير أكبر من ذلك الذي يحاول التصنّع بكل شيء أمام الآخرين . والإنسان بسعيه ومثابرتة يستطيع أن يصنع من نفسه شخصية مرموقة ذات شهرة عظيمة ، على عكس أولئك الذين يصرون على تقليد الأبطال ، فإنهم لن يكونوا أكثر من مقلّدين» .

استغلال القوى الطبيعية :

«والإنسان ليس بمقدوره أن يحقق السعادة والتقدّم والنجاح في

حياته ، إلا إذا استغلّ قواه واستعداداته الطبيعية والفطرية ، لا ذلك الذي يقضي على قواه الطبيعية بسوء الخلق والسلوك والغرور والحرص والطمع وعدم الثقة أو الثقة المفرطة بالآخرين والتقليد الأعمى»^(١) .

الصفات الحميدة والشرف الرفيع :

وحرريّ بنا أن نتطرّق في بحثنا هذا إلى جانب من التعاليم الإسلامية السمحاء الخاصة ببناء الشخصية والذات ، لنُسهّم ولو بالقليل في مساعدة الشاب على بناء شخصيته وذاته ، ومنعه من قمع قواه الطبيعية بتقليده الأعمى للأبطال الوهميين الذي قد يجرّه نحو الرذيلة والفجور ، وكذلك تحذيره من الانحراف عن جادة الصواب ، عن طريق إرضاء رغبة التفوّق وإظهار الشخصية ، وبالتالي دفعه نحو تثبيت صفات شخصيته على أساس سليم ومتين يضمن له سعادته مدى الحياة .

إنّ الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة تُعتبر في الشريعة الإسلامية من أهم العوامل التي تبعث على الفخر والاعتزاز والشرف الرفيع . فهي رمز الموفقية والنجاح ، وهي أفضل وسيلة يتكفّف بواسطتها الإنسان مع المجتمع . فبحسن الخلق يستطيع الإنسان أن يكون عزيزاً ومحبوباً لدى الآخرين ، وأن يؤمن سعادته المادية والمعنوية ، وهناك روايات كثيرة وردت في ذكر حسن الخلق ، تُورد إليك عزيزي القارىء بعضاً منها .

أكرم الحسب :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : **أَكْرَمُ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلُقِ**^(٢) .

(١) النمو والحياة ، ص ١٨ .

(٢) نهج البلاغة ، الفيض ، ص ١٠٩٤ .

وعنه عليه السلام : رَبِّ عَزِيزٍ أَدَّلَهُ خُلُقُهُ وَدَلِيلٍ أَعَزَّهُ خُلُقُهُ^(١) .

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : حُسْنُ الْخُلُقِ يَزِيدُ فِي الرِّزْقِ^(٢) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : فِي سَعَةِ الْأَخْلَاقِ كُنُوزُ الْأَرْزَاقِ^(٣) .

مشكلة الشباب :

إنَّ من كبريات المشاكل التي تعترض الشباب في طريقهم نحو بناء الشخصية واكتساب الصفات الإنسانية والأخلاقية ، هي الميول النفسية والدوافع الغريزية .

فالعقل والضمير الأخلاقي وهما من ثروات الفضيلة والإنسانية ، يدعوان الإنسان إلى الصفات الحميدة والأخلاق الحسنة ، لكن النفس الأمارة والغرائز الهائجة تدعوانه إلى الظلم والعدوان وارتكاب الرذيلة والخيانة .

وسوسة الإجرام :

«ونتيجة لهذه الوسوسات يندفع الإنسان نحو إرضاء رغباته وحس الحاجة لديه عن طريق إلحاق الظلم والأذى بأخيه الإنسان ، فيستثمر عمله دون أن يعوّضه ويستولي على أمواله ويحتقره ويقتله ، ومن الناحية الجنسية يتمتع بشريكة حياته دون رضاها حتى ، فيهينها ويجرح شعورها ، وهذا الميل إلى العداوة والتعدّي يشكل العامل الأساس في إرباك علاقاتنا بالآخرين ، ونتيجة لهذه الخصومة التي طالما أثارَت وتثير الخلافات بين الناس ، تصبح

(١) بحار الأنوار ج ١٥ ، ص ٢١١ .

(٢) سفينة البحار ، (خلق) ، ص ٤١١ .

(٣) بحار الأنوار ج ١٧ ، ص ١٣٠ .

المدنية مهددة بالانهيار والزوال»^(١) .

ويفرض الانقياد للميول النفسية والغرائز دون قيد أو شرط ، يفرض على الإنسان قمع ميوله الإنسانية والأخلاقية ، والشاب الذي يريد اختيار جانب الأخلاق والصفات الحميدة يجد نفسه مشدودة إلى الجانب الآخر ، لأن النفس تجري بطبيعتها في ميدان المخالفة .

مقاومة الغرائز وتباين الطباع والواجبات :

إنَّ الإنسان الذي يرغب في أن يكون إنساناً حقيقياً يرتقي مدارج الكمال المعنوي ، عليه أن يصمّم على مقاومة قدرة الغرائز بكل ما أوتي من قوة ، ليصون نفسه من الوقوع في الخطايا والمعاصي .

روي عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنه قال : النَّفْسُ مَجْبُولَةٌ عَلَى سُوءِ الْأَدَبِ وَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ بِمُلَازِمَةِ حُسْنِ الْأَدَبِ وَالنَّفْسُ تَجْرِي بِطَبْعِهَا فِي مِيدَانِ النِّمَاقَةِ وَالْعَبْدُ يَجْهَدُ بِرَدِّهَا عَنْ سُوءِ الْمُطَالَبَةِ فَمَتَى أَطْلَقَ عِنَانَهَا فَهُوَ شَرِيكٌ فِي فَسَادِهَا وَمَنْ أَعَانَ نَفْسَهُ فِي هَوَى نَفْسِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ نَفْسَهُ فِي قَتْلِ نَفْسِهِ^(٢) .

إنَّ رغبة التعدي وإلحاق الأذى بالآخرين إرضاءً للغريزة وهوى النفس ، هي من الرغبات الفطرية التي يخترنها كل إنسان في ذاته وأعماقه ، لكن هذه الرغبة التي هي أشبه ما تكون بالحالة النفسية ، تكون شديدة عند البعض وخفيفة عند البعض الآخر .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : إنَّ هذه الطَّبَائِعَ مُتَبَايِنَةٌ وَخَيْرُهَا أْبَعْدُهَا مِنَ الشَّرِّ^(٣) .

(١) أفكار فرويد ، ص ١٢٣ .

(٢) مستدرک الوسائل ج ٢ ، ص ٢٧٠ .

(٣) غرر الحكم ، ص ٢٢٠ .

تحديد الرغبات :

ينبغي على الشباب الذين يسودون التحلي بخير الصفات وأفضل الأخلاق ، وتحقيق شخصية تكون جديرة بالاحترام والاهتمام ، أن يعملوا على تحجيم وتحديد رغباتهم وميولهم ، والانعتاق من قيد العبودية لهوى النفس .

السعي وراء الحرية :

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : إقصر نفسك عما يضرها من قبل أن تفارقك ، وأسع في فكائها كما تسعى في طلب معيشتك ، فإن نفسك رهين بعملك ^(١) .

إن ما يميز بين الإنسان والحيوان هو أن الحيوان يطبع غرائزه وينقاد خلف شهواته ، بينما الإنسان العاقل يطبع عقله وينقاد لما فيه مصلحته ، يحقق رغباته الحسنة والمفيدة ويهمل ما هو ضار منها ، لأن الإنسان الذي تقوده غرائزه كالحيوان دون أن يلتفت لما فيه خيره وصلاحه ، يكون بمنزلة الحيوان .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : من لم يعرف الخير من الشر فهو بمنزلة البهيمة ^(٢) .

صعوبة المجاهدة :

إن التغلب على الغرائز ومجاهدة النفس عمل في غاية الصعوبة ، ولطالما أكد أئمة أهل البيت عليهم السلام على أهمية مجاهدة النفس الأمارة بالصراع ضد الرغبات الشاذة ، معتبرين ذلك من أفضل الجهاد .

(١) مستدرک الوسائل ج ٢ ، ص ٣١٠ .

(٢) تحف العقول ، ص ٩٩ .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : **إِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ مُجَاهَدَةُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ** (١) .

إرساء قواعد الشخصية :

إن إرساء قواعد الشخصية والتحلي بالصفات اللازمة للتكيف مع المجتمع من وجهة نظر الإسلام يبدأ من التغلب على الغرائز وقوة الإرادة . بمعنى أن الشاب أو الفتى الذي يرغب في أن تكون له شخصية لائقة تكتنز في أعماقها كل الصفات الحسنة والأخلاق النبيلة ، عليه أن يتدبىء من مخالفة هوى النفس وكبح جماح الغرائز .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : **خَالِفْ نَفْسَكَ تَسْتَقِمَّ وَخَالِطِ الْعُلَمَاءَ تَعْلَمَ** (٢) .

عبيد الهوى :

إن أصحاب النفوس الضعيفة والشخصيات المنحطة من عبيد الهوى الذين لن يتوانوا عن ارتكاب المعاصي والآثام ، لا يمكنهم أبداً أن يكتسبوا صفات الإنسان المثالي ، ما لم يتحرروا من قيود غرائزهم ويمسكوا بلجامها .

الصراع مع الغرائز :

يعتبر حسّ التفوق والأفضلية من الرغبات الفطرية في ذات كل فتى وشاب ، وركناً من الأركان الأساسية التي تسهم في رقي الإنسان . والفتى الذي يريد إرضاء هذه الرغبة الطبيعية في ذاته ، تراه ينحو منحى الأبطال ، ويشرع في تقليد مشاهير الرجال ونجوم السينما ، ويبحث من خلال الصراع مع منافسيه الرياضيين مثلاً على لقب البطولة ، عن سبيل لإثبات وجوده وتفوقه ، متجاهلاً منافسه الباطني الحقيقي - النفس الأمارة - دون أن يفكر في سبيل للإطاحة بهذا

(٢٠١) غرر الحكم ، ص ٢٢٠ و٤٠٠ .

العدو المقتدر . لكن الإسلام يرى أن أهم دليل على تفوق الإنسان ، هو صراعه ضد غرائزه والتغلب عليها . وبعبارة أخرى موجزة نقول: إنَّ البطل في نظر الناس هو من يتغلب على منافسه على لقب بطولة ما ، أما البطل في نظر الإسلام فهو ذلك الذي تتغلب إرادته القويّة على هواه وغرائزه .

روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال : **إِنَّ الشَّدِيدَ لَيْسَ مَنْ غَلَبَ النَّاسَ وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ مَنْ غَلَبَ عَلَى نَفْسِهِ** (١) .

البطل الحقيقي :

وروي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : **لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصَّرْعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ** (٢) .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : **مَنْ قَوِيَ عَلَى نَفْسِهِ تَنَاهَى فِي الْقُوَّةِ** (٣) .

أقوى من البطل :

مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بِقَوْمٍ فِيهِمْ رَجُلٌ يَرْفَعُ حَجْرًا يُقَالُ لَهُ حَجَرُ الْأَشْدَاءِ وَهُمْ يَعْبُونَ مِنْهُ . فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ ، قَالُوا : رَجُلٌ يَرْفَعُ حَجْرًا يُقَالُ لَهُ حَجَرُ الْأَشْدَاءِ ، قَالَ : أَفَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ ؟ ، رَجُلٌ سَبَّهُ رَجُلٌ فَحَلَمَ عَنْهُ فَغَلَبَ نَفْسَهُ وَعَلَبَ شَيْطَانَهُ وَشَيْطَانَ صَاحِبِهِ (٤) .

حتى الصبر والثبات :

يرى أئمة أهل البيت عليهم السلام أن غلبة النفس الأمارة التي فيها يكمن عزم الإنسان وقدرته ، لتبعث على العزّة والفخر . والفتى الذي يبحث عن حق وصدق عمّا يرفع به رأسه بين الناس ، عليه أن يبني شخصيته على أساس من

(٢١) مجموعة ورّام ١٥٢ ، ص ١٠ و ١٢٢ .

(٣) غرر الحكم ، ص ٦٤٢ .

(٤) مجموعة ورّام ج ٢ ، ص ١٠ .

الصبر والثبات والإرادة وغلبة النفس ، ليؤمن سعادته في الدنيا والآخرة .

الخلاص من ذل المعصية :

روي عن الإمام الصادق س أنه قال : مَنْ أَرَادَ عِزًّا بِلاَ غَشِيرَةٍ وَغِنًى بِلاَ مَالٍ وَهَيْبَةً بِلاَ سُلْطَانٍ فَلْيَنْتَقِلْ مِنْ ذُلِّ مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَى عِزِّ طَاعَتِهِ ^(١) .

وقال أمير المؤمنين علي س : مَنْ حَصَرَ شَهْوَتَهُ فَقَدْ صَانَ قَدْرَهُ ^(٢) .

إنّ الفتى الذي يودّ أن يبني شخصيته وفقاً لتعاليم الإسلام ، ويتحلّى بخير الخلق وأفضل الصفات ، عليه أن يتغلب على نفسه الأمارة ، ويرضي حسّ التفوق لديه بكبح هواه وغرائزه والتفوق عليها .

إحراز الشخصية المعنوية :

إنّ من ينجح في التغلب على هواه وكبح غرائزه وتسليم عقله لحام رغباته وميوله ، وتعديل وتحديد هذه الرغبات والميول ، يكون قد أحرز شخصية تتسم بجمع الصفات المادية والمعنوية .

الالتزام بمبادئ الأخلاق :

وهكذا إنسان لا يمكن أن يدنو من الرذيلة والمعصية ، ويستحيل أن يرتكب إثماً أو جريمة مهما علا مستواه العلمي ، حتى وإن حصل على منصب حكومي أو ارتقى إلى طبقة الأثرياء في المجتمع أو أصبح في عداد الأبطال الرياضيين ، فإنه لا يمكن أن ينحرف ، لأنه متغلب على هواه ، ملتزم بمبادئ الأخلاق، في تكيفه مع المجتمع .

(١) بحار الأنوار ج ١٥ ، قسم ٢ ، ص ١٦٤

(٢) تنقيح العقول ، ص ٩٧ .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : مَنْ قَدَّمَ عَقْلَهُ عَلَى هَوَاهُ حَسُنَتْ مَسَاعِيهِ (١) .

مخاطر تحرر الغرائز :

علی عكس ذلك الذي يتمادى في إرضاء غرائزه وميوله دون أن يستجيب لنداء العقل ، ويهمل نفسه الأمارة تفعل ما تريد من المحرمات ، فإنه غارق في ضلاله وانحرافه ، وهو عبد اللذة والشهوة الذي لا يعرف لمفهوم التحرر معنى .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : مَنْ رَخَّصَ لِنَفْسِهِ ذَهَبَتْ بِهِ فِي مَذَاهِبِ الظُّلْمِ (٢) .

وعنه عليه السلام قال : مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ فِي لَذَائِهَا شَقِيَ وَبَعُدَ (٣) .

طاعة هوى النفس :

إنّ الإنسان الذي يكون عبداً لشهوته مطيعاً لهواه لا يمكنه أن يكون ذا شخصية إيجابية مرموقة ، أو أن يرتقي مدارج الكمال الإنساني . لأنه حتى وإن نجح في علومه وجمع من المال ما يكفيه لإحراز مكانة مرموقة في المجتمع ، فإنه سيُسخر كل ذلك لمصلحة شهواته لأنه عبد لها ، وسيسير خلافاً لما تقتضيه مصلحته ومصلحة المجتمع ، وهذا ما سيوقعه في التهلكة .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : مَنْ أَطَاعَ نَفْسَهُ فِي شَهَوَاتِهَا فَقَدْ أَعَانَهَا عَلَى هَلَكَيْهَا (٤) .

حجاب الحقيقة :

مما يؤسف له أنّ غريزة حبّ الذات وهي من الغرائز الكامنة في أعماق

(١) و٢١) غرر الحكم ، ص ٦٤٥ و٧٠٥ و٦٤٤ .

(٤) غرر الحكم ، ص ٦٨٣ .

كل منا ، هي بمثابة حجاب مظلم يحول بين المرء والحقيقة ، ويمنعه من إدراك الأمور على حقيقتها .

التصوّر الخاطيء :

ولهذا يتصور عبيد الهوى والشهوات أنّ كل ما يقومون به إنّما هو مباح ومحمود ، فيقدمون على ارتكاب الرذائل والمحرمات إرضاءً لميولهم وأهوائهم ، ثم يتطلعون إلى ما صنعوه من منظار الأنانية وحبّ الذات فيرونه حسناً خالياً من كل قبح أو نقص .

قال تعالى في محكم كتابه : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ (١) .
ثمة عادات اجتماعية مغلوطة انتشرت ومازالت تنتشر بين الناس كشراب الخمر ولعب الميسر والتفسخ الخلقي وما شابه ذلك ، وهذه العادات السيئة تؤول فيما تؤول إليه إلى تضليل الناس ، فتختلط عليهم الأمور ، حتى انهم يرون كل ما هو غير مباح مباحاً ، وكل ما هو سيء حسناً ، وهذا ما من شأنه أن يشكل سداً بين الإنسان وسعادته الواقعية وكماله الحقيقي .

تشخيص الصلاح والفساد :

وهنا ننصح الفتى بالالتزام بالتعاليم الإلهية والإرشادات القرآنية العظيمة كي لا يضل وهو في طريقه لمقارعة هوى النفس وبناء الشخصية ، ولا يختلط عليه صلاح الأمور وفسادها نتيجة الغرور والاستبداد والعادات الاجتماعية والأسرورية الخاطئة ، ولكي يقف على حقيقة رغباته ، ما هو ضارّ منها وما هو مفيد ، ويميّز بواقعية بين مساوئ ميوله النفسية ومحاسنها .

البرهان الإلهي :

قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا

(١) سورة فاطر ؛ الآية : ٨ .

هناك طائفتان من العبيد متناقضتان متضادتان ، الأولى تتشكّل من عبيد الله الحقيقيين ، والثانية من عبيد الهوى والشهوات ، فأتباع الطائفة الأولى يتطلّعون في جميع أمورهم المادية والمعنوية إلى أوامر الله تعالى ، ويسعون إلى إرضاء رغباتهم وغرائزهم بما يرضيه الله ، وهؤلاء هم من يصفهم الإسلام بالمخلصين .

الخلاص الحقيقي :

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : فَطُوبَى لِمَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ عَمَلَهُ وَعِلْمَهُ وَحُبَّهُ وَبُغْضَهُ وَأَخَذَهُ وَتَرَكَهُ وَكَلَامَهُ وَصَمْتَهُ وَفِعْلَهُ وَقَوْلَهُ ^(١) .

أمّا أتباع الطائفة الثانية فهم عبيد لأهوائهم ومنقادون لغرائزهم دون وازع أو رادع ، هدفهم إرضاء شهواتهم ليس إلّا ، لا تحرك فيهم أوامر الله سبحانه وتعالى ساكناً ، وليس مستبعداً أن يرتكب مثل هؤلاء كبائر الذنوب تحقيقاً لمراميمهم ، كما فعل الذين من قبلهم - حسبما ينقله لنا التاريخ - من مفساد كبيرة وجرائم بشعة ألحقت العار بالبشرية .

أثر التربية السليمة :

لا بد من القول إن التغلب على الغرائز الجامحة والشهوات الهائجة ، عمل في غاية الصعوبة يتطلّب من الانسان مجاهدة كبيرة ، ولكن الانسان الذي ترعرع منذ طفولته وحتى مرحلة بلوغه في ظل تربية سليمة وخضع لمراقبة تامة ومستمرة من قبل مربّين أكفأ زرعوا في نفسه الإيمان بالله وبتعاليمه السامية ، لا بد وأن يمتلك في شبابه شخصية قويّة فبذة تسيطر على أهوائها وتكبح غرائزها وشهواتها بكل سهولة .

(١) سورة محمد ؛ الآية : ١٤ .

(٢) تحف العقول ، ص ٩١ .

وإليك عزيزي القارئ، نضرب هذا المثل الذي انتقناه من تاريخ

الإسلام :

المؤدب الكفوء :

كان ليزيد بن معاوية ولد يدعى معاوية ، كان يحبه حباً جماً ، ويودّ تربيته تربية حسنة تعينه على بلوغ مدارج الكمال . فاختار له مؤدّباً كفوءاً ومعلماً فاضلاً يدعى «عمر المقصوص» ، وقد عُرف هذا المؤدّب بإيمانه وورعه وحبّه وموالاته لأمر المؤمنين عليّ عليه السلام . وبغضه الدفين لظلم وبغي معاوية بن أبي سفيان وولده يزيد .

وقد حرص هذا المعلم الكفوء على تعليم وتربية معاوية بن يزيد على كافة التعاليم الإسلامية ، وتحريك وتنمية حسّ الإيمان والعقل والرغبة في المعرفة الدينية في كيانه ، وقد أفلح فعلاً في أن يصنع من معاوية بن يزيد فرداً مؤمناً عاقلاً ومحباً لعليّ عليه السلام . وأولاده من الأئمة المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد بُوع لمعاوية بن يزيد بالخلافة يوم موت أبيه وهو في عنفوان شبابه ، حيث لم يكن يتجاوز العشرين من عمره .

مرحلة بروز الرغبات :

إن سنّ العشرين هو من سنّي الدورة الواقعة بين سن الـ ١٨ والـ ٢٣ ، وهي مرحلة تبرز فيها الرغبات بقوة في أعماق الفتيان والشباب . ففيها تصل الشهوة الجنسية إلى ذروتها ، وتفتح أحاسيس التفوّق والشهرة وحب المال والجاه في ذات الشاب بعنف . وخلال هذه الدورة يصبح الشاب متعطشاً لإصابة اللذائذ وإشباع الشهوات ، وقد يلجأ إلى الإتيان بالمحرمات وسلوك الطرق الملتوية وغير المشروعة لتحقيق أمانيه ورغباته الدفينة .

الشخصية الحرّة والمستقلة :

إنَّ خلافة يزيد وحكومة بلاد واسعة كانت بالنسبة لمعاوية الشاب أفضل وسيلة لإشباع ميوله ورغباته ، إذ كان بإمكانه إشباع نزواته الجنسية وأحاسيس التفوق وحبّ المال والجاه وغيرها من الرغبات الجامحة التي تكمن في أعماق كل شاب بصورة فطرية . فمعاوية بن يزيد كان قادراً على استغلال وجوده على عرش الخلافة شرّاً استغلال في إرضاء غرائزه لو كان عبداً لهواه ، ذليلاً لشهواته ، أو لو لم يكن قد نشأ في ظل تربية إسلامية صحيحة ، وترعرع في كنف مؤدّب كفوء رسّخ في نفسه روح الإيمان بالله والتعاليم الإسلامية الحقّة ، ليجعل منه إنساناً ذا إرادة قوية متحرراً من قيود النفس الأمارة مستقلاً ، لن يؤثر فيه منصب الخلافة بكل عظمتها .

لقد أقام معاوية بن يزيد في الخلافة أربعين يوماً ، نظر فيها في كل ما ارتكبه حكومة أبيه وجدّه من بغي وسوء فعال وجرأة على الله سبحانه وتعالى ، فأدرك عظم الجرائم التي ارتكبها أبوه يزيد بن معاوية طيلة فترة خلافته الذي تجرأ على الله وبغى على من استحل حرمة من أولاد رسول الله ﷺ .

على مفترق طريقتين :

فوجد معاوية بن يزيد نفسه أمام مفترق طريقتين ، عليه أن يختار سلوك أحدهما ، فإمّا أن يستمر في الخلافة ويسير على خُطى أبيه وجدّه في البغي والرديلة وممارسة الظلم بحق العباد وإشباع جميع رغباته وغرائزه ، وإما أن يطيع أوامر الله ويسلك طريق الحق والفضيلة ، ويخلع نفسه عن الخلافة التي لن تعود عليه إلّا بالذل والعار .

التصميم على الاستقالة :

وقد آتخذ معاوية بن يزيد قراره ، واستطاع بقوة إيمانه والتربية السليمة التي عاش في ظلّها أيام طفولته وصباه ، أن يتغلّب على هواه ويصمّم على إقالة

نفسه من الخلافة ، فصعد المنبر ثم حمد الله وأثنى عليه وذكر النبي ﷺ بأحسن ما يذكر به ، ثم قال : أيها الناس ، إن جدِّي معاوية بن أبي سفيان قد نازع في أمر الخلافة من كان أولى بها منه ومن غيره لقربته من رسول الله ﷺ ، وعظم فضله وسابقته أعظم المهاجرين قدراً وأشجعهم قلباً وأكثرهم علماً وأولهم إيماناً وأشرفهم منزلة وأقدمهم صحبة ، ابن عم رسول الله ﷺ وصهره وأخوه ، زوجته ﷺ ابنته فاطمة وجعله لها بعلاً وجعلها له زوجة ، أبو سبطيه سيدي شباب أهل الجنة وأفضل هذه الأمة ، فركب جدِّي منه ما تعلمون وركبتم معه ما لا تجهلون حتى أنتظمت لجدِّي الأمور ، فلما جاءه القدر المحتوم واخترمته أيدي المنون بقي مرتهاً بعمله فريداً في قبره ، ووجد ما قدّمت يده ورأى ما آرتكبه واعتداه .

التجرؤ على الله :

ثم انتقلت الخلافة إلى أبي يزيد - والكلام ما زال لمعاوية - ، لقد كان أبي يزيد بسوء فعله وإسرافه على نفسه غير خليق بالخلافة على أمة محمد ﷺ ، فركب هواه واستحسن خطاه وأقدم على ما أقدم من جرأته على الله وبغيه على من استحلت حرمة من أولاد رسول الله ﷺ ، فقلّت مدته وأنقطع أثره وضاع عمله وصار حليف حفرة رهين خطيئته ، وبقيت أوزاره وتبعاته .

اعتزال الخلافة :

ثم آخنتفته العبرة فبكى طويلاً وعلا نحيبه ثم قال : وما كنت لأتحمل آثامكم ولا يراني الله جلّت قدرته متقلداً أوزاركم وألقاه بتبعاتكم ، فشأنكم أمركم فخذوه ومن رضيتم به عليكم فولّوه ، فلقد خلعت بيعتي من أعناقكم والسّلام . فأضطرب المجلس ، وقام مروان بن الحكم وكان تحت المنبر فقال له : أسنة عمرية يا أبا ليلى ؟ ، فقال معاوية : اغد عني ، أعن ديني تخدعني ؟ ، فوالله ما ذقت حلاوة خلافتكم فأتجرّع مرارتها ، والله لئن كانت

الخلافة مغنماً لقد نال أبي منها مغراً ومائماً ، ولئن كانت سوءاً فحسبه منها ما أصابه ، ثم نزل من علي المنبر وعيناه مغرورقتان بالدموع .

ولما رأى بنو أمية ما حصل قالوا لمؤدِّبه عمر المقصوص : أنت علّمته هذا ولقنته إياه وصددته عن الخلافة وزينت له حبّ عليّ وأولاده ، وحملتة عليّ ما وسمننا به من الظلم وحسنت له البدع حتى نطق بما نطق وقال ما قال ، فقال : والله ما فعلته ولكنه مجبول ومطبوع عليّ حبّ عليّ ، فلم يقبلوا منه ذلك وأخذوه ودفنوه حياً حتى مات^(١) .

الشخصية المؤمنة :

لقد حقق معاوية بن يزيد لنفسه شخصية مؤمنة استطاعت التغلب على هوى النفس ، ورفضت الخلافة لأنها مجبولة بالمعصية والرذيلة والعار ، أمّا أبوه وجده فقد كانا من عبيد الهوى وأسرى الشهوات ، فأقاما في الخلافة سنين طويلة ، وأرتكبا ما أرتكباه من جرائم لا تُنسى ولا يمكن أن تُنسى مهما طال الدهر وأمتد الأمد . قال تعالى : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾^(٢) .

(١) حياة الحيوان للدميمري ، ج ١ ، ص ٨٨ و٨٩ .

(٢) سورة محمد ؛ الآية : ١٤ .

المحاضرة الخامسة عشرة

حول احترام شخصية الشاب

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى في محكم كتابه : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ﴾ (١).

توقع الاحترام والتقدير :

إنَّ من الرغبات الطبيعية الاخرى للفتيان ، هو أن تحظى شخصيتهم باحترام وتقدير الآخرين . وهم يتوقعون على الدوام أن ينظر إليهم آباؤهم وأمهاتهم وأقرباؤهم وعامة الناس على أنهم أفراد متكاملون ، ويتصرفون معهم كالكبار في شتى أمور الحياة الفردية والاجتماعية .

الانعتاق من قيد الطفولة :

إننا إذا ما تعاملنا مع الفتى بنفس الأسلوب الذي نتعامل به مع الطفل ، وأغدقنا في حناننا ومحبتنا له كما لو أنه ما زال طفلاً صغيراً ، فإننا سنجرح شعوره ، لأنه سيشعر بأن الآخرين ما زالوا ينظرون إليه وكأنه لم يزل طفلاً صغيراً ، وليسوا مستعدين لأن يتعاملوا معه كإنسان كامل وبالغ .

(١) سورة لقمان ؛ الآية : ١٣ .

فالفتى يعتبره الفرح والسرور كونه تخطى مرحلة الطفولة وتحرر من سجن الصبا ، وتعمره بهجة لأنه خرج من صفوف الأطفال وأنضم إلى صفوف الفتيان والكبار . فهو لن يرغب أبداً في العودة إلى عهد الصبا ، ولن يقبل أن ينظر إليه الآخرون وكأنه لم يزل طفلاً صغيراً ، كما أنه ليس مستعداً للتفريط بشخصيته وخذش كرامته وعزة نفسه مهما كان الثمن .

الاختلاط بالناس :

إنَّ الطفل يكون مضطراً للتبعية من والديه والانصياع لأوامرهما والعيش في ظل محيط الأسرة المحدود ، وذلك بسبب ضعف جسمه وعدم نضوج عقله . ولكن الفتى البالغ الذي انعتق لتوه من عهد الصبا والطفولة وما يصاحبه من ضعف ووهن ، بات يشعر في قرارة نفسه بالقوة والاعتدال ، ولن يكتفي بأن ينظر إليه الآخرون نظرة الكبر ، بل يطمع في أن يكون تعاملهم معه تعامل الكبار ، ويشعر بأنه بحاجة لأن يتخطى عتبة الأسرة ليطأ محيط المجتمع ويختلط بالناس كالكبار . إنه لم يعد يتحمل إطاعة كل ما يفرضه عليه أبواه أو الانصياع لأوامر هذا أو ذاك كالطفل الصغير .

«يُعتبر محيط الأسرة محيطاً عادياً وطبيعياً بالنسبة للطفل ، يستطيع أن يترعع في ظلّه وينمو ، ولكن الفتى عندما يبلغ يرى أن هذا المحيط الذي قضى فيه طفولته لم يعد يستوعبه أو يستوعب نشاطه وفعاليته ، فهو لم يعد يطبق العمل أو الجلوس في البيت ، وبات يرغب في التنزه مع رفاق حميمين يختارهم لنفسه .

ويصبح من الصعب السيطرة على مثل هذا الفتى الذي يفقد روح الطاعة والوداعة ، لا بل من المستحيل أحياناً^(١) .
«وكلما اشتد عود الفتى قل صبره على تحمّل نير الأسر ، وبات يشعر بعبء سلطة الآخرين عليه ، وعدم تحمّل ضغوطهم ومضايقاتهم ، لأنه لا يدرك في الأساس سبباً لها»^(٢) .

(٢١) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٧٨ و ٧٦ .

رغبة التحرر :

إن أمنية الاحترام والتقدير ورغبة التحرر والاستقلال اللتين تستيقظان في أعماق كل إنسان لدى بلوغه ، ليستا عادة اجتماعية أو رغبة مصطنعة ، وإنما تشكّلان ظاهرة طبيعية امتزجت بطينة الإنسان وستظل تبرز في كل زمان ومكان بمشيئة إلهية .

وهذه الرغبة من شأنها أن توسع على الفتى نطاق حياته ، تُثريه في الآفاق مناظر ومشاهد جديدة ، إنها تجرّ الفتى إلى المحيط الاجتماعي ، وتعدّه ليكون عضواً في هذا المجتمع . فإذا ما تم إرضاء هذه الرغبة وفق المعايير الصحيحة دون إفراط أو تفريط ، فإن الفتى سيكون قادراً على التكيف مع مجتمعه .

نبذ اللجاجة والعناد :

إذا سعى الأبوان إلى تقييم الحالة النفسية لابنهما الفتى ، ومنحاه حريته واستقلاله بالمقدار السليم ، والسماح له بإرضاء ميوله الفطرية ضمن حدود المصلحة ، وعدم مضايقته دون سبب أو إثارة غضبه لأتفه الأمور ، والفتى بدوره إذا عرف حدوده ، ونبذ لجاجته وعناده ، وتجنّب الإفراط في إرضاء ميوله ورغباته ، فإن العلاقة ما بين الأبوين وابنهما الفتى ستكون قائمة على أساس من الحبّ والتفاهم والاحترام المتبادل .

مسؤولية الآباء والأبناء :

«ينبغي على الآباء والأمهات أن يدركوا ما يتوجب عليهم من مسؤوليات تجاه أبنائهم ويتعلّموها بكل شوق ولهفة ورحابة صدر ، كما ينبغي على الأبناء أن يستقبلوا توجيهات ذويهم ونصائحهم المفيدة برحابة صدر ، لأنها حصيلة تجارب طويلة» .

«وإذا ما سعى الآباء والأمهات والأبناء إلى تقييم ومعرفة أفكار وأحاسيس ورغبات بعضهم البعض الآخر ، لترسّخت الثقة في

نفوسهم جميعاً تجاه بعضهم البعض الآخر ، وفي مثل هذه الحالة لن يلجأ الآباء والأمهات إلى مضايقة أبنائهم دون سبب وانتقادهم على أبسط الأمور ، ولن يتوقعوا من مخلوق لم يكتمل نموه بعد وما زال يعيش في كنفهم أكثر من طاقته ، والأبناء بدورهم سيتقبلون بعض القيود ، ويعملون بنصائح وتوجيهات والديهم»^(١) .

معارضة دون وعي :

من المؤسف أن بعض الآباء والأمهات غير المثقفين يعمدون دون وعي إلى معارضة حقوق أبنائهم الطبيعية في تحقيق الاستقلال الذاتي والتحرر ، ويعتبرون أن هذه الرغبة الفطرية الكامنة في أعماق أبنائهم ، هي وليدة غرورهم ووقاحتهم وأنانيتهم ، ونتيجة لذلك تظهر بوادر الخصام والتحدّي في محيط أسرهم ، لتبدّد حرارة الودّ والحنان والألفة التي كانوا ينعمون بها ، وربما دفعت بالفتيان إلى التمرد والعصيان وبالتالي إلى الإثم والرذيلة .

قساوة دون مبرر :

«بعض الآباء والأمهات ممن يمتلكون نوايا حسنة لكنهم لا يستطيعون إدراك نفسيات أبنائهم وحاجاتهم ، غالباً ما يقعون في نفس الأخطاء التربوية التي ارتكبها آباؤهم وأمهاتهم تجاههم . فهم قد نسوا المشاكل والصعاب التي أعترضتهم في فترة شبابهم ، ولا يعلمون أن أسلوبهم الخاطيء في التفكير وما يعانونه من نقص معنوي وأخلاقي ، إنما هو ناجم عن تربية آبائهم وأمهاتهم لهم ، إذ قد يكونون من أصحاب النوايا الحسنة ، لكنهم مارسوا عن جهالة قساوة دون مبرر بحق أبنائهم . مثل هؤلاء الآباء

(١) النمو والحياة ، ص ١٦٣ .

والأمهات قد يسألون أنفسهم ، لماذا يفرّ أبناؤنا منا وينفرون ؟ ، ولماذا لا يستشيروننا في أي عمل يُقدمون عليه؟»^(١) .

«خلال فترة البلوغ ، يتغيّر مركز الإحساس بالمحبة ، ولا يشكل الإحساس بالمحبة تجاه الأسرة إلا جزءاً يسيراً من أحاسيس الفتى . وأحياناً تولد أزمات في العلاقة بين الأب والإبن تؤدي إلى نوع من الفتور والنفور ، وخاصة عند أصحاب الطبائع المتمردة من الفتيان في مواجهة آباء وأمّهات مستبدّين أو ضعفاء . وأحياناً أخرى يسيطر نوع آخر من الأحاسيس ، ألا وهو حسّ العداء والخصومة الذي قد يطيح بالعلاقات الأسرية ، حيث يبدأ الفتى بالتمرد والعصيان ثم بالفرار من بيت الأبوة والأمومة بعد أن يستخدم رذائل الكلام لينتهي إلى الهجران الأبدي»^(٢) .

فتيان مستبدّون :

وينشأ الجدل بين الأبوين وأبنتهما أحياناً نتيجة غرور الأخير وأستبداده برأيه . ومن هنا يأتي استعداد الأبوين لمنح أبنتهما حرّيته وأستقلاله ضمن حدود المصلحة الأسرية ، ولكن الفتى الجاهل والمتطرف هو من لا يقنع بهذه الحدود ، ولا يأبه لمصلحته ، فيهيّن أبويه ويستهن بنصائحهما ، وهكذا فتى يكون مصيره الشقاء والتعاسة ، لأنه سيعود على نفسه وأسرته بمشاكل عضال بسبب طيشه ورعونته .

معرفة الواجب :

هنا عزيزي القارئ سنعود ثانية إلى جانب آخر من التعاليم الإسلامية السامية وجزء يسير من التحقيقات العلمية التي سجّلها بعض من كبار العلماء والمفكرين ، مساهمة منّا في مساعدة الآباء والأمهات على كيفية تقييم الوضع

(١) نفس المصدر ، ص ١٦٢ .

(٢) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٨١ .

النفسى لأبنائهم ، ومعرفة ما يترتب عليهم من واجبات في ضوء التعاليم الدينية والطرق العلمية ، وحثهم على تجنب ممارسة القساوة دون مبرر بحق أبنائهم ، وإرضاء الرغبة في التحرر والاستقلال لديهم وفق المعايير الصحيحة ، وكذلك لتعريف الفتى على حدود مصلحته ، وتحذيره من استغلال قوة شبابه وفتوته في الطرق غير المشروعة .

الحقيقة الساطعة :

إنَّ الحقيقة الأولى التي ينبغي على الآباء والأمهات أن يتقبلوها وهي حقيقة ساطعة لا غبار عليها ، هي أن الحالة الجسمية والنفسية الطبيعية للطفل ، تتأثر بتفاعلات البلوغ وأضطراباته ، فالبلوغ الذي يعتبر الحدّ الفاصل بين مرحلتى الطفولة والشباب ، يمنح الفتى شخصية جديدة . وعلى الأبوين أن يعلموا أن فتى اليوم ليس طفل الأمس ، لذا يتوجب عليهما أن لا ينظرا إلى أبنهما البالغ نظرة الأمس ولا يتصرفا معه تصرف العهد الذي ولّى مع عهد الطفولة .

لقد أوجز الرسول الأكرم ﷺ الحالة النفسية للإنسان الطفل والفتى والشاب في جملة واحدة لكنها معبرة بمفاهيمها ومعانيها ، فهي توضح قيمة شخصية الفتى ومسؤولية الآباء والأمهات تجاه أبنائهم .

قال النبي ﷺ : **الْوَلَدُ سَيِّدٌ سَبْعَ سِنِينَ وَعَبْدٌ سَبْعَ سِنِينَ وَوَزِيرٌ سَبْعَ سِنِينَ** (١) .

مرحلة ما قبل البلوغ :

يستأثر الطفل في السنين السبع الأوائل من عمره بعطف وحنان أبويه ورأفتها به وذلك بسبب صغر سنّه وضعف حاله وقصر فكره ، فيكون فيها سيّداً عليهما ، يحققان له رغباته ويستجيبان لمطالبه ويسعيان قدر الإمكان لثلا يجرحا

(١) مكارم الأخلاق ، ص ١١٥ .

شعوره ، ومن هنا جاء وصف الرسول الأكرم ﷺ للسبع الأوائل من عمر الطفل بأنها فترة السيادة .

وفي السنين السبع الثانية لم يعد الطفل الذي يشتد عوده وتزداد قوته إلى حدّ ما يستأثر بعطف أبويه ورأفتهما به كما في السابق . فهو بات يميّز نسبياً بين الحسن والسيء ، لذا فهو يحاسب على سلوكه وتصرفاته ، ولكن بما أنّ عقله لم يكمل نضوجهُ بعد ، ولم يستطع تحديد مصلحته بشكل جيد ، فيفرض أبواه الواجبات عليه ويلزمانه بتنفيذها مع عدم السماح له بإبداء رأيه في شؤون الحياة ، وهنا يرى الطفل نفسه مُلزماً بتنفيذ الأوامر وإطاعة أبويه دون أدنى اعتراض ، وهذا ما دفع بالرسول الأكرم ﷺ إلى وصف السبع الثانية من عمر الطفل بأنها فترة الطاعة .

مرحلة البلوغ والشباب :

أما السنوات السبع الثالثة التي تبدأ من سن الـ ١٥ ، فهي تشتمل على مرحلة البلوغ والشباب . ففي هذه المرحلة تطرأ تحولات سريعة على جسم الفتى وعقله وسرعان ما يحصل تغيير جذري على تركيبته الجسمانية والنفسية . وقد أوضح الرسول الأكرم ﷺ القيمة المعنوية لشخصية الفتى الجديدة عندما وصف السنوات السبع الثالثة من عمر الإنسان بأنها فترة الوزارة .

تقبّل المسؤولية :

إنّ كلمة وزير تحمل معاني متعددة ، وهي تطلق على من يتحمل أعباءً ثقيلة ويتقبّل مسؤولية مهمة في إدارة البلاد ، والطفل لا يتحمل وهو يعيش في كنف أبويه قبل فترة البلوغ أية مسؤولية ، لكنه عندما يبلغ ويعرف معنى المسؤولية يُحاسب على كل صغيرة وكبيرة تصدر منه .

وكلمة وزارة تعني لغةً العون والمساعدة ، وتعني أيضاً المساهمة الفكرية والتعاون في تدبير الأمور وتسيير المصلحة . ومن هنا يتوجب على الفتى أن

يكون مساعداً لأبويه في محيط الأسرة ، ومعيناً لهما في شؤون الحياة عن طريق تبادل الآراء والأفكار معهما .

وزير في بلاد الأسرة :

ويبدو أن الرسول الأكرم ﷺ أراد بعبارته القصيرة المجملة أن يَصوِّرَ لأُمَّته البيت وكأنه بلاد صغيرة يديرها مجلس حكومي يضم في عضويته الأب والأم ، فلا يحق للأبناء المشاركة في القرارات الأساسية ما داموا صغاراً لم يكتمل نموهم العقلي بعد ، ومسؤوليتهم الوحيدة هي إطاعة أوامر الآباء والأمهات ، ولكنهم عندما يبلغون يتوجَّب عليهم تحمُّل جانب من مسؤولية إدارة هذه البلاد ، وعليهم أن يلتحقوا بصفة وزير بالمجلس الحكومي الأعلى لهذه البلاد ، ويشاركوا في الاجتماعات وتبادل الآراء والأفكار ، لكي ينالوا ثقة المجلس الحاكم .

تبادل الآراء :

كما خصَّ الرسول الأكرم ﷺ الفتى بكلمة وزير ليظهر أهمية تقديره واحترام شخصيته . وهنا يأتي دور الأبوين ، فإذا ما وافقا على عضوية ابنهما الفتى في مجلس إدارة الأسرة ، وفسحا المجال أمامه للمشاركة في الاستشارات والاجتماعات وتبادل الآراء ، فإنهما يكونان قد احترما شخصيته المعنوية ، وأشبعوا رغبته في الحصول على تقدير واحترام الآخرين له .

الصدقة بين الأب والابن الفتى :

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : دَعِ ابْنَكَ يَلْعَبُ سَبْعَ سِنِينَ وَيُؤَدِّبْ سَبْعَ سِنِينَ وَالزَّمَهُ نَفْسَكَ سَبْعَ سِنِينَ^(١) .

من خلال هذا الحديث ، وبالتحديد من خلال وصية الإمام

(١) وسائل الشيعة ج ٥ ، ص ١٢٥ .

الصادق عليه السلام لكل أب بعبارة (ألزمه نفسك) ، تتضح أهمية احترام الفتى وتقديره . إن الآباء والأمهات يحكمون أبناءهم قبل فترة البلوغ ، لكن الواجب يدعوهم إلى احترام أبنائهم من سن الخامسة عشرة والتقرب إليهم ومصادقتهم .

إن احترام الفتى وتقديره يُعتبران من وجهة نظر الإسلام من الواجبات المفروضة على الأبوين وسائر أفراد المجتمع ، فتقدير الفتى في جميع شؤون الحياة الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية والتربوية له مردود إيجابي ولا شك .

أثر التكريم والتقدير في نفس الفتى :

فالفتى الذي يحظى بتقدير أبويه ، والفتى الذي يشارك في تسوية مشاكل الأسرة ويؤخذ برأيه ويعمل بموقفه ، والفتى الذي يتعامل معه أبوه وكأنه صديق حميم يُكرّم له كامل الاحترام والتقدير ، والفتى الذي يشعر وسط أسرته ومجتمعه أن له شخصية لها احترامها كالكبار ، كل هذه النماذج من الفتيان يحرصون على تجنب الوقوع في الرذيلة ، ويسعون لأن يكونوا أهلاً لهذا الاحترام والتقدير ، فيراقبون أعمالهم وسلوكهم ويتجنبون كل ما من شأنه أن يشوه شخصيتهم .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : مَنْ كَرَّمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَتْ عَلَيْهِ شَهَوَاتُهُ^(١) .

وروي عنه عليه السلام أنه قال : مَنْ كَرَّمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ لَمْ يَهْنَأْ بِالْمَعْصِيَةِ^(٢) .

عدم احترام الفتيان :

أما الفتى الذي لم يحظ باحترام وتقدير أبويه ، ولم يُعر مجتمعه أية

(١) نهج البلاغة ، الفيض ، ص ١٢٨٣ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٦٧٧ .

أهمية لشخصيته ، فإنه يشعر في قرارة نفسه بالحطة والحقارة والألم والمرارة ، وهو يسعى بشتى الوسائل لإبراز نفسه وإثبات شخصيته في محيط الأسرة والمجتمع ، فإذا عَقَمَ مسعاه ولم ينل ما يبتغيه بالطرق والأساليب المشروعة فإنه يجد نفسه مضطراً لسلوك الطرق غير المشروعة لتحقيق أمانيه .

خطر الانحراف والسقوط :

إن وجود مثل هذا الفتى يُربك استقرار الأسرة ويشكّل خطراً عليها وعلى المجتمع برّمته ، لأنه معرض للانحراف والسقوط وارتكاب جرائم لا يمكن تلافى عواقبها .

روي عن الإمام الهادي عليه السلام أنه قال : مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمَنُ شَرَّهُ^(١) .

عدم الاهتمام بالفتى :

يعترف علم النفس الحديث أيضاً بأهمية تكريم وتقدير الفتى واحترام شخصيته ، والأبوان اللذان لا يهتمان بهذا الحق الطبيعي لابنهما الفتى ، وينظران إليه بعين الصغر والطفولة ، يستحقان من وجهة نظر علم النفس الملامة والتوبيخ . ويعتقد علماء الغرب بأن عدم الاهتمام بالمكانة الاجتماعية للفتى ، هو من أسباب حالات الفوضى والإرباك واللجاجة وأحياناً الطغيان والتمرد التي تعصف به .

«يتصوّر بعض الآباء والأمهات أن أطفالهم لن يكبروا أبداً ، وهذا التصوّر الخاطيء يجعل الفتيان يدفعون الثمن غالباً ، إذن فالخطأ خطؤنا ويجب أن لا نندهش أو نعجب إذا ما طغى أبنائنا وتمردوا . إن شباب اليوم يفكرون بأنهم سلبوا من المكانة التي تليق بهم ، ويشعرون بأن لا مكانة لهم في مجتمعنا» .

(١) تحف العقول ، ص ٤٨٣ .

تخبّط الشباب :

«يقول عالم النفس الأمريكي المعروف «ليون» وهو يصف مكانة الشباب في مجتمعاتهم اليوم بأنها أقرب إلى مكانة الأقلية العنصرية وسط الأكثرية المطلقة ، يقول : إنَّ الشباب يتخبطون اليوم بين عالمي الطفولة والبلوغ دون أن يتبعوا عملياً أيّاً منهما .

ويضيف «ليون» : ان ظروف حياة البالغ حديثاً تشبه إلى حدّ كبير ظروف حياة المستشري حديثاً ، لا يعلم هل سيقبله العالم الجديد أم سيلفظه ؟ ، إننا في الغالب نطالب الشباب بالتعقل والجدّ والمثابرة ، ليكون لهم سلوك كسلوكنا ، ولكننا في الوقت نفسه نسلب منهم حقّ التحرك والتحرّر ، أو نمنحهم أدواراً ثانوية لا أهمية لها» .

«وهذا ما يجعلهم يتأرجحون بين عالمين مختلفين ، تارة يميلون إلى هذا وتارة إلى ذلك . ليس هناك أية صحيفة أو مجلة تخصّص مواضيعها لجيل الشباب ، وهذا ما يدفعهم إلى قراءة مجلات الأطفال التي تخصّ اخوتهم الصغار حيناً ، ومطالعة صحيفة «فرانس سوار» التي يقرؤها آباؤهم أحياناً»^(١) .

التكيّف مع المجتمع :

ثمة مشكلة أخرى تعترض مسيرة الشباب الحياتية وتستلزم العمل على إيجاد حلّ لها ، وهي جدارتهم وتأهلهم للتكيّف مع المجتمع . والشاب الفتى مكلف بالتعجيل في بناء شخصيته وتنمية عقله استعداداً للتكيّف مع المجتمع وتحمل مسؤولياته الاجتماعية .

(١) مجلة حقوق اليوم ، السنة الاولى ، العدد ٦ ، نقلًا عن مجلة شهرية فرنسية ، ص ٧٧ .

النمو العقلي للفتى :

وتأتي مسألة تكريم الفتى وتقديره واحترام شخصيته داخل أسرته لتلعب دوراً كبيراً في تحقيق الهدف الذي أشرنا إليه قبل قليل . فالفتى الذي يقيم أبوه معه علاقة صداقة وطيدة ، والذي يكون له داخل بلاد الأسرة منصب وزير - كما أشار إلى ذلك الرسول الأكرم ﷺ - ، يتحمل ما عليه من مسؤوليات ، ويعقد جلسة مشاورات مع أعضاء المجلس الحاكم - الأبوين - للبحث في شؤون الأسرة ، مثل هذا الفتى يحقق نضوجاً عقلياً أسرع من غيره يؤهله للتكيف مع مجتمعه .

تذليل العقبات :

«إنَّ المجلس الحاكم في الأسرة - الأبوين - ينبغي عليه أن يدعو بين الحين والآخر بقية أعضائه - الأبناء من الفتيان والفتيات - إلى عقد جلسة عامة للبحث في شؤون بلاد الأسرة ، والتشاور حول المشاكل التي تعانيها ، والبت في مسألة النفقات والميزانية السنوية» .

«إنَّ جلسات البحث والتشاور هذه من شأنها أن تزيد من إدراك الأبناء لمسؤوليات الآباء والأمهات وتضحياتهم ، وأطلعهم على مسؤولياتهم في الحياة ، فيعتادون على حياة التفاهم والديمقراطية داخل الأسرة ، ويدركون جيداً أنَّ عليهم أن يتغاضوا بملء إرادتهم عن بعض من رغباتهم أمام رغبات الآخرين ، ويطيعوا قوانين مجتمعاتهم ، كما أنهم يتعلمون كيف يستطيعون تذليل العقبات والصعاب بقوة تدبيرهم وتكاتفهم مع سائر أفراد أسرهم» .

«وكلما ساهم الشباب في مشاركة أسرهم في شؤونها وهمومها وقراراتها ، كلما ازداد نموهم الفكري ، وباتوا أقرب إلى النجاح

والسعادة من أبناء جيلهم»^(١) .

إنَّ الفتى ليس كالطفل مطيعاً ولا هو كالكبير ناضجاً ، لذا فإنَّ تُرك حرّاً دون مراقبة وإشراف على سلوكه وأعماله ، فإنه قد ينحرف عن جادة الصواب بسبب عدم نضوجه وقلة تجاربه ، وإنَّ تدخل أبواه في سلوكه وأعماله وعلاقاته وذهابه وإيابه ، جُرحت شخصيته وأحاسيسه المرهفة وتألّمت نفسيته . ونتيجة لذلك يسود التوتر العلاقات بين الفتى وأبويه وتضطرب الأوضاع داخل محيط الأسرة ، ممّا يدفع بالفتى المغتائز إلى ارتكاب أعمال غير مشروعة اعتقاداً منه أنها ستعينه على إثبات قدرته وشخصيته .

وهذا التناقض والتضادّ النفسي يعتبر مشكلة كبيرة يعاني منها كل الآباء والأمهات في مسيرتهم التربوية لأبنائهم الشباب ، وليس من سبيل لحل هذه المشكلة إلّا عبر البرامج العلمية الصحيحة والأساليب العقلانية التي ينبغي على الآباء والأمهات اتّباعها .

«إنَّ مشاعر الشاب البالغ حديثاً تجاه الغرباء - المقصود من كلمة غرباء هنا الأصدقاء - تجعل من ذويه أمام جملة من المشاكل ، فهذه منطقته وحدود أسراره - يعني علاقاته مع الأصدقاء - والويل لمن يتسلّل إليه دون تخطيط وحساب» .

«إنَّ الأبوين يخشيان كثيراً من العلاقات العشوائية التي يبيها أبنهما الشاب مع أصدقاء له ، وذلك من حقهما الطبيعي ، ولكن ينبغي عليهما أن يتعاملا مع هذه المسألة بوعي وحنكة كبيرين»^(٢) .

منطق القوة :

إنَّ المواظبة على تكريم وتقدير الفتى واحترام منزلته الاجتماعية ، تعتبر

(١) البهجة ، ص ١٦٢ .

(٢) ماذا أعرف ؟ ، البلوغ ، ص ٧٩ .

عاملاً مؤثراً في حلّ هذه المشكلة النفسية الكبيرة . فالفتى يعشق التحرّر ويميل إلى الاستقلال وإثبات الشخصية ، وهو لا يمانع في تنفيذ نصائح أبويه وتقبّل إرشاداتهما وتوجيهات الآخرين من الكبار التي تعينه في معرفة مساوىء الحياة ومحاسنها ، لكنه من المستحيل أن يرضخ لمنطق القوة .

إنّ الأبوين اللذين لا يعرفان التحدّث إلى أبنهما الفتى إلا بمنطق القوة ، ويريدان التسلّط عليه كما لو كان صغيراً غير مكترثين لشخصيته وعزّة نفسه ، لا يمكنهما أن ينجحا في تربيتهما لابنهما أبداً ، وقد يثيران في نفسه روح العصيان والتمرد .

منطق اللين :

أما الأبوان اللذان يحترمان شخصية أبنهما الفتى ، ويشركان في قضايا الأسرة ، ويستشيرانه في كل صغيرة وكبيرة ، وبأخذان موقفه ورأيه بعين الاعتبار ، ويكونان له صديقين حميمين ، ويعطيانه مكانته الاجتماعية ، ويستطيعان تلقينه التعاليم التربوية بسهولة ، ويوجّهان إرشاداتهما إليه بمنطق اللين والأدب ممّا يحفظ شخصيته ، فإنهما دون شك سينجحان في تربيتهما لابنهما الفتى .

الرغبة في إثبات الشخصية :

«يجب على الآباء والأمهات أن يحدّدوا لأبنائهم الفتيان كل ما يفترض بهم القيام به وتأديته ، وليس معنى هذا أن ندع الفتيان وشأنهم ، يفعلون ما يحلو لهم ، بل علينا أن ننتخب لهم أعمالاً ومسؤوليات مفيدة ونافعة يستطيعون أداءها وإثبات شخصيتهم من خلالها .

«إنّ الفتى إذا ما نفذ عملاً شائناً غير مرغوب فيه بسهولة وسرعة فائقة، فذلك بسبب منعه من تنفيذ هذا العمل ، وقد أراد بعمله

هذا أن يحصل على قوة توازي على الأقل قوة الجهة المعارضة أي الأبوين» .

«إن المعارضة تعني القضاء على طاقات الشباب الحيّة ، في حين يتوجّب علينا أن نهتم بهذه الطاقات ونعمل على تنميتها ، وكفينا أن نغيّر وجهتها لتصبح طاقات خلاقة ومفيدة» .

«إنكم تعلمون جيداً كم هي قريبة المسافة بين الحب والبغض ، وطاقات الشباب لها حكم ذلك ، إذ يمكننا أن نفجرها ببضع كلمات أو عدّة إشارات» .

«إذن ، علينا أن نعرف أن أهم ما في مرحلة الشباب هو ذلك العنفوان والاندفاع ، ويجب أن لا نعمل على وقف هذا الاندفاع ، لأنه قد يؤدي إلى تحطيم معنوياتهم وضعف نفسيّاتهم ، بل علينا أن نرشده إلى الطريق القويم بحكمة وروية»^(١) .

مراعاة عزّة النفس :

«علينا أن نرفق بالشباب ونداريهم ، ونهتم بمعاناتهم ونقدّر لهم جهودهم البناءة ، وعلينا أيضاً أن نراعي عزّة النفس لديهم ، فلا نجرحها» .

«فإذا كان تعاملنا معهم تعاملًا سليماً من وجهة نظر علم النفس ، فإنهم رغم أعمارهم سيلجأون إلينا كما لو كانوا أطفالاً ، ويودّرن لو أننا نساعدهم ونصحهم ونقدّر لهم جهودهم» .

التشجيع والتوبيخ في غير محلّهما :

«أما إذا غالينا في تشجيعنا أو توبيخنا لهم في غير محلّهما ، فإنهم سيبتعدون عنّا لا محالة .

(١) ماذا أعرف ؟ ، تربية الأطفال الصعبة ، ص ٧٨ .

لقد قضى هؤلاء الشبان ثمانية عشر عاماً من عمرهم إلى جانبنا ، كانت كافية تماماً لتعريفهم على واجباتهم ومسؤولياتهم ، وحرري بنا أن نسعى من الآن وصاعداً لأن نثبت لهم أننا لسنا سوى رفاق درب محبين لهم مخلصين^(١) .

إن الطفل يعيش قبل مرحلة البلوغ في محيط الأسرة المحدود ، ويختلط بأفراد معدودين ، لكن ظروف الحياة تتغير كلياً بحلول فترة البلوغ ، فيخرج الإنسان من محيط الأسرة الضيق إلى محيط المجتمع المتماذي الأطراف ، فيتعرّف على أناس لم يكن يعرفهم ، ويتخذ له أصدقاءً جدداً ، ويواجه قضايا وأموراً لم يواجهها من قبل .

وأحياناً يواجه الفتى في مسيرته الحياتية مشكلة ما ، لا يدرك خيرها من شرّها ، ولا يستطيع أن يتخذ موقفاً حياها ، ويرى أنّ عليه أن يطرحها مع الآخرين ، يستشيرهم ليدلّوه على خيرها أو شرّها ، وإذا لم يقيم المشكلة من جميع جوانبها ، ولم يدقّق أو يستشر أحداً ، فإنها قد تعود عليه بالنعاسة والشقاء .

مرجع الشاب للتشاور :

مما لا شك فيه أنّ الأبوين الحكيمين الحنونين هما أفضل مرجع يلجأ إليه الشاب للتشاور وتبادل الآراء ، ولكن هل يرجع الشاب حقاً في مثل هذه الحالة إلى أبويه ؟ ، للأسف أن الجواب على هذين السؤالين غالباً ما يكون سلبياً .

الأبوان والشعور بالمسؤولية :

حينما يحترم الأبوان شخصية ابنهما الفتى ، ويتخذان منه صديقاً حميماً يشاركهما شؤون الحياة ، ويقاسمهما هموم العائلة ومشاكلها ، فإن الفتى بدوره

(١) نحن وأبناؤنا ، ص ٧٨ .

سيكون مستعداً لطرح مشاكله أمامهما واستشارتهما والاستعانة بتوجيهاتهما ، ولكن قلماً يكون الأبوان على هذا المستوى من الشعور بالمسؤولية .

أما الأبوان اللذان ينظران إلى ابنتهما الفتى وكأنه لم يزل طفلاً صغيراً ، ولا يحترمان مكانته الاجتماعية ، ولا يشركانه في أي قرار يتخذ على صعيد الأسرة لتصورهما بأنه ليس جديراً بذلك ، فيحتقران شخصيته في المنزل ولا يتحدثان معه إلا بمنطق الأمر الناهي ، فإن الفتى سيعمد دون شك إلى عدم إفشاء أسراره أمامهما وعدم استشارتهما بشأن مشاكله والاستعانة بهما لحلها .

الاعتراف المرّ :

«للأسف ، علينا أن نعترف بالحقيقة رغم كل ما تحمله من مرارة وألم ، وهي أن الأبوين هما آخر من يفكر الشاب بالعودة إليهما عندما يشعر بحاجته إلى من ينصحه أو يدلّه على جادة الصواب ، لكن الأمر لم يكن ليصل إلى هذا الحد ، لو أن الأبوين فكّرا جيداً بسلوكهما تجاهه وعزّزا شخصيتهما في نظره»^(١) .

إنّ من أجمل وأحبّ الأمور لدى الفتیان عزّة النفس وإثبات الشخصية . وينبغي على الآباء والأمهات والمربين الذين يفكرون بسعادة الفتیان ، ويرغبون في تربيتهن تربية صالحة سليمة تصونهم من الانحراف والزلل ، ينبغي عليهم أن يضعوا نصب العين الحالات النفسية التي يمرّ بها الفتیان ، فيتصرفون معهم بما لا يجرح قريحتهم ، ويبعث على تحقيرهم .

التربية بلمغة الصداقة والموعظة :

إذا سعى الأبوان إلى فرض منهجهما التربوي والتوجيهي عن طريق لغة الصداقة والموعظة أو من خلال اتّباع أسلوب المشاورات وتبادل الآراء مع أبنائهما ، فمن المؤكد أنهما سينجحان في التسلّل إلى أعماق الأبناء ، وتمرير

(١) نحن وأبناؤنا ، ص ٧٨ .

منهجهما التربوي بشكل سليم ويسير .

وقد أولى الإسلام هذه المسألة النفسية الحساسة بالغ الاهتمام في برامجه التربوية لجيل الشباب ، فهناك كثير من الآيات القرآنية والروايات الإسلامية المعتبرة جاءت لتؤكد أهمية تربية الفتيان والشبان على أساس تقديرهم واحترام شخصيتهم .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ﴾ (١) .

لقد كان لقمان رجلاً ربانياً وحكيماً مؤمناً نزلت في حقه وبأسمه سورة قرآنية ، تضمنت جانباً من تربيته ومواعظه الحكيمة لابنه .

العظة والنصيحة :

من خلال قراءة القرآن الكريم وبالتحديد سورة لقمان نلمس العناية الإلهية بحديث لقمان وموعظته لابنه ، وهذه العناية تبرز من خلال كلمته «وهو يعظه» .

فلو لم يأت ذكر هذه الكلمة في الآية المذكورة ، ونزلت الآية على النحو التالي ، وإذ قال لقمان لابنه يا بني ، لكانت كاملة ومفهومة ، ولكننا كنا جهلنا أسلوب مخاطبة لقمان العارف الحكيم لابنه ، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يوضح هذا الأسلوب بكلمة «وهو يعظه» ، وشاء أن يعرفنا بأن خطاب لقمان لابنه لم يكن يحمل صيغة الأمر والنهي ولا الإهانة والتحقير ولا التملق والتزلف ، بل جاء بلسان العظة والنصح مراعاة منه لشخصية ابنه وعزة نفسه . فليتعلم الآباء والأمهات من هذا الدرس القرآني العظيم كيف يُطبّقون منهجهم التربوي على أبنائهم بشكل يترك في أعماقهم بالغ الأثر ويحفظ لهم شخصيتهم ويضمن لهم سعادتهم في الحياة .

(١) سورة لقمان ؛ الآية : ١٣ .

الأب وواجب الأبوة :

لقد أتبع الأئمة الأطهار سلام الله عليهم أجمعين أيضاً أسلوب العظة والنصح في أداء واجبه الأبوي تجاه أبنائهم ، ففي كتاب موجّه لابنه الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : فَإِنِّي لَمْ أَلِكْ نَصِيحَةً وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ وَإِنْ أَجْتَهَدْتَ مَبْلَغَ نَظْرِي لَكَ ^(١) .

ويستطيع الآباء والأمهات أن يستشفوا من هذا القول الحكيم ، مسألتين نفسيّتين في غاية الدقة ، ويتخذوهما أساساً لتربية أبنائهم :

منطق النصح :

أولاً : أتباع منطق النصح والعظة في تربية أبنائهم ، وتجنّب منطق القوّة والاستبداد الذي يُشعر الفتیان بالحقّة والحقارة .

ثانياً : اعتبار أنفسهم شركاء في توفير السعادة لأبنائهم ، وإفهام أبنائهم أنهم إنما ينشدون السعادة بدافع من حبّ الذات ، وأنهم - الآباء والأمهات - إنما ينشدون لهم السعادة بدافع من المحبة والحنان ، إذن فهم شركاء ، ولهم هدف واحد ، هو الاستقامة والفلاح ، وعليهم أن يتكاتفوا ويتعاونوا لبلوغ هذا الهدف ، كل من موقعه ومسؤوليته .

تعاون الأب والابن :

ومن هذا المنطلق يتوجب على الأب أن يفهم ابنه الشاب أن عليه أن يتقبّل كل النصائح والملاحظات الصادرة عن أبويه وأن يتعاون معهما لتجاوز هذه المرحلة الحساسة بأمن وسلام ، وتخطّي كل العقبات والأخطار التي قد تعترضه ، وتحقيق السعادة التي تشكّل الهدف المشترك للأبوين والابن معاً .

ومن المؤكد أن هذا المنطق سيكون له نتائج إيجابية ، وسيقبّل الشاب

(١) نهج البلاغة ، الفيض ، ص ٩٠٩ .

برحابة صدر نصائح أوبوه وتوجيهاتهما التي روعي فيها احترام شخصيته .

طريقة الاستدلال :

إنَّ طريقة الاستدلال في شرح وبيان واجبات الفتى الأخلاقية ، هي من الطرق السليمة التي تضمن احترام شخصيته . فبإمكان الأبوين أن يعملوا فوق هذه الطريقة في تربيتهم لابنهما الفتى ، وأن يبيِّنا له أسباب الأوامر المعطاة له ، وهذه الطريقة أي طريقة الاستدلال هي التي تميِّز بين تربية الشباب وتربية الأطفال .

فالطفل عاجز عن تحليل الأمور والقضايا وتفسيرها ، وذلك بسبب عدم نضوج عقله ، ومن هنا تقتصر مسؤولية الآباء والأمهات على تذكير أطفالهم بواجباتهم وإرشادهم دون الحاجة إلى استدلال ، فيندفع الأطفال إلى تنفيذ واجباتهم طاعة لأوامر أبويهم دون أن يطالبوا بالدليل .

«إنَّ الأوامر الإيجابية من شأنها أن تحدد للطفل المسار الذي يتوجب عليه سلوكه ، فكل شيء رهن طريقة إلقاء الأوامر . إنَّ الطفل يحتاج إلى ضوابط ، وعلينا أن نحدد له المفيد منها ، فعندما يفهم الطفل منذ نشوئه ماذا عليه أن يفعل وكيف يتصرف ، فإنَّه لن يخوض نقاشاً أو جدلاً غير مبرَّر»^(١) .

القابلية على التحليل :

إنَّ بمقدور الفتى الذي طوى مرحلة الطفولة ونضج عقله إلى حدِّ ما أن يدرك أسباب الأوامر ، ويحلل الأمور ويفسرها ، وهنا ينبغي على الأبوين أن يستثمرا قوة إدراك ابنهما الفتى وقابليته على تحليل الأمور ، ويُقدِّما ملاحظاتهم له مرفقة بالاستدلال .

(١) ماذا أعرف ؟ ، تربية الأطفال الصعبة ، ص ٧٨ .

«بعد انتهاء مرحلة الطفولة لم يعد لمنطق الأمر أي أثر في نفس الفتى ، ويحل محل هذا المنطق ، منطق الاستدلال والعقل السليم . ويجب على الأب إذا ما أراد شيئاً من أبنه الفتى أن يقول له : لو كنت مكانك لفعلت الأمر الفلاني ، ويأتيه بالدليل»^(١) .

الاعتراف الضمني :

إن إساءة النصائح مصحوبة بالاستدلال من قبل الآباء والأمهات ، هو اعتراف ضمني منهم بنمو عقول أبنائهم وتفتح أذهانهم ، واحترام لشخصيتهم . وهذا النمط من التربية يساهم في تفتح قوة إدراك الفتى وزيادة ذكائه ، إضافة إلى أن أثرها سيكون أكثر عمقاً في نفس الفتى .

نصائح قيّمة :

لقد اعتمد أئمتنا سلام الله عليهم أجمعين أسلوب الاستدلال في مناهجهم التربوية الأخلاقية لجيل الشباب ، وكانت نصائحهم ووصاياهم إلى أبنائهم وذريتهم سلام الله عليهم مقترنة بالاستدلال .

قال الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام لبعض بنيه : يا بُنَيَّ أَنْظِرْ خَمْسَةَ فَلَا تُصَاحِبُهُمْ وَلَا تُحَادِثُهُمْ وَلَا تُرَافِقُهُمْ فِي طَرِيقِي . فَقَالَ : يَا أَبَتِ مَنْ هُمْ ؟ ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْكَذَّابِ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ السَّرَابِ يُقَرَّبُ لَكَ الْبَعِيدَ وَيُبْعَدُ لَكَ الْقَرِيبَ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْفَاسِقِ فَإِنَّهُ بِإِئْتَاكَ بِأَكْلِهِ أَوْ أَقْلٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْبَخِيلِ فَإِنَّهُ يَخْذُلُكَ فِي مَالِهِ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْأَحْمَقِ فَإِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيُضْرِكُ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْقَاطِعِ إِرْحَمِهِ فَإِنِّي وَجَدْتُهُ مَلْعُونًا فِي كِتَابِ اللَّهِ^(٢) .

(١) نفس المصدر ، ص ٧٩ .

(٢) تحف العفول ، ص ٢٧٩ .

رفقة السوء :

روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال : كَانَ فِيمَا وَعَظَ لُقْمَانُ ابْنَهُ أَنْ قَالَ : يَا بَنِيَّ مَنْ يُشَارِكِ الْفَاجِرَ يَتَعَلَّمُ مِنْ طُرُقِهِ ، وَمَنْ يُحِبِّ الْمِرَاءَ يُشْتَمُّ ، وَمَنْ يَدْخُلُ مَدْخَلَ السُّوءِ يَتَّهَمُ ، وَمَنْ يُقَارِنُ قَرِينَ السُّوءِ لَا يَسْلَمُ ، وَمَنْ لَا يَمْلِكُ لِسَانَهُ يَنْدَمُ (١) .

الانتقاد البناء :

إنَّ مسؤولية الآباء والأمهات في تقدير واحترام أبنائهم الفتيان لا تتوقف عند حدود النصائح التربوية ، بل تتعدى حالات الزلل التي قد يقع فيها الأبناء ، إذ يتوجب عليهم في مثل هذه الحالات أن يتجنبوا كل انتقاد لاذع قد يجرح مشاعر أبنائهم ويدفع بهم إلى التمرد والعصيان .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : تَلْوِيحُ زَلَّةِ الْعَاقِلِ لَهُ أَمْضَى مِنْ عِتَابِهِ (٢) .

إذا ما تم تنبيه الفتى على أخطائه وزلاته بالإشارة والتلويح ، فإن ذلك قد يترك أثراً إيجابياً على نفسية الفتى ، ويدفعه إلى تجنب الوقوع في الأخطاء ثانية حفاظاً على شخصيته ، أما إذا كان التنبيه مصحوباً بعتاب حاد وإهانة وتحقير ، فإنه سيثير في نفس الفتى ردّة فعل معاكسة ، تدفعه إلى تحدي أبويه إثباتاً لشخصيته والإصرار على الاستمرار في ارتكاب الأخطاء .

الإفراط في الملامة :

من المؤسف أن بعض الآباء والأمهات يغالون في ملامة أبنائهم ، بسبب جهلهم لأساليب التربية الصحيحة ، فيفردون في توبيخ أبنائهم وتوجيه الإهانات لهم بنية الإصلاح ، متجاهلين أنّ للإفراط في الملامة نتائج عكسية تزيد من

(١) بحار الأنوار ج ٥ ، ص ٣٢٢ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٣٤٨ .

جراً الفتيان على ارتكاب الأعمال المشينة .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : الإفراط في الملامة تشبُّ نيران اللجاج (١) .

تجنّب تكرار العتب :

وروي عنه عليه السلام أنه قال : إياك أن تُكرّر العتبَ فإنّ ذلك يُغري بالذنب ويُهوّن بالعتب (٢) .

«ينبغي على أولياء الأطفال تجنّب ممارسة التوبيخ الشديد بحق المقصّرين من الأطفال ، وأن لا يستهزئوا منهم إن بدا منهم أي قصور في أداء عمل ما ، بل عليهم أن يساعدهم لكي يتمكنوا من أداء العمل ثانية بنحو أحسن .

مما لا شك فيه أن الأشخاص الذين يشهدون ارتكاب خطأ ما من قبل فرد بالغ ، إن كانوا من المحبين وممن يؤدّون مساعدته أن يغفروا خطأه ، فذلك سيخفف من حيائه وموقفه الخجل ، أما إن كانوا ممن يشمتون ويصرون على الملامة والعتاب ، فذلك قد يدفع بالفرد المخطيء إلى الإصرار على خطئه ، والدفاع عنه بدل الندم» (٣) .

أفضل وسائل التربية :

إنّ تقدير الفتى واحترام شخصيته هما من أفضل وسائل التربية . فقد قال الرسول الأكرم ﷺ في حقّ الآباء والأمهات الذين يؤدّون هذه المسؤولية الإسلامية على أتمّ وجه ، فيحترمون أبناءهم ويعينونهم على البرّ بحقّ أنفسهم

(١) تحف العقول ، ص ٨٤ .

(٢) غرر الحكم ، ص ٢٧٨ .

(٣) سلامة الروح ، ص ٧٣ .

وذويهم ومجتمعاتهم ، قال سيرة النبوة : رَجِمَ اللَّهُ وَالَّذِينَ أَعَانَا وَلَدَهُمَا عَلَى بَرِّهِمَا^(١) .

عدم احترام الشاب :

من أسباب انحراف الشباب وسوء خلقهم ، عدم احترام شخصيتهم ، والأبوان اللذان يحقران أبتهما الشاب ويهينانه بدافع من الغرور والتكبر والأناية ، مما يؤدي إلى تمرده وطغيانه وانحرافه عن جادة الصواب ، يعتبرهما الله سبحانه وتعالى شركاء له في آثامه وخطاياها .

ويؤدي الفتیان ردود أفعال مختلفة باختلاف حالاتهم النفسية وسبل تربيتهم أثناء طفولتهم إزاء تحقير الآباء والأمهات لهم ، فالبعض يتألم ويتأثر ، والبعض الآخر ينطق بكلمات بذیئة إغراباً عن احتجاجه وسخطه ، ومنهم من يخاصم أبويه ويترك المنزل ومن فيه ، بينما يعبث آخرون بمحتويات وأثاث المنزل .

فكرة الانتقام :

هناك خطر داهم كبير لا يبرز إلا عندما يلجأ الجهلة من الآباء والأمهات إلى ذمّ وقدح أبنائهم خلافاً لكل المبادئ الأخلاقية والمعايير الإسلامية ، فيهينون أبنائهم ويحتقرونهم أمام الآخرين ، وفي مثل تلك اللحظات يغضب الأبناء ويسخطون وتراودهم فكرة الانتقام التي قد تدفع بهم إلى ارتكاب أعمال خطيرة إظهاراً لشخصيتهم .

الأبوان وسوء المعاملة :

لقد كان للنبي الأكرم سيرة النبوة موقف إزاء الآباء والأمهات الذين يدفعهم جهلهم إلى سوء معاملة أبنائهم الذين يلجأون إلى التمرد والعصيان وبالتالي إلى ارتكاب الآثام والردائل .

(١) مستدرک الوسائل ج ٢ ، ص ٦٢٥ .

قال رسول الله ﷺ في وصية لعليّ عليه السلام : لَعَنَ اللَّهُ وَالَّذِينَ حَمَلَا
وَلَدَهُمَا عَلِيَّ عُقُوقِهِمَا^(١) .

الشتم والتساب :

كان الخليفة العباسي المتوكل يبرز عداؤه الشديد وبغضه للإمام عليّ بن
أبي طالب عليه السلام ، وعندما يذكره كان لا يسمّيه إلا بـ (أبو تراب) ، ولا يتورع
في المجالس العامة عن توجيه الإهانة له عليه السلام ، لكن ولده الشاب وولي عهده
المنتصر كان متألماً جداً من سلوك أبيه إزاء الإمام عليّ عليه السلام ، ولكن لم يكن
يملك أمام هذا السلوك إلا التزام الصمت ، وقد جاء في كتب التاريخ أنّ
المتوكل كان يبغض عليّاً عليه السلام ، ويتقصه ، فذكره عليه السلام يوماً وغض منه ، فتمعّر
وجه ابنه المنتصر لذلك ، فشتمه المتوكل وأنشد يقول :

غَضِبَ الْفَتَى لِابْنِ عَمِّهِ رَأْسُ الْفَتَى فِي حَرِّ أُمَّهِ

الأخذ بالثأر :

لم يطق المنتصر هذه الإهانة التي سمعها من أبيه وهو ولي العهد الذي
كان آنذاك في الخامسة والعشرين من العمر ، وتأثر كثيراً لانتقاص أبيه منه أمام
الملأ ، فأضمر له أمراً يعوّض له عمّا أصابه من حقارة باطنية وحقد عليه وقرّر
الأخذ بالثأر الذي يحو عنه إهانة أبيه ، وأغراه ذلك على قتله ، فخطط مع
بعض الغلمان على قتله في أول فرصة ووعدهم بالمال والمنصب .

قتل المتوكل :

فبينما المتوكل جالس في قصره يشرب مع ندمائه وقد سكر ، إذ دخل بغاء
الصغير وأمر الندماء بالانصراف ، فانصرفوا ولم يبق عنده إلا الفتح بن خاقان ،
فإذا الغلمان الذين عيّنهم المنتصر لقتل المتوكل قد دخلوا وبأيديهم السيوف

(١) وسائل الشيعة ج ٥ ، ص ١١٥ .

مصلته ، فهجموا عليه ، فقال الفتح بن خاقان : ويلكم أتقتلون أمير المؤمنين ؟ ، ثم رمى نفسه عليه ، فقتلوهما جميعاً ، ثم خرجوا إلى المنتصر فسلموا عليه بالخلافة^(١) .

الآباء المنبوذون :

إذن ، كان المتوكل أباً مغروراً ومتكبراً ، شتم أبه وحقره وأهان شخصيته أمام الملأ ، وكان أباً جاهلاً ظالماً ، دفع سلوكه البذيء ابنه الشاب إلى العصيان الذي حملة بالتالي على قتل أبيه ، وهكذا آباء لا يعرفون حقوق أبنائهم عليهم قد نبذهم الإسلام ، وقال عنهم الرسول الأكرم ﷺ علي بن أبي طالب : لَعَنَ اللَّهُ وَالَّذِينَ حَمَلُوا وَلَدَهُمَا عَلَى عُقُوبِهِمَا .

ونستشف مما ورد في البحث أن الفتى قد تخطى فترة الطفولة ، وأنضم إلى الكبار ، وينبغي على الأبوين أن يدركا هذه الحقيقة جيداً ، ويحترما شخصية أبنهما الفتى ومكانته الاجتماعية ، وعليهما أيضاً أن يأخذا بعين الاعتبار مشاعره وأحاسيسه في تطبيق منهجها التربوي ، ويعتمدا أسلوب النصح والموعظة ، ويتجنباً منطلق القوة والأمر في تربيته ، ليقدماً لمجتمعهما رجلاً صالحاً جديراً بالحياة .

مسؤولية الشباب :

وفي ختام بحثنا هذا نلفت انتباه الفتیان والشباب إلى نقطتين أساسيتين ، ونبين ما عليهم من مسؤوليات تجاه آبائهم وأمهاتهم إلى جانب مسؤولية الآباء والأمهات تجاههم :

النقطة الأولى - على الشباب المسلم الذين يؤمنون بالله وسنة نبيه ﷺ أن يعلموا أن لأبائهم وأمهاتهم عليهم حقوقاً كبيرة ، وقد جعل القرآن الكريم

(١) تمة المنتهى ، ص ٣٤٣ .

والكثير من الروايات والأحاديث الشريفة حقوق الوالدين على رأس الحقوق الأخلاقية والاجتماعية .

تجنب الانتقام :

فإذا لم يحترم بعض الأباء والأمهات شخصية أبنائهم بسبب جهلهم أو غرورهم أو إهمالهم ، وإذا مارسوا أحياناً الظلم بحق أبنائهم ، فإن المسؤولية تدعو الأبناء إلى الصبر والتحمل وتجنب الانتقام .

ويتوجب على الأبناء أيضاً مهما حصل وفي ظل أي ظروف كانوا ، أن يوقروا آباءهم وأمهاتهم ويحترمواهم ، وعليهم أن لا ينسوا أيام طفولتهم وضعفهم وعجزهم وما تكبده ذورهم من مشقة في تربيتهم .

نظرة ماقته :

قال الإمام الصادق عليه السلام : مَنْ نَظَرَ إِلَىٰ أَبِيهِ نَظَرَ مَاقَتٍ وَهُمَا ظَالِمَانِ لَهُ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ لَهُ صَلَاةً (١) .

يريد هذا الحديث أن يبين لنا مسؤولية الابن تجاه والديه إن هو تعرض مثلاً لظلم أحدهما ، إذ يجب عليه تجاهل هذا الظلم وعدم النظر إليهما نظرة ماقته انتقاماً لما تعرض له من ظلم .

الخصال الحميدة والخصال الذميمة :

«تذكروا دائماً أن آباءكم وأمهاتكم لا يتعدون كونهم من البشر ، يمتلكون خصلاً حميدة وفي الوقت ذاته عندهم نقاط ضعف ، فإذا كان سلوكهم معكم قائماً على نقاط الضعف هذه ، من الأفضل أن تكونوا أكثر واقعية وتعتبروا ذلك أمراً طبيعياً ، ولا تنسوا خصالهم الحميدة ومحبتهم لكم وحنانهم عليكم وسهرهم من أجلكم» (٢) .

(١) الكافي ج ٢ ، ص ٣٤٩ .

(٢) النمو والحياة ، ص ١٦٣ .

النقطة الثانية - بالرغم من مسؤولية الآباء والأمهات الدينية والعلمية في احترام شخصية أبنائهم واتخاذهم أصدقاء لهم يستشيرونهم ويتبادلون معهم الرأي ، إلا أن ذلك يجب أن لا يدفع بالأبناء إلى الغرور والتوهم بأنهم باتوا يعرفون مصلحتهم ، إذن فهم أصبحوا في غنى عن توجيهات آباءهم وأمهاتهم وإرشاداتهم .

الشاب وعقل لم ينضج بعد :

إنَّ الإنسان في الحقيقة لفي حاجة ماسّة إلى من يأخذ بيده في مسيرة الحياة ويوجّه له النصح والإرشاد . حتى الآباء والأمهات الذين بلغت عقولهم نموّها النهائي وخاضوا تجارب كثيرة في حياتهم ، مهّدون أحياناً بالانحراف والضلالة ويحتاجون لمن يسدي لهم النصح والعظة ، فكيف الحال بالنسبة للأبناء الفتيان الذين لم تنضج أفكارهم بعد ولم تبلغ عقولهم نموّها النهائي ؟ .

خطر حبّ الدنيا :

كان محمد بن مسلم الزهري من رجال العلم والحديث ، لكن حبّ المال والجاه أعمى بصيرته فأنحرف عن درب الفضيلة ، حتى أصبح في كبره غارقاً في التعاسة والشقاء ، وقد كتب الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام إليه يقول :
فَإِذَا كَانَتِ الدُّنْيَا تَبْلُغُ مِنْ مِثْلِكَ هَذَا الْمَبْلَغَ مَعَ كِبَرِ سِنَّكَ وَرُسُوخِ عِلْمِكَ
وَحُضُورِ أَجْلِكَ فَكَيْفَ يَسْلَمُ الْحَدِيثُ فِي سِنِّهِ ، الْجَاهِلُ فِي عِلْمِهِ الْمَأْفُونُ فِي رَأْيِهِ
الْمَدْخُولُ فِي عَقْلِهِ؟ (١) .

فإذا رغب الشاب في نيل السعادة والصلاح ، عليه أن يراجع حساباته ويفكر ملياً في مواقفه وقراراته ، ويستشير أصحاب العلم والمعرفة ، وعليه أيضاً أن يصغي لأقوال أبويه ويعمل بنصائحهما وتوجيهاتهما . قال أمير المؤمنين

(١) تحف العقول ، ص ٢٧٧

عليّ عليه السلام : مَنْ قَبِلَ النَّصِيحَةَ سَلِمَ مِنَ الْفُضِيحَةِ (١) .

قبول النصيحة :

ويجب على الشاب الذي زلّت قدمه عن جادة الصواب بسبب غروره ولجأته ، أن يستغل الفرصة قبل فوات الأوان ، ويبادر إلى تقبّل نصائح المصلحين والأخيار ، ويأخذ بتوجيهات أبويه لإصلاح ذاته .

العقاب الاجتماعي :

وليعلم مثل هذا الشاب أنّه إذا ما أستمّر في سلوكه الخاطيء وأصرّ على الإتيان بالمعاصي والردائل ، فإنّه سيواجه عقاباً اجتماعياً حاداً ، عندها ستصلحه الإهانة إن لم يكن قد فات الأوان .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : مَنْ لَمْ يُصْلِحْهُ حُسْنُ الْمُدَارَاةِ يُصْلِحْهُ حُسْنُ الْمُكَافَاةِ (٢) .

وروي عنه عليه السلام أنّه قال : مَنْ لَمْ تُصْلِحْهُ الْكِرَامَةُ أَصْلَحَتْهُ الْإِهَانَةُ (٣) .

(٢١) غرر الحكم ، ص ٦٥٠ و٦٤٠ .

(٣) نفس المصدر : ص ٧١٠ .

الفهرس

دعم وتأييد الرسول الأكرم (ص) ...			
١٤	للشباب		
١٨	الشبان الأكفاء	٥	
١٩	فتح مكة	٥	
٢٠	قائد شاب	٦	
٢١	ميزان الفضيلة	٧	
٢٢	قيادة الجيش	٧	
٢٢	إطاعة القائد الشاب	٧	
٢٤	الشباب والمناصب المهمة	٨	
المحاضرة الثانية			
٢٥	جمال الشباب	٨	
٢٥	تمهيد - حلاوة أيام الشباب	٨	
٢٦	الشباب والجانب الشعاري	١٠	
٢٧	صفتان جميلتان	١٠	
٢٧	جمال الحيوانات	١٠	
٢٨	الجمال عند الأمم الوحشية	١١	
			المحاضرة الاولى
			حول قيمة الشباب
			تمهيد - مراحل الحياة
			أيام الشباب
			نور الحياة
			القوى الشابة
			بدء الحياة الإجتماعية
			العادات الوحشية
			أهمية جيل الشباب
			الإسلام وجيل الشباب
			النعمة المجهولة
			الوصايا الأربع
			الشباب والعالم والمعاصر
			محاسن ومساوىء الشباب
			معرفة القيمة الحقيقية
			إستثمار طاقة الشاب

٤٣	تنمية السجايا الأخلاقية	٢٩	تنمية حس الجمال
٤٤	الشباب وصفاء الذات	٢٩	تكامل الإحساس
٤٥	الشباب وحب الفضيلة	٣٠	حب الجمال في العالم المعاصر
٤٥	الشباب والقلب الرؤوف	٣٠	التقدم الثقافي وإدراك الجمال
٤٦	ميول الشباب إلى العواطف الإنسانية	٣١	جمال الطبيعة
٤٧	قيمة جمال الروح	٣١	الإسلام وتنمية حس الجمال
٤٨	الشباب الفاضل	٣٢	جمال السماء
٤٩	الشباب المتمهور	٣٢	سطوع النجوم
٥٠	قبح الخيانة	٣٢	جمال الأرض
٥٠	الشباب ومعرفة الذات	٣٣	الجمال الطبيعي للإنسان
٥٠	الشباب وسرعة التأثر	٣٤	النساء الجميلات
المحاضرة الثالثة		٣٤	محبوبة الجمال
٥٢	فرصة الشباب	٣٥	الزينة والتزيين
٥٢	تمهيد الاستعدادات الخفية	٣٥	قيمة الجمال والتجمل
٥٣	إستغلال الفرص	٣٦	جمال الشباب
٥٣	قيمة الفرص	٣٦	مصدر إدراك الجمال
٥٤	الشعور بالمسؤولية	٣٧	رغبة الشباب في التجمل
٥٤	أساس النجاح	٣٧	علاقة التجمل بالفريزة الجنسية
٥٥	لحظات فانية	٣٨	الشعور بلذة الجمال
٥٥	الفرص الضائعة	٣٨	إشباع رغبات الجمال
٥٦	ثروة الشباب	٣٩	ميول الشباب إلى الجمال
٥٦	الحساسية المفرطة	٤٠	مقياس التجمل
٥٨	الشباب والمسؤولية الشخصية	٤٠	الإفراط في التجمل
٥٨	الشباب اليائس	٤٠	الجمال المعنوي والأخلاقي
٥٩	حب الانزواء والوحدة	٤١	جمال العلم والأخلاق
٦٠	أهمية مرحلة البلوغ	٤٢	الجمال الإلهي
٦٠	الشباب الضائع	٤٢	فلسفة ما وراء الطبيعة والجمال
		٤٣	ميول الشباب إلى جمال الروح

١٠٧	تفكيك الذاكرة عن العادات	٩٣	إختلال النمو
١٠٧	نظرية الروحيين والماديين	٩٣	الزيادة أو النقصان في هورمونات النمو
١٠٨	الحقيقة المجهولة	٩٤	إنهاء مرحلة الطفولة
١٠٨	المركز الأصلي للفكر	٩٥	نمو الأوتار الصوتية
١٠٩	قياس القدرات	٩٥	الفرق بين الصبي والصبية
١٠٩	إبداعات عمل الدماغ	٩٦	النمو والمحيط الطبيعي
١١٠	تجرّد الروح من الماديات	٩٦	مراتب الكمال
١١٠	إحماق العلم في معرفة الروح		
١١١	الشرارة المجهولة		
١١٢	المركز المادي للعقل	٩٨	النمو النهائي لعقل الشاب
١١٣	تحليل دماغ الأحداث		التمهيد - أثر البلوغ في الحالات النفسية
١١٣	النمو السريع لدماغ الأطفال	٩٨	ظهور الخلايا الجنسية
١١٤	الأفكار الصبغية	٩٨	نمو المشاعر
١١٥	تغطية الأنسجة العصبية	٩٩	أفكار غير موزونة
١١٦	سر نقصان عقل الشاب	١٠٠	طغيان المشاعر
١١٧	قياس العقل والذكاء	١٠٠	علم النفس والشباب
١١٧	مقياس اختبار الذكاء	١٠٠	أفضل السبل لتربية الشاب
١١٧	سرعة العواطف وبطء الفكر	١٠١	الكف عن العنجهية والاستبداد
١١٨	جنون الشباب	١٠٢	دراسة العقل
١١٩	الوهن العقلي السريع	١٠٢	أنصار تجرّد النفس
١١٩	أطوار مضحكة	١٠٣	أنصار الماديات
١٢٠	جنون الغرور	١٠٣	المركز الرئيسي للذاكرة
١٢٠	إستدلالات غير منطقية	١٠٤	إصابات المخ
١٢١	أساليب غير عادية	١٠٥	النسيان غير الطبيعي
١٢٢	تصورات مغلوطة	١٠٥	المخ جهاز آلي
١٢٢	سكرة الشباب	١٠٥	إقامة العلاقات
١٢٣	تخيّلات موهومة	١٠٦	خطأ الماديين
١٢٣	حاجة الشاب للهداية		

١٣٥	السن الزمني والعقلي	١٢٣	عذر مقبول
١٣٦	أشخاص شاذون	١٢٤	خطأ الشباب
١٣٧	عدم اكتمال العقل	١٢٤	فرض آراء ساذجة
١٣٧	مصدر صغر العقل	١٢٥	الفصل بين البلوغين الجنسي والعقلي
١٣٨	الحقيقة المرّة	١٢٥	نمو العقل
١٣٩	سبيل إختبار العقل	١٢٦	الإستقلال الإقتصادي
١٣٩	سرعة البديهة	١٢٦	الصلاحيات المالية
١٤٠	لرأي السليم	١٢٧	تفتح العقل
١٤٠	باب في علم النفس	١٢٧	ضعف العقل في أزمة البلوغ
١٤١	العقول النيرة	١٢٨	عمق التفكير
١٤٢	أفضل العقول للأنبياء والرسل	١٢٨	إستشارة العقلاء
١٤٣	مراتب العقل والذكاء		
١٤٣	تحليل جسم الشاب وعقله		
١٤٤	قدرة الجسم		
١٤٤	العقل الناضج قبل أوانه		
١٤٥	أحسن طبقات المجتمع		
١٤٥	معظم الشبان		
١٤٥	إختلال الجسم والعقل		
١٤٦	الشبان الأغبياء		
١٤٦	عدم اكتمال العقل		
١٤٧	أفكار صيبانية		
١٤٧	رغبات شخصية		
١٤٨	أعمال تخريبية		
١٤٨	دليل ضعف العقل		
١٤٩	الغرور والإستبداد		
١٤٩	إنحطاط الشخصية		
١٤٩	معادة الزمن		
١٥٠	حرية مفردة		
		١٢٩	العمر الزمني والعقلي للشباب
		١٢٩	الإنسان وأفضل الامتيازات
		١٢٩	ميزان الجدارة
		١٣٠	حسن الخلق والتدبير
		١٣٠	الإنسان ودرجات العقل
		١٣١	بالغون ولكن صغار العقول
		١٣٢	تجنب معاشرّة الأحمق
		١٣٢	علامات الحماسة
		١٣٢	داء ليس له دواء
		١٣٢	نقص لا يمكن تعويضه
		١٣٣	التربية في مجالات الوراثة
		١٣٣	نعمة إلهية
		١٣٣	إختبار العقل والذكاء
		١٣٤	مقياس عقول الأطفال
		١٣٥	مراتب الإختبارات

المحاضرة السادسة

١٦٤	أساليب قابلة للتقييم	١٥٠	التفّر من المجتمع
١٦٥	ضحايا العادات المغلوطة	١٥١	المعارضة والتمرد
١٦٦	تربية الأخلاق	١٥١	تصاعد روح الإجرام
١٦٦	المحيط الإجتماعي	١٥٢	نتيجة الطغيان
١٦٧	العناصر الفاسدة		
١٦٧	تفتح العقل		
١٦٧	الرغبة في المعرفة العلمية	١٥٣	النمو المكتسب لعقل الشاب
١٦٨	المدرسة وغنى الفكر	١٥٣	النمو الفطري والمكتسب للعقل
١٦٨	إرتقاء الإستدلال	١٥٣	بداية النمو الفطري والمكتسب
١٦٩	تنمية الذكاء	١٥٤	أفضل سبل التكامل
١٦٩	تلقي العلوم والآداب	١٥٥	تلقي العلوم ونمو العقل
١٧٠	تنمية قدرة الإستيعاب	١٥٥	النمو الفطري والمكتسب
١٧٠	تسهيل الفكر	١٥٦	زيادة العقل
١٧١	تجنب الإفراط	١٥٦	الفرصة الأولى
١٧١	إختلال التربية والتعليم	١٥٧	بداية تنمية العقل
١٧٢	سيئو السمعة والخلق	١٥٧	التكامل التدريجي
١٧٣	مرتبون ومعلمون غير كفؤين	١٥٨	الحالة الثابتة
١٧٣	الإسلام وجيل الشباب	١٥٨	دراسة وتحليل الأمور
١٧٣	هدر حقوق الشباب	١٥٩	بلوغ مراتب الكمال
١٧٤	وضع أسس السعادة	١٥٩	إدراك الحقائق
١٧٥	ء الكسل	١٦٠	محور التربية والتعليم
١٧٥	الضعف والبطالة	١٦١	الإستقلال الفكري
١٧٥	العناد والإستبداد	١٦١	قيمة عمر الطفولة
١٧٦	السراب والوهم	١٦١	سوء تربية الأطفال
١٧٦	انصراف الشباب في تيار المجهول	١٦٢	تنمية القدرات
١٧٦	دوامات الفساد	١٦٣	مصدر العلم والمعرفة
١٧٧	كتب الأساطير	١٦٣	واقع العالم
		١٦٣	أمور بعيدة عن الواقع

المحاضرة الثامنة

الشباب والتجربة

١٧٨	التجربة ونمو العقل
١٧٨	إرشاد الفكر
١٧٩	جنايد العلم
١٧٩	تحقيق التعلم
١٨٠	معرفة المباح وغير المباح
١٨٠	مقياس قيمة الآراء
١٨١	الدقة في شؤون الحياة
١٨٢	بناء الشخصية
١٨٢	تحليل الأحداث
١٨٣	تلميذ المجتمع
١٨٣	مسؤولية المربي
١٨٣	محيط المدرسة والمجتمع
١٨٤	وسائل الإختبار
١٨٥	تطابق بين ما هو مرئي وما هو ملموس
١٨٥	مختبر العقل
١٨٦	العلم المفيد
١٨٦	المفكر هدف
١٨٧	تقييم المستقبل
١٧٨	مدرسة الأيام
١٨٨	إستعمال الوقائع
١٨٨	إدراك فوائد التاريخ
١٨٩	تعزيز قوة النقد
١٨٩	القرآن والوقائع التاريخية
١٩٠	الوعي الفكري
١٩٠	أسباب الإرتقاء والإنهيار

علاقة الماضي بالحاضر

١٩١	دراسة التاريخ
١٩٢	الإعتبار
١٩٢	إستيعاب التاريخ
١٩٣	إندماج المعلومات
١٩٤	الميراث الثقافي للإنسان
١٩٤	الإعتراف بالجهل
١٩٥	التاريخ مدرسة
١٩٦	التمييز بين الخير والشر
١٩٧	خطر الذنب
١٩٧	الخيانة والسقوط
١٩٨	أثر الأمانة
١٩٩	الدقة في الأمور الشخصية
١٩٩	سبل بلوغ الواقع
١٩٩	فتح قلعة عمورية
٢٠١	الإستفادة من التجارب

المحاضرة التاسعة

٢٠٣	مشاعر الشباب
٢٠٣	رغبات جامحة
٢٠٣	أزمات عصبية
٢٠٤	حالة الملنخوليا
٢٠٥	القوة الدافعة
٢٠٥	ثروات ثمينة
٢٠٦	بروز الإستعدادات
٢٠٦	إهتزاز العواطف
٢٠٦	مشكلة تربية الشباب
٢٠٧	أثر العاطفة في طريقة التفكير

٢٢١	الغضب وفساد العقل	٢٠٨	الفرق بين العقل والعاطفة
٢٢١	فقدان التوازن	٢٠٨	قاعدة المحبة
٢٢٢	الرغبات المجنونة	٢١٠	منشأ الإحساسات
٢٢٢	جيل الشباب والأحاسيس	٢١٠	النشاطات العاطفية
٢٢٣	الشباب ورقة النفس	٢١١	دليل الفضيلة
٢٢٣	عدم احترام الشباب	٢١١	بلوغ الخير
٢٢٤	جرم الشباب	٢١١	الناصح الأمين
٢٢٤	العنف دون سبب	٢١٢	قوة العاطفة
٢٢٥	الأحاسيس الحادة	٢١٢	مصدر الخير والشر
٢٢٥	عجز العقل	٢١٣	التحريك الإنفعالي
٢٢٥	الدوافع العاطفية	٢١٣	الأحاسيس والنمو التدريبي
٢٢٦	اللوم في غير محله	٢١٤	نمو الغرائز
٢٢٧	الأفكار المنبوذة	٢١٤	تجديد الأجهزة
٢٢٧	تطرف الشباب	٢١٤	طغيان الغرائز
٢٢٨	الرغبة في الإنتقام	٢١٥	طبيعة المعتدي
٢٢٨	دليل التعقل	٢١٥	النفس المتمردة
٢٢٨	ميزان المساوىء	٢١٦	تسخير الأهواء
٢٢٩	سدّ في وجه السعادة	٢١٦	تمرد الغرائز
٢٢٩	مكافحة الصفات الذميمة	٢١٧	إطاعة هوى النفس
٢٣٠	أهمية القرارات الحكيمة	٢١٧	مصدر الجرائم
٢٣٠	الجهاد الأكبر	٢١٧	دافع المجرمين
٢٣١	إستشارة العقل	٢١٨	تعديل الأحاسيس
٢٣١	التعاليم الإلهية	٢١٩	الخواطر المذمومة
٢٣٢	الرغبة الجنسية	٢١٩	الأحاسيس المدمرة
		٢١٩	الفساد والانحراف
		٢٢٠	إطاعة الهوى والإنهيار
		٢٢٠	العقل الضعيف والأحاسيس الحادة
		٢٢١	سيات العقل

المحاضرة العاشرة

٢٢٣	الرغبات الفطرية والمكتسبة للشباب
٢٢٣	الرغبات الفطرية والمكتسبة

٢٤٧	مسؤولية الوالدين	٢٣٤	الصفات الثابتة
٢٤٧	توقف النمو العقلي	٢٣٤	ظهور نتائج التربية
٢٤٨	العادات السيئة	٢٣٥	المعلم الأول للطفل
٢٤٩	الشباب الرذيل	٢٣٥	إرساء قواعد الحياة
٢٤٩	أيام الطفولة والحرمان	٢٣٥	الأسرة والتربية
٢٥٠	الصدمات النفسية	٢٣٦	بدور التربية
٢٥١	الإفراط في المحبة	٢٣٧	حقوق الأبناء
٢٥١	شرّ الآباء	٢٣٧	مسؤولية الآباء
٢٥٢	عالم الأوهام	٢٣٨	أشرف خدمة
٢٥٢	الشباب وانعدام الشخصية	٢٣٨	أفضل نسب
٢٥٣	الشباب وبروز العادات	٢٣٨	أفضل ميراث
٢٥٣	رسوخ الصفات الأخلاقية	٢٣٨	أول فرصة
٢٥٣	فكرة العدل والإنصاف	٢٣٩	تأثير المحيط الإجتماعي
٢٥٤	حلف الفضول	٢٣٩	علاقة الفرد بالمجتمع
٢٥٥	النفس التّوّاقة للعدل	٢٤٠	إكتساب صفات المجتمع
٢٥٥	ذكرى عظيمة	٢٤٠	التعصب الأعمى
٢٥٦	الظّلامة الأولى	٢٤١	المخاصمة
٢٥٦	الشكوى والإستغاثة	٢٤١	تكوين الشخصية
٢٥٧	بسط العدل	٢٤٢	الإنحرافات الأخلاقية
٢٥٨	نقاط الارتكاز	٢٤٣	تعديل الميول إلى الحرية
٢٥٩	الدعوة العامة للإسلام	٢٤٣	تغذية الجسم والروح
٢٥٩	تشخيص العيوب الأخلاقية	٢٤٣	تدعيم أسس السعادة
٢٥٩	تجنّب الإثم	٢٤٤	هداية الرغبات
٢٦٠	التوبة في الشباب	٢٤٤	الميل لإبراز الشخصية
٢٦٠	تدارك النقص	٢٤٥	جلب انتباه الآخرين
٢٦١	مسؤولية الشباب	٢٤٥	تربية الشخصية
٢٦١	الشباب وما تقتضيه طبائعهم	٢٤٦	الرغبة المكبوتة
		٢٤٦	تدارك خطأ تربوي

٢٧٥	إشباع كل الرغبات
٢٧٥	إشباع الغريزة ضمن حدود المصلحة
٢٧٦	رغبة مكارم الأخلاق
٢٧٦	كبح الميول الإنسانية
٢٧٧	أسرى الشهوة والهوى
٢٧٧	أذل من عبىد الرّق
٢٧٧	طغيان الشهوة وكدورة العقل
٢٧٨	الفشل والانتقام
٢٧٨	روال العقل
٢٧٩	تغلب الشهوة على الجسم والروح
٢٧٩	قطبان ، سالب وموجب
٢٧٩	الأزواج الأكفأ
٢٨٠	شمة الحمقى
٢٨٠	ركود العقل
٢٨١	عرفة الأحزان
٢٨١	السفر الطويل
٢٨٢	فقدان الصديق
٢٨٢	عهد مع الله
٢٨٣	قصر عظيم وفتاة ساحرة
٢٨٣	رسالة تهزّ الكيان
٢٨٤	أساس الخوف والفضيحة
٢٨٤	وسيلة لإرضاء الشهوة
٢٨٤	سلب العفة
٢٨٥	مرارة السّم
٢٨٥	على باب القبر
٢٨٦	جرائم مرّعة
٢٨٦	الكلمة الأخيرة
٢٨٧	عذاب الضمير الأخلاقي

٢٦٢	سكر الغفلة والغرور
٢٦٢	القرار الصائب
المحاضرة الحادية عشرة	
٢٦٤	الشباب وتعديل الرغبة
٢٦٤	الشباب وولادة الرغبات
٢٦٤	رغبات أيام الشباب
٢٦٥	الكفر بالنعم
٢٦٦	بناء الجسم والروح
٢٦٦	تغيير الذات
٢٦٧	حاجة الشاب للهداية
٢٦٧	الحاجة إلى المعرفة
٢٦٨	مصادر الرغبات
٢٦٨	القوى المحركة
٢٦٩	تصاعد الغريزة الجنسية
٢٦٩	مركز إثارة الرغبات
٢٦٩	إثارة الشهوة والغضب
٢٧٠	تناقض الرغبات
٢٧٠	التقصير المضّر والإفراط المفسد
٢٧٠	تعديل الرغبات
٢٧١	غض الطرف عن الرغبات المحرمة
٢٧١	المطالبة بمكارم الأخلاق
٢٧٢	تعديل رغبة المريض
٢٧٢	التوازن بين الحرية والأمن
٢٧٣	رغبة اللذة والسلامة
٢٧٣	ميول الشاب إلى الطهارة والعفة
٢٧٤	الإسلام وتعديل الرغبات
٢٧٤	ضرورة تعديل الرغبات

٣٠١	رغبة الشباب في فهم الدين	٢٨٧	نقض العهد
٣٠١	رغبة الشباب في الإسلام	٢٨٧	تأنيب الضمير
٣٠١	غذاء الروح	٢٨٨	المنزلق الخطير
٣٠٢	الانقياد لقانون الخلقة	٢٨٨	عباد الهوى
٣٠٣	فترة الفرصة		
٣٠٣	بداية التربية		
٣٠٤	كبح الغرائز	٢٩٠	الشباب والحس الديني
٣٠٥	الرغبة الجامحة	٢٩٠	القاعدة التربوية للشباب
٣٠٥	مقدمة كتاب التربية	٢٩١	منشأ انحراف الشاب
٣٠٦	تأثير الدين في الشاب	٢٩١	عدم الإهتمام بمبادئ الأخلاق
٣٠٦	قيمة عبادة الشاب	٢٩١	إدراك الحقائق
٣٠٦	توبة الشباب	٢٩٢	إحياء كل الرغبات
٣٠٦	إستحقاق الجزاء	٢٩٣	منهاج التربية في الإسلام
٣٠٧	الآباء المهملون	٢٩٣	القدرة الأزلية
٣٠٧	اوان فرصة	٢٩٤	الإهتمام بمبدأ الفطرة
٣٠٧	ركيزة إطمئنان القلب	٢٩٤	حقيقة ثابتة
٣٠٨	قوة الإيمان	٢٩٥	إلهام إلهي
٣٠٩	حب النزاهة	٢٩٥	الضمير الأخلاقي
٣٠٩	إزالة الإضطراب	٢٩٥	دليل الخير والشر
٣١٠	التربية من دون إيمان	٢٩٦	الميل إلى الإيمان والأخلاق
٣١٠	وليد الصدفة	٢٩٧	عجز الطفل عن إدراك المجردات
٣١١	الطريق إلى السعادة الأبدية	٢٩٧	الدوافع الروحية لدى الشباب
٣١١	الأخلاق وتعارضها مع الأهواء النفسية	٢٩٨	بحثاً عن الحق
٣١٢	أفضل كفيل لتطبيق التعاليم	٢٩٨	نداء الحق والحقيقة
٣١٢	حدود التعاليم الإلهية	٢٩٩	السجاي الإنسانية
٣١٣	محو القيم الأخلاقية	٣٠٠	البلوغ والحس الديني
٣١٣	العدالة الهابطة	٣٠٠	نمىة الشخصية
٣١٤	هدم الأسس الأخلاقية	٣٠٠	سنون ما وراء الطبيعة

٣٢٨	حب الله
٣٢٨	الضمير الأخلاقي
٣٢٨	رسوخ الضمير
٣٢٩	الميل إلى المعرفة الدينية
٣٣٠	إرضاء الحس الديني
٣٣٠	أساس التربية في الإسلام
٣٣١	الدين السليم والدين العقيم
٣٣١	الشرك وعبادة الأصنام
٣٣٢	أزمة الشك
٣٣٣	التعاليم الراسخة
٣٣٣	أقوى عوامل الإنحطاط
٣٣٤	مكافحة الخرافات
٣٣٤	معيّار تفوق الإسلام
٣٣٥	تنمية الرغبات الدينية
٣٣٥	إحياء فطرة الإيمان
٣٣٦	القرآن والمخلوقات
٣٣٦	القرآن وصفات الله
٣٣٧	العقل المبدع
٣٣٧	الله - الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ
٣٣٨	الإله المحبوب
٣٣٨	أفضل النعم
٣٣٩	الدعوة على أساس الحب
٣٤٠	حب الله والتضحية
٣٤٠	الإحسان في سبيل الله
٣٤١	العبادة والدعاء
٣٤١	همزة الوصل بين المخلوق والخالق
٣٤٢	طاعة المحبوب
٣٤٢	ركيزة الإيمان

٣١٤	التربية على أساس الفطرة
٣١٥	إستغلال الحس الديني
٣١٥	تعديل الرغبات
٣١٥	إتباع قانون الفطرة
٣١٦	إحدى المشاكل الإجتماعية

المحاضرة الثالثة عشرة

٣١٨	تحديد غرائز الشاب
٣١٨	أحد أركان التمدّن
٣١٩	سبب الضياع والانحراف
٣١٩	وجهان متضاربان
٣٢٠	ضرورة تحديد الغرائز
٣٢٠	العقل وقياس الشهوات
٣٢١	طغيان الغرائز
٣٢١	عجز العقل
٣٢١	العلم شعلة منيرة
٣٢٢	العلم والأحاسيس
٣٢٢	التراجع عن النظرية العلمية
٣٢٣	التربية وتعديل الرغبات
٣٢٣	التربية والتعليم
٣٢٤	المدنية الظاهرية
٣٢٤	الشكوى من التمدّن
٣٢٥	عوامل ترويض الغرائز
٣٢٥	القوة المحركة للإنسان
٣٢٦	قوة الغرائز وضعف العقل والعلم
٣٢٦	توازن القوة
٣٢٧	كبح الغرائز
٣٢٧	قوة الحب

٣٥٦	إستحقاق الثواب والعقاب
٣٥٦	جيل الشباب والمشكلة الكبرى
٣٥٧	التكيف مع المحيط
٣٥٧	حس التفوق والأفضلية
٣٥٨	إكتساب القدرة والجاه
٣٥٨	ردّة فعل الشعور بالحقارة
٣٥٩	تلافي الحقارة
٣٥٩	تقليد الآخرين
٣٦٠	حب الشهرة والغرور
٣٦٠	تقليد الأبطال
٣٦٠	الرياضات الخطيرة
٣٦١	تقليد نجوم السينما
٣٦٢	عدم الإهتمام بحسن الخلق
٣٦٣	أخبار الصحف
٣٦٣	الإنحراف عن مسار الحياة
٣٦٣	مواقف عدائية
٣٦٤	عمل وحشي
٣٦٥	أفلام مضلّة
٣٦٥	الإنهيار وسوء السمعة
٣٦٦	الخيانة والسرقة
٣٦٦	الإستمتاع بالمغامرة
٣٦٧	دوافع الإجرام
٣٦٧	أسباب عقدة الإحتقار
٣٦٨	إنعكاسات الأفلام المضلّة
٣٦٨	قتل المذنبين
٣٦٩	التقليد الخاطيء
٣٦٩	الإستعدادات المتباينة
٣٧٠	الطل الأسطوري

٣٤٣	مضاعفة الحب
٣٤٣	رجاء الرحمة
٣٤٤	الإيمان والمرحلة الصعبة
٣٤٤	إرضاء أنانية الشاب
٣٤٤	مخالفة قانون الخلقة
٣٤٥	قصور العلم
٣٤٦	عدم الإهتمام بالحس الديني
٣٤٦	غرور الفتیان
٣٤٦	جرائم الشباب
٣٤٧	هبوط المستوى الأخلاقي
٣٤٧	التربية من دون إيمان
٣٤٨	الحضارة المزيفة
٣٤٨	محو القيم الأخلاقية
٣٤٩	التراجع الثقافي
٣٥٠	المجازر الوحشية
٣٥٠	الممارسات الوحشية
٣٥١	التصوّر الخاطيء
٣٥٢	الإسلام وغرائر الشاب
٣٥٢	أسمى الأحاسيس الدينية
٣٥٣	الإنسان الكامل
٣٥٣	تعديل الحس الديني
٣٥٣	الإعتدال في العبادة

المحاضرة الرابعة عشرة

٣٥٤	الشاب وحب الكبرياء والظهور ..
٣٥٤	حب الإستقلال وبناء الشخصية
٣٥٥	ميل الشاب للحرية
٣٥٥	قبول عضويته في المجتمع

٣٨١	مرحلة بروز الرغبات	٣٧٠	إستغلال القوى الطبيعية
٣٨٢	الشخصية الحرّة والمستقلة	٣٧١	الصفات الحميدة والشرف الرفيع
٣٨٢	على مفترق طريقين	٣٧١	أكرم الحسب
٣٨٢	التصميم على الإستقالة	٣٧٢	مشكلة الشباب
٣٨٣	التجرؤ على الله	٣٧٢	وسوسة الإحرام
٣٨٣	إعتزال الخلافة	مقاومة الغرائز وبيان الطبايع
٣٨٤	الشخصية المؤمنة	٣٧٣	والواجبات
المحاضرة الخامسة عشرة		٣٧٤	تحديد الرغبات
٣٨٥	توقّع الإحترام والتقدير	٣٧٤	السعي وراء الحرية
٣٨٥	الإنتاق من قيد الطفولة	٣٧٤	صعوبة المجاهدة
٣٨٦	الإختلاط بالناس	٣٧٥	إرساء قواعد الشخصية
٣٨٧	رغبة التحرّر	٣٧٥	عبيد الهوى
٣٨٧	نبذ اللجاجة والعدا	٢٧٥	الصراع مع الغرائز
٣٨٧	مسؤولية الآباء والأبناء	٣٧٦	البطل الحقيقي
٣٨٨	معارضة دون وعي	٣٧٦	أقوى من البطل
٣٨٨	قساوة دون مبرر	٣٧٦	حسن الصبر والثبات
٣٨٩	الفتيان المستبدون	٣٧٧	الخلاص من ذل المعصية
٣٨٩	معرفة الواجب	٣٧٧	إحراز الشخصية المعنوية
٣٩٠	الحقيقة الساطعة	٣٧٧	الإلتزام بمبادئ الأخلاق
٣٩٠	مرحلة ما قبل البلوغ	٣٧٨	مخاطر تحرّر الغرائز
٣٩١	مرحلة البلوغ والشباب	٣٧٨	طاعة هوى النفس
٣٩١	تقبّل المسؤولية	٣٧٨	حجاب الحقيقة
٣٩٢	وزير في بلاد الأسرة	٣٧٩	التصوّر الخاطيء
٣٩٢	تبادل الآراء	٣٧٩	تشخيص الصلاح والفساد
٣٩٢	الصداقه بين الأب والإبن الفتى	٣٧٩	البرهان الإلهي
٣٩٣	أثر التكريم والتقدير في نفس الفتى	٣٨٠	الإخلاص الحقيقي
٣٩٣	عدم إحترام الفتیان	٣٨٠	أثر التربية السليمة
		٣٨١	المؤدّب الكفوء

٤٠٥	الإعتراف الضمني	٣٩٤	خطر الإنحراف والسقوط
٤٠٥	نصائح قيّمة	٣٩٤	عدم الإهتمام بالفتى
٤٠٦	رفقة السوء	٣٩٥	تخبّط الشباب
٤٠٦	الانتقاد البناء	٣٩٥	التكيف مع المجتمع
٤٠٦	الإفراط في الملامة	٣٩٦	النمو العقلي للفتى
٤٠٧	تجنب تكرار العتب	٣٩٦	تذليل العقبات
٤٠٧	أفضل وسائل التربية	٣٩٧	منطق القوة
٤٠٨	عدم احترام الشاب	٣٩٨	منطق اللين
٤٠٨	فكرة الإنتقام	٣٩٨	الرغبة في إثبات الشخصية
٤٠٨	الأبوان وسوء المعاملة	٣٩٩	مراعاة عزّة النفس
٤٠٩	الشتم والسباب	٣٩٩	التشجيع والتوبيخ في غير محلّهما
٤٠٩	الأخذ بالثأر	٤٠٠	مرجع الشاب للتشاور
٤٠٩	قتل المتوكل	٤٠٠	الأبوان والشعور بالمسؤولية
٤١٠	الآباء المنبوذون	٤٠١	الإعتراف المرّ
٤١٠	مسؤولية الشباب	٤٠١	التربية بلغة الصداقة والمواظبة
٤١١	تجنب الإنتقام	٤٠٢	العظة والنصيحة
٤١١	نظرة ماقته	٤٠٣	الأب وواجب الأبوة
٤١١	الخصال لحميدة والخصال الذميمة	٤٠٣	منطق النصح
٤١٢	الشباب وفكر لم ينضج بعد	٤٠٣	تعاون الأب والإبن
٤١٢	خطر حبّ الدنيا	٤٠٣	طريقة الإستدلال
٤١٣	قبول النصيحة	٤٠٤	القابلية على التحليل
٤١٣	العقاب الإجتماعي	٤٠٤	